

من الظواهر العامّة في الاسلام

محمدعلي التسخيري


بسم الله الرحمن الرحيم

صفحه خالی

من الظواهر العامة في الاسلام



محمد علي التسخيري

سرشناسه : تسخيري، محمد علي
عنوان و نام پدیدآور : من الظواهر العامة في الاسلام/ محمد علي التسخيرى.
مشخصات نشر : تهران - المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الاسلامية، المعاونية الثقافية،
١٤٣٠ق. = ٢٠٠٩م.= ١٣٨٨.
مشخصات ظاهری : ٣٩٢ ص
شابک : ٤٠٠٠٠ ريال : ٧-٠١١-١٦٧-٩٦٤-٩٧٨
وضعیت فهرستنویسی : فيپا
یادداشت : کتابنامه به صورت زیر نویس.
یادداشت : عربی.
موضوع : اخلاق اجتماعی -- جنبه‌های مذهبی -- اسلام.
موضوع : اسلام و اجتماع.
موضوع : اخلاق اجتماعی -- جنبه‌های قرآنی .
شناسه افزوده : مجمع جهانی تقریب مذاهب اسلامی. معاونت فرهنگی
رده‌بندی کنگره : ١٣٨٨ ٩ظ٥ت/BP٢٥٤
رده‌بندی دیویی : ٢٩٧/٤٨٣
شماره کتابشناسی ملی: ٢٠٠٤٣ ـ ٨٤م



اسم الكتاب: من الظواهر العامة في الاسلام

المؤلف: محمد علي التسخيري

الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية ـ المعاونية الثقافية

الطبعة: الثانية، ١٤٣٠ هـ. ق ـ ٢٠٠٩م

الكمية: ١٠٠٠ نسخة

السعر: ٤٠٠٠٠ ريال

ردمك: ٧-٠١١-١٦٧-٩٦٤-٩٧٨ I SBN: 978-964 - 167 - 011 - 7

العنوان: الجمهورية الإسلامية في ايران / طهران - ص . ب : ٦٩٩٥ ـ ١٥٨٧٥

تلفكس: ٠٠٩٨-٢١-٨٨٣٢١٤١٢

جميع الحقوق محفوظة للناشر

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تلعب مسألة (دراسة من الظواهر العامة في الاسلام) الى جانب مسألة معرفة المقاصد الشرعية العامة دوراً هاماً في مجال المقارنة بين أهم الاتجاهات المذهبية القائمة اليوم.

كما تقومان بدور مهم جداً في تحديد المعالم العامة لهذه الشريعة وربما كان لهما دور حتى في عملية استنباط الاحكام من مصادرها الاصلية سواء من خلال توجيه ذهنية المجتهد المستنبط او من خلال إثارة التشكيك لديه في صحة ما توصل اليه اذا كان لا ينسجم مع هذه الظواهر العامة او تلك المقاصد الشرعية.

ومن هنا فنحن نعتقد ان معرفة هذه الظواهر يمكنها ان تشكل علماً مكملاً لعلم المقاصد الشرعية، ونافعاً في دفع عملية فهم الاسلام عقيدة وتشريعاً الى الامام.

بعد هذا نقول:

اننا نعتقد أن كل ما يتحلى به الاسلام من صفات وظواهر عامة انما ينبع من:

كونه الاطروحة الخاتمة للرسالات والتي امتنت بها الرحمة الإلهية على البشرية لتقوم بطي مسيرتها الكمالية وفق منهج خالد جامع يراعي الفطرة التي تميز الإنسان عن غيره من الاحياء ، كما يراعي الاشباع المتوازن العادل لكل حاجاته، ويضمن له كل حقوقه، ويحقق الانسجام الواقعي بينه وبين الكون كله.

ومن هنا فنحن ندّعي ان اهم الصفات التي يتحلى بها الاسلام هي (الواقعية) و(الفطرية) ومن هذه الخاصية تنبع الصفات الأخرى من قبيل: التوازن، والترابط، والمرونة، والاخلاقية والشمول، والعالمية وغيرها.

ولا نعني بالواقعية مفهومها السلبي والذي يتلخص في الاستسلام للواقع كما هو والاعتراف به وانما نعني المفهوم الايجابي له وهو ملاحظة الواقع الى جانب تصور الامكانات التكاملية التي يعبر عنها الفلاسفة بـ (اهداف الخلقة) والسعي لتفجير الطاقات الكامنة ليتغير الواقع باستمرار حتى تتحقق تلك الاهداف ويتحقق بها الكمال الإنساني المنشود.

وهذا المنهج كما يبعد الشريعة عن الاستسلام للواقع وتبريره، يجنبها الافراط في الخيال المجنح والطوبائية العقيمة.

ونود ان نشير – هنا – الى ان المذاهب الاسلامية لا تختلف مطلقاً حول خصائص الاسلام العامة وبالتالي يمكن ان تكون هذه الخصائص احدى النقاط التي يتجمع حولها المسلمون.

وسنركز في هذا الكتاب على بعض هذه الظواهر عسى ان يوفقنا الله تعالى لاكمالها في المستقبل، والله ولي التوفيق.

من الظواهر العامة في الإسلام

أولاً: الظاهرة الأخلاقية المحققة للعدالة والحقوق

ثانياً: ظاهرة الترابط والتعاون

ثالثاً: ظاهرة التوازن والوسطية

رابعاً: ظاهرة العالمية

خامساً: ظاهرة المرونة والتجديد

سادساً: ظاهرة إبقاء الأمل حيّاً

صفحه سفيد

أولاً : الظاهرة الأخلاقية
المحققة للعدالة والحقوق

صفحه سفيد

قبل كل شيء يجب أن نحدد ماذا نعني بالأخلاقية؟ ليتسنى لنا الحديث عن صلتها بروح الإسلام، وكيف تشكل الإطار الإسلامي لكل حكم وسلوك مفضل؟

إن الأخلاقية تعني – باختصار – ذلك الانسجام الكامل بين الفكرة والحكم، وبالتالي بين النظام وهدف الخلقة الإنسانية العام وما يقتضيه من قيم عملية ضرورية التحقق حتى يتم تأمين ذلك الهدف.

وهكذا يكون النظام أخلاقياً إذا كان يستمد غاياته من ذلك الهدف وتلك القيم المتفرعة منه، ويركّز – من حيث الطريقة – على الغور إلى الأعماق النفسية وتجلية الدوافع الفطرية، وبناء الداخل الإنساني وفقاً لتلك الغايات.

ولن يكون أي نظام متمتعاً بهذه الصفة إذا كان يستمد غاياته من ظروف بعيدة عن الإنسان وهدف خلقته.

هذا في مجال الغايات، والكلام نفسه يقال في السبل التي تسلكها النظم لتحقيق غاياتها.

وهذه الحقيقة تسوقنا إلى الحديث عن الصلة بين الهدف والتركيبة الإنسانية، ذلك أننا نؤمن على ضوء التأمل الوجداني الواعي في الأنفس والآفاق، وعلى أساس من نظرة الإسلام الأصيلة للنفس الإنسانية والنصوص الكريمة الناظرة الى هذا المجال، نؤمن (بنظرية الفطرة الإنسانية الاصيلة) التي تحدد هوية الإنسان وتفصله عن غيره أما الدين فيعمل على جلاء الفطرة لتعود إلى صفائها، ويوضح لها ما تجهله من الحقائق الهائلة، ويعبد لها الطريق نحو هدفها بعد توضيحه لها ورسمه أمامها بكل جلاء.

إن الأخلاق تستقي ثباتها وأسسها وأضواءها من الفطرة، وكل ادعاء خلقي ينفي

هذا الثبات في المعايير وهذا الرسوخ في الفطرة، إنما هو ادعاء فارغ ودعاية للتصريف المحلي والتمويه على الآخرين.

وقبل الحديث عن أخلاقية النظام الإسلامي المقام في أي مجتمع، ينبغي الحديث عن الأرضية التي يوجدها الإسلام في المجتمع ليكون مؤهلاً للتطبيق الإسلامي الجيد. ومثل هذا المجتمع لابد وأن تتوفر فيه العناصر التالية:

الأول: العقيدة المتأصلة في النفوس والمتعدية من مجال الإيمان المنطقي إلى مجال توجيه الوجود الإنساني كله.

الثاني: الرؤى والمفاهيم التي تستمد معالمها من العقيدة وتصب مباشرة في السلوك الإنساني.

الثالث: العواطف المنسجمة كل الانسجام مع العقيدة والمفاهيم.

فإذا كان المجتمع المتهيئ لتطبيق الأطروحة الإسلامية بهذا النحو، فإن ذلك يعني أن الترابط الأخلاقي – بالمعنى الذي طرحناه – يسود كل الحياة الفردية والاجتماعية ويشكل روحها وإطارها بلا ريب. ويتأكد هذا المعنى عندما نؤمن بحقيقة الترابط التام بين كل أجزاء الأطروحة، فإن هذا الترابط يعني أن أي بلورة لأي جانب يتم على ضوء المسيرة المجموعية نحو الهدف الكبير تماماً؛ كما نعتقد بأن أي حركة في هذا الكون الرحيب تترك أثرها على كل المجموعة الكونية الهائلة من خلال هذا الترابط التكويني المشهود والمبرهن. وهذا الترابط الهادف بين أجزاء الأطروحة وهذا الانسجام بينها وبين الهدف هو الذي أهل الإسلام ليكون دين الفطرة والقيم على كل الحياة.

بعد هذه الحقائق نجد أنه ليس من الضروري أن نستعرض مفردات النظام الإسلامي كلها حتى نكتشف مظاهر هذه الروح الأخلاقية فيها، فيكفي أن نلقي نظرة على بعض العينات لنطمئن إليها.

وكمثال على ذلك نقول: إننا نلاحظ تركيز الإسلام القوي على نظامين رئيسين قبل غيرهما معبراً بذلك عن اتجاهه الأخلاقي هذا، وهما: نظام العبادات، والنظام الأخلاقي والتربوي، معتبراً إياهما أساس الحياة الإسلامية وقوامها.

فالصلاة –كما تصفها النصوص – عمود الدين، إن قبلت قبل ماسواها، وإن ردت رد ماسواها. ومكارم الأخلاق وتركيزها في المجتمع تبلغ من القيمة حداً يجعلها هدف البعثة النبوية الشريفة بل يصل الأمر إلى طرح هذه المعادلة (الدين = الأخلاق).

وإذا طالعنا بعض أهداف نظام العبادات وجدناه نظام التربية الخلقية بعينه فهو يستهدف – من جملة ما يستهدف – إشباع الحاجة الفردية والحضارية الإنسانية إلى الارتباط بالوجود المطلق بأفضل وجه، والحاجة الحضارية إلى الإحساس الذاتي بالمسؤولية الآنية والتاريخية كضمان للتنفيذ، وبالتالي فهو يستهدف إشباع حاجة الإنسان الدائمة للتذكير بالحقيقة وإنقاذه من مرض الخمول في الطاقة الإيمانية، والتقاعس عن الفاعلية الحضارية نتيجة نمط من أنماط التخلف (العقلي، النظامي: الفردي و..).

وحتى العبادات المالية نجدها تسير على هذا المنوال أروع سير، إذ إنها تستهدف الكمال الإنساني كغاية لا محيد عنها فدافع الزكاة لن يقبل منه عمله إلا إذا قصد التقرب إلى الله، والجابي لها يرغب في الدعاء للدافع ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[١].

إن الشمولية في العبادة تعطينا معنى الشمولية الأخلاقية في الإسلام وتركز في ذهن الإنسان أن يعيش لله دائماً: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢] (وفي رواية: من وصايا رسول الله(ص) لأبي ذر، يا أبا ذر، إن استطعت أن لا تأكل ولا تشرب إلا لله فافعل)[٣].

وقد ورد عن الامام الصادق(ع) قوله: «ما كان عبد ليحبس نفسه على الله الا ادخله الله الجنة»[٤].

---

١ – التوبة: ١٠٣.

٢ – الانعام: ١٦٢

٣ – نقلاً عن الفتاوى الواضحة ، ص ٦١٣، وراجع: ص ١٠٨.

٤ – امالي الشيخ المفيد، ص ٤٠٠.

إن النظام الأخلاقي في الإسلام يتحلى بالصفة الواقعية، بعيداً عن التطرف الذهني والخيال المتصوف، والرياضات الباطلة، ويعلن قبوله بمبدأ حب الذات (النفس) أولاً ويستجيب لكثير من متطلباتها وأهمها (الحرية) ثانياً، إلا أنه يضع مخططاً تربوياً دقيقاً نلخصه بالخطوات التالية ولا يشترط فيها أن تأتي بالترتيب:

أولاً: يبدأ قبل كل شيء بتعيين مركز الإنسان من الكون. فقد خلقه الله تعالى ليعمر الأرض من خلال ممارسة حياة اجتماعية طويلة، ووضع له تشريعاً في سبيل ذلك.

ثانياً: وعلى ضوء الخطوة الأولى ينمّي في المسلم حب الله تعالى حتى يصل إلى الحد الذي يضحي بذاته في سبيله تعالى.

ثالثاً: ثم يربط بين التقرب إلى الله والحياة الاجتماعية، ليكون سبيل الله يعني سبيل العمل لصالح الرسالة، وتحقيق رضا الله في الأرض ونشر تعاليمه بين الناس، وفي خدمة المؤمنين ورفع أدوائهم ونقائصهم، وإشاعة الأخلاق الحسنة، بالإضافة إلى التكامل الفردي: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ...﴾[1].

﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾[2].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ﴾[3].

وهكذا يرتبط سبيل الله بخدمة المجتمع خدمة يأذن بها الله ويراها لصالحه.

رابعاً: وعلى ضوء الخطوة الثالثة، يبدأ الإسلام بتربية أخلاقية طويلة المدى، من خلال نظم عديدة (كنظام العبادات، والنظام التربوي والأخلاقي، ونظام الأسرة، وغيرها) وكلها تؤكد على تنمية الحس الاجتماعي، وتعمل على تربية الوجدان والضمير الأخلاقي في الإنسان، وتركز على أن يرتبط بعلاقات مودة كبرى مع مجتمعه المؤمن خاصة، ومع مجتمعه الإنساني عامة.

---

١ - البقرة: ٢٤٥.

٢ - البقرة: ١٥٤.

٣ - البقرة: ٢١٨.

خامساً: وبعد هذا يعمل على أن يذكر الإنسان بالثغرات التي تنفذ عبرها غريزة حب الذات فتنمي نفسها وتطغى، وكمثل على ذلك: نلاحظ موقف الإسلام من كل من عنصري الغفلة والتكبر، وهما منفذان كبيران للذاتية.

سادساً: ومع كل هذا يأتي دور أصيل يشكل نقطة الحل الرئيسة، وهو الدور الذي يجعل المسألة الفردية والمسألة الاجتماعية أمراً واحداً، وذلك بتركيز الاعتقاد بالآخرة، وإعطاء صورة واضحة عنها. وحينذاك، فالذات الإنسانية واحدة في كلا الحالين، وعندها يكون التنازل البسيط المؤقت في هذه الحياة القصيرة عن اللذات لصالح المجتمع الذي يحبه، ولصالح رقي الإنسانية وهو عضو منها، موجباً لإشباع النفس والذات عينها بأسمى أنواع الإشباع بدخولها جنة الخلد والرضا، وخلاصها من عذاب الخلد في النيران.

وقد كانت الآيات الشريفة دقيقة غاية الدقّة عندما ضربت على وتر إشباع الذات إشباعاً خالداً في قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾[٢].

وهكذا يتحول العمل الصالح لصالح المجتمع الى عمل لصالح النفس في الوقت نفسه. ويكون المتاع الدنيوي المنحرف ظلماً وبغياً على النفس:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٣].

فالنفس تباع في الدين لله وللرسول وللمؤمنين ليعوض عنها بالجنة:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[٤].

وما أكثر الآيات والأحاديث الواردة في هذا المعنى، وكلها تنتج هذا الحل الوحيد

---

١ - الزخرف: ٧١.

٢ - المزمل: ٢٠.

٣ - يونس: ٢٣.

٤ - التوبة: ١١١.

للمشكلة الاجتماعية المستعصية. فلا يبقى – والحال هذه – إلا طريق الإسلام المتوازن تماماً فحسب.

وعندما نرى النظم الإسلامية الأخرى نجد الجانب الأخلاقي متجلياً فيها بشكل أساس. فالنظام الاقتصادي الإسلامي يجسّد الصفتين الآنفتين: (الأخلاقية والواقعية) تمام التجسّد في غاياته وفي وسائله.

إنه لا يضمن العامل لأنه أداة إنتاج إذا أصيب أصيب الإنتاج نفسه، وإنما يضمنه لأنه إنسان قدر أن يعمل أم لا.

وإنه عندما يريد تقسيم الربح لا يجعل الإنسان إلى جانب الحجر وإنما يعتبر أدوات الإنتاج خادمة للإنسان. وإنه عندما يضع خطته التنظيمية يجعل (العدالة الاجتماعية) أحد أكبر الأهداف الاقتصادية للفرد والدولة ويعمل على تحقيق التوازن في مستوى المعيشة بين الأفراد، دونما توجيه أية ضربة للدوافع الذاتية، لتؤدي دورها الاقتصادي المطلوب.

والنظام الحقوقي في الإسلام يسعى ليستلهم الحقوق الفطرية الإنسانية ويعكسها على الصعيد التشريعي معادلاً بين الحقوق والواجبات ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[١].

والنظام الجنائي أيضاً يمتاز بهذه الصفة الأخلاقية التي تميزه تماماً عن باقي النظم الأخرى.

إن الإسلام ينظر لكل ما يخالف التكامل الروحي للإنسان باعتباره جريمة يعاقب عليها عقاباً دنيوياً كالحنث باليمين والخيانة، أو يوكل أمر العقاب إلى الآخرة كما في الغيبة والنميمة والحسد والحقد، وعدم رد السلام والتكبر وأمثال ذلك، بالإضافة إلى إمكان تصور التعزير الدنيوي على هذه المعاصي.

هذا بالإضافة إلى اعتباره الجرائم التي تمس المسيرة الاجتماعية الصحيحة جرائم

---

١ – البقرة:٢٢٨.

أخلاقية حتى في حالة عدم التضرر الاجتماعي بها – ظاهراً – كما في مسائل شرب الخمر، والاستمناء وأمثالهما.

هذا في حين تعجز القوانين الوضعية عن علاج هذه الأمراض الأخلاقية لأنها لا تقع تحت سلطتها بل ربما لأنها لا تأبه بها. وكثيراً ما تقع هذه القوانين فريسة الضعف البشري والذوق العام، وهي غالباً ما تخدم الطبقات الحاكمة فتبشر بأخلاقها، وهو ما وجدناه من التدني الأخلاقي في المجتمعات الوضعية القائمة.

ولا نرانا بعد هذا بحاجة لاستعراض باقي النظم الإسلامية كالنظام الاجتماعي المعتمد على أساس (الوحدة العائلية المتوازنة)، والنظام التعاملي وغيرهما فإن في ما ذكر الكفاية كما نعتقد.

من ملامح الحياة المعنوية في الاسلام

من كل ما مر وكذلك من مراجعة مجمل الأسس والمظاهر الأخلاقية في الإسلام نستنتج الظواهر التالية:

أولاً: إن الأخلاقية الإسلامية تشمل الحياة كلها، والإنسان المسلم المثالي هو الأخلاقي المثالي في كل وجوده وسلوكه.

ثانياً: إن الأخلاقية الإسلامية ليست أخلاقية انعزالية عن الحياة والملذات، وإنما هي أخلاقية الانهماك في العمل الاجتماعي بروح زاكية مع امتلاك ملكة (الزهد) والقدرة على التحرر من الأسر المادي الوضيع إذا تطلب الموقف ذلك.

ثالثاً: إن معاييرنا الأخلاقية مستمدة من عقيدتنا، وحينئذٍفانه مهما امتدت العقيدة امتدت هذه المعايير، فلا تتأثر بالأبعاد الجسمية، ولا العرقية، ولا المادية، وما إلى ذلك، وهي بالتالي تصلح لأن تكون معايير إنسانية كاملة.

رابعاً: إن الأخلاقية الإسلامية ليست سطحية عارضة، وإنما هي تتعامل مع الفطرة وتستمد منها مسوغاتها وتعمل على تجليتها وإسراء مفعولها إلى كل أنماط السلوك.

خامساً: إن أخلاقيتنا ليست منافية للتغير المادي والرفاه البدني بل هي متلاحمة معه لصنع أهداف معنوية سامية.

سادساً: إن أخلاقيتنا لا تتعامل مع الخيال المفرط وليست طوبائية النظرة، وإنما هي واقعية قائمة على أساس من علم إلهي بالواقع الإنساني والواقع الكوني والعلاقة بينهما، وتقدير دقيق لهدف الخلقة الإنسانية. ولذا فهي تتجنب أي تخدير كاذب وتسعى للرقي المعنوي الحقيقي.

سابعاً: إن الأخلاقية الإسلامية لم تطرح أهدافاً ومبادئ عليا تاركة إياها دونما تفصيل لها ولكيفية تحقيقها، وإنما هي إذ تطرح مفهوم العدالة مثلاً تعطي التخطيط الكامل لها وللأساليب العملية التي يتم تحقيقها بها، وعندما تطرح فكرة تزكية النفس تعطي البرنامج العملي الدقيق الذي يحققها لئلا ينحرف السبيل بالإنسان عن الهدف الأسمى.

ثامناً: إن أخلاقيتنا ليست أخلاقية مصلحية، أي ترعى مصالح الذات الضيقة، وأنما هي أخلاقية إنسانية ترمق الهدف العام كله وتحاول أن تنسق كل أجزاء المسيرة مع هذا الهدف.

تاسعاً: إن أخلاقيتنا أخلاقية متوازنة، فلا هي بالتي تفني الفرد تحت عجلات المصلحة الاجتماعية العليا، ولا هي بالتي تسمح للفرد أن يسحق المصالح الاجتماعية، وإنما هي تحاول إيجاد توفيق او تلاحم بين المصلحتين، فلا يحس الفرد العامل لذاته أنه منفصل عن العمل لمجتمعه.

عاشراً: وبالتالي فإن الأخلاقية الإسلامية ليست مقطعية تنطفئ عندما تصل إلى حد معين، وإنما هي برنامج تكامل إنساني لا ينقطع لأنه يسير إلى الله تعالى، وهو جل وعلا الكمال الذي يتسامى فوق كل عروج.

هذه هي بعض ملامح الحياة المعنوية في الإسلام وهي تعبر كما قلنا عن نظرة واقعية للانسان.

نفي الشبهات حول الواقعية الإسلامية

أشرنا في ما مضى إلى ما يدفع بعض الشبهات المطروحة، ونريد أن نضيف إلى ماسبق أن العناصر المعادية للإسلام تسعى – بشكل طبيعي – لتحويل عناصر القوة فيه إلى عناصر ضعف وتشكيك، الأمر الذي يحقق لها مأربها في ضعف الوازع الديني لدى المسلمين إلا أن الشبهات مهما كانت مزوقة لن تصمد بوجه الحقيقة الناصعة.

فمن الشبهات التي أثيرت هنا مايلي:

أولاً: إن الإسلام بتقريره نظاماً شاملاً لمختلف جوانب الحياة وتأكيده على ضرورة تطبيقه في كل العصور يؤدي بالإنسان إلى الجمود وعدم التطوير فهو إذن يقيد حركة التطور الإنساني.

ثانياً: إن الإسلام إذ يعترف بالواقع يستسلم له ولا يعمل على تطويره نحو الأفضل.

ثالثاً: إن الإسلام من خلال مرونته أقر بنوع من الميوعة النظامية وهو أمر لا ينسجم مع طبيعة النظام التي يجب أن تقف أحياناً بكل صلابة أمام الانحراف.

والحقيقة هي ما أشرنا إليه من قبل من أن الإنسان يمتلك جوانب ثابتة في حياته لا تتغير باختلاف الظروف كما يمتلك علاقات تتأثر بالظروف المختلفة.

فإنسانية الإنسان وفطرته، وعلاقة الإنسان بخالقه، والأخلاق الإنسانية والعلاقات التكوينية مع الموجودات الأخرى، وأصول العلاقات الاجتماعية، كالعلاقة العائلية، ونشر مبدأ العدالة والتعاون والرحمة وأمثال ذلك، هي أمور في أصولها ثابتة لا تتغير إلا بتغير الإنسان نفسه إلى موجود آخر، ولذا فإن النظم التي تتعامل مع هذه الجوانب يجب أن تكون ثابتة في حين تكون النظم التي تتعامل مع العلاقات المتغيرة نظماً مرنة تستوعب مختلف الظروف دون أن تفقد أسسها النظامية.

وعليه فلا معنى لوصف النظام الذي يلحظ الواقع ويخطط له بدقة بالجمود أو الميوعة أو التسليم للواقع كيف ونحن نجد الإسلام يحرك في الإنسان كل عناصر التطوير والتغيير في الجوانب القابلة له.

إنه يحرك وينظم ويدفع قواه العقلية للسير في الأرض وأستكناه المجهول، والتفوق على مصاعب الطبيعة، وشكر النعم الإلهية باكتشافها، والاستفادة الأفضل منها، وأعمار الأرض، وعدم إهدار القوى الطبيعية، وعدم التبذير أو الإسراف فيها، فإذا تخلف عن ذلك عاد مظلوماً كفاراً.

والتاريخ نفسه يشهد لهذه الأمة أنها طورت الحضارة إلى أسمى مراتبها ولكنها فقدت دورها الحضاري عندما فقدت التزامها بالإسلام وأصوله.

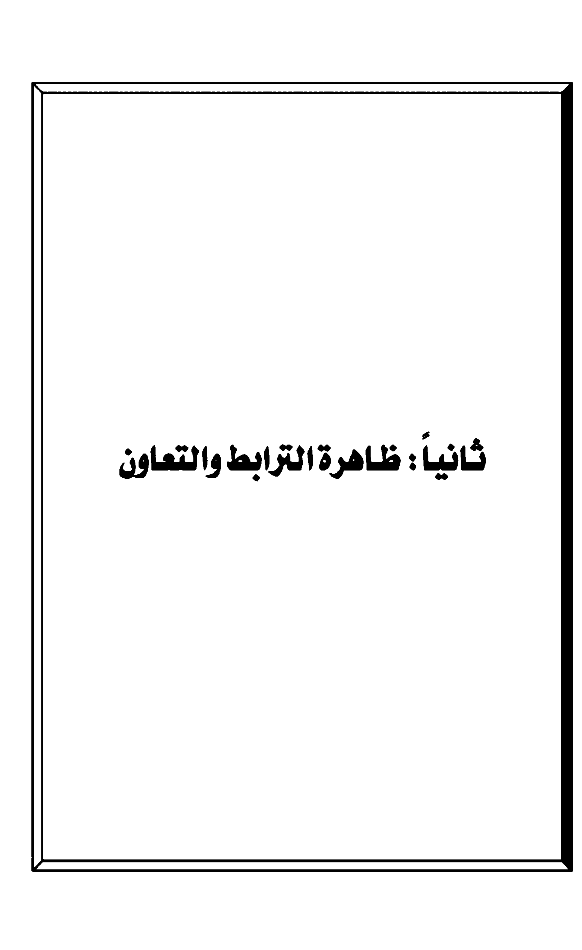
ملاحظتان:

الاولى: من هذه الظاهرة تنطلق فكرة تركيز الإسلام على العدالة عموماً والعدالة الاجتماعية بالخصوص لان العدالة تمتلك جذوراً فطرية أخلاقية، وتشكل قيمة مطلقة بحيث لا تبقي لاي سلوك يعارضها قيمة حتى ولو كان فيه ابتداءً مقتضى الحسن –كما يقال– وتوجد هنا بحوث مفصلة تراجع في مظانها.

الثانية: ومن هنا تأتي فكرة احترام الإسلام لحقوق الإنسان بأروع أسلوب واشمله[1].

---

١ - يراجع بحثنا حول الموضوع في كتاب (حول الدستور الاسلامي الايراني)، شرح المادة الثالثة.



ثانياً : ظاهرة الترابط والتعاون

صفحه سفيد

لما كان الوجدان يشهد بوجود نظام كوني متـرابط تجـب ملاحظتـه عنـد محاولـة التخطيط لبناء الإنسان فاننا نحاول في مايلي التدرج في عرض التـرابط –مـن وجهـة نظر الإسلام – على النحو التالي:

أـ الترابط الكوني من وجهة نظر الإسلام.

ب – الترابط بين مكوّنات الإسلام.

ج – الترابط بين قطاعات الأمة المسلمة وأفرادها.

أ. الترابط الكوني من وجهة نظر الإسلام

إذا كان التعريف الأحدث للفلسفة يصورها على أنها «عملية تحديد موقـف» فـإن الإسلام يمنح الإنسان أروع فلسفة كونية، وأركز تحديد موقف له من الواقع، وإذا كانت فلسفة هيجل (المثالية جوهراً والواقعية ظاهراً) تدَّعي الترابط على ضـوء خلطهـا بـين عالم الذهن وعالم الواقع، وإذا كانت الفلسفة الماركـسية تـدَّعي لنفـسها أنهـا اكتـشفت «الترابط الكوني، في ظل قوانين المادية الديالكتيكية، التي كانت تتصيد لها مـن التـاريخ وبعض القوانين العلمية والآراء الفلسفية ما يقوم دليلاً علـى مـدعاها ولكنـها تفـشل فشلاً ذريعاً في ذلك وعلى كل الأصعدة» نعـم إذا كانـت هاتـان الفلـسفتان تكـشفان الترابط في جزء من الكون كشفاً مهزوزاً، فإن الإسـلام في نظرتـه العامـة يحـق لـه أن يعرض الترابط ليس بين كل أجزاء هذا الكون المادي المحسوس فحسب، بـل بـين كـل أجزاء الكون «الطبيعة وما فوقها» ليكون الكون كله مرتبطاً تمام الارتباط فيما بينـه في

نفسه وبالله خالقه العظيم، وهذا التصور الشامل ينسجم تمام الانسجام مع تطلعات الفطرة الإنسانية ومع المنطق الموحد الذي يثبته الإسلام وتهدي إليه الفطرة الإنسانية.

بين الكون والله

يردد المسلم في مطلع كل أمر يقوم به، وفي مطلع كل سورة يتبرك بقراءتها عبارة جميلة رائعة المدلول هي عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» ولئن كان متعلق الجار والمجرور فيها محذوفاً؛ فإنه يشكل تعبيراً حيا عن إطلاق المتعلق؛ وهو يعني أن كل شيء على الإطلاق قائم باسمه تعالى متعلق به ومرتبط به ارتباطاً وثيقاً، بل إن وجود كل الكائنات لا يتجاوز كونه وجوداً تعلقياً، أي هو التعلق والارتباط بعينه وهو لا شيء مع زوال الارتباط.. ولئن جاء الوصفان الرائعان «الرحمن الرحيم» فلكي يعبّرا عن إطار صدور كل الكائنات وانبثاقها منه وباسمه ضمن إطار الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء. وهذا الإطلاق في القدرة والرحمة والخلق والقيمومة تعرضه لنا آيات قرآنية كريمة منها؛ قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ، وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى، فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى﴾[١] ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٢]. ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٣].

---

١ - الأعلى: ١ – ٥.

٢ - الأعراف : ٥٤.

٣ - آل عمران: ٢٦ - ٢٧

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ. أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[١].

الترابط بين عالم الغيب وعالم الشهادة

إنّ الإسلام ركّز في خلد المسلم هذا الترابط بأساليب مختلفة، فالمسلم يعتقد بأن القوانين المؤثرة في الكون لا تختص بالقوانين المادية أبداً. فالاستغفار والتوبة وصلة الرحم والصدقة واتباع الحق والإيمان كل ذلك مؤثر في عالم الطبيعة تمام التأثير. يقول هود عليه السلام مخاطباً قومه...

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾[٢]. وبنفس هذا المضمون يخاطب نوح قومه، وعلى هذا الأساس يقوم جزء واسع من التشريع الإسلامي.

ولا ننسى أن نشير إلى أنّ أعظم ترابط واقعي حياتي يندرج في هذا الإطار وهو الترابط بين عالم الدنيا وعالم الآخرة إلى الحد الذي يعيّن الأول طبيعة الثاني تماماً.

بين المخلوقات أنفسها

وعلى أساس من ذلك الارتباط القويم للمخلوقات بالله تعالى قام الارتباط التبعي بين الموجودات كلها.. فهي كلها مسخّرة بأمره. وهي كلها تسبّحه تعالى من موجودات شاعرة وغيرها.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٣].

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾[٤].

---

١ – الشورى: ٤٩ – ٥٠.

٢ – هود: ٥٢.

٣ – الحديد: ١ .

٤ – الرعد : ١٣.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[١].

والشيء الرائع في التصور الإسلامي لهذا الترابط هو هذا التسخير الكامل لصالح الإنسان باعتباره الموجود الأروع والقابل لأن يكون خليفة الله في الأرض، وليكون الهدف الأسمى الذي سخرت له الموجودات لكي يواصل مسيرته نحو الكمال.

وهذه الحقيقة واضحة في الآيات التالية:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[٢].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[٣].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ، وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[٤].

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا، وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا، وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾[٥].

وعلى ضوء التسخير الطبيعي لصالح الإنسان تنقلب نظرته للطبيعة من عدو ينبغي الصراع معه وانتزاع القوت منه انتزاعاً إلى عملية استئناس بها وقيام على أعمارها وإحيائها يؤطّر ذلك حبٌّ طبيعي عبَّر عنه النبي(ص) عند رجوعه من غزوة تبوك، وأشرف على المدينة فقال: «هذه طابة، وهذا جبل أحد، يحبنا ونحبه»[٦].

---

١ - الإسراء: ٤٤.

٢ - لقمان: ٢٠ .

٣ - الجاثية: ١٣.

٤ - ابراهيم: ٣٢ – ٣٣.

٥ - النبأ: ٧ – ١٥ .

٦ - سفينة البحار، بحار الانوار، ج٢١، ص ٣٤٨، صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٣٦، مسند احمد، ج٥ ص٤٢٤، وهكذا رواه مسلم والبيهقي وابن حجر وغيرهم كثير.

بين أبناء الإنسانية

وهنا تقوم الروابط على أساس قويمة من وحدة المنطلق، ووحدة الشعور الواعي، ووحدة الهدف. فالكلُّ خلق الله، والكلُّ من نفس واحدة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[١].

والكل يمثلون الموجود المكرَّم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[٢].

وما كان هذا الاختلاف بين الطوائف الإنسانية إلاّ للتعارف:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[٣].

فلا مسوِّغ لأيٍّ تعالٍ عنصري لوني أو جنسي أو مكاني أو نسبي أو غير ذلك ما دامت تلك الوحدة قائمة، بل ان المجال الأصيل للتفاضل هو التقوى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٤].

وهكذا تقوم وحدة إنسانية كبرى تؤسِّسها هذه النظرة الأخوية الشاملة، وتعبِّر عنها آيات كريمة منها:

﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٥].

وعلى هذا الأساس جاءت التعليمات السامية ومنها ما في هذه الآية المباركة:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٦].

---

١ – النساء: ١ .
٢ – الإسراء: ٧٠.
٣ – الحجرات: ١٣ .
٤ – الحجرات: ١٣.
٥ – الممتحنة: ٨ .
٦ – المائدة: ٣٢ .

والآية المباركة: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[١]. وغير ذلك من الآيات.

وكان الرسول(ص) يقول: في كل ذات كبد حرّى أجر[٢].

ومن هنا يكتب الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى عامله على مصر الأشتر النخعي قائلاً له:

«وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللُطف بهم، ولا تكونَنَّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنّهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين ، وإما نظير لك في الخلق...»[٣].

وقد راينا بعض الفقهاء يرخصون في اطعام كل جائع من لحوم الاضاحي في الحج استناداً لما ورد بسند معتبر عن الامام الصادق(ع) ان علي بن الحسين(ع) كان يطعم من ذبيحته الحرورية وكانوا ممن يعادون علياً[٤].

الروابط الداخلية

وإذا تجاوزنا الروابط العامة بين أبناء الإنسانية نصل إلى مراحل أخرى للترابط هي أضيق من سابقتها: كالترابط الوثيق القائم بين الرجل والمرأة من حيث وحدة الأصل، ومن حيث وحدة القدر عند الله، وتكافؤ الفرص في العمل في سبيل التكامل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء﴾[٥] و ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا

---

١ - المائدة: ٨ .

٢ - صحيح البخاري، باب المساقاة، ابن ماجة، ج٢، ص ١٢١٥، وغيرهما، كما روي في البحار، ج٧١، ص٣٧٠.

٣ - نهج البلاغة، ٤٢٧، تحف العقول، ص ١٢٦، نهج السعادة، ج٥، ص٦٠.

٤ - موجز احكام الحج للشهيد الصدر، ص ١٦٠، تهذيب الاحكام، ج٥ ص ٤٨٤، من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٤٩٣، الوسائل، ج١٤، ص ١٦٢.

٥ - النساء: ١.

وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[١] و﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾[٢] وكذلك الترابط القائم بين الأباء والأبناء وغير ذلك.

أما الترابط بين أبناء العقيدة الواحدة فهو ترابط وثيق سنتحدث عنه في القسم الثالث من هذا البحث إن شاء الله.

ب- الترابط بين مكونات الإسلام:

استعرضنا مظاهر الترابط العام في تصور الإنسان المسلم بين موجودات الكون وها نحن هنا نتعرض باختصار إلى الترابط الداخلي في الإسلام (أي بين جوانبه المختلفة).

أن من يدرس الإسلام بعمق ثم يلقي نظرة تجريدية عليه يجد أن الإسلام تصميم هندسي متكامل، يرتبط كل جزء فيه بالجزء الآخر، ويحتل كل عضو فيه محله الطبيعي، ولا يستطيع أيّ جانب أن يؤدي دوره المطلوب على الوجه الأكمل إلا في ظل الصيغة العامة للكلّ. وتشكل العقيدة الأساس الرصين الذي يشع روحاً في كلّ الأبنية الفوقية، والتمهيد اللازم للأرضية الصالحة تماماً للأشكال العلوية. ذلك أن العقيدة الإسلامية تبتني عليها طائفة كبيرة من التصورات الإسلامية عن مختلف الشؤون الحياتية تدعى «المفاهيم الإسلامية» وهي بدورها تشكل أساساً لمجموعة من العواطف الإسلامية.

ويمثل الشهيد آية الله الصدر لهذا الترابط فيقول:

«ففي ظل عقيدة التوحيد ينشأ المفهوم الإسلامي عن التقوى القائل: إن التقوى هي ميزان الكرامة والتفاضل بين أفراد الإنسان، وتتولد عن هذا المفهوم عاطفة إسلامية بالنسبة للتقوى والمتقين وهي عاطفة الإجلال والاحترام»[٣]. وكذلك يمكننا أن نقيم مختلف فروع الأخلاقية الإسلامية على أسس تصورية تنشأ في ظل العقيدة الإسلامية.

---

١ – الروم: ٢١ .

٢ – آل عمران: ١٩٥.

٣ – اقتصادنا ١ : ٢٧١ .

فالتضحية مثلاً يمكن أن تبنى على أساس مفهوم الجزاء الأوفى المبني على عقيدة المعاد وهكذا.

والعقيدة والمفاهيم والعواطف الواعية تشكل كلُّها الأرضية الصالحة للمذهب الاجتماعي الإسلامي في الحياة.

أمثلة من الترابط بين المكونات

وها نحن نذكر بعض أوجه الترابط –على نحو الإجمال –

١ـ الارتباط بين النظام السياسي ودور الحاكم الشرعي (الإمام المعصوم أو الولي الفقيه)، وبين التشريع الاقتصادي وذلك لكي يقوم بملء منطقة الفراغ المتروكة له على ضوء الظروف المتطورة ووفق القواعد العامة، وكذلك الارتباط بينهما وبين النظام الجنائي والسياسة المالية للدولة.

٢– ارتباط النظام الاقتصادي بمجموعة من العواطف التي يصوغها الإسلام في نظامه الأخلاقي: كعاطفة الأخوة العامة.

٣– ارتباط مختلف المذاهب الاجتماعية بالعقيدة الإسلامية وتأثيرها الكبير في تنفيذ تلك التشريعات والالتزام بها.

٤– ارتباط إلغاء الربا بأحكام الإسلام الأخرى في المضاربة والتكافل العام والتوازن الاجتماعي. وغير ذلك.

٥– الترابط بين النظم الاجتماعية والنظام الاقتصادي ونظام العبادات ونظام العقوبات وغيرها.

ج – الترابط بين قطاعات الأمة المسلمة وأفرادها:

وانطلاقاً من واقعية الإسلام التي رأى فيها أنَّ النظم المتعددة لن تستطيع أن تقود الإنسانية إلى هدفها الكمالي المنشود، وأن التعدد الشعوري والتعدّد في المقاييس لن يستطيعا مطلقاً أن ينسجما مع الهدف الواحد الذي أراده الله للإنسان وإلاّ فالحروب

متوقعة، والمصالح متحكمة، ولا مخلص ولا مناص، وانعكاساً لذلك الترابط العام في التصور والتشرع فقد دعا الإسلام إلى تكوين الأمة المسلمة الواحدة التي يفترض فيها أن تضم كل الأرض وتوجه كل الأرض وتمحو كل العناصر المعادية للبشرية والمثيرة للفتنة والمانعة من تكامل الإنسان ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]، فهي الأمة النموذجية قبل الانتصار الكامل، وهي واسطة العقد الاجتماعي، وهي الشاهد على كل الأمم، وبعد الانتصار هي الأمّة المسلمة التي تعمل على أن تصل إلى أكمل الدرجات من خلال تطبيق تعاليم الاسلام الخالد.

وعلى هذا كان الترابط الحقيقي هو المقوِّم التالي من مقوِّمات الأمة الإسلامية بعد الإيمان العميق النافذ إلى المشاعر. فإذا فقدت الأمة إيمانها النافذ؛ فقدت شخصيتها، وكذلك إذا فقدت ترابطها؛ فقدت شخصيتها المميزة لها والتي عملت في فترة التطبيق الإسلامي الأول على إذابة كل الفروق المصطنعة بين المسلمين، وشدَّتهم إلى بعضهم حتى أعطتهم صفة الأخوة في الله تعالى، وهي أروع صفة تعبر عن الشدِّ القويِّ في إطار الله، وكذلك أعطتهم صفة الأعضاء في جسد واحد من حيث اشتراك كل المكونات في القيام بالوظائف المطلوبة لتحقيق الهدف العام وذلك بتناسق وتخطيط دقيق.

المظاهر العامة لتركيز هذا الارتباط في ذهنية الأمة

ويمكننا أن ننتظم هذه المظاهر في خطوط عامة هي:

الترابط الشعوري: فقد عمل الإسلام على الصعيدين النظري والعملي على خلق ترابط إحساسي بين كل أفراد المسلمين بحيث يشعر كل مسلم بآلام الآخرين من أبناء أمته، ويفرح لفرحهم، ويهتم لحل مشاكلهم ويعتبرها من مشاكله بالصميم. فعلى الصعيد النظري جاءت الروايات الكثيرة التي تؤكد على أن هذا الشعور هو شرط

---

١ - الأنفال: ٣٩.

الإسلام الحقيقي، وإن الذي لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، وأن المسلم عليه أن يتفاعل شعورياً مع المسلمين: فيسلِّم على عباد الله الصالحين، ويدعو للمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات. إلى غير ذلك مما لا مجال لعرضه مفصلاً. هذا على الصعيد النظري. أمّا على الصعيد العملي فقد وجدنا الرسول الأعظم(ص)، والقادة من أهل البيت الكرام عليهم السلام، والصحابة المنتجبين؛ يقدمون أروع الأمثلة على هذا الترابط الشعوري، وكل سيرة النبي(ص) مصداق لذلك فلا نحتاج إلى عرض الأمثلة.

الترابط عبر المقاييس الواحدة: وواضح أن المقياس عندما يتوحَّد فإنه يوحِّد ظروف تطبيقه، وما ضاعت الأمم وما تفرَّقت إلا لأنّها اختلفت مقاييسها التي بها تتبيَّن طريقها، وعليها تبني خطواتها... وإذا رجعنا إلى المقاييس المادية وجدناها مقاييس مفرقة بطبيعتها. فسواء أكان المقياس هو المصلحة المادية، أو العنصرية، أو المؤهلات الطبقية وما إلى ذلك من مقاييس مادية فإن من الطبيعي أن تختلف المصالح الضيقة، أو المؤهلات العنصرية والطبقية وغير ذلك، وحينذاك فالناتج هو الصراع الدموي العنيف والهلاك. أمّا لو رجعنا إلى مقياس الإسلام الثابت لوجدناه المقياس الوحيد الذي يستطيع أن ينفي كل ذلك وذلك هو رضا الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1] نعم هو أكبر من كل مقياس، والحاكم على كل شيء وغيره، ورضا الله تعالى يكمن في اتِّباع شريعته الموحِّدة، والسير على الحق والعدل وفق تصورات الإسلام لهما.

والآن لنتصور الإنسانية وهي تضع هذا المقياس نصب عينيها ثم لنلاحظ هذه المآسي التي نشاهدها اليوم. إن هذا المقياس كما ينظم تطبيق الإسلام وسيرة الأمة القانونية يحرك المناقبية العامة ويصبها في قالب منسجم مع ذلك التطبيق. وذلك ما يعبِّر عنه بـ(الحبِّ في الله والبغض في الله).

---

١ - التوبة: ٧٢.

وهكذا تقوم كل المقاييس في حياة الأمة المسلمة على ذلك المقياس مما يخلق ترابطاً تذوب عنده كل أنواع الترابط الكاذب سواء كانت تلك الأنواع روابط قومية أو عنصرية أو مصلحية أو جغرافية أو غير ذلك.

الترابط عبر العبادات: العبادات مظهر جميل أخّاذ من مظاهر العلاقة بين الله والعبد. وبين العباد أنفسهم. فهي إلى جانب ربطها الفرد والمجتمع بالله تعالى، وإلى جنب تأثيراتها النفسية الكبرى؛ تنتج الارتباط والشعور بالوحدة.

فالمسلم أينما كان يقف في أوقات واحدة نسبياً، وفي جماعة حسيَّة تعبر عن المجمع العالمي للمسلمين وتجسده، ويقوم بأعمال تربي فيه الخشوع والخضوع والعقيدة النافذة والترابط بعدها، ويتجه مع إخوته جميعاً إلى قبلة واحدة، ويردد نشيداً مقدّساً واحداً يسبح به الله تعالى ويحمده، إلى غير ذلك. وهكذا يبدو لنا نوع رائع من أنواع الترابط – بل أروع نموذج تتصوره الإنسانية للترابط – في عملية الحج الكبرى بما لا يحتاج إلى كثير شرح وتفصيل، إلاّ أننا نشير هنا إلى وحدة المركز الذي يطوف حوله الحجاج كتعبير إيجابي عن لزوم جعل هذا المركز مطاف الحياة كلها، والعمل على أن يكون مطاف الأرض كلّها بما يجسّده من تعبيرات مقدسة؛ في حين يقف المسلمون في مكانٍ آخر ليرموا رمزَ الشرَّ المتمثل في الجمرات المتعددة إشارة إلى خطوات الشيطان وسبله المختلفة.

الترابط عبر الحقوق المشتركة: وقد زخرت كتب الروايات بالأخبار الكثيرة المتواترة إمّا لفظاً وإمّا معنىً بحقوق المسلم على المسلم، وهي لو روعيت تمام المراعاة لعادت على المسلمين بروابط قوية لا يمكن أن يفصمها فاصم.

وقد ذكر صاحب كتاب «الأخلاق» (السيد عبدالله شبر رحمه الله) هذه الحقوق مستمداً إيّاها من النصوص الشرعية وهي:

١ـ أن يحب للكافة ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه.

٢- أن لا يؤذي أحداً من المسلمين بقولٍ أو فعل. قال(ص): «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».[1]

٣- أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبَّر عليه.

٤- أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض.

٥- أن لا يزيد في الهَجر لمن يعرفه أكثر من ثلاثة أيام مهما غضب عليه. قال (ص): «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهم الذي يبدأ بالسلام».[2]

٦- أن يحسن إلى كل من قدر منهم إن استطاع.

٧- أن لا يدخل على أحدٍ إلاّ بإذنه.

٨- أن يخالط الجميع بخلق حسن، ويعاملهم بحسن طريقته.

٩- أن يوقِّر المشايخ ويرحم الصبيان. قال(ص): «ليس منا من لم يوقِّر كبيرنا ويرحم صغيرنا».[3]

١٠- أن يكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه رقيقاً.

١١- أن لا يَعِدَ مسلماً بوعد إلاّ ويفي به.

وهكذا يصل بها إلى ستة وعشرين حقاً وهي في الحقيقة بعض الحقوق. ترى لو أنَّ المسلمين جميعاً طبَّقوا هذه الحقوق فهل يصلون إلى ما هم عليه اليوم؟!

الترابط في المجال الاقتصادي: والدارس للاقتصاد الإسلامي المذهبي يجد بوضوح أن هذا المذهب يشكل دعامةً كبرى من دعائم الترابط العام بين كل القطاعات المسلمة.

---

١ - البحار، ج ٦٤، ص ٣٥٤، مسند الرضا، ص ٦٥ ورواه الدارمي، ج٢ ، ص ٣٠٠ ، ومسلم ج١ ، ص٤٨، والبخاري وغيرهم .

٢ - مستدرك الوسائل، ج٩، ص٩٨، أمالي الطوسي، ص ٣٩١، الوسائل، ج١٢، ص ٢٦٣، البخاري، ج٧، ص١٢٨، ومسلم، ج ٨، ص ٩، وغيرهم.

٣ - الكافي، ج٢، ص ١٦٥، الوسائل ج١٢، ص ٩٨، مسند احمد، ج ٢ ص ٢٠٧، والترمذي، ج٣ ص ٢١٥، ابويعلى، ج٦، ص١٩١.

وها نحن نشير إلى ظاهرتين في هذا المجال كمثال يوضح ما نقول.

أ- ظاهرة الملكية العامة: فالاقتصاد الرأسمالي إذا كان يعتبر الملكية الخاصة هي الأصل والملكية العامة الاستثناء وإذا كان الاقتصاد الماركسي يعتبر الأمر على العكس؛ فإن المذهب الاقتصادي الإسلامي يتميَّز بأنه يقول بالملكية المزدوجة (العامة والخاصة) ولكل منهما مساحتها الخاصة بها، وملكية الأمة هي جزء مهم من الملكية العامة في الإسلام حيث إن الأرض التي تفتح عنوة بالجهاد تكون ملكاً للمسلمين جميعاً على الرأي الأشهر – من هو حاضر ومن سيولد بعد – بدون أن تورث فالمسلمون على هذا الأساس شركاء في ملكية الكثير من الأراضي، وإليهم وإلى مصالحهم يعود ريع تلك الأرض.

ب – ظاهرة التكافل الاجتماعي: وهي المبدأ الذي يفرض فيه الإسلام على المسلمين فرضاً كفائياً كفالة بعضهم لبعض. والتخلف عن القيام بهذا الواجب يستوجب غضب الله تعالى – ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام : «أيُّما مؤمن منع مؤمناً شيئاً مما يحتاج إليه وهو يقدر عليه – من عنده أو من غيره – أقامه الله يوم القيامة مسوداً وجهه مزرقَّةً عيناه، مغلولةً يداه إلى عنقه، فيقال هذا الخائن الذي خان الله ورسوله، ثم يؤمر به إلى النار»[1].

هذا وإن هذه الروح لتشعُّ في كل جوانب التشريعات الاجتماعية الأخرى في الإسلام.

الترابط عبر المسؤولية المتبادلة لتطبيق أحكام الله تعالى

ونعني بذلك مضمون ما ورد من أحاديث تؤكد على عاملي (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وأن بهما قوام الأمة وبقاءها، وكذلك الأحاديث المباركة التي تؤكد على عموم المسؤولية الاجتماعية من قبيل: قوله (ص) «كلكم راع وكلُّكم مسؤول عن

---

١ – وسائل الشيعة ، ج ١١، ص٥٥٩، المحاسن للبرقي، ج١، ص ١٠٠، الكافي، ج٢، ص ٣٦٧، ثواب الاعمال للصدوق، ص ٢٣٩، البحار، ج٧ ، ص٢٠١.

رعيته»[١] وغير ذلك فإنها تجعل كل مسلم على أيٍّ أرض كان، وبأيٍّ مستوىً كان، مسؤولاً عن كل ما يقع من انحراف، وكل توانٍ في المسيرة الإسلامية الصاعدة فعليه أن يواصل الدفع من جهة، ويرفع العقبات التي أمامها من جهة أخرى.

وفي ختام هذا الفصل لابدَّ لنا من أن ننصت إلى كلام الله الحكيم وهو يخاطب المسلمين جميعاً بعبارة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ ويمنحهم التصور المطلوب عبر لفظ واحد للجميع فيقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾[٢] و ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[٣] و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٤] و ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾[٥] و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ﴾[٦] و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء﴾[٧] و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ﴾[٨] و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾[٩] و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ﴾[١٠] و ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾[١١] و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾[١٢].

وهكذا يصف القرآن الأمة المسلمة بالصفات العامة: فهي الأمة الخليفة، والوسط،

---

١ – ذكرته الصحاح.
٢ – البقرة: ٢٥٤.
٣ – آل عمران: ١٠٢.
٤ – آل عمران: ١٥٦.
٥ – آل عمران: ٢٠٠.
٦ – النساء: ١٣٥.
٧ – النساء: ١٤٤ .
٨ – المائدة: ٢.
٩ – المائدة: ٩٠ .
١٠ – الانفال: ٢٧.
١١ – الحج: ٧٧ .
١٢ – الأحزاب: ٤١ .

والشاهدة، والمسلمة لله تعالى، والشديدة على الكفّار والرحيمة فيما بينها، والكريمة غير المهانة، والمنفقة، والمتقية، وغير المتشبهة بالكفار، والصابرة المرابطة القائمة بالقسط، والمعادية للكفار، والمقيمة لشعائر الله، والمجتنبة للخمر والميسر، وغير الخائنة، والراكعة الساجدة، والعابدة ربها الذاكرة له، وهكذا تتوالى هذه الأوصاف لتحدّد معالم هذه الأمة، وتنتهي بها إلى موقف موحَّد تماماً، وتجعلها (خير البرية).

وعلى اساس من هذا الترابط يأتي مفهوم (التعاون) ليشكل مبدأ عاماً في الاسلام وخصيصة مميزة لهذه الامة. بل يعبر الدائرة الاسلامية الى الدائرة الدولية اذا كان هناك محور خير ووجه من وجوه البر بالإنسانية يتم التعاون فيه وينبغي هنا ان نتحدث بشيء من التفصيل عن هذا الأمر لكونه محوراً إنسانيا هاماً.

الاسلام والتعاون الدولي

ان من نافلة القول الحديث عن التعاون في الاسلام لوضوح دعوة الاسلام اليه، وتظافر النصوص المؤكدة عليه حتى يمكن عد التعاون من سمات المجتمع الاسلامي. ولكن نقل هذا المفهوم الى الواقع الدولي والاقليمي أمر جدير بالبحث والتأمل.

والتعاون لكي يتم تحقيقه بشكل مثمر وبناء يحتاج لتوفر بعض الشروط الموضوعية وتحريك شتى الدوافع الإنسانية، وبث القيم التي تنسجم معه، ورفع الموانع التي تقف في طريقه وبالتالي معرفة المجالات التي يؤثر فيها والتخطيط الحكيم لذلك.

الشروط الضرورية

اما الشروط الموضوعية فهي أمور:

الأول: امتلاك قدرة العطاء: فلا معنى لتصور تعاون المعدم الفقير مع الغني القادر في مجال تأسيس مشروع مالي معين. ولذا كان على الأمة التي تود المساهمة في المسار الحضاري العام أن تمتلك بنفسها ما يؤهلها للعطاء والإسهام.

الثاني: افتراض جو الثقة المتبادلة، لأن التعاون ينطلق من منطلقات انسانية وعلى

أساس عاطفي لتحقيق هدف مشترك. وهذه المنطلقات لا تتوفر في أجواء التشكيك والريبة والمكر والجشع.

الثالث: وجود مساحات وأهداف مشتركة: فلا يتصور التعاون دونها. ونحن نعتقد ان هذه الشروط الثلاثة ضرورية لكل مجال يراد التعاون فيه مهما كان.

القيم المنسجمة

ونقصد بها: تلك المفاهيم التي يجب تعميمها اجتماعياً لكي يندفع المجتمع صغيراً كان أو كبيراً نحو حياة تعاونية مشتركة ويمكن أن نعد منها ما يلي:

١ـ ضرورة الحوار مع الآخر والاحساس بنقل الفكرة اليه ومعرفة أفكاره. وقد زود الله تعالى الإنسان بكل ما يدفع وييسر هذه العملية من قدرة ذاتية على التأمل والتفكير وخلق الفكر الجديد واكتشاف سبل التغيير والانطلاق من أسر الواقع الحسي الضيق والتجريد ومحاولة التعميم والافتراض وما الى ذلك من طاقات العقل المبدع، عبر ما يملكه من قدرات بدهية وحكمة عالية. كما ان الإنسان مزود بدوافع غريزية تحثه على استكناه المجهول ومعرفة الغوامض كما تحثه على التكامل في قدراته العقلية وفي قدراته للسيطرة على الطبيعة وفي قدراته الخلقية والمعنوية، وبالتالي فإن الله تعالى أودع فيه طاقة مد الجسور الى عقول الآخرين وأفكارهم لمعرفة ما يفكرون به والتحاور معهم عبر نعمة اللغة الرمزية.

فالحوار حالة طبيعية انسانية والتركيز عليها تركيز على خصيصة انسانية. ولا ريب ان الحوار يؤدي لاكتشاف المساحات المشتركة، واكتشافها يؤدي للتعاون على تحقيقها.

٢ـ مفهوم الشورى: وهو بطبيعة الحال مساوق للحوار إذ يعني ضم آراء الآخرين الى الرأي الذاتي واكتشاف نقاط الضعف والقوة.

٣ـ مفهوم الاحساس بالحاجة للآخرين فإن الفرد إذا عرف نفسه ونقائصها، ومحدودية ما تملك من طاقات ومن علوم، وحاجتها للآخرين اندفع نحوهم للاستزادة والتعاون للوصول الى الاكتفاء الذاتي.

٤ـ الاحساس بعلو الأهداف الإنسانية: وكلما سمى التصور لهذه الأهداف وعبر مراحل الاهداف الحيوانية البهيمية (فالبهيمة همها علفها) وصعد الى مراحل عالية تنسجم مع هدف الخلقة الإنسانية والمسيرة المتكاملة، ارتفعت وتيرة الاحساس بلزوم التعاون لتحقيق الاهداف السامية.

٥ـ رقي الجانب العاطفي: فإن العواطف إذا سمت والنظرة للآخرين إذا ارتقت الى مستوى الأخوة سواء كانت بمعنى الأخوة النسبية او الاجتماعية او الدينية او الاقليمية او البشرية العامة فإنها لا تدفع نحو التعاون فحسب بل تدفع في أحيان كثيرة نحو الايثار والتضحية.

وهكذا نجد ان هذه القيم المؤدية للتعاون تنطلق جميعاً من منطلقات فطرية. فالعمل على جلاء الفطرة الإنسانية وتجليها في السلوك الإنساني هو أسلم السبل لتحقيق مسيرة تعاونية مستدامة.

منطلقات التعاون

ونستطيع ـ بعد هذا ـ أن نتصور للتعاون المنطلقات التالية:

أـ **المنطلقات الدينية** ونتصور أنها اعم المنطلقات لأن الأديان جميعاً وخصوصاً الدين الإسلامي ـ كما هو واضح وكما سنتحدث عنه بإيجاز بعد هذا ـ تدعو للتعاون وتعد بالثواب الأخروي الجزيل بل وتؤكد على انعكاسه على الحياة الدنيوية أيضا، بل قد وضع الإسلام فكرته عن العدالة الاجتماعية مرتكزة على أمرين هما (التكافل، والتوازن بين مستويات المعيشة بين افراد المجتمع) وهما يصبان في مجال التعاون.

وهذا يعني ان التعاون هنا اما الزامي او أنه طوعي غير مشوب غالباً بالمصالح الفردية ولذلك جعلناه أعم المنطلقات.

ب ـ **المنطلقات المعنوية العامة** القائمة على أساس الاحساس الإنساني بلزوم خدمة البشرية والتعاون مع الآخرين، وهو احساس طيب حتى لو لم ينطلق من منطلقات دينية لكنه غالباً يقصر عن بلوغ الغايات الكبرى.

ج ـ المنطلقات المصلحية باعتبار ان الاقدام على التعاون مع الآخرين سينعكس يوماً ما لصالح المقدمين على التعاون ولا مانع من مثل هذا المنطلق لكنه لا يمثل النبل الخلقي المطلوب ويبقى في مساحة اضيق من المنطلقين السابقين.

د ـ المنطلقات الدنيئة وذلك كما نشاهده في المنظمات المشبوهة والدول الاستعمارية التي تستخدم برامج التعاون لتحقيق مآربها كربط الدول الصغيرة بعجلتها او التمهيد لاستغلالها او العمل على تشويه هويتها الثقافية وأمثال ذلك.

والواقع ان منفذ التعاون هذا يشكل منفذاً خطراً باعتبار اطاره الإنساني الخداع للجماهير التي لا تبصر اكثر من مدى رؤيتها ولا تعرف عمق التآمر المغلف بهذا الاطار الإنساني إلا بعد ان تصحو على الواقع المرير وهي تئن تحت الاغلال او ضغط الديون المحطمة، فتود لو انها تحملت شظف الحياة ولم تتقبل عروض المعونات المزيفة.

العقبات بوجه التعاون

بعدما سبق توضحت العقبات وأهمها امران هما:

١ـ شيوع الروح المادية، والنظرات الفردية، واخلاقية الطمع والاستغلال والجشع، وتحقيق اللذة بأقصى مداها، وتحقيق التفوق عبر كل الوسائل حتى ولو أدى ذلك لتهديم مكاسب الآخرين وامتصاص دماء الشعوب وخيراتها وهذا ما نشاهده اليوم في الكثير من الخيرات والقدرات في الدول المستعمرة التي بنت امجادها على جماجم الشعوب.

و(العولمة) اليوم مظهر كامل لمرحلة رأسمالية متقدمة وعملية سيطرة اميركية على مقدرات الشعوب، وأمركة العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية وحتى الاجتماعية، وسرقة حضارية لأمل الإنسانية في نظام عالمي تسوده الحرية والديمقراطية وحماية حقوق الإنسان، والسلام والوئام والتعاون، وتحويله الى عالم تحكمه الشركات متعددة الجنسيات ويتسلط على الحقيقة فيه الاخطبوط الإعلامي، فلا يدعه يتنفس إلا في جو تشيع فيه مفاهيم التخريب من قبيل (الحروب الاستباقية) وغيرها. وقد شهدنا الآثار المدمرة للبشرية واقتصادها، في فترات الازمات المالية الطاحنة.

٢ـ التشكيك في النوايا وهو العقبة الرئيسية امام كل نمط تعاوني بل أمام كل حوار هادف ولا ريب أنه ترك أثراً سلبياً على حوار الحضارات وحوار الأديان وحوار المذاهب داخل الدين الواحد.

وربما كان هذا التشكيك في اغلب الحالات تابعاً لرواسب تاريخية وتجارب مرة سابقة، مما يتطلب جهوداً جبارة لمحو السوابق او نسيانها مرحلياً وربما اشارت الآية الكريمة: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١] الى هذه الضرورة لتبدأ العملية الحوارية في جو مساعد.

الإسلام والتعاون

ولا ينتظر منا - هنا - الحديث عن كل أبعاد التعاون في الإسلام، ولذا فنحن نشير الى بعض الجوانب الهامة من الموقف الاسلامي بشكل نقاط:

النقطة الأولى: تحديد المجالات

وتحدد الآية الشريفة الثانية من سورة المائدة هذه المجالات فتقول: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٢]، فالبر هو كل ميدان إنساني أخلاقي ويشمل كل ما ندب إليه الإسلام ودعا لتحقيقه من أعمال الخير. ويوحي اللفظ بإيكال الأمر الى الوجدان السليم العام تماماً كما يستفاد من كلمتي (الطيبات) و(الخبائث) في قوله تعالى: ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾[٣]، وكلمتي (المعروف) و(المنكر) في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٤]. فكأن هذه الآيات تتعامل مع الفطرة والوجدان مباشرة مما يعطينا سعة إنسانية عالمية في هذه المجالات ولا يحصرنا في مجال ضيق.

---

١ ـ سبأ: ٢٥.

٢ ـ المائدة: ٢.

٣ ـ الاعراف: ١٥٧.

٤ ـ آل عمران: ١١٠.

فكل خطوة فيها علاء الإنسانية وتقدم حضارتها وقيمها وفي كل المجالات العلمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها هي من عمل البر ونحن مأمورون بالتعاون فيها، وكل عمل يسيء للإنسانية ويعتدي على قيمها ويعرقل مسيرتها ويشيع العدوان وخرق الحقوق الإنسانية نحن منهيون عن الاسهام فيه بل نحن مدعوون للوقوف بوجهه.

وهذا المعنى هو الذي ينسجم تماماً مع الرسالة العالمية للاسلام وتقديم الأمة الاسلامة كنموذج حضاري لكل الأمم كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾.[١]

النقطة الثانية: تقوية المنطلقات

فنحن نعلم أن النصوص الشريفة تؤكد على الفطرة الإنسانية وأن احكام الدين كلها منسجمة معها، والنظام التربوي والنظام العبادي بل ومختلف النظم الأخرى تركز على هذا الجانب وتعمل على تقويته، واننا لنلحظ ان النظام المعرفي يبتني كله على بديهيات الفطرة كما ان النظام التشريعي يعمل على ايجاد التوازن والعدالة في تحقيق متطلبات الفطرة. ويتجلى ذلك أروع تجل في النظام الاخلاقي الاسلامي. وكل ذلك يصب في مجال تقوية الدافع الفطري للتعاون في أوسع المجالات. ورغم ان العمل الصالح يراد له ان يكون بدافع ايماني فإن هناك نصوصاً تقيم العمل بنفسه حتى ولو لم يتم في هذا الاطار كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.[٢]

﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾.[٣]

وحتى الجانب المصلحي يحركه الاسلام في مثل ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾.[٤]

أو قوله (ص): (من لا يَرحم لا يُرحم)[٥] أو (ارحموا ترحموا).[٦]

---

١ ـ البقرة: ١٤٣.
٢ ـ الكهف: ٣٠.
٣ ـ آل عمران: ١٩٥.
٤ ـ النساء: ٩.
٥ ـ رواه البخاري وابو داوود والترمذي واحمد.
٦ ـ احمد، ج١ ص ٢٤١، والبخاري، ج٧ ، ص ٧٥، من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٨٠، الوسائل، ج ٤، ص ١٩٧، وغيرهم.

النقطة الثالثة: توفير الشروط اللازمة

والمتتبع لنوعية التخطيط الاسلامي للحياة يجد أن الاسلام يسعى جاهداً لرقي الأمة من جميع الجهات حتى تكون يدها اليد العليا، وتتمتع بالخيرية على الأمم، واعداد كل الطاقات والقوى لميادين التحدي، وامتلاك قدرات اقتصادية هائلة عبر شكر النعم الإلهية والاستفادة من كل ما هيأه الله لهذه الأمة وانكار اي تهاون وكفر بهذه النعم، وأي ظلم في عملية التنمية أو التوزيع العادل ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1] كما اعتبر الاسلام اي تقاعس عن ايصال الأمة لما تحتاجه من تقدم على جميع المستويات اخلالاً بالواجبات الكفائية التي لو أداها من فيهم الكفاية سقطت، ولو لم يؤدها هؤلاء توجه اللوم والتحذير لكل الأمة.

إن الأمة النموذجية لا يمكن ان تحمل صفات الضعف مطلقاً بل عليها ان تكون امة وسطية نموذجية تمتلك كل معاني العطاء حتى تمتلك التأثير المطلوب.

ثم إن التعاليم الاسلامية وبالخصوص التربية الاسلامية تعمل على اشاعة الثقة بين أبناء المجتمع الاسلامي قبل كل شيء وترفض كل ما يخل بها من أتباع الظنون والتهم والتجسس والغيبة والتهمة وتدعو لحمل عمل المسلم على الصحة والتواصل مع الآخرين والتعاون والإيثار وايفاء المسلمين حقوقهم الى غير ذلك.

اما على الصعيد الدولي فإن الأمة الاسلامية تتعامل بكل موضوعية واحترام مع الآخرين حتى لو لم يكونوا مؤمنين ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2]. والأمة تجنح للسلم إن جنح الآخرون ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾.[3]

ولا مانع من أن تقوم العلاقات الودية مع الآخرين ان لم تبد منهم بوادر التآمر ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن

---

١ ـ ابراهيم: ٣٤.

٢ ـ سبأ: ٢٤ -٢٥.

٣ ـ الانفال: ٦١.

﴿تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾[١] والعدالة والقسط هما هدف هذه الأمة، والدفاع عن المستضعفين والمحرومين صفتها الى ما هناك من امور من شأنها اشاعة الثقة وتوفير اجواء التعاون على الصعيد الدولي فإذا ما عقدت اتفاقيات دولية كانت هذه الأمة مأمورة تماماً بالوفاء بالعهود.

ثم إن هذه الأمة ربيت على اكتشاف المساحات المشتركة عبر الحوار الهادئ حتى مع الكافرين، ودعي أهل الكتاب للعمل مع المسلمين على كلمة سواء ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾[٢].

وبهذا نجد ان الاسلام وفر الشروط التي ذكرنا آنفاً بأروع شكل.

النقطة الرابعة:

بعد هذا نستطيع ان نقول ان الاسلام نشر في الأمة ثقافة القيم المنسجمة مع التعاون بشكل واسع، فأعطى أسساً نظرية جامعة لحوار توضح مفروضاته، ومنهجه وأخلاقه وأهدافه، كما أعطى المؤمنين افضل صفة وأعمها حين قال ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[٣] وقرر مبدأ الاستخدام والتسخير المتبادل: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[٤] ثم رسم للبشرية خطاً واحداً تنطلق فيه من أب وأم وتسير مستهدية بهدى الله يقودها الأنبياء والصالحون لاعمار الأرض مستخلفة عليها من قبله تعالى كادحة نحو تكاملها ﴿أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[٥] عاملة على الوصول الى المجتمع المتقي العابد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي

---

١ ـ الممتحنة: ٨.

٢ ـ آل عمران: ٦٤.

٣ ـ الشورى: ٣٨.

٤ ـ الزخرف: ٤٣.

٥ ـ الانشقاق: ٦.

ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[١] إنها مسيرة واحدة يشعر الجميع بوحدتها ويعمل الكل على رفدها بكل عناصر الرقي والتكامل. ومن هنا جاء مفهوم الأخوة الدينية والأخوة الإنسانية ليقول الإمام علي(ع) لعامله الاشتر في أروع وثيقة تاريخية ما نصه (واشعر قلبك للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)[٢].

ويجب التذكير هنا من جديد بمسألة تركيز الإسلام على المسألة الفطرية وضرورة تجليتها في السلوك الإنساني.

النقطة الخامسة: تذليل العقبات

ولا نجدنا بحاجة الى كثير من الشرح لدور الإسلام في عملية ابعاد النفوس عن المادية السلوكية بعد التخطيط لابعادها عن المادية العقائدية، وكذلك ابعادها عن النظرات الفردية الضيقة الشرهة، والطمع والجشع والكراهية، وبالتالي ابعادها عن كل ما يشكل عقبة في طريق التعاون والتكافل. إن عالمية الإسلام تقف على الخط المقابل للعولمة اليوم فلا تحمل سلبياتها بل تعمل على اشباع متوازن لتوق البشرية لعالم جديد تسوده العدالة والانصاف ويحكمه التعاون البناء.

وقد تحدثنا قبل هذا عن عمل الإسلام على نفي التشكيك في النوايا ما استطاع واشاعة الثقة والحب العام لتوفير جو تعاوني رحيم.

النقطة السادسة: فقه العلاقات الدولية

وقد ركز فقه العلاقات الدولية على عناصر كثيرة منها:

أ ـ المبدئية والأخلاقية في التعامل.

ب ـ عنصر التوعية والصراحة في الاتفاقات الدولية ونفي أي ابهام او غرر او ظلم او انظلام.

---

١ ـ النور: ٥٥.

٢ ـ الرسالة ٥٣ في نهج البلاغة، راجع: ص ٣٠.

ج ـ تأليف القلوب وتحقيق الانسجام.

د ـ احترام العهود والعقود.

هـ ـ التعامل بالمثل سلباً وايجاباً ـ مع ترجيح جانب العفو والفضل والتسامح.

وغير ذلك. وكلها مبادئ تصب لصالح عملية التعاون الدولي فضلاً عن الاقليمي لأن مفهوم الجوار يتسع اليوم ليشمل ابناء المنطقة الاقليمية كلهم. وللجوار حقوقه المسلمة.

واخيراً

فإننا نعتقد إن على الأمة الاسلامية ان تشكل مثالاً يحتذى به للتعاون شريطة أن يكون واعياً فلا يعود عليها بالضرر والله تعالى إذ دعى هذه الأمة للوقوف الى جانب الحق والخير ضمن لها ان يعينها إذا تآمر العدو أو قلب ظهر المجن.

يقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.[1]

---

١ ـ الأنفال: ٦١ ـ ٦٣.

ثالثاً: ظاهرة التوازن
والوسطية في التصور من الكون
والموقف من الحياة

صحفه سفید

التوازن العادل الحكيم

قبل كل شيء يجب أن نركز على أن المقصود بـالتوازن لـيس مـا قـد يتبـادر إلى الأذهان لأول وهلة من التساوي من الجانبين أو ما إلى ذلك، وإنمـا يقـصد منـه مـلء الواقع بالشكل العادل بحيث يوضع الشيء في محله دون أن يتحقق حيف بأجزاء الواقع، وبحيث يشكل هذا الملء أفضل حالة لصالح الكمال. وهو ما يمكن أن نطلق عليه اسـم (التوازن الحكيم) أو (التوازن العادل). فمثلاً لو أننا لاحظنـا جانـب الغرائـز الإنـسانية فإننا نجد أنها تحتاج إلى إشباع معين، وهي قد تتطلب ما يزيد على إشباعها الصحيح، فيؤثر هذا على إشباع الغرائز الأخرى. فإذا أعطيت أكثر مما يتطلبه واقعها وهدفها فقد اختل التوازن المطلوب في إشباع الغرائز فالتوازن لا يعني أن تشبع كل غريـزة بالمقـدار الذي تشبع به الغرائز الأخرى. وسيأتي تفصيل هذا في محله.

وعندما يتضح هذا المفهوم، نستطيع القول بأنه لا يحتاج في إجماله إلى استدلال، فإن نظرية خلق الكون بحكمة وإحكام وكون التشريع حكمة تشريعية تنسجم مع الحكمـة الكونية هي من أوضح النظريات القرآنية التي يتكرر التصريح والإشارة إليها في مختلف الآيات القرآنية.

كما أن وصف (حكيم) هو من الأوصاف التي يؤكـد عليهـا القـرآن لله تعـالى بعـد عرض آية، أو ذكر نعمة، أو تقرير حكم، أو بيان جانب تكـويني، وأمثـال ذلـك كمـا نلاحظه في الآيات التالية:

﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُـزْءًا ثُـمَّ

ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١]. ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢]. ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمًا﴾[٣].

والأنبياء إذ بعثوا ركَّزوا على جانب إعطاء الحكمة للناس لتنسجم حياتهم مع الحكمة التكوينية بل قل ليتحقق التوازن بين الحكمة التكوينية التي تعمل لا عن اختيار، والحكمة التشريعية التي يحققها الإنسان باختياره عندما يطبق أحكام الله تعالى والذي يعطي تصور المسلم عن العدالة والحكمة التكوينية متانة وقوة وأساساً هو تصوره لعدالة الله تعالى وحكمته كصفة كمالية مطلقة من صفات الله فهو بالتالي لا يفعل شيئاً إلاّ وفق سنن العدالة والحكمة، ولن يأمر بشيء إلاّ بما تقتضيه العدالة. ومن هنا فالعدالة التكوينية تقابلها عدالة تشريعية متوازنة ومنسجمة معها: ﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الإِنسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ، الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ، وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ، وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾[٤].

حيث نجد هذه الآية بعد تحدُّثها عن التوازن التكويني؛ تطلب إلى الإنسان أن يصنع التوازن التشريعي العادل بإرادته.

هذا هو الواقع بشكل إجمالي، فإذا ما شئنا الخوض في هذا المجال بشكل أكثر تفصيلاً؛ لاحت أمامنا أروع صورة للتوازن لا نجد لها نظيراً في أي نظام.

مجالات التوازن

وانسجاماً مع الإيمان بالترابط الحقيقي بين الإيديولوجية والسلوك، فإن الإسلام

---

١ – البقرة: ٢٦٠.
٢ – لقمان: ٢٧ .
٣ – النساء: ١١.
٤ –الرحمن: ١ – ٩.

يعمل - أولاً - على تقديم صورة متوازنة عن الواقع ثم يحدّد - ثانيا - الموقف المتوازن منه. وعليه فيمكننا تقسيم البحث إلى قسمين:

القسم الأول: التوازن في التصور الإسلامي عن الواقع.

القسم الثاني: التوازن في تعامل المسلم مع الواقع.

القسم الأول: التوازن في التصور الإسلامي عن الواقع

إن الإسلام شرع للإنسان المسلم ما يتبعه في سلوكه الحياتي، وأقام ذلك التشريع على أساس تصوري محكم حدد فيه للإنسان موقعه من كل الكون ومن نفسه أيضاً ليكون على بصيرة فيعي كل شيء ويعمل طبق وعيه : ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [١]﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾[٢].

فإذا استعرضنا تلك الصورة التي أعطاها الإسلام للمسلم عن الواقع وجدناها حافلة بالتوازن العميم. ويمكننا من خلال محاولتنا عرض التصور الإسلامي المتوازن عن الواقع أن نركز على الكلّيات الرئيسية له ومن أهمها ما يلي:

١ـ البناء التكويني المتوازن.

٢- التوازن بين المشيَّة الإلهية المطلقة، وثبات السنن الكونية.

٣- التوازن بين الإرادة المطلقة، ومجال الإرادة الإنسانية المحدودة.

٤- التوازن بين الرحمة الإلهية، والعقوبة الشديدة.

٥- التوازن بين الدنيا والآخرة.

٦- التوازن بين طرق الخير وطرق الشر.

٧- التوازن بين أنواع الهداية في حياة الإنسان. (الأهداف والإمكانات).

٨- التوازن بين مصادر المعرفة الإنسانية.

---

١ - الملك: ٢٢.

٢ - فاطر: ٢٨.

٩- التوازن بين العوامل المحركة للتاريخ الإنساني والإرادة الإنسانية. ولنتحدَّث الآن بإجمال عن كلٍّ من الكليّات المذكورة:

الكلية الأولى

البناء التكويني المتوازن

يعرض الإسلام أروع توازن كوني أمام تصور المسلم.. مما يجعله ينظر إلى كـل ذرّةٍ في الكون على أساس أنها تشكل جزءاً صغيراً من عالم كوني متناسق ومتوازن، وإننـا لنجد القرآن الكريم يتحدث عنه ضمن أساليب أهمها مايلي:

١ـ التأكيد على التقدير الدقيق والتنظيم الشامل.

٢- التأكيد على بعض صور التوازن والتقدير في الكون ومصاديقه.

الأسلوب الأول

التقدير الدقيق والتنظيم الشامل

والآيات التي تؤكد التقدير الدقيق:

منها ماجاء بلفظ التقدير مثل:

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [2].

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[3].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [4].

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾ [5].

---

١ – الفرقان: ٢.

٢ –الطلاق: ٣.

٣ – الاعلى: ٢ – ٣.

٤ – الرعد: ٨.

٥ –الاحزاب: ٣٨.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [١].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [٢].

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [٣].

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٤].

ومنها ماجاء بلفظ الإتقان، كما في الآية الكريمة: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[٥].

وغير ذلك من الآيات الكريمة التي ترسم أمام المسلم التقدير الإلهي الشامل لكل جزء. وحينئذ يتأصل في نفسه هذا الإطار المتوازن لينطلق هو بنفسه للبحث عن جزئياته ومصاديقه.

الأسلوب الثاني

صور التوازن والتقدير في الكون ومصاديقه

وإذا كانت آيات الأسلوب الأول تعرض التقدير والتوازن العام فإن هناك آيات كثيرة تعرض صوراً من ذلك في مختلف مخلوقات الكون، وها نحن نستعرض بعض الآيات الشريفة الحافلة بهذه الصور:

﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾[٦].

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[٧].

﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[٨].

---

١ - الحجر: ٢١.

٢ - القمر: ٤٩.

٣ - السجدة: ٧.

٤ - المؤمنون: ١٤.

٥ - النمل: ٨٨ .

٦ - الرحمن: ٧.

٧ - الحجر : ١٩.

٨ - القمر: ١٢.

﴿وبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾[1].

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[2].

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [3].

﴿واللهُ يُقَدِّرُ الَّيلَ والنَّهَارَ﴾ [4].

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [5].

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ، إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [6].

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [7].

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [8].

﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [9].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [10].

وهكذا إلى كثير جداً من الآيات التي تهدف أساساً إلى إثبات الخالق الحكيم

---

١ – فصلت: ١٠.

٢ – يس: ٣٩.

٣ – عبس: ١٨ – ١٩.

٤ – المزمل: ٢٠.

٥ – يس: ٣٨.

٦ – المرسلات: ٢١ – ٢٢.

٧ – الرعد: ١٧.

٨ – النمل: ٦٠.

٩ – النمل: ٦١ – ٦٢.

١٠ – الروم: ٢١ – ٢٢.

المدبِّر، ومنها تنطلق نظرية قرآنية شاملة حول (التوازن الكوني العام).

وتؤكد هذه النظرية الروايات الشريفة عن الرسول(ص) والأئمة من أهل البيت(ع) بما لا مزيد عليه، ولا حاجة بنا إلى استعراضه، إلا أننا نودُّ الإشارة إلى حديث المفضل بن عمرو وملخصه: إن المفضل يجد جماعة يخوضون في آيات الله تعالى ويستهزئون بها، فيغضب ويواجههم بكلام قاس ثم يعود إلى الإمام الصادق(ع) فيطلب إليه أن يلقي عليه من حكمة الله في الكون ما يستطيع به أن يدافع عن دين الله. وهنا يبدأ الإمام(ع) بإلقاء بعض الدروس في حكمة الله وإتقانه عليه ويقول له في المطلع: (يا مفضل إن الشكاك جهلوا الأسباب والمعاني في الخلقة، وقصرت افهامهم عن تأمل الصواب والحكمة، فيما ذرأ الباري جلَّ قدسه وبرأ من صنوف خلقه في البحر والبر والسهل والوعر، فخرجوا بقصر علومهم إلى الجحود، وبضعف بصائرهم إلى التكذيب والعنود حتى أنكروا خلق الأشياء وادعوا أنَّ كونها بالإهمال ولا صنعة فيها ولا تقدير، ولا حكمة من مدبر ولا صانع، تعالى الله عمّا يصفون، وقاتلهم الله أنّى يؤفكون، فهم في ضلالهم وعماهم وتحيرهم بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء، وأحسنه، وفرشت بأحسن الفرش وأفخره، وأعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والملابس والمآرب التي يحتاج إليها ولا يستغنى عنها، ووضع كل شيء من ذلك موضعه على صواب من التقدير، وحكمة من التدبير، فجعلوا يترددون فيها يميناً وشمالاً ويطوفون بيوتها إدباراً وإقبالاً، محجوبة أبصارهم عنها، لا يبصرون بنية الدار وما أعدَّ فيها، وربما عثر بعضهم بالشيء الذي قد وضع موضعه، وأُعدَّ للحاجة إليه وهو جاهل بالمعنى فيه ولما أعد، فيها ولماذا جعل كذلك فتذمر وتسخط، وذم الدار وبانيها. فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من أمر الخلقة وثبات الصنعة، فإنهم لما غربت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء صاروا يجولون في هذا العالم حيارى، لا يفهمون ماهو عليه من إتقان خلقته وحسن صنعته وصواب تهيئته...) [1].

---

١ - بحار الانوار، المجلسي، ج ٣، ص ٥٩ - ٦٠.

ومن ثم يبدأ الإمام (ع) ببيان جوانب العظمة والإتقان والتوازن في الكون فيقول:

(يا مفضل: أول العبر والأدلة على الباري جل قدسه تهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها عل ما هي عليه، فإنك إذا تأملت العالم بفكرك، وميزته بعقلك؛ وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه عباده، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وكل شيء فيها لشأنه معد، والإنسان كالمملَّك ذلك البيت والمخوَّل جميع مافيه، وضروب النبات مهيأة لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه. ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير وحكمة، ونظام وملاءمة، وأن الخالق له واحد وهو الذي ألّفه ونظمه بعضاً الى بعض، جل قدسه، وتعالى جده، وكرم وجهه، ولا إله غيره) [١] إلى ما هناك من حكم وتوازن دقيق ذكرها هذا الإمام العظيم، وكشف بها عن علم جمّ.

العلم يكتشف يوماً فيوماً أنماط التوازن في الكون

قال الإسلام ذلك قبل أن تتوسع دائرة العلوم فتكشف هذا التوازن في مختلف جوانب الكون يوماً بعد يوم. وجاءت هذه العلوم تحدثنا عن التوازن في الكون وعن الميزان الحق في الكون، وراحت تحدثنا عن التوازن العظيم التي تتم به حركة المجرات في هذا الفضاء العظيم:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [٢].

يأتي العلم ليكشف تأثيرات القوانين الكونية الهائلة لقوة الجاذبية، وقوانين التجاذب، وقوة الطرد عن المركز، وقوة الاستمرار، وأمثال ذلك، وليحدثنا عن عدد النجوم الهائل، وعن الأبعاد التي تقاس بملايين السنين الضوئية، وعن أشياء كثيرة أخرى مترابطة متوازنة لا يمكن إحصاء جهات التوازن فيها من قبل الإنسان الضعيف... وتكفي جهات التوازن في مجموعتنا الشمسية الصغيرة لنعرف وجودها

---

١ - بحار الانوار، المجلسي، ج ٣، ص ٦١.
٢ -الواقعة: ٧٥ - ٧٦.

الكوني العام. ففي صور التوازن في العلاقة الكونية بين الشمس والأرض والإنسان الحي: إننا نرى الحقائق التالية:

«تتلقى الأرض من الشمس كمية من الحرارة بالمقدار الكافي لنشوء الحياة وإشباع حاجة الكائن الحي إلى الحرارة لا أكثر ولا أقل، وقد لوحظ عملياً أن المسافة التي تفصل بين الأرض والشمس تتوافق توافقاً كاملاً مع كمية الحرارة المطلوبة من أصل الحياة على هذه الأرض، فلو كانت ضعف ما هي عليه الآن لما وجدت حرارة بالشكل الذي يتيح الحياة، ولو كانت نصف ماهي عليه الآن لتضاعفت الحرارة إلى الدرجة التي لا تطيقها حياة.

ونلاحظ أن قشرة الأرض والمحيطات تحتجز - على شكل مركبات - الجزء الأعظم من الأوكسجين، حتى أنه يكون ثمانية من عشرة من جميع المياه في العالم، وعلى الرغم من ذلك ومن شدة تجاوب الأوكسجين من الناحية الكيمياوية للاندماج على هذا النحو؛ فقد ظل جزء محدود منه طليقاً يساهم في تكوين الهواء، وهذا الجزء يحقق شرطاً ضرورياً من شروط الحياة، لأن الكائنات الحية من إنسان وحيوان بحاجة ضرورية إلى أوكسجين لكي تتنفَّس، ولو قدر له أن يحتجز كله ضمن مركبات لما أمكن للحياة أن توجد.

وقد لوحظ أن نسبة ما هو طليق من هذا العنصر تتطابق تماماً مع حاجة الإنسان وتيسير حياته العملية، فالهواء يشتمل على ٢١٪ من الأوكسجين، ولو كان يشتمل على نسبة أكثر لتعرضت البيئة إلى حرائق شاملة باستمرار، ولو كان يشتمل على نسبة أقل لتعذرت الحياة أو أصبحت صعبة، ولما توفرت النار بالدرجة الكافية لتيسير مهماتها.

وتلاحظ ظاهرة طبيعية تتكرر باستمرار ملايين المرات على مرّ الزمن تنتج الحفاظ على قدر معين من الأوكسجين باستمرار، وهي أن الإنسان - والحيوان عموماً - حينما يتنفس الهواء ويستنشق الأوكسجين يتلقاه الدم ويوزعه في جميع أرجاء الجسم، ويباشر هذا الأوكسجين في إحراق الطعام، وبهذا يتولد أوكسيد الكاربون الذي يتسلل

إلى الرئتين ثم يلفظه الإنسان، وبهذا ينتج الإنسان وغيره من الحيوانات هذا الغاز باستمرار، وهذا الغاز بنفسه شرط ضروري لحياة كل نبات، والنبات بدوره حين يستمد ثاني أوكسيد الكاربون يفصل الأوكسجين منه أو يلفظه ليعود نقياً صالحاً للاستنشاق من جديد.

وبهذا التبادل بين الحيوان والنبات أمكن الاحتفاظ بكمية من الأوكسجين، ولولاه لتعذر الحصول على هذا العنصر، وتعذرت الحياة على الإنسان نهائياً، إن هذا التبادل نتيجة آلاف من الظواهر الطبيعية التي تجمَّعت حتى أنتجت هذه الظاهرة التي تتوافق بصورة كاملة مع متطلبات الحياة»[١].

وبهذا يتحقق مضمون الآية الكريمة ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[٢] ومن أهم ظواهر التناسق الآفاقي ما نجده من دورات طبيعية، منها ما أشار إليه النص المتقدم من دورة الأوكسجين والكاربون، التي تشبع حاجة كلٍّ من الحيوان والنبات بنحو متبادل، كما أن منها دورة المياه في الطبيعة فهي أروع دورة متناسقة تحقق للحياة الإنسانية الكثير الكثير من متطلباتها. ومنها هذه الدورات الكونية الكبرى في المجاميع الكوكبية عموماً، وفي المجموعة الشمسية خصوصاً، من دوران الشمس ودوران الأرض حول نفسها وحول الشمس ودوران القمر حول الأرض وهكذا. ومنها ما يجري في البناء الجسمي للإنسان كالدورتين الدمويتين. وغير ذلك كثير، يكشف العلم به عياناً ما أخبرنا به القرآن الكريم حقاً قبل أي تطور علمي يذكر. هذا في الجانب المادي.

وهناك التناسق القائم في البناء الداخلي الدقيق، المتوازن في نموه وتفاعلاته وإحساساته وإفرازاته، وتحقيقه لهدف الإنسان وتناسقه مع الوجود الخارجي. وكذلك القائم في الدوافع السلوكية للإنسان والتناسق العملي فيما بينها لتحقيق هدف الخلقة

---

١ - الفتاوى الواضحة، الشهيد الصدر، ص ٣١ – ٣٢، الطبعة السابعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، بتصرف قليل..

٢ - فصلت: ٥٣.

وإيصاله إلى كماله المنشود. وسوف نتحدث عن هذا الجانب في بحوث قادمة.

هذا وهناك آلاف من صور التوازن التي اكتشفها الإنسان ووراءها ما لا يحصى ولا يحيط به علم الإنسان لشدة تعقيده إلا أن الله تعالى منح العقل قوة هائلة في سبيل استكشاف صور أكثر منها لأجل الاستفادة منها بشكل أكبر.

والخلاصة: إن المسلم يتصور في كل أرجاء الكون توازناً كونياً شاملاً بنحو الإجمال، ويخبره القرآن عن بعض الصور أحياناً. ثم يدعه يمضي لاكتشاف ما يمكنه اكتشافه وفتح مغاليقه منها لتتم بذلك حركية الإنسان وفعاليته، ويتحقق للإنسان بذلك مسير متكامل فعّال.

الكليَّة الثانية

التوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية

وطلاقة المشيئة الإلهية هي من أهم ما يمنحه الإسلام للمسلم من تصور عن الواقع والقوانين المتحكمة فيه.

فالله تعالى مطلق وله كل صفات الكمال المطلقة غير المحدودة بحدٍّ؛ ومنها قدرته المطلقة على أن يفعل مايشاء، ويحكم بما يريد:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [1].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء﴾ [2].

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [3].

---

١ - النحل: ٤٠.
٢ - آل‌عمران: ٤٠.
٣ - آل‌عمران: ٤٧.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [1].

وهكذا تؤكد كل الآيات التي تحدثت عن قدرة الله على هذه الحقيقة ومنها آيات إجراء المعاجز على أيدي الأنبياء(ص). فالمشيئة الإلهية مطلقة بلا ريب، والقدرة الإلهية مطلقة بلا ريب أيضاً، ولكن هل هذا يعني – كما يتصوره البعض – أن لا يثبت قانون مادي أو معنوي في الواقع بعد أن كان الكل محكوماً لتلك المشيئة التي تفعل ماتشاء، وبالتالي لا يمكن أن يطمئن الإنسان إلى النتائج من المقدمات التي يقوم بها، ويسيطر عليه الخوف من إرادة الله في كل لحظة؟!

والجواب على هذا التوهم يعطيه الإسلام ويركزه القطع العقلي بما لا يدع مجالاً لأي تصور باطل.

فإن نكتة ذلك التساؤل ونكتة كل تساؤل باطل حول الصفات الإلهية تكمن أول ما تكمن في محاولة قياس الوجود الإلهي الواجب الكامل المطلق بالوجود الإنسان الناقص الضعيف المحدود، ذلك أن الإنسان لما كان يألف الوجود الحسي ويعيش في أطره ينجر – فيما إذا أراد أن يفكر في المجردات – إلى تشبيهها بعالمه المادي، فيقع في أمور لا تحمد عقباها، ولربما أنجر الأمر إلى الضلال المبين.

وقد ورد في الروايات: إن النملة لتظن أن لربها ذؤابتين كذؤابتيها: تعبيراً عن قياس التشبيه الذي يبتلى به الموجود الناقص، كمظهر من مظاهر نقصه.

ومن هنا فقد تصور البعض أن إطلاق المشيئة الإلهية يعني ما يعنيه إطلاق المشيئة في الموجودات المخلوقة ومنها الإنسان، حيث لا يضبطه ضابط حينذاك، ولا يمنعه مانع

---

١ – البقرة: ٢٥٩.

عن تخريب أو سلب أو قتل، وما إلى ذلك من نتائج تتصور عندما يعطى الإنسان مطلق الحرية في كل مجال، ولذا احتاج الإنسان وغيره لأن يقيد بقيود تكوينية وتشريعية تحدُّ من طلاقة مشيئته.. نعم، هذا التصور الصحيح في المجال الإنساني إلى حد كبير ينقلب إلى ضده عندما يتجاوز الساحة الإمكانية، فيراد له أن يأتي في الساحة المقدسة، فإن الإطلاق في جانب الله تعالى إطلاق كمالي، فذاته تعالى هي الكمال المطلق الذي تعجز كل العقول عن إدراك كنهه... ويستحيل أن يتحول الإيمان بتلك الذات المطلقة في يوم من الأيام إلى عملية خوف من الإرادة الإلهية المطلقة (التي لا تتقيد بأي قانون) كما يتوهم البعض.. كلاً، فإن مجرد التصور الإجمالي للصفات الكمالية والجمالية له تعالى يمنح الإنسان ثقة عظمى بالنتيجة التي يتوخاها في مسيره دون خوف عدم ترتبها وميل الميزان لصالح عدم الحكمة، وذلك لا لشيء إلاّ لأن الإرادة الإلهية شاءت ذلك.

وطبقاً لهذا التصور وتركيزاً له فقد شاء العدل الإلهي والحكمة الإلهية أن تكون القوانين الكونية ثابتة وأخبر الإنسان بذلك ليطمئن قلبه، فجاءت الآيات القرآنية التالية موضحة هذه الحقيقة.

﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ولَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَار وكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [1].

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ولَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [2].

﴿ولَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [3].

وجاءت الأحاديث الشريفة لتؤكد هذا المعنى كالحديث الشهير:

---

١ - يس: ٤٠.

٢ - الاحزاب: ٦٢ .

٣ - الروم: ٤٧.

«أبى الله ان يجري الأمور إلا بأسباب فجعل لكل شيء سببا»[١].

وهكذا إذن اقتضت حكمة الله ثبات القوانين الكونية والسنن التكوينية والاجتماعية سواء منها ما يرتبط بالعالم المادي أو ما يرتبط بعالم الغيب أيضاً... ليتم النظام، ويسَخّر مافي السماوات والأرض لصالح الإنسان الذي استخلف على الأرض، وليعمل - بكل اطمئنان وثقة بالنتائج - لبناء المجتمع الإنساني المسلم العابد.

الكلية الثالثة

التوازن بين مجال الإرادة الإلهية المطلقة ومجال الإرادة الإنسانية المحدودة

ولن نطيل الكلام في هذا المجال بعد وضوح الحق فيه من خلال مراجعة الآيات الكريمة وتأكيد الأحاديث الشريفة وشهادة الوجدان الصافي.

فالإرادة الإلهية مطلقة في مختلف المجالات، لن تُحَدَّ بحدٍّ، ولن يقف في قبالها شيء، لكنها بلطفها منحت الإنسان حريته وإرادته في ما يعمل... واعطته القدرة على أن يريد وأن يحقق ما يريد، وهي تمده في كل آن بهذه القدرة.. ليتكامل وليصعد سُلَّم الرقي المعنوي بنفسه.

وجاءت الآيات المختلفة تركز هذا التصور المتوازن في ذهنية الإنسان كما يلي:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّل الْمُؤْمِنُونَ﴾ [٢].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [٤].

---

١ - مجمع البحرين للطريحي، ص ١١٤، الطبعة الحجرية، مصطفوي، الكافي، ج١، ص ١٨٣، البحار ج٢، ص٩٠، الفصول المهمة للحر العاملي، ج١، ص ٤٨٦.

٢ - التوبة: ٥١.

٣ - الشمس: ٧ - ١٠.

٤ - الرعد: ١١.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا،وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ﴾ [1].

وسنلاحظ في الفصل التالي الدور المهم الذي يلعبه هذا التصور على صعيد شعور الإنسان بكرامته وثقته بنفسه، وتصميمه على صنع مستقبله ولكن في إطار من الاستمداد من الإرادة المطلقة والشعور بأن كل هذه القوى منه تعالى.

ومتى ما اختل هذا التوازن – نتيجة جهل بالإسلام – عاد محطماً لسلوك الإنسان إذ يَجُرّه إمّا إلى الهزيمة والذوبان الذاتي والتحلل من المسؤولية وإمّا إلى التجبر والتكبُّر والعلوّ على واقعه والانفصال عن جذوره.

الكلّية الرابعة

التوازن بين الرحمة الإلهية والعقوبة الشديدة

وهو نوع آخر من التوازن في التصوُّر، يؤثر في النفس الإنسانية خوفاً ورجاءً مؤثرين في دفع الإنسان نحو الهدف – كما سيأتي ذلك في تحديد موقف الإنسان من الواقع المتوازن – . فإن تصور الرحمة الواسعة يبعث في الإنسان أملاً كبيراً دافعاً نحو العمل، وتصور العقوبة الشديدة يمنع ذلك الأمل من الانقلاب على هدفه ويضبطه ويحوله إلى عمل في سبيله، وعلى هذا نلاحظ ثلاث مجموعات من الآيات القرآنية:

المجموعة الأولى – آيات الرحمة الواسعة:

﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ [2].

﴿مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [3].

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الودود﴾ [4].

---

١ – الانسان: ٢٩ – ٣٠.

٢ – الفاتحة: ١-٣.

٣ – النساء: ١٤٧.

٤ – البروج: ١٤.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [١].

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾ [٢].

المجموعة الثانية – آيات العقاب:

﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [٣].

﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [٤].

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [٥].

المجموعة الثالثة – الآيات التي تجمع بينهما:

﴿اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٦].

﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [٧].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٨].

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ [٩].

﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ﴾ [١٠].

والتوازن في هذه المجموعة الثالثة واضح الأبعاد والأهداف بحيث لا يحتاج إلى مزيد شرح.

---

١ – الانعام: ٥٤.

٢ – الحجر: ٥٦.

٣ – البقرة: ١٩٦.

٤ – الحشر: ٤.

٥ – القلم: ٤٤ – ٤٥.

٦ – المائدة: ٩٨.

٧ – غافر: ٣.

٨ – فصلت: ٤٣.

٩ – الاسراء: ٥٤.

١٠ – الحجر: ٤٩ – ٥٠.

الكلية الخامسة

التوازن بين صورة الدنيا وصورة الآخرة

يتميز الإسلام باعتباره الدين الإلهي الوحيد الذي يمتلك نظرة محددة واضحة محكمة الأساس عن الحياة الإنسانية، وأنها تتكون من شوط قصير يسميه (الدنيا) وشوط طويل خالد يسميه (الآخرة).

إننا إذا رجعنا إلى صورة الآخرة في (التوراة) و(الإنجيل) المحرَّفين وجدناها صورة باهتة مبهمة، في حين نجد (القرآن) يعرض مميزات كل من الحياتين بشكل دقيق، ويوضح مجريات الحياة الأخرى حتى أنه يذكر ما يجري فيها من الحوار والجو الذي يسيطر عليها، ويصف الكثير من أنواع الثواب الحسي والمعنوي، والعقاب كذلك، كل ذلك لتكون الصورة واضحة تمام الوضوح ومؤثرة في تحقيق الغاية المنشودة.

والدنيا والآخرة مترابطتان ارتباطاً تاماً ينعكس فيه تأثير الأولى على الثانية انعكاساً محدد المعالم. ويتميز كلٌّ من هذين الشوطين على أحدهما بميزات ما أن يتصورها المسلم حتى تتحقق في ذهنه سلسلة من أنماط الترابط والتوازن الذي له أكبر الأثر في عمله وهدفيته.

وعن الترابط والانعكاس الشديدين بين الدنيا والآخرة، تحدثنا آيات كثيرة منها:

﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [1].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [2].

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [3].

---

١ - الاسراء: ٧٢.

٢ - طه: ١٢٤ - ١٢٦.

٣ - البقرة: ١١٤.

﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [1].

﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [2].

وقد كثرت الروايات التي تحدثنا عن أن الاستقامة أو السلوك غير المستقيم هما اللذان يحددان طبيعة الاستقامة، أو الخزي، في ذلك الشوط الآخر.

وهكذا، فالقرآن يعطي المسلم أهم الصفات العامة لكلٍّ من الدنيا والآخرة، والتي تشكل الأساس النظري لتحديد موقفه من كلٍّ منها. فبالنسبة للدنيا: يذكر لنا عنها صفات أساسية هي:

١ـ المحدودية الزمانية: وهي صفة يدركها الإنسان ويسلِّم بها إلاّ أنه ينساها عملاً فلا ينسجم علمه مع ذلك:

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [3].

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [4].

ولذا يركز القرآن على ذلك، بل يعطيه نوعاً من المقارنة يحدد له مقدار فترة التمتع بالدنيا هذه بالنسبة للتمتع الأخروي العظيم في تعبيرات رائعة من مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [5].

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أو بعض يوم﴾ [6].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [7].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ [8].

---

١ - البقرة: ١٣٠.
٢ - آل‌عمران: ٤٥.
٣ - الشعراء: ١٢٩.
٤ - الهمزة: ٢ - ٣.
٥ - المؤمنون: ١١٤.
٦ - الكهف: ١٩.
٧ - الروم: ٥٥.
٨ - يونس: ٤٥.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [١].

٢- المحدودية المادية: ذلك إن الدنيا عالم المادة والمحسوسات التي تؤثر أكثر مما تؤثر به المعقولات، وحينذاك فالإنسان يدرك الواقع الذي يتصل به حساً والذي يتصل به عقلاً. أما الأمور التي لا طريق للحسّ والعقل إلى إدراكها فإنّها تبقى خافية عليه مالم يخبره بها الوحي الصادق. وقد جاءت الآيات تؤكد ذلك:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [٢].

ومن هذا القبيل الآيات التي تتحدث عن الغيب وأن علمه عند الله. ومن هنا أيضاً نشأ احتياج شديد لأن يبعث الله نبياً إلى البشرية يهديها سواء السبيل.

وعلى أساس من هاتين المحدوديتين تأتي صفات أخرى للدنيا هي: قلة المتاع، وقابلية التزيين، وبعث الغرور، والطغيان واللهو، واللعب والخوف والرجاء، والتعب، والسير، وأمثال ذلك كما نلاحظ في الآيات التالية:

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ [٣].

﴿وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [٤].

﴿قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [٥].

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [٦].

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [٧].

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ

---

١ - النازعات: ٤٦.
٢ - الاسراء: ٨٥.
٣ - البقرة: ٢١٢.
٤ - آل‌عمران: ١٨٥.
٥ - النساء: ٧٧.
٦ - الانعام: ٣٢.
٧ - الكهف: ٤٦.

وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [١].

وللإمام أمير المؤمنين(ع) في وصف الدنيا دقة بلاغية يستمدها من القرآن الكريم حيث يقول:«وإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل» «والدنيا دار مُنِيَ لها الفناء، ولأهلها منها الجلاء، وهي حلوة خضراء وقد عجلت للطالب والتبست بقلب الناظر».[٢]

«فإنها عند ذوي العقول كفيء الظل، بينما تراه ساغباً حتى قلص، وزائداً حتى نقص» ويقول: «أما بعد، فإني أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة حفت بالشهوات، وتحبَّبت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلَّت بالآمال، وتزينت بالغرور. لا تدوم حبرتها، ولا تؤمن فجعتها. غرّارة ضرّارة، حائلة زائلة، نافدة بائدة، أكّالة غوّالة، لا تعدو - إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضاء بها - أن تكون كما قال الله تعالى سبحانه: ﴿كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ لم يكن أمروٌ منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق في سرّائها بطناً إلاّ منحته من ضرّائها ظهراً، ولم تطله فيها ديمة رخاء إلاّ هتنت عليه مزنة بلاء، وحري إذا اصبحت له منتصرة أن تمسي له متنكرة، وإن جانبٌ منها اعذوذب واحلولى، أمرَّ منها جانب فأوبى، لاينال امروٌ من غضارتها رغباً، إلاّ أرهقته من نوائبها تعباً، ولا يمسي منها في جناح أمن، إلاّ أصبح على قوادم خوف، غرّارة، غرور ما فيها، فانية، فانٍ من عليها، لا خير في شيء من أزوادها إلاّ التقوى، من أقل منها استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه، وزال عمّا قليل عنه. كم من واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي أبهة قد جعلته حقيراً، وذي نخوة قد ردَّته ذليلاً، سلطانها دول، وعيشها رنق، وعذبها أجاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سمام، وأسبابها رمام، حيها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، ملكها

---

١ - الحديد: ٢٠.

٢ - نهج البلاغة، ج١، ص ٩٣، البحار، ج ٦٩، ص ٦٨.

مسلوب، وعزيزها مغلوب، وموفورها منكوب، وجارها محروب. ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعماراً، وأبقى آثاراً، وأبعد آمالاً، وأعدَّ عديداً، وأكثف جنوداً، تعبّدوا للدنيا أيّ تعبد، وآثروها أيّ إثار، ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلغ ولا ظهر قاطع. فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفساً بفدية، أو أعانتهم بمعونة، أو أحسنت لهم صحبة. بل أرهقتهم بالقوادح، وأوهقتهم بالقوارع، وضعضعتهم بالنوائب، وعفَّرتهم للمناخر، ووطئتهم بالمناسم، وأعانت عليهم (ريب المنون) فقد رأيتم تنكرها لمن دان لها، وآثرها وأخلد إليها، حين ظعنوا عنها لفراق الأبد، وهل زودتهم إلاّ السَّغَب، أو أحلّتهم إلا الضنك، أو نوَّرت لهم إلا الظلمة، أو أعقبتهم إلا الندامة أفهذه تؤثرون، أم إليها تطمئنون، أم عليها تحرصون. فبئست الدار لمن لم يتهمها، ولم يكن فيها على وجل منها، فاعلموا – وأنتم تعلمون – بأنكم تاركوها وظاعنون عنها، واتعظوا فيها بالذين قالوا: «من أشدُّ منّا قوةً» حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا، وأنزلوا الأجداث فلا يدعون ضيفانا، وجعل لهم من الصفيح أجنان، ومن التراب أكفان، ومن الرفاة جيران، فهم جيرة لا يجيبون داعياً، ولا يمنعون ضيما ولا يبالون مندبة؛ إن جيدوا لم يفرحوا، وإن قحطوا لم يقنطوا، جميع وهم آحاد، وجيرة وهم أبعاد، متدانون لا يتزاورون، وقريبون لا يتقاربون، حلماء قد ذهبت أضغانهم، وجهلاء قد ماتت أحقادهم ، لا يخشى فجعهم، ولا يرجى دفعهم، استبدلوا بظهر الأرض بطناً، وبالسعة ضيقاً، وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة فجاؤوها كما فارقوها حفاة عراة، قد ظعنوا عنا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدار الباقية، كما قال سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [1].

وهكذا يؤكد الإسلام أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية للإنسان. أمّا الحياة الدنيا فهي حياة ظاهرية، اللهم إلا لمن عرف محلها.

---

١ – نهج البلاغة، الخطبة ١١١، صبحي الصالحي، ص ١٦٤ – ١٦٧ ورواه الكافي، ج ٨، ص ٥٨ ،والخصال ص ٥١ ومثله ما ذكره البخاري، ج٧، ص ١٧١ وكنز العمال عنه(ص)، ج ٣ ص ٨١٨ راجع ايضا: المعيار والموازنة لأبي جعفر الاسكاف ص ٢٦٤.

يقول القرآن الكريم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [١].

ويقول: ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [٢].

وعلى عكس المحدودية الدنيوية يمتلك الشوط الأخروي صفات أوسع بكثير، بحيث لا تقبل القياس بل تصل إلى حد الخلود بإرادة الله تعالى:

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ [٣].

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [٤].

وما أكثر الآيات التي تتحدث عن خلود عالم الآخرة، وهي بهذا تؤكد تحقيق أعظم أمل يتصوره الإنسان مطلقاً، كما تؤكد على أعظم خوف من شيء يمكن أن يتصوره إنسان أيضاً، لتحقيق الهدف المنشود من الدفع نحو الدخول في طاعة الله ورضوانه.

عالم الآخرة: عالم الانكشاف

ومن ميِّزات عالم الآخرة انكشاف الواقع:

﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [٥].

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [٦].

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [٧].

وعند ذلك فلن تجد إلاّ الإذعان للحق والتسليم المطلق من قبل الجميع للحقيقة.

---

١ – الروم: ٧.
٢ – العنكبوت: ٦٤.
٣ – يونس: ٥٢.
٤ – الفرقان: ١٥.
٥ – ق: ٢٢.
٦ – الحاقة: ١٨.
٧ – الطارق: ٩.

فتحدثنا الآيات عن أقوال المكذبين بعد أن تتكشف الحقيقة، فيجدون وعد الله حقاً، وعن أقوال المؤمنين الذين يعيشون النعمة الإلهية عياناً بعد أن يكون «الملك يومئذ لله». فهو «مالك يوم الدين» ولن يشك في هذه الحقيقة أحد آنذاك.. إنه اليوم الذي يتحدث فيه كل شيء عن الواقع وتشهد فيه الأيدي والأرجل والأمكنة، وباقي الجمادات عليه:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [1].

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾[2].

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [3].

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [4].

إنه يوم الفصل وما هو بالهزل، إنه عالم تتجسَّد فيه الأعمال والروابط بالنحو الممكن من أنحاء التجسُّد. إنه عالم تكون فيه الأمور المعنوية أعظم تأثيراً من الأمور المحسوسة، فيكون الرضوان الإلهي أعظم نعمة وأكبرها، ويكون الغضب الإلهي والبعد عن الله أشد عذاباً من النار وعذابها.

والملاحظ أن التركيز يتم على عالم الآخرة ومميزاته ولكنه يتوجه في نفس الوقت إلى الدنيا باعتبارها هي المحددة لنوعية السلوك في ذلك العالم، وهي الفرصة التي يمكن من خلالها ضمان السعادة في العالم الآخر.

وعلى ضوء هذا يعطي الإسلام موقفاً متوازناً من الدنيا والآخرة سيأتي الحديث عنه – إن شاء الله – في الفصل التالي:

---

١ – النور: ٢٤.

٢ – الكهف : ٤٩.

٣ – هود: ٩٨.

٤ – الاسراء: ٧١ .

الكلّية السادسة

التوازن بين طرق الخير وطرق الشر

ولما كانت الدنيا دار تكامل وابتلاء فقد كان لاختيار الإنسان دوره الحسّاس والأساس في تحديد طريقه بين الطرق الكثيرة المشرعة أمامه، فالإرادة الإنسانية هي التي ترجح أحد هذه الطرق على البقية وبالتالي فهي المسؤولة عمّا تعمل. فبدون الإرادة لا معنى للمسؤولية.

وإذا ما تصفحنا النصوص الشرعية التي تذكر لنا سبل الخير وسبل الشر، نجد أنها تجعل محور الشر: الشيطان، والهوى النفسي الجامح عن الطريق الطبيعي له، أو قل: الهوى الذي يفتقد صبغة الهوى الإنساني، لأن الهوى الإنساني يحكمه التعقل في حين أنها تجعل محور الخير: الإيمان بالله، وإقامة حق العبودية له في إطار من الوعي التام والإرادة التي يوجهها هذا الوعي [١].

نعم، هكذا شاء الله للإنسان: أن يواجه الحياة وأمامه سبل مختلفة، ثم بمقتضى إرادته يختار السبيل الأفضل ﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ .

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [٢].

---

١ - هنا نشير الى انحراف فكري كبير أصيب به بعضهم في العصر الحاضر، وهو انحراف أساس، إذ جعلوا محور الشر: (الاستعمار) ومحور الخير: (مصالح المجتمع)، دون أن يكون الأول في نظرهم مجرَّد مصداق للشر، والثاني مجرَّد مصداق الخير! وضرر هذا الانحراف كبير جداً، فمن جملة ما يؤدي إليه هذا الانحراف:

أ- الغفلة عن محاور الشر الأخرى، فلا تحارب بشكل متوازن ومتناسق مع محاربة الاستعمار، وكذلك الغفلة عن محاور الخير الأخرى كالتربية النفسية بالعبادات وأمثالها والأحكام الشرعية الأخرى، فلا يعمل على إنزالها الى واقع التطبيق.

ب - التعاون مع محاور الشر الأخرى في سبيل القضاء على الاستعمار، أو تحقيق مصلحة المجتمع الضيقة، وأكبر ضرر لهذا إجهاض المسيرة ومخالفة التخطيط التشريعي الإلهي لذلك.

ج - مادام الهدف قريباً، فإن مستوى العمل لن يُضمن بقاؤه، ولن يمتلك دافعاً عقائدياً مستمراً.

د - عدم التخطيط لمرحلة ما بعد هذين المحورين، وهذا خطأ فكري كبير جداً، في حين إذا كان المحوران هما: (رضا الله) و(محاربة الشيطان) فإن التخطيط سيستوعب جميع التاريخ وتبقى المسيرة صاعدة. .

٢ - الانبياء: ٣٥.

فالامتحان يصقل النفوس ويبدي جوهرها المكنون.. وعنده يكرم الرجل أو يهان.. ويعرف مدى اتباعه للإرشاد السماوي أو انحرافه عنه.

ويمكن هنا أن نلتفت إلى تجربة الامتحان الأول الذي مرّ به أبونا آدم في الجنة، إذ عرف به بدقة قيمة الإطاعة الكاملة لله تعالى وتسلّح على أثره بسلاح تجربة التوبة والاستعاذة من الشيطان بالله.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

وتأتي الروايات الكثيرة فترشد الإنسان إلى الصواب والسبيل الحقّ، بعد أن كان معرّضاً للخطأ في التشخيص:

ومنها ما في (الخصال للشيخ الصدوق) عن سماعة، قال: كنت عند أبي عبدالله(ع) وعنده جماعة من مواليه، فجرى ذكر العقل والجهل، فقال أبو عبدالله(ع): «إعرفوا العقل وجنده، والجهل وجنده، تهتدوا».

قال سماعة: فقلت جعلت فداك لا نعرف إلاّ ما عرّفتنا، فقال أبو عبدالله(ع): «إن الله – جلّ ثناؤه – خلق العقل وهو أول خلق خلقه من الروحانيين عن يمين العرش من نوره: فقال له: أقبل، فأقبل: ثم قال الله: أدبر، فأدبر فقال الله تبارك وتعالى خلقتك خلقاً عظيماً وكرّمتك على جميع خلقي، قال: ثم خلق الجهل من البحر الأجاج ظلمانياً: فقال له: أدبر، فأدبر ثمّ قال له، اقبل، فلم يقبل: فقال له: أستكبرت؟ فلعنه، ثم جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً، فلما رأى الجهل ما أكرم به العقل وما أعطاه أضمر له العداوة، فقال الجهل:

---

١ – البقرة: ٣٥ – ٣٨.

يارب هذا خلق مثلي خلقته وكرمته وقوّيته وأنا ضده، ولا قوة لي به، فأعطني من الجند مثل ما أعطيته. فقال: نعم فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك وجندك من رحمتي، قال: قد رضيت، فأعطاه خمسة وسبعين جنداً: فكان مما أعطى العقل من الخمسة والسبعين الجند: الخير، وهو وزير العقل، وجعل ضده الشر، وهو وزير الجهل، والإيمان وضده الكفر، والتصديق وضده الجحود، والرجاء وضده القنوط، والعدل وضده الجور، والرضاء وضده السخط، والشكر وضده الكفران، والطمع وضده اليأس، والتوكل، وضده الحرص، والرأفة وضدها الغرّة، والرحمة وضدها الغضب، والعلم وضده الجهل، والفهم وضده الحمق والعفّة وضدها التهتُّك، والزهد وضده الرغبة، والرفق وضده الخرق، والرهبة وضدها الجرأة، والتواضع وضده التكبر والتؤدة وضدها التسرع، والحلم وضده السفه، والصمت وضده الهذر، والاستسلام وضده الاستكبار، والتسليم وضده التجبر، والعفو وضده الحقد، والرقة وضدها القسوة، واليقين وضده الشك، والصبر وضده الجزع، والصفح وضده الانتقام، والغنى وضده الفقر، والتفكّر وضده السهو، والحفظ وضده النسيان، والتعطف وضده القطيعة، والقنوع وضده الحرص، والمواساة وضدها المنع، والمودة وضدها العداوة، والوفاء وضده الغدر، والطاعة وضدها المعصية، والخضوع وضده التطاول، والسلامة وضدها البلاء، والحب وضده البغض، والصدق وضده الكذب، والحق وضده الباطل، والأمانة وضدها الخيانة، والإخلاص وضده الشوب، والشهامة وضدها البلادة، والفهم وضده الغباوة، والمعرفة وضدها الانكار، والمداراة وضدها المكاشفة، وسلامة الغيب وضدها المماكرة، والكتمان وضده الإفشاء، والصلاة وضدها الإضاعة، والصوم وضده الإفطار، والجهاد وضده النكول، والحج وضده نبذ الميثاق، وصون الحديث وضده النميمة، وبر الوالدين وضده العقوق، والحقيقة وضدها الرياء، والمعروف وضده المنكر، والستر وضده التبرج، والتقية وضدها الإذاعة، والإنصاف وضده الحمية، والمهنة وضدها البغي، والنظافة وضدها القذر، والحياء وضده الخلع، والقصد وضده العدوان، والراحة وضدها التعب، والسهولة وضدها الصعوبة، والبركة وضدها المحق، والعافية وضدها البلاء، والقوام وضده المكاثرة، والحكمة وضدها الهوى، والوقار وضده الخفّة، والسعادة وضدها الشقاء،

والتوبة وضدها الإصرار، والاستغفار وضده الاغترار، والمحافظة وضدها التهاون، والدعاء وضده الاستنكاف، والنشاط وضده الكسل، والفرح وضده الحزن، والألفة وضدها الفرقة، والسخاء وضده البخل.

فلا تجتمع هذه الخصال كلها من أجناد العقل إلا في نبيٍّ أو وصي نبيٍّ، أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان، وأما سائر ذلك من موالينا فإن أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود، حتى يستكمل ويتقي من جنود الجهل، فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء(ص)، وإنما يدرك الفوز بمعرفة العقل وجنوده، ومجانبة الجهل وجنوده، وفقنا الله وإياكم لطاعته ومرضاته»[١].

إلاّ أن الشيء الذي يؤكد القرآن على نفيه هو مسألة سلب الإرادة عن الإنسان ووقوعه تحت تأثير أي من هذه القوى بشكل لا يملك مجالاً لدفع تأثيره.

وبهذا يسد دعوى أولئك الذين يتذرعون بأنهم فقدوا إرادتهم أمام الانحراف، ويحملهم المسؤولية الكاملة في ذلك نوعاً.

ففي مقدار سلطة الشر والشيطان يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّـنَنَّ لَهُـمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ، قَـالَ هَـذَا صِـرَاطٌ عَلَـيَّ مُسْتَقِيمٌ، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [٢].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَـقِّ وَوَعَـدتُّكُمْ فَـأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِـي فَـلاَ تَلُومُـونِي وَلُومُـواْ أَنفُسَكُم﴾ [٣].

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، إِنَّهُ لَـيْسَ لَـهُ سُـلْطَانٌ عَلَـى

---

١ - بحار الانوار، ج ١، ص ١٠٩. علق المحدث المجلسي (ره) في بحار الأنوار على هذه الكلمة بقوله: «لعل المراد بالجهل هو النفس الأمارة بالسوء والشهوات، التي تكون مبدأ لكل خطيئة، لا الجهل المقابل للعلم فإنه يكون من جنودها، كما يأتي في نفس هذا الحديث» ويؤيد هذا بإطلاق الجهل على النفس في حديث آخر. وراجع: المحاسن للبرقي، ج ١ ص ١٩٨. والكافي، ج١ ص ٢١، والخصال للصدوق،ص٥٨٩ ومشكاة الانوار للطبرسي ص ٤٤١.

٢ - الحجر: ٣٩-٤٢.

٣ - ابراهيم: ٢٢.

الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (١).

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٢).

هذا ... وإن الإنسان إذ يقبل على الخير ويتقدم خطوة إلى الله يقبل الله عليه بأضعاف ذلك. فسبل الخير ممهدة، والإنسان هو الذي يختار مصيره، ويعبر الامتحان والبلاء مصقول النفس، فلا مجال إذن لقول أولئك الذين تذرَّعوا الأحابيل ليبرِّروا إجرامهم.

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (٣).

والتوازن الملاحظ بين طرق الخير وطرق الشر هو الذي فتح الطريق للإنسان كي يسير في سبيل التكامل، وتتفتح لديه الطاقات الكامنة في فطرته.

وأي اختلال مؤثر على حرية الإرادة في هذا المجال يعني في الواقع سد سبيل التكامل الإنساني الذي شاء الله له أن يتم بشكل إرادي فعّال.

الكليّة السابعة

التوازن بين هدف الخلقة الإنسانيّة والإمكانيات الممنوحة

قلنا: إن العقيدة تشكل في الإسلام الأساس الذي يبتنى عليه النظام، والروح الذي تسري في كل جوانبه، ومن هنا نشاهد أن القرآن الكريم عندما يتعرض للأحكام المختلفة يختم الآيات المتعلقة بها بما يشعر بأن كل هذه الأحكام قائمة على التقوى والفلاح.

---

١ - النحل: ٩٨-١٠٠.

٢ - النساء: ٧٦.

٣ - الاعراف: ٢٨- ٢٩.

والعقيدة الإسلامية بدورها ترتكز على حقيقة أساسية هي حقيقة التوحيد والتنزيه، وإعطاء صفات الكمال كلها لله تعالى، ونقصد بها الأعم من صفات الذات وصفات الفعل في الاصطلاح.

والآية القرآنية الشريفة قبل كل سورة وهي «بسم الله الرحمن الرحيم»، تركز في أذهاننا أن كل شيء في الكون ينطلق ويبتدى من الله تعالى، خصوصاً إذا لاحظنا أن متعلق الجار والمجرور فيها محذوف، مما يشير إلى العموم بل يؤكد لنا معناه، وأن كل شيء يبتدي من اسم الله ويقوم باسم الله، وأن كل حركة في الكون هي باسم الله تعالى.

في حين يؤكد لنا المقطع الأخير من الآية الكريمة أن ذلك الانطلاق إنما يكون على أساس من تلك الرحمة الواسعة اللاّمحدودة، وذلك اللطف الإلهي الشامل.

والإنسان من بين كل الكائنات هو الكائن الذي انصبت عليه الرحمة الإلهية الفائضة، فوهبته العقل والإرادة، وجعلته لوحده الموجود الذي يقبل الوصول إلى درجات الكمال الممكنة، فكان هو الموجود المكرم «ولقد كرمنا بني آدم».

وكان هو الموجود الذي سخرت له الموجودات وخلقت لأجله، لكي يواصل مسيرته في طريق الكمال من جميع جهات حياته.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١] وجعل الهدف من الخلقة هو العبادة، إشارة إلى أن درجة العبودية لله تعالى كلما ترقت ترقى الإنسان في مدارج الكمال، وأصبح أكثر قرباً من أعظم حقيقة في الكون، وأكثر علماً وارتباطاً بواقعه كعبد لخالق الكون العظيم.

وما نريد أن نبحثه هنا هو الوسائل التي زود بها الإنسان لكي يقطع الطريق الطويل نحو هذا الهدف النبيل جداً؛ لنكتشف بالتالي التناسب الرائع بين الأهداف العليا والإمكانات التي زود بها لتحقيق تلك الأهداف.

وسنوضح ذلك على النحو التالي:

---

١ – الذاريات: ٥٦.

أ ـ ماهي أنواع الهداية؟ وماهي نوعية تأثير كل نوع على الآخر؟

ب - كيف يتناسق عمل هذه الأنواع في سبيل إيصال الإنسان إلى الهدف المطلوب؟

أ. أنواع الهداية:

ويمكننا أن نقسم الهداية المتواجدة لدى الإنسان إلى قسمين: تكوينية، وإيحائية: أما التكوينية، فتنتظم في مجالات عديدة:

الهداية الغريزية الفطريَّة:

من الواضح أن في أعماق كلٍّ إنسان صفات نابعة من فطرته وتكوينه ومرتبطة بذاته وأصالته فإنَّها تطبع سلوكه بطابعها تماماً، ولا مناص منها، فهي تشكل - إذن - أحد الدوافع التي هيئت بدقة لإبقاء النوع الإنساني، وخلق الحافز فيه للسير في الطريق التكويني المرسوم.

الهداية العقلية:

والمقصود بها تلك الطاقة التي يمتاز بها - قبل غيرها - الإنسان عن غيره من الحيوانات، وبهذه الهداية يستطيع أن يفعل مايلي:

الأوّل - السيطرة على غرائزه والحد من تأثيراتها المفرطة وتهذيبها وتصريفها بصورة نظيفة.

الثاني - التخلُّص من حدود المشاعر الماديَّة المحصورة بما يحسُّ به فقط، والتعالي على الواقع، مما يمنحه فرصة تغييره إلى الحالة الأفضل. هذا هو السبب الأهمُّ الذي جعله يمشي في خط التكامل ويقطع شوطاً بعيداً، في حين لم تمشِ الحيوانات الأخرى في هذا السبيل مطلقاً.

وهكذا نستنتج مما سبق مايلي:

أولاً - إن كل من ارتفعت لديه صفة التعقل ارتفعت لديه صفة الإنسانية، والعكس صحيح.

ثانياً – إن كلَّ مذهب ينمّي في الإنسان جانب التعقل السائر في ظل الفطرة الإنسانية – طبعاً – مع عدم إغفال الجوانب الأخرى فيه فهو مذهب إنساني، والعكس صحيح أيضاً.

أمّا الهداية التشريعية: فأعني بها ما يحمله الوحي إلى البشرية من تشريعات تنير لها طريق كمالها وتهديها إلى الصراط المستقيم. وهي التي يمهد لها العقل بإيمانه بالله تعالى ربّاً خالقاً أحداً، وبالرسول(ص) هادياً ومبشراً وقائداً، وهكذا باقي العقائد وعندما تستقر أصولها العقائدية في النفس تنبع منها تشريعات حياتيّة. وتشترك العقيدة والتشريعات في توجيه الهدايتين السابقتين توجيهاً صحيحاً، على تفصيل يذكر في محله.

١ـ إعطاء العقل الخبرة اللازمة، وتنميته وتقويته في نفسه.

٢–رسم السبل التي يجب أن يسلكها العقل في مختلف المجالات، ومنها مجال تنظيم الغرائز والسيطرة عليها، وإشباعها إشباعاً متوازناً.

هذا إلى غير ذلك مما يضمن للمسيرتين الفردية والاجتماعية ديمومة التكامل.

ب – التناسق في تأثير الهدايات بأنواعها في سبيل إيصال الإنسان نحو الغاية المنشودة:

مما عرضناه سابقاً توضح أن الهدف الإنساني الأعلى يتطلب أموراً أهمها الأمور التالية:

١ـ وجود دوافع ذاتية نحو التكامل، ولو على المدى الطويل.

٢– وجود دوافع ذاتية لحفظ الفرد والنوع الإنسانيين إلى مدىً طويل وذلك باعتبار أن الهدف الأعلى يحتاج إلى مرور الإنسانية بمراحل تكامل ضرورية.

٣– وجود الإرادة التي تشكل صمّام الأمان في تنظيم تأثير الدوافع.

٤– وجود منبع محيط عالم قدير، مشرف على تنظيم الإرادة والتخطيط لعملها.

وقد شكلت الغرائز الدوافع والمنابع الفطرية الذاتية المطلوبة في النقطتين الأوليين فممّا يمكن تصنيفه ضمن النقطة الأولى:

أـ غريزة التدين.

ب – غريزة حب الكمال.

ج - غريزة حب الاستطلاع... وغيرها.

وهذه كلها تبعث الإنسان على استكناه الحقائق، والشوق نحو الحقيقة الكاملة المطلقة.

ومن الواضح أن ذلك يعتبر أول الطريق، بل وأساس السير في سبيل الهدف الأصيل.

وممّا يمكن تصنيفه ضمن النقطة الثانية من الغرائز - بالإضافة إلى بعض الغرائز السابقة - مايلي:

أ- غريزة حب الذات وفروعها من غرائز: الخوف، والإشباع، وغيرها.

ب - غريزة الغضب.

ج - الغريزة الجنسية.

د - غرائز الأمومة وغيرها.

فإذا التفتنا إلى أن هذه الغرائز كلها منابع فوّارة عمياء، يعمل كل منها على أن ينعكس في سلوك الإنسان وعمله، ويوجه حياته، إذا التفتنا إلى ذلك أدركنا سرَّ الحاجة إلى الإرادة التي هي سر الفرق بين الإنسان والحيوان، وطبعاً نقصد بها الإرادة الواعية، لا الحيوانية التي حدثتنا عنها الآية القرآنية الشريفة:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [١].

والنعمة الكبرى التي تقوم بمهمة صمّام الأمان لعمل الغرائز وتنظيمها هي العقل. ولكن لما كان العقل محتاجاً أشد الحاجة إلى من ينميه أولاً، ويخطط له ويصدر له الأوامر، وبالتالي يوجهه بعمله الواسع إلى مواقع التنفيذ أو الإحجام أو غير ذلك، على أساس من علم واسع بالكون والنفس وعلاقاتهما ومصالحهما فإن الدور هنا يتهيّأ للهداية الإيحائية أو الهداية التشريعية، وهكذا. فقد يكون الوحي والإلهام المرشدين اللّذين يقومان بلطفه تعالى بتلك الوظائف.

---

١ - محمد: ١٢.

وعلى هذا يمكننا أن نمثل للغرائز بمنابع الأنهار التي تجري المياه منها بهيئة أنهار تشق طريقها وتتفرق هنا وهناك، ولربما جفت فتعطش المدن، ولربما فاضت فأغرقتها، ولكن إذا أقيم السد الكبير المنظم (العقل) توفر ضمان من الفيضان ومن الهدم والعطش المتوقع وتمت السيطرة على تنظيم المياه للري والسقي، ولكن السد يحتاج إلى توجيه وتخطيط وإشراف من قبل هيئة تطلع على الحاجات، وتحاول الموازنة بينها وترسل التقارير المتواصلة إليها عن ذلك، وتلك الهيئة يقابلها (الوحي) في مورد حديثنا هذا.

الكلّية الثامنة

التوازن بين مصادر المعرفة الإنسانية

وتبعاً للبحث السابق، فإننا نجد أن هناك توازناً أساسياً في مصدرية كل من الحس، والعقل، والوحي، للمعارف الإنسانية.

إذ أن الإسلام - بلا ريب - من مبادئ اليقين التي تعطي المعرفة قيمتها الأساسية وترفض كل أنماط التشكيك في قيمة المعرفة، أو القول بنسبيتها - وهو لا يعدو التشكيك في جوهره - فإذا كانت المعرفة الإنسانية ذات قيمة لدى الإنسان فما هو المصدر الصحيح للمعرفة الإنسانية؟ إن الإسلام يقرر - بمقتضى ظاهر الآية القرآنية التالية - أن المعرفة ليست عملية استذكار - كما يقول (أفلاطون) - إذ أن الإنسان يولد وليس في ذهنه أي شيء من العلم: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [1].

فذهن الطفل إذن صفحة بيضاء ليس فيها أي شيء، أللهم إلا الاستعداد للتلقّي.

أما مصادر المعرفة التي يثبتها القرآن فهي: الحس، والعقل، والوحي، وقد رأينا أن الآية القرآنية نفت المعرفة السابقة ثم أثبتت سبلاً أعطاها الله للإنسان، ليعرف بها، وكان أولها: «السمع والأبصار» وهي سبل حسية، فالحس هو مصدر المعرفة الأول، الذي تنتقل عبره التصورات إلى ذهن الإنسان.

---

١ - النحل: ٧٨.

وقد رأينا القرآن الكريم يؤكد على هذا المصدر تأكيداً أساسياً.

والمصدر الثاني هو: العقل، بما لديه من قدرات تجريدية وما أودع في أعماقه من قضايا وجدانية، وقد رأينا القرآن يؤكد عليه بأساليب مختلفة: فقد عبَّر عنه بـ «الأفئدة» في الآية السابقة.

وهو يؤكد عليه مرَّة بصورة مباشرة: بمثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [١].

ومرَّة أخرى يستدل على مايريد استدلالاً عقلياً: كما في قوله تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [٢] ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [٣]. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ [٤].

إلا أن هذا المصدر وهو العقل قد يبتلى بأمور تحرفه عن النظر الدقيق، وأهمها ذاتية الإنسان وهواه، وتحويله الظن إلى يقين ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [٥].

كما ان سرَّ انحراف الاستنتاج العقلي هو عدم العلم بجميع جوانب الحقيقة الذي يحذر منه القرآن ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [٦]. وعلى أي حال فالعقل معرَّضٌ للخطأ.

ومن هنا جاء الوحي الإلهي مصدراً أساسياً للمعرفة لا يحتمل فيه أي خلل أو اشتباه، أو عدم وضوح للحقيقة، فالوحي إذن هو مصدر المعرفة السالم من أيّ انحراف بعد أن كان المصدران السابقان معرَّضين في بعض حالاتهما للانحراف. يقول تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٧].

---

١ – سبأ: ٤٦.

٢ – الطور: ٣٥.

٣ – الانبياء: ٢٢.

٤ – الزمر: ٢٩.

٥ – النجم: ٢٣.

٦ – الاسراء: ٣٦.

٧ – الجاثية: ١٨.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١].

﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [٢].

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٣].

﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [٤].

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [٥].

إلى ما هنالك من عشرات الآيات التي تؤكد هذا المعنى، بل إن القرآن كله يقوم على أساس أنه ﴿يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [٦]. فيرشد العقول في معارفها، ويعيِّن لها الحق، لأنه الفرقان بين الحق والباطل.

وهكذا نجد أن هناك توازناً بين روافد المعرفة الإنسانية، كما وجدنا قبل قليل توازناً في محركات الإنسان نحو هدفه، بل يتلاحم الأمران فلا يشعر الإنسان بالافتراق بينهما.

ولا نجدنا بحاجة للتنبيه على أن ايَّ مصدر من هذه المصادر إذا انسدَّ فإنَّ المتوقع هو أن يبدَّل الإنسان غير الإنسان فلا يمكنه أن يطوي طريق تكامله ويُعمِلَ قدراته التي شرفه الله بها فأسجد له ملائكته لأجلها.

فالحسُّ هو سبيل التعامل مع العالم المادي والخطوة الأولى للمعرفة فلا يمكن أن يسدَّ.

أما العقل فهو الخطوة المهمة الثانية التي تُعلي الإنسان عن إسار المادة في حين يربطه الوحي بمنبع العلم والحقيقة الكبرى.

---

١ – البقرة: ٣٨.

٢ – الزمر: ٣٣.

٣ – الانعام: ١١٥.

٤ – الاحزاب: ٢٢.

٥ – فاطر: ٣١.

٦ – الاسراء: ٩.

الكلّية التاسعة

التوازن بين العوامل المحركة للتاريخ الإنساني والإرادة الإنسانية

قبل الدخول في هذا الموضوع ننبه على أن هذا التوازن يتمُّ بناءً على أساس التوازن السابق بين الإرادة الإلهية المطلقة والإرادة الإنسانية المحدودة، فإنَّ كل قانون محرك للتاريخ والمجتمع الإنساني مثله كمثل القوانين الأخرى في الكون يشكّل مظهراً من مظاهر الإرادة الإلهية المطلقة، بل إنَّ حرية الإرادة الإنسانية نفسها هي تعبير عن ذلك.

المجتمع، هل هو وحدة حية؟

يطرح بين الدارسين للتاريخ وفلسفته بحث حول (المجتمع) وهل يمتلك وجوداً حياً غير وجودات أفراده الحيَّة، بمعنى أنَّ له حياة حقيقية لا خيالية أو مجازية؟

وقد طرحت هنا آراء تراوحت بين إنكار أيٍّ وجود متميز للمجتمع عن الأفراد والإيمان بأنَّ للمجتمع أصالة طاغية لا يبقى معها للفرد أيُّ وجود، تماماً كما هو الحال في التركيبات المادية الكيمياوية، حيث يذوب الجانب الفكري والروحي الفردي في التركيب الاجتماعي العام؛ فيكون المجتمع هو الذي يلوِّن سلوك الأفراد ويتحكَّم تماماً في مسيرتهم، وهي النظرية المنسوبة إلى (دوركايم).

في حين نرى بعض علماء المفسرين يؤكد على وجود حياة للمجتمع، إلاّ أنَّ الأفراد لا يفقدون خواصهم في هذا التركيب الاجتماعي، خلافاً للمركبات التكوينية.

وقد رأى بعض المفكرين من الأساتذة -كالأستاذ الشهيد آية الله المطهري (ره) (فيما أعتقد): «أن من الممكن القول بوجود أنواع متعددة من الحياة في المجتمع، فللمجتمع أركان رئيسة، كالتشكيلات القضائية والأخلاقية، والسياسية، ولكلٍّ من هذه الاسس نوع حياة.. وقد تتعارض هذه الأسس فيما بينها.. وبهذا يكون المجتمع موجوداً حياً لا يقاس بأيٍّ موجود حيٍّ آخر».

ومهما يكن الأمر، فإنه لا يمكن أن ننكر دوراً من نوع ما لبعض العوامل المسيِّرة

للحركة الاجتماعية، فما هي هذه العوامل؟ وما هو حجم ذلك الدور؟ وماهي الأطر التي يتحدد من خلالها؟

ما هو العامل المحرك للتاريخ؟

إذا كان لنا أن نعطي تصنيفاً جامعاً للنظرية المطروحة على هذا السؤال، فإنَّنا نجعله في ثلاثة تصورات:

التصور الأول: نظريات العامل الواحد.

التصور الثاني: نظريات العوامل المتعددة.

التصور الثالث: رفض تصور نظام عِلّيّ مترابط في المجال الاجتماعي والتأكيد على مجموعة من الصدف والاعتبارات لا غير.

ويكاد اتفاق المفكرين - إلاّ من شذ -[١] ينعقد على رفض التصور الثالث، والإيمان بنظام عِلّيٍّ، وقوانين تاريخية نُحِسُّ آثارها ونلمسُ مقتضياتها، بشكل لا يدع مجالاً للإنكار... ومن هنا فنحن نركز على الرأيين الأول والثاني بشكل مجمل فنقول:

أما التصور الأول - وهو نظريات العامل الواحد - فالمقصود به: تلك النظريات التي تبني الحركة التاريخية الاجتماعية على أساس من عامل واحد يكون هو محورها والمكيِّف لظواهرها المختلفة، وتعطي بعض العوامل الأخرى دوراً ثانوياً، يصغر أحياناً فلا يكون معه إلاّ وسيلة ينفِّذ من خلالها ذلك العامل المحور مآربه.

من نظريات العامل الواحد:

(النظريات الماركسية): وهي تبني كل الظواهر الاجتماعية من فكر ولغة وغير ذلك على أساس الوضع الاقتصادي المبني على أساس تطور وسائل الإنتاج.

وكذلك النظرية التي تبني تطور المجتمع على أساس القدرات العرقية، وتلك التي

---

١ - لاحظ مثلاً كارل بيوبير في كتاب (عقم المذهب التاريخي).

تبني ذلك على أساس العامل الجغرافي. وهكذا تدخل في هذا المجال - بوجه من الوجوه - النظرية المؤكدة على الغريزة الجنسية العمياء المحركة للمسيرة الفردية المؤثرة في صوغ المسيرة الاجتماعية... وهكذا غيرها.

ولا يمكن أن ننظر إلى هذا الرأي لأول وهلة على أساس أنه رأي مفرط وتجريد ذهني لبعض المؤثرات في المسيرة وأعطائها صفة مطلقة. وهذا هو أخطر ما يمكن أن يصاب به الفكر الإنساني خلال مسيرته الحضارية، إذ يصوغ آلهة وهميَّة - كما يعبِّر عنه الشَّهيد آية الله الصدر (قدس سره) - لتكون هذه بدورها قيوداً تمنع من انطلاقته الحضارية المجددة.

وقد رفض الإسلام هذا التصور عن الواقع التاريخي [١] ورجَّح التصور الثاني مع تعديل أساسي عليه.

ذلك أن كل تلك المبادئ تتفق - تقريباً - على إبعاد الإنسان وإعطائه دوراً تاريخياً ثانوياً في عملية التطور والتغيير، في حين يرى الإسلام - كما تبديه نصوصه وروحه - أن الإنسان يمتلك دوراً رئيسياً أصيلاً في تحريك التاريخ، وأن الخصائص الإنسانية هي التي تلون المسيرة الاجتماعية وتصبغها بصبغتها. ويعبِّر القرآن عن الخصائص الإنسانية الأصيلة المشتركة بين المجتمع والتي بني الإنسان على أساسها، وعجنت طينته بها بـ(الفطرة) ويعني بها ما فطر عليه الإنسان وبني عليه وجوده بكل أبعاده الإنسانية.

إن الفطرة الإنسانية - في رأي الإسلام - فطرة ثابتة أصيلة محركة، وإن كل ما ينبعث من الفطرة من غرائز ودوافع يتخذ له صفة دوافع رئيسية لا يفتر عن الدفع نحو الكمال والتطور وانتخاب الأحسن وفق الانشداد بالمطلق الحقيقي الذي يوفر مسيرة مطمئنة وهدفاً أكبر من وجوده دائماً، فهو يسعى نحو التكامل دائماً.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [٢].

---

١ - اقتصادنا، الشهيد الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، طبعة ١٦، ج ١، ص ٤٣ (بالمعنى).

٢ - الانشقاق: ٦.

وكل ذلك الانشداد والتكامل يعبَّر عنه بـ (الدين)، وتقول الآية الكريمة:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [1]. فالفطرة استعداد يرجح سير الإنسان في خط معين نحو كماله.

ونستطيع أن نحسَّ عمق هذه الفطرة وتأثيرها في الوجود التاريخي للإنسان. من خلال عمق تأثير طموح الإنسان في كل عصر وأينما كان نحو الكمال، وهو الشرط الأساسي للبناء والتغيير، وليست طموحات الإنسان إلاّ تعبيراً فطرياً، وكذلك من خلال دافع الانشداد بالمطلق الذي صاحب وجود الإنسان بمختلف مراحله، وما الانشداد بالمطلق إلاّ تعبير فطريٌّ، وهكذا قل عن غريزة حب الذات وغيرها من المظاهر الفطرية التي تؤكد الآيات القرآنية عمق تأثيرها، وكل هذه الأمور تتخذ سبلها للتأثير عبر مظهر فطري أصيل هو التفكُّر الإنساني، وهو أرفع خاصة فطرية إنسانية.

وليس التأكيد على الفطرة - هذه - يعني رفض أي دور آخر لأيّ شيء في حياة الإنسان... وذلك - كما شاهدنا - أن تلك المذاهب التي أكدت على العامل الواحد أعطت العوامل الأخرى أدواراً ظاهرية يقف من ورائها ذلك العامل الواحد في الواقع. كلا بل إنَّ هناك نوعاً من التوازن بينها وبين الفطرة المحرِّكة.

ما هي العوامل التي تشترك مع الفطرة في صنع التاريخ؟

يمكننا بهذا الصدد أن نذكر أن أهم العوامل المؤثرة التي نرى الإسلام قد أكد عليها، تنتظم في الخطوط التالية:

أ ـ التأثرات التكوينية للقوانين المحسوسة منها وغير المحسوسة:

مما لا ريب فيه أن نوعية المنطقة، وتوفر الموارد المساعدة لإنشاء الحضارة على اختلاف متطلبات الحضارات لهما أثرهما الكبير في صنع الحضارة والرقي، ومنح المجتمع

---

١ - الروم: ٣٠.

الفرص الملائمة، ودفعه نحو تحقيق حياة أفضل... وهذا أمر يصدق به كل إنسان، كما أنه لا ريب في تأثير نوعية الوضع الاقتصادي على الوضع الاجتماعي العام، وقد اهتم الإسلام بهذه الأمور - وخصوصاً الأمر الاقتصادي - ونظم الحياة الاقتصادية بشكل ينسجم والاحتفاظ بدافع العمل والرقي من جهة، ولا يبخس التوازن الاجتماعي حقه من جهة أخرى. وسيأتي شيء من الحديث عنه في المستقبل إن شاء الله تعالى.

وقد ركَّز الكثير من علماء التاريخ على وجود دورات حتمية الوقوع أو أغلبيته للحضارات ومنهم (ابن خلدون) في مقدمته، ومن المحدثين (آرنولد توينبي). وسواء صحت استنتاجاتهم أم لا فإنَّ علم التاريخ يكاد أن يسلِّم بوجود قوانين تكوينية تحكم مسيرة المجتمع ككل، والأوضاع الفرعية، وإلاّ فلا معنى لتصوُّر التاريخ علماً عملياً مؤثراً في المجال الإنساني.

والقرآن الكريم يتحدَّث عن هذه القوانين بتعبير (السنن) فيقول:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ، هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ، وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ [2].

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[3].

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[4].

إلى كثير من الآيات الدالة على وجودها وثباتها.

إلاّ أنها قوانين لا تفرض نفسها على الفكر، بل الفكر الإنساني هو الذي يحقق مجال

---

١ - آل عمران: ١٣٧ - ١٣٩.

٢ - الاسراء: ٧٧.

٣ - الاحزاب: ٦٢.

٤ - النور: ٣٤.

عملها كما سيأتي، والإسلام بمقتضى واقعيته إذ يعترف بقوانين تحكم المسيرة الإنسانية، يرى ضرورة تهيئة مجال الرقي المادي والمعنوي بخلق أرضية عمل تلك القوانين:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾ [1].

وحديث: «أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسباب»[2] ونحو ذلك.

إلا أنه يستمد من علم الله تعالى مشرع الإسلام ما يضيف إلى الصورة التكوينية جزءاً ليس بالحساب وفق التصور المادي، ذلك هو مجال تأثير القوانين غير المحسوسة وما يمكن أن نسميه بـ (القوانين المعنوية التكوينية)، فإن القرآن يحدثنا في مختلف الأمكنة عن مثل هذه القوانين المعنوية، ولو تتبعنا الآيات القرآنية التي تتحدث عن الجانب الحضاري ومنه الجانب المادي للشعوب، وجدنا أنها تركز على كيفية تعامل الإنسان مع الدين، ومع الله، أي مع وظيفته تجاهه تعالى. فتجعل نوعية الوضع سبباً للرقي والنصر - إن كانت إيجابية - وللانهيار والضياع - إن كانت سلبية - وهذا كما في الآيات التالية:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ، فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ، ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ، فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [3].

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ

---

١ - الحج: ٤٠.

٢ - مجمع البحرين، ص ١١٤، راجع: ص ٦٤.

٣ - سبأ: ١٥ - ١٩.

وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [1].

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [2].

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [3].

ويخاطب نوح(ع) قومه فيقول:

﴿فقلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾ [4].

وتتلازم الزيادة في النعمة الإلهية مع الشكر: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [5].

واعتبر ظلم الإنسان وكفره سبباً لشقائه، بعد أن وفرت له كل النعم: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [6].

ب - التأثيرات التكوينية أيضاً للفطرة الإنسانية بما فيها من غرائز:

وقد مر شيء من الحديث عن الغرائز، وتناسق عملها، وشدة تأثيرها.

وقد تكون أهم غريزة في الإنسان غريزة حب الذات التي سميت بـ(أم الغرائز) وتأثيراتها كبيرة في حياة الإنسان. ومن هنا فقد اهتم الإسلام بتوجيهها الوجهة الصحيحة بعد أن اعترف بها بمقتضى واقعيته. فالغرائز تحتاج - في نظر الإسلام - إلى تربية متواصلة، وجو نظيف للإشباع، وهذا ما عمل على توفيره بأقصى ما يمكن.

---

١ - الانعام: ٦.
٢ - الانعام: ١١.
٣ - هود: ٥٢.
٤ - نوح: ١٠ - ١٢.
٥ - ابراهيم: ٧.
٦ - ابراهيم: ٣٤.

ج – الفكر والإرادة الإنسانيان

وهذه المسألة هي التي يركز الإسلام على دورها التاريخي الكبير... وهي المسألة التي شكلت حلقة الوصل بين جميع الحضارات، والناقل الأساس من مرحلة إلى أخرى.

فرغم أن كل تلك القوانين والغرائز لها آثارها في حياة الإنسان، إلاّ أنه يبقى رغم ذلك محتفظاً بقوة التفكير – على اختلاف في مستوى الدقَّة – أوّلاً، ثم التصميم والإرادة في المرحلة التالية. إن الإنسان بإرادته يشكِّل أرضية عمل القوانين غالباً، وقلنا في الغالب لئلا نتجاهل التأثيرات الكبرى التي تركتها العوامل اللاإرادية في التاريخ الحضاري للإنسان، رغم أن الإنسان قد يظن أحياناً بأن إرادته محكومة لعوامل لا يمكن التخلُّص منها. وذلك إمّا لضعف فيه، وإمّا لإيحاء من أولئك الذين تحكَّموا في مصيره لأهوائهم الشخصية.

والحقيقة أنه لولا الفكر والإرادة الإنسانيان لما كان هناك أيُّ فرق بين مجتمع الإنسان ومجتمع الحيوان، لأن كليهما معرَّض لتأثير القوانين التكوينية، إلاّ أنَّ امتلاك الإنسان لهذين العنصرين الأساسين، بالإضافة لنوازع الكمال الفطرية، والمهيِّئات الأخرى، هو الذي منح المجتمع الإنساني قدرة التغيير والطموح إلى أقصى ما يمكن، أي حتى الطموح إلى الخلود في الحياة.

ومن هنا اهتم الإسلام غاية الاهتمام بالفكر والمعرفة الإنسانية، ودعا إلى التفكر الموضوعي الدقيق، وعبر عن الفكر بمختلف التعبيرات كتعبير: التدبر، والتعقل، والرؤية، وغير ذلك. كما اهتم غاية الاهتمام بالإرادة الإنسانية (كعامل مغير مطور) فنماها وركز على أن يمتلك الإنسان زمام إرادته بيده ليحتفظ بإنسانية حيَّة. وهكذا إذن شاء الله أن ينطلق التغيير من الإرادة:

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[١].

---

١ – الرعد: ١١.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[١].

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾[٢].

د. الدوافع والتأثيرات الكبرى للتوجيهات السماوية عن طريق الأديان التي تشكل نقاط الضوء في التاريخ البشري.

إن النصوص الإسلامية من جهة، والواقع التاريخي من جهة أخرى، لتؤكِّد على الدور الذي لعبه الوحي في تحقيق التطوير الإنساني الضخم.

وهكذا تتوضح لنا صورة كبرى من صور التوازن بين العوامل المحرِّكة وبين الإرادة التي تعتبر في إطار الفكر الخطوة الأساس للتحريك، مما تؤكد لنا أن الإسلام كان المبدأ الذي كرَّم الإنسانية في حين أهانتها كل المبادئ الأخرى، حتى حين ألهتها. ومن المبادئ التي أهانت الإنسان: الماركسية التي جعلت الإنسان محكوماً بكل وجوده لتطور الوضع الاقتصادي.

وفي ختام هذا الحديث نشير إلى شبهة نظن أنها انطلقت لتعطي الإسلام صفة العصرية، وتجعله قادراً على التحرُّك في خِضم الأطروحات الحاضرة.

وملخَّصها: أننا يمكن أن نقبل التركيب (الماركسي) لحركة التاريخ، مع تعديل أساسي عليه يحوله من تركيب مادي إلى تركيب إلهي، وذلك بأن نقول:

ـ صحيح أن الظواهر الاجتماعية كلها مبنية على أساس من الوضع الاقتصادي الذي يبتنى بدوره على أساس من نوعية القوى المنتجة، إلاّ أن نقطة الخطأ (الماركسي) هي أنها جعلت التحرك ينطلق من هذه القوى نفسها دون أن تنظر إلى ما وراءها، ولذا ولأجل التوفيق بين التركيب (العلمي للماركسية) والعقيدة الإلهية، فإننا نقول:

ـ إن العامل المحرك للتطور الاقتصادي هو الله تعالى، وبهذا نحسم الأمر، ونبيِّن أن الإسلام يواكب أحدث التطورات الفكرية.

---

١ – الانفال: ٥٣.

٢ – النحل: ٣٤.

ولئن عبَّر هذا التصور عن شيء فإنما يعبِّر عن هزيمة نفسية من جهة، وضحالة فكرية من جهة أخرى، إذ إنه لم يلتفت إلى أن الصفة (الماركسية) في الحياة تفقد أيَّ دليل علمي أو فلسفي أو غيره على وجودها، بل يرفضها الواقع العلمي القائم، وفوق ذلك فإن أخطر مافي هذا التفكر (الإلهي) المدَّعى: هو أنَّه يقضي على الإلهية نفسها، وذلك لأن التفكُّر نفسه والإرادة وسائر ظواهر الحياة الإنسانية هي أجزاء من البناء العلوي للوضع الاقتصادي، حيث يطبعها في رأي الماركسية بطابعه كيفما شاء، وهنا تتحول المعرفة الإنسانية إلى معرفة شكية نسبية ليس لها واقع إلا مطابقة مقتضيات الوضع الاقتصادي، وهذا المعنى يسري حتى على فكرة الألوهية نفسها، فتصبح نتاجاً اقتصادياً لا يعبِّر عن الواقع الموضوعي.

والحقيقة: هي أنَّ هذا الإشكال نفسه يردُّ على (الماركسية) نفسها، ولا تستطيع الإجابة عليه... فلماذا يورِّط هؤلاء أنفسهم والإسلام مع أنفسهم في هذه السبل المتعرِّجة التي تقضي عليهم وعلى تصورهم الإسلامي المزعوم؟

إن استقلال الفكر والإرادة - ولو في بعض جوانبها - هو جوهرة الإنسان الثمينة.

كما أننا نشاهد بعض الكتّاب قد أكَّدوا على الفطرة الإنسانية تماماً وكأنهم تناسوا فعل القوانين الأخرى، بل أكَّدوا على الجانب الفطري الغريزي بشكل يكاد يفقد الإنسان معه إرادته وهذا - إن كان مقصوداً - يجافي روح الإسلام والحقيقة.

وكل هذه فكرة خطيرة جداً جاءتنا من خلال عدم الموضوعية في النظرة إلى الإسلام، ذلك أننا نجد الكثيرين من دارسي الإسلام يطرحون نظرة الإسلام ومفاهيمه وتاريخه بل وأحكامه على بساط البحث، وينظرون إلى الجميع نظرات متأثرة بفكرة غريبة على الإسلام نبتت في منابت لا ترى الإسلام وحياً إلهياً، بل فكرة بشرية، أو نظاماً افترضه وضع معين: فيتأثر بها هؤلاء الكتاب دون أن يعرفوا منبتها، ويحاولون تفسير التاريخ الإسلامي والمفاهيم الإسلامية وفق نظراتهم الاجتماعية.

إنَّ هؤلاء لم يردوا الأمر من منابعه، ولم يلتفتوا إلى أننا يجب أن نعتمد في تكوين

فكرتنا عن المفهوم الإسلامي على النص الواضح والمستند القطعي وملاحظة روح الإسلام القطعية، قبل أن نحاول تطبيق النظريات الأخرى على الإسلام وتشويه شخصياته[١].

القسم الثاني من مجالات التوازن:

التوازن في تعامل المسلم مَعَ الواقِع

لاحظنا في القسم الأول أنماطاً من الصور المتوازنة التي شكَّلت مجمل نظرة الإنسان المسلم للواقع الموضوعي.

وهذه النظرة تمثل الإطار الفكري والمفاهيمي الذي يتحدد عبره تعامل المسلم مع هذا الواقع الهائل.

وسنتبع في القسم الثاني هذا، السمات العامة لهذا الموقف ثم ننطلق إلى التفصيل عبر بيان التوازن في التشريع الإسلامي. فحديثنا يتمُّ في فرعين:

الفرع الأول: السمات العامَّة لتعامل المسلم مع الواقع

ويمكن تلخيصه بما يلي:

أولاً: الموقف المتناسق من الكون المتناسق

رأينا في أول ما عرضناه من تصورات المسلم عن الواقع أنه يري الكون كلا متناسق الأجزاء مترابطا، قد وضع كل شيء في محله، ونظم وفق هدف معين: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [٢].

---

١ - الواقع هو أنّ هذه النظرات التجزيئية للإسلام من جهة، والالتقاطية أو الهجينة من جهة أخرى قد وجَّهت أعظم الضربات للدين، كما أنها تشكّل أعظم العثرات التي تصاب بها الحركات التحريرية... ولقد عانت الثورة الإسلامية منها أشد المعاناة حتى تغلَّبت عليها بفضل وعي قائدها الكبير الإمام الخميني (رضوان الله تعالى عليه)، وإخلاص الشعب في العمل لإعلاء كلمة الله تعالى.

٢ - آل عمران: ١٩١.

ونستطيع أن نتبين معالم الهدف العام إذا لاحظنا الآيات القرآنية التي تؤكد تسخير كل شيء في السماوات والأرض، وتناسق عمل الأجزاء الكونية لصالح الإنسان.

فإذا تأكدت هذه الحقائق في خلد الإنسان؛ وعى أن عمله يجب أن ينسجم مع هذا التناسق الكوني ليشكل بدوره أحد طرفي التوازن (الكوني البشري)، وليتحقق الهدف المطلوب: ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١).

﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢).

والشكر والتكبير والإحسان لا تعني إلا الشعور التامّ بالعبودية لله تعالى، تماماً كما تشعر الكائنات على اختلاف درجات ذلك الشعور، والاستسلام الكامل لله تعالى، كما تستسلم الكائنات وإن كان تسليمها تكوينياً في حين يكون تسليم الموجودات الشاعرة بالمعنى الأخص تسليماً تشريعياً كاملاً، وهي درجة عالية من التسليم.

فالانسجام مع الكون يعني التسليم للحقيقة الكبرى والشكر لها والتسليم لله تعالى، أما عدم الانسجام فلا يعني إلا الظلم والكفر والضياع والضلال والخسران وعدم الفوز بالعاقبة:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ، وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣).

ولتأكيد هذه الحقيقة نجد الكون يتجاوب مع تكبير الإنسان كما نجده يهتز لكفره:

فعن الإمام الباقر(ع) قال: قال أمير المؤمنين(ع):

«ما من مُهلٍّ يهلُّ بالتلبية إلا أهلَّ من على يمينه من شيء إلى مقطع التراب، ومن

---

١ - الحج: ٣٦.

٢ - الحج: ٣٧.

٣ - ابراهيم: ٣٢ - ٣٤.

على يساره إلى مقطع التراب، وقال له الملكان: أبشر يا عبدالله، وما يبشر الله عبداً إلا بالجنة»[١].

وفي الجانب الآخر تقول الآيات الكريمة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا، أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً، وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً، إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [٢]. وما أكثر النصوص الإسلامية التي تتحدث عن غضبة الكون عند الجريمة مؤكدة هذا الموقف حتى ليهتز العرش وهو مركز حركة الكون عند بعض الجرائم.

أما تفصيلات الانسجام مع الكون فهو أمر يجهله الإنسان فلا يدري كيفية تحققه، ومن هنا فقد احتاج إلى إرشاد الله تعالى له، حيث يتجلّى بشكل تعاليم ومفاهيم وتنظيمات تشريعية عليه أن يعمل بها بحذافيرها، وأيُّ عصيان لأيِّ جزء يعرض الانسجام للخطر، وقد تحبط أعماله فيفقد بعصيانه كل الانسجام القائم، وحينذاك فالخسران المبين والضياع الذي ما بعده ضياع.

وبتحقق الانسجام يشعر الإنسان بتوازن روحي عجيب واطمئنان ما بعده اطمئنان.

مسيرة واحدة في الكون إلى هدف واحد، يظللها رضا خالقها، وتسدد خطاها القوانين المعنوية في الكون تحت قيادة الأنبياء والأئمة المعصومين.

وواضحٌ ما للأمل الذي ينبعث في هذا الجو، والاطمئنان الذي يشكل روحه، والتسامي النفسي الذي يلازمه؛ من دور كبير جداً في تحقيق المطلوب من المبدأ أن يحققه من رسالة في حياة الإنسان فيسير به باطراد نحو الكمال.

وهذا بالضبط ما حققه الإسلام، وعجزت كل المبادي الأخرى عن أن تحقق بعضاً منه «والعاقبة للمتقين».

وقد رأينا من قبل أن الطبيعة لم تسلّم كلَّ أسرارها للإنسان وإن كانت أرته بعض

---

١ – وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٥٠، من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص ٢٠٣.

٢ – مريم: ٨٨ – ٩٣.

لمعاتها البراقة داعية إياه للعمل الجاد والتفكير الحثيث لفتح مغاليقها.. محققة بذلك التوازن المطلوب لدفع الإنسان نحو الرقيّ المستمر. فلا هي بالمغلقة عليه تماماً، ولا هي بالسهلة التناول. وهذا التصور كما هو واضح يبعث الأمل في الإنسان المسلم لاكتشاف مجاهيل الطبيعة والاستفادة منها في نفس الوقت الذي ينفي التكاسل عن ارتياد آفاق المجهول بعد أن لم يكن سهلاً مهيعاً.

ثانياً: موقف العبودية المطلقة والشكر لله مع الاعتراف بفضل المخلوق

ويعتبر هذا الموقف أقوى مبدأ إسلامي يلزم به المسلم... فهو يرى أن غاية الخلق كلها هي التعبد والعبودية المطلقة لله تعالى... تماماً كالعبودية التكوينية التي تعني احتياج الكون لله وقيامه به تعالى . هكذا يراد للعبودية التشريعية للإنسان أن تصل إلى حدّ التسليم المطلق لله تعالى كما هي العبودية التكوينية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [١]. واعتبرت العبودية عين الكمال الإنساني وفوق كل الصفات: «اشهد ان محمداً عبده ورسوله». وكانت دعوات الانبياء جميعاً مركزة على هذه العبودية: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ﴾ [٢]. ونفي كل العبوديات المزيفة الأخرى ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [٣]. ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [٤]. ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم﴾ [٥]. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [٦].

وهذا يعني - من جهة أخرى - خلق روح التحرر من كل المواقع التي تقف في طريق سير الإنسان الحضاري ورقيه نحو الكمال بأجلى صوره، فلا تقيده شهوة أو منفعة أو مال أو حال، أو لذة أو قدرة، أو تعصُّب عنصري أو قبلي أو غير ذلك.. بل

---

١ - الذاريات: ٥٦.

٢ - الزمر: ١١.

٣ - الزمر: ٦٤.

٤ - الاسراء: ٢٣.

٥ - يوسف: ٤٠.

٦ - النحل: ٣٦.

يكون هو فوق جميع هذه الأمور، لأنه عبدالله وليس عبد هذه الأمور، إنه يحمل شعار: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [١]. ولهذا الموقف أثره الكبير جداً على الالتزام الكامل بالنظام والطاعة لله، خصوصاً بعد ما ورد من أن: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده» ، وما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾ [٢]. من : أن اتباعهم يعني عبوديتهم لهم. وسيأتي بعد هذا بحث عن التسليم لله تعالى، إن شاء الله.

وهذه هي الحرية الحقيقة لأنها ترتبط قبل كل شيء بالنفس وأن النفس الحرة هي أثمن ما يمكن أن يمتلكه الإنسان بل هي جوهر الإنسان الحق ودافعه الأول للسمو على العقبات والقيود الوهمية وربطه بالكمال الحقيقي.

ولكن هذا التحرر عمّا سوى الله لا يعني أن ينكر الإنسان أي فضل للمخلوقات وللآخرين الذين يتعاملون معه، فلا يشكرها ولا يحسُّ لها بجميل ومنة مطلقاً.

كلاً فإن الإسلام دعا أيضاً لشكر المخلوق في طول شكر الخالق، وجعل جزاء الإحسان هو الإحسان، لئلا يضيع المعروف، وليقوم الترابط العاطفي بين المخلوقات - وخصوصاً بين المخلوقات الشاعرة - فيتم تبادل التعاون وعملية الاستخدام الإنساني لصالح المسيرة الكمالية ككل.

إن هذا التوازن النفسي يعبِّر عن واقعية إسلامية لا نظير لها، حيث يطلب القرآن أن يشكر الإنسان لوالديه مثلاً:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [٣].

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [٤].

ولقد جاءت الأخبار التي تؤكد ذلك من قبيل:

---

١ - الفاتحة: ٥.

٢ - التوبة: ٣١.

٣ - لقمان: ١٤.

٤ - الاسراء: ٢٤.

ما عن السجاد(ع): «أشكركم لله أشكركم للناس».[١]

وما عن النبي(ص) قال: «يؤتي بعبد يوم القيامة فيوقف بين يدي الله عزَّ وجل فيأمر به إلى النار فيقول: أي ربٌ أمرت بي إلى النار وقد قرأت القرآن! فيقول الله: أي عبدي إني أنعمت عليك ولم تشكر نعمتي، فيقول: أي ربٌ أنعمت عليَّ بكذا شكرتك بكذا، وأنعمت عليَّ بكذا فشكرتك بكذا. فلا يزال يحصي النعم ويعدد الشكر فيقول الله تعالى صدقت عبدي إلا أنك لم تشكر من أجريت لك نعمتي على يديه، وإني قد آليت على نفسي أن لا أقبل شكر عبد لنعمة أنعمتها عليه حتى يشكر من ساقها من خلقي إليه...»[٢].

ثالثاً: موقف الأمل بالله تعالى مع الاطمئنان بثبات السنن الكونية

فإنه على ضوء إيمان المسلم بطلاقة المشيئة الإلهية ينشدً بالله تعالى في حالاته، ويتعلَّق بفضله، ولا ييأس من روح الله تعالى في أشد حالات الحرج. ومهما استعصت الظروف وبدا له أنها لن تنفرج فهو معتقد بقدرة الله على تغييرها، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فهو يعمل على سلوك السبيل الطبيعي الذي يحقق الهدف، نظراً لأنه يعتقد بأن الله «أبي أن يجري الأمور إلا بأسباب» وهاتان الجهتان: عدم اليأس، وسلوك السبيل الطبيعي، تشكلان عنصرين مهمَّين تتوازن بهما الشخصية الإنسانية. فعدم اليأس يبقى الدافع الأصيل ويحافظ على رباطة الجأش، ولا يدع القوى تتفتت. وسلوك السبيل الطبيعي يرتفع بالإنسان عن العيش في الخيال، ويجعل منه إنساناً واقعياً يتعامل مع الواقع كما يتطلبه الواقع.

رابعا: موقف التوكل على الله والثقة بالنفس

ولعل هذا النوع من التوازن يرتبط كل الارتباط بما قبله، فإن اعتقاد المسلم بالإرادة الإلهية المطلقة يجعله يوكل أموره إلى الله، ويعتقد أنه لا يملك من أمره شيئاً إلا بإذن الله تعالى فلا هداية إلا من الله تعالى؛ ولا توفيق إلا به تعالى، مما يركز النظر عليه في كل

١ - ميزان الحكمة، ج ٢، ص ١٤٨٩، ورواه كنز العمال عنه (ص)، ج ٣، ص ٢٦٦.

٢ - سفينة البحار، باب الشكر، امالي الشيخ الطوسي، ص ٤٥٠، الوسائل، ج ١٦، ص ٣١٢.

تأثير... إلاّ أنَّ هذا التوكُّل على الله لا يفقده الثقة بنفسه وبقدرته على التغيير، بل يمنحه أعظم الثقة بنفسه، ذلك لأنه يتصور أن الله تعالى منحه سلطان التغيير، وجعله خليفته على الأرض، يعمرها وينشئ فيها حضارة السماء أي الحضارة التي تشكل تعاليم السماء روحها؛ وأوكل إليه عملية التغيير الكبير.

فهو إذن إنسان يعقل ويتوكَّل، يغير ونظره مركَّز على السماء، يبني وهو يعلم أن المدد الحقيقي من الله تعالى. وما أروع الثقة المنبعثة في النفس التي تتوكَّل على الله تعالى خالق الكون فتقتحم الصعاب وتقدم التضحيات.

خامساً: موقف العلوِّ على المشاكل التاريخية مع تقدير دور كل عامل

فبعد إيمان المسلم بأن العوامل المحركة للتاريخ مختلفة تتراوح بين القوانين التكوينية المحركة وغير المحسوسة إلى الفطرة بغرائزها، وفوق كل ذلك الإرادة الإنسانية التي تهيِّئ للإنسان مجال التحكم في مسيره... يكون قد علا على المشاكل التاريخية، بعد أن علم بأن له اختيار تنظيم حياته، وبيده صنع حضارته، فليست المشكلة التاريخية مفروضة عليه من الأعلى بحيث لا يمكنه أن يتحرك تجاهها، وإنما يمكنه - متى لاحظ عدم صلاح واقعه - أن يغيره.

وهذا التصور يعطيه حركية دائمة تعمل على التطوير والتقدم التكنيكي، كما تعمل على التكامل المعنوي والفكري، كل ذلك ضمن تخطيط سماوي رائد يوضح له ما يجب أن يريد ويرشده لئلا يضل، ويعين له الهدف الذي يجب أن يسوق التغيير باتجاهه.

ومن هنا فهو ليس عبداً لعامل تاريخي معين، ولا لكل العوامل، بل كل العوامل التاريخية مسخرة لصالحه، وكل القوانين التكوينية المحسوس منها وغير المحسوس قننت لصالحه، ويستطيع أن يستفيد منها في صنع حضارته ورقيه، تماماً كما يستفيد من قوانين: الضغط، والإزاحة، والجاذبية، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فهو يحسب لكل عامل حسابه على ضوء التشريع الإلهي، فلا ينسى مثلاً دور العامل الاقتصادي ولا دور العامل الجغرافي أو العامل الغريزي الجنسي وغير ذلك، وهو يستهدي التشريع ليستثمر هذه العوامل لصالحه.

فهو هنا - إذن - يوازن بين تقدير عمل العوامل والعلو على جميع المشاكل التاريخية، فيكون واقعياً في سلوكه.

سادساً: موقف الدقة في اختيار سبيل الخير مع الحذر من سبل الشر

وذلك، لأنه لما كانت السبل كثيرة، والإغواءات متوفرة، والشيطان يقعد للإنسان بكل مرصد فإن الإنسان المسلم يصمم على خوض تجربة الحياة.. ويتأكد بين الحين والآخر من صحة اختياره متسلحاً بسلاح الوعي مستمعاً لإرشادات الوحي، متجنباً مزالق الضلال، مطمئناً بأنه ليس للشيطان عليه أي سلطان، وأن سعادته تكمن في رجمه ورجم كل ما يمثله. وتأتي التعاليم الإسلامية فتذكره بطرق الخير دائماً وأهمها العبادات التي تشده شداً بالله تعالى، وتركز على أن ينفي الشر عن حياته، وهذا ما يبدو بوضوح في رجم الجمرات مثلاً.

سابعاً: موقف الخوف والرجاء

ويكاد هذا النمط من التوازن يشكل معلماً بارزاً من معالم الشخصية المسلمة.

فعن الصادق(ع) أنه قال: «كان أبي يقول: ليس من عبد مؤمن، إلاّ وفي قلبه نوران، نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا»[1].

فالرجاء العظيم برحمة الله تعالى يدفع الإنسان المسلم نحو الحياة ويفتح قلبه للمستقبل، والخوف العظيم من عقابه يدفعه لأن يحقق مقتضيات الرحمة الإلهية.

ويرتفع مقياس الخوف والرجاء كلما تعمقا في النفس الإنسانية وتجلت لديها المعقولات فقربت من عالم الحس - كما سيأتي - ومن ثم انعكست على السلوك الخارجي.

كما يقول الإمام الصادق(ع): «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا

---

١ - الوسائل، ج ١٥، ص ٢١٦، الكافي، ج ٢، ص ٧١، البحار، ج ٦٧، ص ٣٥٦.

يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»[١].

والملاحظ هنا - كما لاحظ ذلك بعض الكتّاب[٢]- أن الإسلام قبل أن يستفيد من خاصيتي الخوف والرجاء والتأثير بهما في النفس الإنسانية، لجأ إلى توجيههما الوجهة الصحيحة، فنفى كل متعلقاتهما الباطلة التي تحرف النفس عن الهدف، بل وتشكل مصدراً للقلق الممزِّق للنفس الإنسانية، المميِّع لكل تماسك وتوازن فيها، وهو الداء الذي ابتلي به الماديون ففقدوا توازنهم الروحي وعاشوا مع الخوف حتى من الأمور الوهمية.

نعم، نفى الإسلام تعلُّق الخوف بأُمور لا ينبغي الخوف منها، إلاّ في حدود الخوف من الأمر الصحيح. كما نفى الرجاء ولم يسمح له أن يتعلّق إلاّ في حدود الرجاء للأمر الذي ينبغي أن يرجى.

وبتعبير آخر: إن الخوف الحقيقي يجب أن يكون من عذاب الله وغضبه. والرجاء الحقيقي يكون لرضا الله ورحمته فكل خوف أو رجاء لا يؤطِّره هذان الأمران لا قيمة له في الحساب القرآني ويجب أن ينفى من حياة الإنسان، لأنه مصدر قلق بعد أن تعلّق بأمور غير منضبطة بل وخرافية أحياناً.

وهانحن نستعرض أنماط متعلقات الخوف، لنؤكد هذه الحقيقة:

الخوف من الموت: قد يبدو لأول وهلة أنه خوف طبيعي، بل وتركزه النصوص إلاّ أنَّ الحقيقة هي أن الخوف من الموت بما هو موت لا معنى له في منطق الإسلام.. إن الموت في مفهومه هو نقلة من حياة صغيرة ملأى بالآلام، إلى حياة خالدة ملأى بكل ألوان النعيم، حيث ينكشف الغطاء فالبصر حديد. فممَّ الخوف إذن؟ ولم الخوف منه؟ مادام هذا الخوف لا تأثير له في تقديم أجل أو تأخيره ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ

١ - الوسائل، ج ١٥، ص ٢١٧، الكافي، ج٢، ص ٧١.

٢ - منهج التربية الاسلامية، ص ١٥٧.

الْمَوْتِ﴾[١]. ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا﴾[٢]. و ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[٣]. و ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٤].

فالخوف من الموت بما هو موت لا معنى له عند المسلم المؤمن، ولا فائدة فيه. إذن فممَّ يكون الخوف الحقيقي في هذا المجال؟

إنه يكون من (سوء العاقبة) ومن عدم التوبة حتى يأتي الموت ﴿لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾[٥].

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾[٧].

فالخوف الحقيقي من الموت إنَّما يكون لأنه يشكل مانعاً من التوبة، ولأنه يذهب فرصة التقوى وتأثير الخوف من الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٨].

ويقول أمير المؤمنين(ع):

«فاحذروا عباد الله الموت وقربه، وأعدوا له عدَّته، فإنه يأتي بأمر عظيم، وخطب جليل: بخير لا يكون معه شر أبداً، أو شرٍّ لا يكون معه خيرٌ أبداً، فمن أقربُ إلى

---

١ – آل عمران: ١٨٥.
٢ – المنافقون: ١١.
٣ – النساء: ٧٨.
٤ – آل عمران: ١٥٧.
٥ – الانعام: ١٥٨.
٦ – النساء: ١٨.
٧ – آل عمران: ٩١.
٨ – آل عمران: ١٠٢.

الجنة من عاملها؟ ومن أقربُ إلى النار من عاملها؟ وأنتم طرداء الموت، إن أقمتم له أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، وهو ألزمُ لكم من ظلّكم، الموت معقود بنواصيكم، والدنيا تُطوى من خلفكم، فاحذروا ناراً قعرُها بعيد، وحرُّها شديد، وعذابها جديد. دارٌ ليس فيها رحمة، ولا تُسمع فيها دعوة، ولا تُفرَّج فيها كربة، وإن استطعتم أن يشتدَّ خوفكم من الله، وأن يحسن ظنكم به، فاجمعوا بينهما فإن العبد إنَّما يكون حُسن ظنه بربِّه على قدر خوفه من ربّه، وإنّ أحسنَ الناس ظنّاً بالله أشدُّهم خوفاً لله»[1].

وهناك روايات كثيرة تركِّز على أن الخوف الحقيقي إنَّما يكون من (سوء العاقبة) وذهاب الفرصة لأنه هو الذي يبعث على الالتزام بالتشريع، ويعمِّق الرجاء في النفس في تلاحم عجيب بينهما.

الخوف من فقدان الرزق: فلا داعي للخوف من فقدان الرزق أيضاً ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [2]. و﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [3]. و﴿وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [4].

إن الخوف من فقدان الرزق يشكل جزءاً من أجزاء الخوف من المستقبل المجهول عند الماديين، وهو الباعث على القلق -كما أشرنا سابقاً- أمّا والمستقبل معلوم مضمون، وخصوصاً في مجتمع متكافل ومتوازن اقتصادياً وحقوقياً فلا معنى لذلك.

نعم، ينبغي التحسُّب للمستقبل، والعمل على الرقيِّ الماديِّ والإبداع لإيصال الأُمة إلى أعلى درجات الكمال، فإن هذا أمر يندب إليه الإسلام. ولكن إذا لم يتوفر في حالة من الحالات ما يضمن ذلك المستقبل يجب أن لا ييأس المسلم مطلقاً ولا يخاف من فقدان الرزق فإنه مقدر له.

---

١ - نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٣٨٤.
٢ -الذاريات: ٥٨.
٣ - الذاريات: ٢٢.
٤ - العنكبوت: ٦٠.

وهكذا نجد من خلال هذين النموذجين أن كل خوف لا يرتبط بالخوف من الله تعالى ينفى ويركز على الخوف من الله فقط.

ونفس الأمر نلاحظه في جانب الرجاء فإن كل رجاء يتعلق بأمور قصيرة المدى لا يعتبر رجاءً صحيحاً إلا في حدوده الخاصة، وذلك كرجاء المال والبنين والجاه وباقي المتع المادية، فإنها أمور تطلبها النفس ولا يمنعها الإسلام من ذلك، إلا أنها يجب أن لا تكون هي متعلق الرجاء الأصيل. لذا فهو ينبِّه على قصر مداها وأنها ﴿زِينَـةُ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا﴾ [١]. وإنها لا تقاس بمتعلقات الرجاء الحقيقية: من رضا الله تعالى ونعمه.

ثامناً: الموقف المتوازن من الدنيا والآخرة

بعد إعطاء المسلم التصور الكامل عن الدنيا ومحدوديتها وانغلاقها وإغراءاتها، وعن الآخرة وخلودها وحياتها الحقيقية وانكشاف الواقع فيها، وبعد بيان العلاقة الدقيقة بين الحياتين يتمهد الطريق لتحديد الموقف من كل منهما ويتلخص الموقف في ما تقوله الآية الكريمة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [٢].

فيكون الهدف المقصود الآخرة، والرضوان الإلهي روح الحياة الآخرة، والخلود في ظلِّ هذا الرضوان هو الجذبة الكبرى والمحقق للطموح الإنساني الأبعد.. وليس الفوز بالآخرة والعمل لها في حساب التصور الإسلامي إلاّ أن يكون المسلم إنساناً يعمل على تحقيق آمال الإنسانية المتكاملة ويضحِّي بكل غالٍ ورخيص في سبيل تعبيدها لله عقائدياً وسلوكياً، ودفع عجلة حضارتها إلى الأمام في ظل توجيهات السماء.

وإذا كانت الآخرة هي الهدف عادت الدنيا وسيلة لتحقيق الهدف.. فإذا رجعنا إلى التصور السابق عن الربط القويٌ بين الدنيا والآخرة؛ عرفنا ما يبعثه هذا الترابط من تسخير المسلم حياته الصغرى هذه كلَّها لصالح الإنسانية، ولصالح إعمار الأرض وتحقيق خلافة الله فيها، فلا تعود الدنيا سوى منظار للآخرة:

يقول أمير المؤمنين(ع): «البصير منها متزود، والأعمى لها متزود» [٣].

---

١ - الكهف: ٤٦.

٢ - قصص: ٧٧.

٣ - نهج البلاغة، صبحي الصالح، ط ١٣٣، ص ١٩٢.

ويقول(ع) أيضاً: «من أبصر بها بصّرته، ومن أبصر إليها أعمته»[١].

وعند هذا تصبح الدنيا «نعم العون على الآخرة» كما قال الإمام الصادق(ع)[٢].

ويقول أيضاً: «فاحذروا الدنيا فإنها غدارة خدوع، معطية منوع، ملبسة نزوع، لا يدوم رخاؤها، ولا ينقضي عناؤها، ولا يركد بلاؤها»[٣]. ويصف الزّهاد بعد ذلك فيقول: «كانوا قوماً من أهل الدنيا وليسوا من أهلها، فكانوا كمن ليس منها عملوا فيها بما يبصرون، وبادروا فيها ما يحذرون، تقلب أبدانهم بين ظهراني أهل الآخرة، ويرون أهل الدنيا يعظمون موت أجسادهم وهم أشد إعظاماً لموت قلوب احيائهم»[٤].

ويقول(ع): «أيها الناس إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لمقركم ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم، من قبل أن تخرج منها أبدانكم ففيها اختبرتم ولغيرها خلقتم، إن المرء إذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة ما قدم؟ لله آباؤكم! فقدموا بعضاً يكن لكم فرضاً، ولا تخلفوا كلاً فيكون فرضاً عليكم»[٥].

هذه هي روح النظرة إلى الدنيا... وتلك هي آثارها. إلاّ أن هذه النظرة لا ينبغي أن تصل إلى حد ينسى فيه نفسه وغرائزها ومتطلباتها الذاتية.. كلاّ فإنّ ذلك يعني من جهة أخرى نوعاً من عدم الانسجام مع الواقع الفطري، فالغرائز جزء من الفطرة ومن هنا طلب إلى المسلم أن لا ينسى نصيبه من الدنيا، أي من المتع المادية التي يشبع بها متطلبات غريزته مع تشويقه بحدٍّ أعلى لأن يؤطر هذا الإشباع المادي نفسه بإطار الآخرة وقصد القربة فيه إلى الله تعالى. يقول النبي(ص) لأبي ذر (رحمه الله): «إن استطعت أن لا تأكل ولا تشرب إلا لله فافعل»![٦].

---

١ - المصدر السابق، ط ٨٢، ص ١٠٦.

٢ - وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٦، نقلاً عن الكافي.

٣ - نهج البلاغة، صبحي الصالح، ط ٢٣٠، ص ٣٥٢ - ٣٥٣.

٤ - المصدر السابق، ط ٢٠٣، ص ٣٢٠ - ٣٢١.

٥ - الفتاوى الواضحة، ص٦١٣.

٦ - الامالي للشيخ المفيد، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة، المطبعة الاسلامية،ص ٣٥٠.

وقال الصادق(ع):

«ما كان عبد ليحبس نفسه على الله إلا أدخله الله الجنة»[١].

فإذا ضمن الإنسان لنفسه هذا المستوى أو ما يقرب منه، ضمن لنفسه صفة هي أعظم صفات المسلم، وهي الزهد، فقد ورد عن الإمام الصادق(ع) قوله:

«ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال ولا بتحريم الحلال، بل الزهد في الدنيا ألاّ تكون بما في يدك أوثق بما في يد الله».[٢]

فهو يشبع لذته مع وعيه التام بأنه هو المسيطر، وإن هذا الإشباع إنما هو لأجل أن يحيا فيحيي مبادي الحق، وأمثال ذلك.

وبهذا يحصل التوازن الصحيح بين الموقفين بل يتـّحد الموقفان في موقف واحد تشبع به الروح حتى ترتوي، ويشبع به الجسم بمقدار ما يحقق له أفضل مايريد، دون تحقيق كل ما يريد.

وبهذا يتضح: أن الإسلام يحقق التوازن الصحيح، ويضرب عرض الجدار النظريات المتطرفة المتفاوتة في التطرف ويحقق الانسجام الكامل بين الحياتين.. وهذا يبدو بوضوح من كتاب كتبه الإمام أمير المؤمنين(ع) إلى محمد بن أبي بكر وصف فيه حال المتقين ومجتمعهم جاء فيه:

«واعلموا عبادالله: أن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ، والمتجر الرابح. أصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم، وتيقَّنوا أنهم جيران الله غداً في آخرتهم. لا تردُّ لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من لذة»[٣].

---

١ - سفينة البحار، ج ١، ص ٥٦٨. أمالي المفيد، ص٣٥٠. الوسائل، ج ١٥، ص ٥٤.

٢ - الكافي، ج ٥ ص ٧٠. التهذيب، ج ٦ ص ٣٢٧. كنز العمال، ج ٣، ص ٢٠٨ الزهد لاحمد بن محمد بن زياد، ص ٢٠.

٣ - نهج البلاغة، الرسالة ٢٧. صبحي الصالح، ص ٣٨٣ -٣٨٤.

تاسعاً: موقف التوازن في تقدير عمل أنواع الهداية

مرَّ بنا أن الله تعالى أودع في الغريزة دوافع تؤثر في دفع الإنسان نحو هدفه، وأعطى الإنسان عقلاً وإرادة يسيطر بهما على الغرائز، وأعطاه الوحي هادياً للعقل ومخطّطاً؛ لتقويته وإرشاده إلى الهدف.

وبمعرفة الإنسان لذلك الواقع يتحدَّد موقفه منه... فهو من جهة لا يكبت تلك الغرائز بل ينفِّس عنها بمقتضى إرادته وطبق منهج تطبيقي موحى به من السماء ضمن تخطيط تشريعي عام موحَّد للحياة. فالموقف إذن يختصر بمايلي:

أ. امتلاك أزمَّة السيطرة على الغرائز من قبل العقل والإرادة القويتين.

ب. فسح المجال لكل الغرائز لتعمل عملها، ولكن ضمن تخطيط معيَّن.

ج. استيحاء السماء في حدود الفسح، وكيفيته، قبل كلِّ شيء، فالاعتماد الأساس هو على الشريعة لا غير... وبذلك يتحقَّق انسجام نفسي عقائدي كوني مع الهدف الذي خُلق الإنسان لأجله. وسيأتي تفصيل أكثر عند الحديث عن التوازن التشريعي.

عاشراً: موقف التوازن بين البرهنة والتعبد والتسليم

بملاحظة التوازن بين مصادر المعرفة من جهة، وموقف الإسلام الواضح المعلن برفض التقليد الأعمى في كل شيء من جهة أخرى، يتحدد نوع رائع من التوازن الأساس في حياة الإنسان، يعنون بعنوان: (التوازن بين البرهنة، والتسليم التعبدي) ولكن كيف يتم التوازن بينهما مع أنهما يبدوان متناقضين بادي الأمر؟ أن الإسلام بتحقيقه التوازن بين هذين الأمرين يحقق كرامة الإنسان الواقعية، فلا يقهر الإنسان حتى لا حراك به، ولا يطلقه كل الإطلاق حتى يهوي في مهاوي سحيقة ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [1].

وهذان التطرفان ابتليت بهما الإنسانية في صور مختلفة وكان آخرها الصورة (الماركسية) صاحبة نداء التفكير الحزبي اللاموضوعي، وهكذا باقي المبادي التجريبية التي تدَّعي أنَّ التجربة حلت لهم كل ألغاز التاريخ والكون.

---

١ - الحج: ٣١.

وتبدأ الخطوط الأولى في موقف الإنسان المسلم من الواقع بأن يطلب إليه: أن يرفض أي تقليد في أي شيء كان، رفضاً بناءً أي ساعياً نحو الحقيقة، لا أن يتحوّل إلى إنسان يمتهن الشك حرفة في الحياة. فالحاكم في هذه المرحلة هو العلم الوجداني ليس إلاّ. والأصل العام هو الشك مالم يقم العلم على نفيه: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [1]. وأول شيء يتعلق به الشك البنّاء هو العقيدة. لأنها أساس التصورات والسلوكات الحياتية.. فتعرض كل العقائد الموروثة على محك العقل والفطرة (الوجدان).

فإن تمّ التسليم بها وثبت صدقها؛ ينتقل إلى المرحلة الثانية.

فتفصيلات العقيدة المتفرّعة على الإيمان بالوحي تعطى كواقع قائم ينبغي للمسلم التسليم به ولكنها تؤطر بأطر برهانية تركّزها في النفس إطمئناناً، بعد أن تركّزت تسليماً، وذلك لكي تكون أفعل في النفس وأشد انعكاساً في السلوك.

والإسلام إذ يرجع للبرهنة والعقل كل عقائده الأساس مطمئن إلى أن التفكر الموضوعي - وحتى ما كان مخلوطاً بشيء من الذاتية - يقود إليه حتماً.. فإذا تمّ الإيمان بالله تعالى والنبوّة - وهما أساس العقيدة - إنتقلنا إلى مرحلة تالية يكون الأصل فيها (التسليم المطلق)، والعمل بإرشادات الوحي، والالتزام حتى بالظواهر اللفظية له، مالم يقم دليل قاطع على صرف هذه الظواهر إلى خلافها.

وفي المرحلة التالية للإيمان بالوحي الصادق - وحيث يكون التسليم هو الأصل - نواجه أموراً عقائدية ومفاهيمية، وأخرى تنظيمية.

فعقيدة الآخرة مثلاً، وهي من أعظم العقائد المتفرعة على الإيمان بالوحي - إن لم نقل إنها من العقائد التي تسبق الوحي نفسه - لتستقر في خلد الإنسان بشكل فطري. هذه العقيدة لا تعطى بشكل جاف قاس لا يمتلك أية برهنة، بل يسلك الوحي في سبيل تركيزها في النفس مسالك البرهنة والإقناع والتمثيل وغيرها.. وهكذا قل عن صفات الله تعالى البعيدة الغور. وتكون العقيدة بالتالي بمجموعها عقيدة برهانية خالصة، قام

---

١ - الاسراء: ٣٦.

بعضها قبل الوحي، وساعد الوحي مساعدة اساس على الإيمان بالبعض الآخر. وكذلك قل بالنسبة للمفاهيم، وإن كان عنصر التعبُّد في المفاهيم يبرز بصورة أكثر وضوحاً.

أمّا إذا انتقلنا إلى عالم التشريع: فإن التعبد والتسليم يكونان أساساً رصيناً من أسس الشخصية المسلمة، حتى أنهما قد يغطيان على باقي الأسس فيدعى المسلم لأجلهما مسلماً باعتبار تسليمه المطلق لله تعالى، وإن كمال إسلامه وإنسانيته؛ بكمال عبوديته وتسليمه لله.

ويستمد أصل التسليم في هذا المجال واقعه من حقائق لا يمكن إنكارها:

أولاها: علم الله اللامحدود بكل الأمور التكوينية والاحتياجات الإنسانية، وإشباعها العادل المتوازن الصحيح.

ثانيتها: لطف الله ورحمته بالإنسان، فلا يريد له إلا صلاحه وتحقيق ما يوصله إلى هدفه الذي وضع له، أيضاً بمقتضى الرحمة الإلهية.

ثالثتها: عدم إمكان اطلاع الفكر الإنساني على كل الحقائق الكونية.. بل عدم إمكان أطلاع الإنسان - عدا نخبة ممتازة من البشرية - على عمق بعض المعاني أو أكثر المعاني، وحتى ما يرتبط منها بالقوانين العلمية القريبة إلى حياة الإنسان ولعل هذا هو أحد أسرار وجود المتشابه في آيات القرآن الكريم[1].

رابعتها: وإذا أمكن للإنسان أن يطلع على الحقائق فإنّه عاجز تماماً عن ملاحظة علاقاتها وتحقيق التوازن بين أنماط إشباعها.

وغير ذلك من الحقائق التي تفرض حاجة البشر إلى الهداة الإلهيين. ومن هنا كان التسليم هو الأساس في هذا المجال.

إلا أنَّ الشريعة دأبت على إعطاء بعض الحِكَم - مهما أمكن - لتشريعاتها، وذلك لكي تضمن مستوى وعي المسلم لهدف العمل أثناء القيام به. كما أن من الممكن استكشاف بعض الحِكَم بعد الاطلاع على روح التشريع الإسلامي وخصائصه العامة.

---

١ - راجع مقالنا: «الحكمة في وجود المتشابه في القرآن الكريم»، مجلة الهادي، العدد٣، ص ٣١، السنة الخامسة.

إلاّ أنه رغم كل هذا تبقى للتعبد - والاكتفاء بالاطّلاع الإجمالي العام على أن في الأمر مصلحة ما - مساحة واسعة.

ومن هنا نعرف: أن الحملة الواسعة التي يقودها بعض الكتّاب الإسلاميين في هذا العصر، والتي تؤكد على أن تكتشف كلَّ الحِكَم والعلل التي دعت إلى جعل الأحكام - ولو اكتشافاً تحكمياً - وتصبغ كل الأحكام وفق ما يحلو لها، وتؤطرها بإطارات اجتماعية قد تسيل لعاب الشباب، وتشبع نهمه، دون أي دليل أو برهان علمي على ذلك.. وتحاول حصر نطاق التعبد في مجالات ضيقة، أي يبلغ بها الأمر أن تنفيه من تصور المسلم حتى في أخطر مساحات وجوده... نعرف أن مثل هذه الحملة توجه قبل كل شيء إلى صميم الشخصية الإسلامية.. وتنفي أهم جانب فيها، فهي انحراف أساس عن التصور الإسلامي. يجب العمل الفكري الجاد على اكتساحها. ولا يتم هذا الاكتساح إلاّ بالقيام بعملية تقييم جديد للتصور الإسلامي، وتحسيس أكبر بالنقاط المؤثرة في تنمية الحس الغيبي في تصور المسلم، وتركيز أقوى على منابع التعبُّد.

والحقيقة: أن هذا الاتجاه اتجاه تطرُّفي يقابله اتجاه تطرُّفي معاكس: ينظر إلى الأحكام كلها نظرة التعبد، ولا يهمه منها إلا الأداء الشكلي دون التفات إلى الهدف، ومن هنا يهبط مستوى الأداء هبوطاً مزرياً، فهو يدعو ويصلّي ويحجُّ ويقرأ القرآن دون أن يستهدف أهدافها، أو يدرك أبعادها الاجتماعية الكبرى في بناء الحياة الإنسانية هذا وربّما كان الدافع إلى هذه النظرة نظرة منحرفة أخرى تقول بفصل الدين عن الحياة والسياسة. وهي نظرة يمهد لها الجهل ويسبقها، وينمّيها الاستعمار البغيض.

والموقف المتوازن من الأمر هو: أن نلتفت قبل كل شيء إلى الحكمة العامة من التشريع عند أداء كل حكم، وهي - كما مرّ - الكمال، والمعرفة، والعبودية فلا نؤدّي الحكم بشكل نقطع معه بأنه ضد هذه الأهداف.

ومن ثم نلاحظ وجوه الحكمة الصحيحة للأحكام، ونستهدفها عند الأداء ويمكننا معرفة وجوه الحكمة عبر طرق:

منها: أن تأتي النصوص فتشير إلى ذلك، مثل: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ

وَالْمُنكَرِ﴾[1] ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾[2]. وأمثالهما مما ورد في تعليل الأحكام مما جمع بعضاً منها المرحوم الشيخ الصدوق (ره) في كتابه (علل الشرايع).

ومنها: الاستقراء المؤدي إلى القطع، وبما يسمى (روح الشريعة) وهو مجال دقيق يحتاج إلى تتبع اجتهادي عميق حتى يحصل به القطع. وقد يمثل له بأننا نجد الشريعة تؤكِّد على تربية التعقل والإرادة الإنسانيين في كثير من أحكامهما، فإذا وجدنا حكماً يرتبط بذلك أمكننا أن نطمئن إلى أنه إحدى الحِكَم المتوخّاة.

ومنها: أن يكون هدف الحكم عرفياً جداً يوجد ظهوراً في اللفظ، كما يستفاد من روايات «رفع عن أمتي» و«لا ضرر» وأمثالهما: إنها للامتنان قطعاً.

أساليب تربية التسليم في النفس:

ونستطيع أن نتبين - باختصار - أهم منابع التعبد بما يلي:

١. النصوص التي تدعو إلى التسليم مباشرة كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[3].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾[4]. وما يوصف فيها المؤمن بالإسلام: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[5]. وما يوصف فيها الأنبياء بالإسلام: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾[6].﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً﴾[7].

يقول الراغب الأصبهاني في (المفردات): »والإسلام في الشرع على ضربين:

أحدهما: دون الإيمان وهو: الاعتراف باللسان، به يحقن الدم، سواءٌ حصل معه الاعتقاد أم لم يحصل، وإياه قصد بقوله: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن

---

١ - العنكبوت: ٤٥.

٢ - البقرة: ٤٥.

٣ - البقرة: ٢٠٨.

٤ - آل عمران: ١٩.

٥ - النمل: ٨١.

٦ - المائدة: ٤٤.

٧ - يوسف: ١٠١.

قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[١].

والثاني: فوق الإيمان وهو: أن يكون مع الاعتراف، اعتقاد بالقلب، ووفاء بالفعل، واستسلام لله في جميع ما قضى وقدَّر، كما ذكر عن إبراهيم(ع) في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢].

وقد جاءت الروايات الكثيرة الداعية إلى التسليم لله في كل شيء - عرفت الحكمة فيه أم لم تعرف - فإن العلم الإجمالي بأن ما يأمر به الله وما يقدره هو الحق، كاف في تحقق الاندفاع.

فالتسليم ديدن الإنسان المسلم بعد أن عرف أن الأمر من الله العالم العادل الحكيم، وعلى هذا نجد الآية القرآنية التي تتحدث عن وجود المحكم والمتشابه في الذكر الحكيم تتبعه ببيان نوعين من الناس: فبعضهم: «يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة» والثاني: يسلم لله تعالى تمام التسليم، تقول الآية الكريمة:

﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾[٣].

ولعل في إطلاق اسم (الإسلام)[٤] على الدِّين الخاتم تأكيداً على أنَّ الدِّين يهدف - في أقصى مايهدف - إلى إيصال الإنسان إلى حد التسليم المطلق لله تعالى.

٢. النصوص القرآنية التي تحكي حالات الاستسلام الرائعة للأنبياء (ع)، ولعل أروع حالات الاستسلام تلك التي يذكرها القرآن الكريم لسيدنا إبراهيم(ع) حيث يطلب إليه أن يتحمل الدعوة في عالم طغى عليه الكفر فيستسلم، ويطلب إليه أن يترك

---

١ - الحجرات: ١٤.

٢ - البقرة: ١٣١.

٣ - آل عمران: ٧.

٤ - المفردات، مادة سلم، ص ٢٤٥.

زوجته وفلذة كبده الحبيب في أرض لا زرع فيها عند بيت الله الحرام فيستسلم، ويطلب إليه أن يذبح ولده وهو يعني بالتالي ذبح كل عواطفه نحو ولده فيستسلم، وما أروع استسلام ولده إسماعيل أيضاً إذ يقول له أبوه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[١]. وهكذا وبدون أي تردد يستسلم الإبن النبي ويجعل صبره على الألم بنفسه قائماً على إرادة الله تعالى.

والحقيقة: هي أن قصة العائلة الإبراهيمية هي قصة الإستسلام الكامل لله تعالى في تصرفاتها.. والرائع في الأمر: أن يربط القرآن الأمة الإسلامية ونبيها محمداً(ص) بتلك العائلة الإبراهيمية، وقد سماها إبراهيم بهذا الإسم: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [٢]. والتي دعا لها إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان قواعد الكعبة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[٣]. فيستجيب الله هذا الدعاء حيث يبعث الرسول الأكرم(ص) فيقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ

---

١ - الصافات: ١٠٢.

٢ - الحج: ٧٨.

٣ - البقرة: ١٢٥ - ١٢٩.

مُّبِينٍ﴾[١].

وإن ربط عملية الحج بـإبراهيم(ع) ليوضع الهدف الكبير من هذه العبادة الاجتماعية المهمَّة.

٣. النصوص التي تؤكد دوافع التعبُّد التي ذكرناها آنفاً، فإن الإيمان بها يدفع الإنسان للتسليم، وهي من أمثال: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء﴾[٣].

﴿إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤] وهكذا كل النصوص التي تؤكد حكمة الله تعالى وأمره بالعدل والإحسان، وكذلك النصوص التي تتحدث عن جهل الإنسان ومقدار علمه: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[٥].

ولعل أروع قصة تتحدث عن جهل الإنسان بالحكم والروابط المتحكمة في الكون، وأن عليه بالتالي أن يسلم لأوامر الله العليم اللطيف؛ هي قصة (موسى) (ع) والعبد الصالح، فرغم أن موسى كان من المقرَّبين الصالحين الواعين.. إلا أنه كانت تحدث أمامه حوادث واضحة بالنسبة إليه فيظنها ظلماً بل يقطع بذلك، إلاّ أن الواقع الذي علمه ذلك الرجل الصالح كان يطالعه بحقائق تقلب تصوره رأساً على عقب.

وقد صرحت الآيات الكريمة بحالات الاشتباه الكثيرة التي تصيب الإنسان فينقلب عليه الحساب: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾[٦].

---

١ – الجمعة: ٢.

٢ – الانعام: ٥٩.

٣ – يونس: ٦١.

٤ – الحج: ٦٥.

٥ – الاسراء: ٨٥.

٦ – البقرة: ٢١٦.

﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١].

﴿قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾[٢].

﴿لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[٣].

٤. الغيبية التي تربيها العبادات في تفاصيلها:

وهذه ظاهرة عامة في العبادات، إذ أنه كثيراً ما يطّلع الإنسان إجمالاً على الحكمة العامة من العبادة ككلّ، إلاّ أنه تبقى هناك تفصيلات كثيرة في العبادة يجهل حكمتها، ولكنه يؤمر بأدائها، وذلك ينمي في نفسه روح الطاعة والاستسلام «فكما تنمّي وترسّخُ روح الطاعة والارتباط في نفس الجندي من خلال التدريب العسكري، بتوجيه أوامر إليه وتكليفه بأن يمتثلها تعبداً وبدون مناقشة، كذلك ينمّي ويرسخُ شعور الإنسان العابد بالارتباط بربه بتكليفه بأن يمارس هذه العبادة بجوانبها الغيبية انقياداً واستسلاماً. فالإنقياد والاستسلام يتطلب افتراض جانب غيبي، ومحاولة التساؤل عن هذا الجانب الغيبي من العبادة، والمطالبة بتفسيره وتحديد المصلحة فيه، يعني تفريغ العبادة من حقيقتها كتعبير عملي عن الاستسلام والانقياد، وقيامها بمقاييس المصلحة والمنفعة، كأيٍّ عمل آخر»[٤].

إلى غير ذلك من وسائل وسبل سلكها الإسلام لتربية الاستسلام في الإنسان.. وبدونه لا يمكن للقانون أن ينجح ويطبق.

الفرع الثاني: التوازن في المجال التشريعي

في القسم الأول: تحدثنا عن كليات التوازن في الصورة الاسلامية عن الواقع.

---

١ – النساء: ١٩.

٢ – النمل: ٧٢.

٣ – الحجرات: ١١.

٤ – الفتاوى الواضحة، الشهيد الصدر، مطبعة الآداب في النجف الاشرف، ط ٢، ص ٦٠٩.

وفي القسم الثاني: كان الحديث اولاً عن مجمل المواقف المتوازنة التي يتخذها المسلم من الواقع.

وهنا نحاول الالتفات إلى التشريعات التفصيلية لنضع أيدينا على ما يوضح لنا بشكل أكبر نوعية التوازن في الإسلام.

ويحسن بنا - ونحن نريد استعراض التوازن هنا - أن نطرح البحث على صعد:

الأول: عام، ويتناول سمات التوازن العامة.

الثاني: خاص ، ويتعرض لبعض سمات التوازن في كل نظام.

الثالث: لتوضيح العلاقة بين التوازن والوسطية

البحث الأول:

خطوط عامة في التشريع ترتبط بالتوازن

ونستطيع أن نذكر أهمها فيما يلي:

الخط الأول: التوازن بين التشريع وأرضيته

وتعتبر هذه السمة من أكبر ملامح الواقعية الإسلامية، لأنها تنسجم مع مبدأ ربط المسألة الاجتماعية بالمسألة الفلسفية، فلا يمكن إقامة النظام الاجتماعي مالم تُحلَّ مسبقاً المسألة الفلسفية، وتحدد النظرة إلى الواقع. ومن هنا رأينا في القسمين السابقين أن الإسلام يكوِّن للانسان المسلم نظرة معينة للواقع، ويحدِّد على أساسها موقفه من هذا الواقع المعلوم بحيث ينسجم مع تلك النظرة.

وبعد حل الجانب العقائدي والتصوري، أعدَّ الاسلام للتشريع أرضية مساعدة لتطبيقه، وتشكل العقيدة أسسها كما تُشكِّلُ المفاهيم قسمها العلوي، والعواطف اللازمة ثمارها ونتاجها الطبيعي الذي يأثر تأثيراً كبيراً في الدفع نحو التطبيق.

فعلى ضوء من نوعية العقيدة والمفاهيم القائمة عليها والعواطف المتفرعة يأتي

التشريع المنسجم مع ذلك بشكل يجعله إلى حد ما نتاجاً طبيعياً لتلك الأرضية.

وتعمل النصوص الإسلامية على أن يلتفت الانسان إلى الربط، أي تعمل على تحسيسه به عملاً حثيثاً.

ونستطيع أن نتعرف على أساليب هذا التحسيس في موارد كثيرة:

منها: التأكيد الشديد على ربط الإيمان بالعمل من جهة، والتأكيد على أن تسبق العمل – بصفة عامة – نية خالصة من جهة ثانية. أما بالنسبة للجهة الأولى فقد كثُرت النصوص المختلفة التي تؤكد هذا الربط، من مثل:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [1].

﴿وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [2].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [3].

وغيرها كثير جداً.

والرائع في الأمر: اننا نجد أن طبيعة الانسان لا تتحمل التناقض بين العقيدة والعمل، وإنما تطمئن إذا انسجم الأمران، فإذا جمعنا هذه الحقيقة إلى حقيقتين أخريين هما: كون عقيدة الانسان تنزع لتأييد فطري داخلي فيه، وأن الفطرة تحوي في أعماقها ما تؤهل به الانسان للارتباط بالكامل المطلق والسعي نحو ذلك الكمال.. وجدنا أن يد الهداية تسوق الانسان غاية ما يمكن السوق إلى كماله.

وعلى أيٍّ حال، فإن الانسان يبقى متوازن الشخصية ما انسجمت عقيدته مع عمله.. وحينما يبدأ الافتراق يقع القلق أو العبثية. أما القلق: فمن الوخزات التي تصيبه بها العقيدة إن لم ينسجم معها العمل، إذا كانت عقيدة هادفة. وأما العبثية: فمن شعور الانسان الذي يعلم عملاً ملتزماً به – ولا يعتقد بوجود ملزم به – بأنه إنما يفعل العبث وأن الواقع هو من باب التزام مالا يجب.

---

١ – البقرة: ٨٢.

٢ – العصر: ١ – ٤.

٣ – فصلت: ٣٠.

وواضح: أن القلق والعبثيَّة يعوقان شخصيَّةَ الانسان ويحوِّلانه لصالح أحـد الطـرفين في النهاية، فإمّا أن تنقلب العقيدة لصالح العمل: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون﴾[١]. على أحد وجهي تفسير الآية. ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٢] ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيم﴾[٣]. ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٤] و ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[٥] و ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّين، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾[٦]. أو ينقلب العمل لصالح العقيدة، كما رأينا في أولئك الـذين أنعـم الله عليهم بالتوبة والرجوع إلى الصراط المستقيم الذي كانوا قد اعتقدوا به.

والواقع: أن العمل غير المنسجم مع العقيدة يهيئ النفس شيئاً فشيئاً نحو العقيدة المضادة بعد أن يفقد حزازته التي يتصف بها في المرات الأولى، ولهذا فإن من علامات الانحراف الشديد فقدان الحزازة النفسية من المعصية:

جاء في وصايا النبي(ص) لأبي ذر (ره):

«إنَّ المؤمن ليرى ذنبه كأنه صخرة يخاف أن تقع عليه، وإن الكافر يرى ذنبه كأنه ذباب مرَّ على أنفه».

وأيضاً: «يا أبا ذر: إنَّ الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبد خيراً جعل ذنوبه بين عينيه ممثلة والإثم عليه ثقيلاً وبيلاً، وإذا أراد بعبد شراً أنساهُ ذنوبه».[٧]

وأيضاً: «إنَّ المؤمن أشدُّ ارتكاضاً من الخطيئة من العصفور حين يقذف به في شركه»[٨].

---

١ - الروم: ١٠.
٢ - البقرة: ٨١.
٣ - المطففين: ١٢.
٤ - المطففين: ١٤.
٥ - الرحمن: ٤٣.
٦ - الماعون: ١ - ٢.
٧ - البحار، ج ٧٣، ص ٧٧، كنز العمال، ج ٣، ص ٦٩٨.
٨ - مكارم الاخلاق، الطبرسي، منشورات الاعلمي، بيروت، ص ٤٦٠، أمالي الطوسي، ص ٥٢٧، المصنف لابن ابي شيبه، ج ٨، ص ١٦٠، كنز العمال، ج ٣، ص ٦٩٨.

وقد جاءت أخبار تؤكّد مضمون: أن العبد إذا أذنب نُكت في قلبه نكتة سوداء حتى يظلم القلب.[١]

هذا في حين أن الإيمان والعمل لو كانا منسجمين كان كلٌّ منهما يعمق الآخر، فإن العمل الصالح يعمق الإيمان ويرسّخه في النفس الإنسانية، ويجسد معطياته وتأثيراته.. وذلك عندما يواجه الإنسان نتائج ذلك الإيمان حسّاً في وجوده يتفاعل معها؛ في حين لا يمكن الارتياب في أنَّ تعمُّق الإيمان في النفس يمنع العمل إتقاناً وإصراراً وبعد هدف، فيتحوّل بالتالي إلى حالة أرقى.

ومن هنا جاءت النصوص الشريفة لتؤكد أن الإيمان بلا عمل كشجرة بلا ثمر، وأنه لا خير في إيمان لا عمل معه كما لا خير في عمل لا إيمان معه، وأن العمل مهما علت نتائجه يحتاج إلى سبق إيمان بالحقيقة. وهي الجهة الثانية التي تؤكد على نية الإنسان وأنها خير من عمله، وأن الأعمال تقاس بالنيات. وهي جهة يركز الإسلام عليها - كما مر - ويؤكد على أن تكون حياة المسلم كلها مسبوقة بنية خالصة وإيمان حي نابض بالحياة، وقد جاء في وصية النبي(ص) لأبي ذر:

«إن استطعت أن لا تأكل ولا تشرب إلا لله، فافعل» وفي تعبير آخر له(ص).

و في مكارم الطبرسي ص ٤٦٤ «ليكن لك في كل شيء نية صالحة حتى في النوم والأكل».

وهكذا لا ينظر في مجال النية إلى كمية العمل فكيفيته هي الأهم، يقول(ص): «يا أبا ذر؛ كن بالعمل بالتقوى أشدَّ اهتماماً منك بالعمل فإنه لا يقل عمل بالتقوى، وكيف يقلُّ عمل تقبّل! يقول الله عز وجل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [٢][٣].

١ - الكافي للكليني، ج ٢، ص ٢١٤، جامع البيان للطبري، ج ٣٠، ص ١٢٢، مستدرك الحاكم النيشابوري، ج١، ص ٥ ، تفسير ابن كثير، ج ٤، ص ٥١٨.

٢ - المائدة: ٢٧.

٣ - مكارم الاخلاق ص ٤٦٨، البحار ج ٦٧ ص ٢٨٦ كنز العمال ج ٣ ص ٦٩٧، تاريخ دمشق ج ٤٢ ص٥١١ .

«يا أبا ذر: إن الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أموالكم وأقوالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».[١]

«يا أبا ذر؛ التقوى هاهنا. التقوى هاهنا» وأشار إلى صدره الشريف.[٢]

ومنها: النصوص التي تؤكد على الربط بين العلم، والقول والفعل:

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٣]. وجاء في وصية النبي(ص) لأبي ذر:

«ومن وافق قوله فعله فذلك الذي أصاب حظه، ومن خالف قوله فعله فإنما يوبق نفسه»[٤].

وقد كتب الإمام المؤمنين(ع) إلى بعض عمّاله وقد بعثه على الصدقة.

«أمره بتقوى الله في سرائر أمره وخفيّات عمله، حيث لا شهيد غيره، ولا وكيل دونه، وأمره ألاّ يعمل بشيء من طاعة الله فيما ظهر، فيخالف إلى غيره فيما أسر، ومن لم يختلف سره وعلانيته وفعله ومقالته، فقد أدّى الأمانة وأخلص العبادة»[٥].

ويقول: «وإن العالم بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه اعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم»[٦].

وفي وصف المتقي: «يمزج الحلم بالعلم والقول بالعمل»[٧].

---

١ - البحار، ج ٧٤، ص ٨٨، مسند احمد، ج ٢، ص ٢٨٥، صحيح مسلم، ج ٨ ، ص ١١ وغيرهم.

٢ - البحار، ج ٧٤، ص ٨٨، مصنف ابي شيبة، ج ٧، ص ١١٩، مسند الشامين، ج ٣، ص ٣١٣ .

٣ - الصف: ٣.

٤ - مكارم الاخلاق، الطبرسي، منشورات الاعلمي، بيروت، ص ٤٦٠ – ٤٦٩، كنز العمال، ج ١٠، ص٣٠٧، عن ابن مسعود.

٥ - نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٣٨٢.

٦ - نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ١٦٤، المعيار والموازنة للاسكافي، ص ٢٨١ البداية والنهاية لابن كثير، ج٧ ص٣٤٠.

٧ - نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٣٠٥.

ومنها: النصوص التي تؤطر التشريعات بإطار العقيدة والتقوى، إذ تخاطب المكلَّفين بخطاب (الذين آمنوا) تركيزاً لأرضية التشريع، ثم يقال بعد ذلك: إن التشريع استهدف التقوى والفلاح والشكر لله تعالى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [1].

﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [2].

الخط الثاني: الوحدة والتوازن في تطبيق كل الأنظمة الإسلامية

لوجود الترابط القوي بين مختلف الأنظمة الإسلامية، والقائم على أساس الضرورة التي دعت لأن يتوازن عمل الإنسان مع الضرورات الكونية اللازمة... دعا الاسلام بقوة إلى وحدة التطبيق التشريعي، بعد أن ربط ربطاً قوياً بين العقيدة والعمل.

وتكفي نظرة سريعة في النظم الإسلامية المختلفة، للحكم بأنها مترابطة تمام الترابط. ذلك وأن تطبيق بعض دون بعض سوف لن يؤدي إلى النتيجة المطلوبة. وقد جاءت الآيات والأحاديث مصرِّحة بذلك، وأن الإيمان يجب أن يكون بجميع الدين والكتاب. فالآية التالية - مثلاً - تذمُّ بني إسرائيل على تفريقهم هذا إذ تقول:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَاوَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [3].

ويقول في موضع آخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ

---

١ - البقرة: ١٨٣.

٢ - البقرة: ٢٨٢.

٣ - البقرة: ٨٥.

الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُم، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ، فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [١].

والآية الكريمة – تؤكّد حقيقة مفهومية كبرى، وهي: مسألة الإحباط، ولا يعني الإحباط إلا أن يقوم الإنسان بعمل صالح ثم يتبعه بعمل سيء لا يطبق فيه جزءاً من النظام، فإذا بذلك العمل الصالح يفقد أثره الجزائي، بل وأثره النفسي وهما مترابطان في الحقيقة.

تتوقع منّا التطبيق الكامل. والمسلم الحق العادل هو الذي يلتزم بجميع الفروض الإسلامية ولا يتخلّى عنها قيد أنملة، أمّا إذا خرج عن تطبيق البعض فقد اعتبر فاسقاً، خارجاً عن إطار الدين، مارقاً عن الصراط، ولذا فهو يفقد الكثير مما يؤهله للمقامات الاجتماعية والدينية، وقد يفقد حتى حرمة الحياة فيما إذا أنكر بعض الضروريات، بل فيما إذا قبلها ولم يفعلها متكرراً (مع شروط تذكر في محلها).

وإذا تمت الوحدة في التطبيق كان من اللازم أن يتفادى بعض التعارض والتنافي – الواقع احياناً وبمقتضى ظروف استثنائية – بين بعض الأنظمة وهنا تتدخل قاعدة تقديم الأهم لترفع أمثال هذا التنافي كما يذكر في محله، ولتتحقق المرونة اللازمة في التطبيق.

الخط الثالث: التوازن بين الإلزام وطلب التطوع

إذا استعرضنا مختلف المجالات التشريعية وجدنا أن هناك فروضاً، لا يمكن تخطّيها ويجب الالتزام بها، فتلك حدود الله، ولا يسوغ القرب منها فضلاً عن تخطيها. وإلى جنب تلك الفروض وجدنا خطوطاً تطوعية عامة تفسح المجال للنفس الانسانية كي تعبّر عن رغبتها الذاتية وبلا إلزام في العمل لصالح المجتمع وسد الفراغات فيه، بما يسمى بـ(التطوع) والاحسان المستحب.

---

١ – محمد: ٢٥ – ٢٨.

والحقيقة: هي أن فتح باب الاستحباب وجعل الثواب الكثير عليه يؤدي دوراً كبيراً جداً في مجال تربية الدوافع الذاتية في الإنسان وخلق العادة الأصلية، وقد أثبت علماء النفس: أن التبرع ضروري جداً لتركيز العادات وتمرين النفس عليها، لأنه نابع من الأعماق بلا أي الزام.

والشيء الملاحظ: أنّ الاسلام يمهد لروح التبرع في الانسان بأساليب:

منها: فتح باب الثواب الجزيل والمدح الكثير لفاعله، وطلب التسابق في الخيرات والمسارعة إلى مغفرة الله والجنان والرضوان، وبيان الأثر الوضعي للعمل الخير في مسألة الصدقة التي تدفع البلاء وتنسئ في الأجل، وكالربط بين صلاة الليل مثلاً والرزق، والاستغفار والأمطار، وأمثال ذلك كثير جداً مما لا يتسع المجال له، لأنه باب واسع.

ومنها: نفس نوعية أداء بعض الواجبات، وحتى بعض الواجبات التي تثبت عقوبةً على الانسان على بعض مافعل، فإنه يشترط قصد القربة فيها، وليس قصد القربة إلا دافعاً محضاً يربِّي الشعور بالمسؤولية وتخطِّي الذات ومصالحها المادية في سبيل الله تعالى، وهذا التخطِّي نجد له منعكسه الاجتماعية البناء ليكون خدمة وتضحية للإنسانية.

إن أداء العبادات لا يتمُّ إلاّ بقصد القربة الذي يمهد لروح التبرع التالية، وهذا يعني أن الإسلام لا يمكنه من جهة أن يترك الأمر كله إلى روح التبرع، فالإنسان يحتاج إلى الإلزام ليتنظم وليقهر به حالات التمرُّد التي تصيب النفس الإنسانية، وحتى تربية حالة التبرع نفسها تحتاج إلى حالات إلزامية، ليشترط فيها الإخلاص القلبي. وبتكرر الالتزام المقترن بدافع ذاتي، وبتعمق الإيمان في النفس؛ يتحول الإنسان أحياناً إلى مسلم واقعي لا يعمل أيَّ شيء إلا لله (كما مضى).

ومنها: جعل القدرة المتبرعة غاية التبرُّع، فإن جعل القدوة وبالأخص (القدوة المعصومة) القدوة التي سخَّرت حياتها كلها بل بلغت أحياناً إلى مرحلة جعلتها تعبد الله تعالى لأنَّه أهل للعبادة، وتشكر الله تعالى لأنَّه أهل للشكر دونما تدخل للخوف أو الطمع في شيء من ذلك، له أثره الكبير في صياغة حياة الإنسان المسلم.

إن هذه الموازنة بين الإلتزام والتطوع تُحقق في النفس الإنسانية توازناً يشعرها من جهة بلزوم تقيدها بأمور، وعدم اطلاق العنان لها لتعمل ما تشاء، كما يشعرها من جهة أخرى بحريتها في اختيار أكمل الطرق أو أقلها، فيشبع لديها جانباً من النزوع نحو الحرية. ولكنها الحرية المستغلة في سبيل الله والعمل الصالح البنّاء المنطلق بمقتضى دوافع ذاتية مصوغة صياغة إلهية.

الخط الرابع: التوازن بين التحديد في المجالات الثابتة والقواعد العامة في المجالات المتغيرة

وهذا جانب مهم في التشريع الإسلامي يرتبط بظاهرة التوازن، كما يعبِّر عن ظاهرة المرونة، ويشكل أساساً لخلود التعاليم الإسلامية، بعد أن يمنح الإسلام قدرة استيعاب الظروف المختلفة والمتطورة.

ولذلك فلا نتحدث نحن الآن هنا عنه بالتفصيل، بل نترك ذلك لبحث (المرونة) إذ أنه أشدُّ ارتباطاً به، وإنما نشير هنا إلى أن الانسان - خلال حياته الفردية والاجتماعية - له واقعان: واقع ثابت، وواقع متغير. وقد لاحظهما الإسلام ووضع بالنسبة للجانب الثابت نظاماً ثابتاً باعتبار أن الجانب الثابت يعبِّر عن حاجة ثابتة. وذلك مثل ثبوت نظام العبادات، إذ أنه يشبع حاجات لا تتغيَّر في حياة الإنسان . كالإيمان بالكامل المطلق ونفي الإلحاد، ومثل نظام الإرث، والمساقاة والمزارعة والمضاربة، وأمثال ذلك. إذ أنها تعبر عن علاج لواقع ثابت يرتبط بعلاقة الإنسان بأخيه الانسان، وهي علاقة ثابتة. ومثل تحريم بعض الأمور التي ترتبط بما يضرُّ الانسان، تكويناً، وهو أمر ثابت لا يتغير، وهكذا.

في حين نرى أن الاسلام ترك في بعض أنظمته (مناطق فراغ) جعل لها قواعد عامة تهدي الحاكم الإسلامي إلى كيفية ملئها بما يتناسب والمتغيرات والمصالح التي يراها، والمفروض أنه العالم العادل.

ومن تلك الأنظمة التي ترك فيها مناطق فراغ: النظام الاقتصادي، والنظام الجنائي، والنظام التربوي، والنظام السياسي طبق ضوابط وحدود تذكر في محلها.

الخط الخامس: التوازن في الموقف من الحرية الإنسانية

تعتبر هذه السمة من سمات الواقعية الإسلامية، فإن رفض الحرية الإنسانية رفضاً مطلقاً وعدم أخذها بعين الاعتبار في التشريع؛ يؤدّي - بلا ريب - إلى كبت نزعة إنسانية أصيلة، بل ويتجاوز بها البعض فيعتبرونها نزعة حيوانية ازدادت تأصلاً عند الإنسان. وكونها نزعة أصيلة هو الذي يسوّغ (للرأسمالية) أن تبني نظريتها التنظيمية عليها وتدعو إليها.. وقد تكون قيمة الحرية أمراً لا يعدله الكثير من القيم الأخرى. فقتل الحرية -كما تفعله (الشيوعية) - يعني أقل ما يعني قتل نزعة أصيلة في النفس بالإضافة إلى ما تؤدي إليه من قتل روح الإبداع الخلاق وخلق حالة الاستسلام اليائس للنظام الجبار.

وإذا كان رفض الحرية - رفضاً مطلقاً - مضراً بالإنسان فإن قبولها - قبولاً مطلقاً - أيضاً أمر لا شك في ضرره فيجب القول بها وقبولها في الحدود المعقولة؛ ولكن ماهي الحدود المعقولة؟ ترى (الرأسمالية) أن الحدود المعقولة لها هو التقيد بعدم الاعتداء على حرية الآخرين، وإذا أردنا أن نستلهم أصل كونها نظاماً وجب تقييد الحرية بعدم العمل على تقويض (النظام الرأسمالي) نفسه.

ولكن هذا المعنى مرفوض أساساً في التصور الإسلامي، وهو قائم على تصور مادّي يفصل الإنسان عن واقعه الكوني كعبدٍ لله تعالى جاهل بالمصالح والحكم وإشباع الحاجات بالطرق الصحيحة، ولا يمكنه أن يسير لوحده نحو تكامله ما لم يستمدَّ من الله نظامه وتشريعه، ويلتزم بتوجيهات خالقه العليم بكل شيء.. يتقيَّد بكل مقيِّد، سماوي، وينطلق عندما يجد السماح الإلهي، لأن في ذلك الهدى والفرقان.

إن الإسلام يعتقد أنّ أيّ خروج عن طاعة الله يعني - أول ما يعني - القضاء على الكرامة الإنسانية، والفسق عن السبيل المعدّ للوصول إلى الهدف؛ أي يعني القضاء على الحرية الإنسانية نفسها.

وقد أيد الواقع التطبيقي للنظم المختلفة هذا المعنى، فتحولت هذه الحرية إلى حرية قانونية - فقط - أما جوهرها فليس يعني إلا استغلال القوي للضعيف وتسييره وفق مصالحه وسلبه حريته.

والآن لنعرف مجمل رأي الإسلام في الحريات الرأسمالية الأساس، وهي:

١ـ الحرية السياسية. ٢- والحرية الفكرية. ٣- والحرية الشخصية. ٤- والحرية الاقتصادية.

أما نظام الحرية السياسية فهو يعني أموراً ثلاثة مجملها وبغض النظر عن تفريعاتها:

١ـ لزوم أن يكون الشعب حراً في قبول أو ردّ التشريعات التي يلزم بها.

٢- لزوم أن يكون الشعب حراً في قبول أو رَدّ الشخص المنفذ للتشريع بشكل مطلق.

٣- لزوم اتّباع رأي الأكثرية في ذلك.

ولا يعتمد الإسلام أيا من هذه الأصول على إطلاقها.

أما الأصل الأول: فهو مرفوض لأن التشريع الأصيل من الله تعالى، إذ هو الأعلم بالمصالح. نعم توجد في هذا التشريع مناطق فراغ يملؤها الإمام أو نائبه طبق الموازين الشرعية والقواعد الكلية، ومنها المشورة مع أهل الخبرة في الأمور الدنيوية، ويكون له الرأي الأخير باعتباره الأعلم العادل، ويمكن ان يرى المصلحة في إيكال الأمر الى الانتخاب الشعبي.

وأمّا الأصل الثاني: فمرفوض أيضاً إن أريد منه الإطلاق وذلك بناء على عقيدة الإمامة والولاية حال وجود المعصوم، ومع عدمه فهناك مجال للاختيار ولكن في حدود الفقهاء المؤهلين.

وأما الأصل الثالث: فهو أمر لا نجد له أصالة إسلامية في أي تشريع، نعم يمكن للإمام أو نائبه في مجال ملئه لمنطقة الفراغ أن يتبع رأي الأكثرية إن رأى المصلحة في ذلك، لا أن يكون رأي الأكثرية هو الأصل المفروض.

وهنا نجد أن الإسلام يفتح باب الشورى في مجاله الصحيح الذي يعني تجمع الآراء لمعرفة السبيل الأجدى ولكنه لا يترك أصول الأمر بيد الإنسان الجاهل. فإنه جعل أمر المؤمنين شورى بينهم، وطلب إلى الرسول(ص) أن يشاورهم في الأمر، ولكنه من جهة أخرى قال له: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[1].

وجاءت آية أخرى تقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[2]. مما يؤكد أن المشورة ليست لتحكم الأكثرية في الأقلية وإنما لها أهداف أخرى.

---

١ - آل عمران: ١٥٩.

٢ - الاحزاب: ٣٦.

فإذا انتقلنا إلى الحرية الفكرية وجدنا الإسلام يمتلك حسابين: حساباً واقعياً وحساباً نظامياً.

أما من حيث الحساب الواقعي: فهو أنَّ على الإنسان أن يتديَّن ويعتقد بالله والإسلام بالدليل، وأنّ أدلة ذلك متوفرة يؤمن بها كل من يطلب الحقيقة، وأن أيّ تهاون في طلب الحقيقة لا يعني إلا الخسران المبين.. فسبيل الفلاح الوحيد في الدنيا والآخرة هو الإسلام عقيدة ونظاماً: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [١].

وأما من حيث الجهة النظامية: فهو لا يرضى – نظامياً – من الانسان الذي يتفيأ ظلال نظامه بأقل من الانضمام إلى دين ذي كتاب سماوي وفق شروط معينة.. وبدون ذلك فهو يعتبره حشرة ضارة يجب قلعها لئلا تنخر في بناء المجتمع الإسلامي، ثم هو يعامل أولئك الذين لم يسلموا معاملة خاصة: فيوفِّرُ لهم الأمن وحفظ النفس والمال وغير ذلك، ولا يكرههم على الدخول في الإسلام. نعم لا يرضى لمسلم أن يعود فيرفض الإسلام وإن أصبح كتابياً.

ومن هنا يعلم أنه ليس الحرية هنا حرية مطلقة تفسح المجال للانسان أن يفكر كيف يشاء ويعتقد بما يشاء، وإنما هي حرية موجَّهة واقعية.

وبانتقالنا إلى الحرية الشخصية: نجدها في الاسلام حرية موجهة أيضاً. فإن للاسلام ضوابط وتوجيهات كثيرة في المجال الشخصي، ولربما استوعبت قسطاً كبيراً من التشريع الإسلامي، وتتناول حتى ما يلبس الإنسان وتصرفاته البسيطة.

أما الحرية الاقتصادية: فهي حرية في إطار خاص موجَّهة بدقة، ومقيَّدة بقيود دائمية محدودة: كمنع تطوير الثروة عن طريق الربا والقمار والغش وأمثال ذلك، أو بقيود مرنة كسلطة الحاكم الشرعي في مجال استغلال الأراضي الموات. وهكذا نجد تخطيطاً إسلامياً واسعاً في مجال توزيع الثروة المنتجة. وسيأتي الحديث عن شيء منه إن شاء الله تعالى.

---

١ – آل عمران: ٨٥.

البحث الثاني:

صُورٌ من التوازن في النُّظم الإسلامية

سنحاول هنا عرض بعض نماذج التوازن في بعض الأنظمة الإسلامية لتكشف لنا عن التوازن التشريعي العام.

والواقع هو أنَّ البحث يعتبر تفصيلاً أكبر للموقف المتوازن من الواقع الذي مرَّ عرض بعض صوره ونتناول بالبحث مايلي:

*ـ النظام التربوي يشبع الغرائز والميول اشباعاً متوازناً.

*ـ التوازن في النظام الجنائي.

*ـ النظام الإقتصادي وبعض صور التوازن فيه.

*ـ التوازن في نظام العبادات.

أولاً: التوازن في النظام التربوي

مرَّ بنا سابقاً التناسق الذي يتم بين أنواع الهداية في سبيل إيصال الانسان إلى هدفه، وقلنا إن الغرائز تشكِّل الدوافع الرئيسة للعمل، وإن العقل والإرادة يشكلان الضابط لعملها، وإن الوحي هو المخطِّط المنمِّي للعقل.. وهنا نحاول أن ندرس بعض الخطوط العامة التي تحقق التوازن في الإشباع التشريعي للغرائز.. ويمكن أن نعرض أهمها فيما يلي:

الخط الأول – عدم الكبت:

إن الإسلام – على العكس من سائر المبادئ المادية (كالماركسية) التي تكبت بعض الغرائز – لا يرضى بالكبت الغريزي، نظراً لواقعيته، فهو يؤكِّد على أنها كلها وضِعت في الكيان الإنساني لصالحه، وأن ليس في الوجود العام ككل، والوجود الإنساني

بالخصوص، شيء غير معدٌ لشأنه، ولذا فلا معنى للكبت الذي لا يؤدِّي إلا إلى اختلال التوازن الحياتي المطلوب في عمل الغرائز، وضياع التناسق الضروري لمسيرة الإنسان.

الخط الثاني- تنمية الاستعدادات المعنوية، وتركيز الحب على مجالاته الأصيلة، وتهذيب الغرائز الطاغية:

فإن من الاستعدادات النفسية الإصيلة ما يحتاج إلى تنمية منظَّمة يتجلَّى بشكل أكثر وضوحاً في حياة الإنسان، ومنها ما يحتاج إلى تهذيب لأنه ينمو بصورة طبيعية. فلنلاحظ مساحات هذه الاستعدادات وعلاج الإسلام لها، لنرى ما الذي فعله الإسلام لتنمية هذه الأمور أو تهذيبها:

١. الارتباط بالكامل المطلق والتوجه إليه:

وهو استعداد إنساني عبّر عن نفسه بتعبيرات مختلفة عبر التاريخ، واختلفت تطبيقاته وتصورات محل الكمال فيه. وكان أهم انحراف فيه هو تحويل المؤثرات النسبية إلى مطلقات من جميع الوجوه وتقديم فروض الطاعة والاحترام لها، ومثالها، الآباء، والقبيلة، والطبيعة، والمادة، والأجرام السماوية، والعلم والتجربة، والحاكم المستبد، وغيرها.. وأكبر ضرر لهذه المطلقات الوهمية هي كونها تشكِّل قيداً على فكر الإنسان وأنها تعيق مسيرة تقدُّمه الحضاري، وتقوده نحو الضلال: «فكلُّ محدود ونسبي إذا نسج الإنسان منه في مرحلة ما مطلقاً يرتبط به على هذا الأساس يصبح في مرحلة رشد ذهني جديد قيداً على الذهن الذي صنعه، بحكم كونه محدوداً ونسبياً»[١].

ومن هنا فقد كان العلاج الإسلامي الواقعي هو تحويل الأنظار والأفهام عن هذه الآلهة الوهميّة المقيِّدة للذهن، المحدِّدة للأفق والتي لا تملأ وجود الإنسان وتطلعاته، والتركيز على الموجود المطلق الحق سبحانه الذي لا تحدُّه أية حدود، والذي: «لم

---

١ - الفتاوى الواضحة، نظام العبادات، ص ٧٠٨، ط ٧، دار التعارف ، بيروت.

يكن[١] من نسيج مرحلة من مراحل الذهن الإنساني، ليصبح في مرحلة رشد ذهني جديد قيداً على الذهن الذي صنعه، ولم يكن وليد حاجة محدَّدة لفرد أو فئة، ليتحوَّل بانتصابه مطلقاً إلى سلاح في يد الفرد والفئة لضمان استمرار مصالحه غير المشروعة. فالله سبحانه وتعالى مطلق لا حدود له، ويستوعب بصفاته الثبوتية كل المثل العليا للانسان الخليفة على الأرض، من إدراك، وعلم وقدرة، وعدل، وغنى، وهذا يعني أن الطريق إلى الله لا حدَّ له، فالسير نحوه يفرض التحرك باستمرار وتدرُّج نسبيٍّ نحو المطلق بدون توقف: ﴿يا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[٢].

وإذا كان الأمر كذلك فالتعلُّق الحقيقي يجب أن يكون بالله تعالى، والحب الأصيل للكمال يجب أن يتركَّز في آخر هدف له وهو الله، ليكون الانتساب إلى الله والإيمان هو معيار الحب، وليقوم حبٌّ متعادل قويٌّ بين الله وعبده: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٣]. ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[٤]. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ﴾[٥].

وهذا الحب إذا أريد له أن يكون واقعياً وجب أن يعلو على كل حب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ

---

١ - الفتاوى الواضحة، ص ٧١٠، ط ٧، دار التعارف - بيروت.

٢ - الانشقاق: ٦.

٣ - المائدة: ٥٤.

٤ - التوبة: ١٠٨.

٥ - البقرة: ١٦٥.

تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [١].

وروي عن رسول الله(ص) أنه قال:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما» [٢].

وقال(ص) في دعائه:

«اللهم أرزقني حبَّك وحبَّ من يحبُّك وحبَّ ما يقربني إلى حبّك، وأجعل حبَّك أحبَّ إليَّ من الماء البارد» [٣].

ولتوفير مقدمات هذا الحبِّ يذكِّر القرآن بنعم الله التي لا تحصى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [٤].

وكلَّما ازداد وعي الإنسان بنعم الله، بل وعَلِمَ أنَّ هذا الكون كلَّه خُلِقَ على أساس الرحمة الإلهية الواسعة؛ اتقدت في نفسه شعلة العواطف الواعية تجاه الله تعالى، وذاب كلُّ شيء في قبال حبِّ الله، وراح في مناجاة لحبيبه ودعاء ولهان، ونسي كلَّ ألم في سبيل تحقيق رضاه.

يقول أمير المؤمنين(ع):

«ولقد كنا مع رسول الله(ص) نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ومضيّاً على اللقم، وصبراً على الألم، وجداً في جهاد العدو» [٥].

ويقول في خطبة المتقين: «عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم» [٦].

وبذلك يبلغ الحبُّ أعلى مستواه، ويرتفع عن مستواه البهيمي.

---

١ - التوبة: ٢٣ - ٢٤.

٢ - الاخلاق، عبدالله شبر، ص ٢٨٤ - ٢٨٦، منشورات بصيرتي، قم ، ايران، وراجع، مسند احمد، ج ٣، ص١٠٣، وصحيح البخاي، ج ١، ص ١١ ومسلم، ج ١، ص ٤٨، والترمذي، ج ٤، ص ١٢٧.

٣ - شرح الجامعة لشبر ص ٩٣، الترمذي، ج ٥، ص ١٨٤، ومستدرك الحاكم، ج٢، ص ٤٣٣ وغيرهم.

٤ - ابراهيم: ٣٤.

٥ - نهج البلاغة، صبحي الصالح، ط ٥٦، ص٩١ - ٩٢، المعيار والموازنة، ص ١٨٤.

٦ - المصدر السابق، ط ١٩٣، ص ٣٠٣.

«وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبُّوا سواك، ولم يلجـأوا إلى غيرك.. يا من أذاق أحباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين».[1]

وفي المناجاة الانجيلية المنسوبة إلى السجاد(ع): «وعزَّتك لقد أحببتك محبّة اسـتقرت في قلبي حلاوتها، وأنست نفسي بمباشرتها، ومحال في عدل أقـضيتك أن تـسد أسـباب رحمتك عن معتقدي محبتك».[2]

ويقول في مناجاته الأخرى: «إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم».[3]

ويقول: «فقد انقطعت إليك همتي، وانصرفت نحوك رغبتي، فأنت لا غـيرك مـرادي، ولك لا لسواك سَهَري وسهادي، ولقاؤك قرّة عيني، ووصلك مُنى نفسي، وإليك شوقي، وفي محبتك ولهي وإلى هواك صبابتي، ورضاك بغيتي، ورؤيتك حاجتي، وجوارك طلبتي، وقربك غاية مسألتي، وفي مناجاتك روحي وراحتي» .

وأمام مثل هذا الحب الرفيع يشكل الرضوان الإلهي أكبر لـذة للإنـسان «ورضـوان من الله أكبر» كما يشكل الفراق الإلهي أكبر عذاب، كمـا يقـول أمـير المـؤمنين(ع) في دعائه برواية صاحبه كميل بن زياد النخعي.

«فهبني يا ألهي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك».

ويكون الحب الأصيل لله، وكل شيء في سبيله محبوب، وكل ما يمنع عنـه مبغـوض كما جاء ذلك في أحاديث كثيرة:

منها: ما عن الحذّاء عن الإمام الصادق(ع): «من أحـب لله وأبغـض لله وأعطـى لله فهو ممن كمل إيمانه».[4]

---

١ - كلمات الامام الحسين للشريفي، ص ٨٠٥.

٢ - الصحيفة السجادية . للابطحي . ص ٤٦١، البحار ج ٩١ ص ١٧٠.

٣ - الصحيفة السجادية . للابطحي . ص ٤١٧.

٤ - الكافي، ج ٢، ص ١٢٤، الوسائل، ج ١٦، ص ١٦٥، سنن ابي داود، ج ٢، ص ٤٠٨، مصنف ابـن ابي شيبه ج ٨ ص ١٩١.

وعنه(ع): «من أوثق عرى الإيمان أن تُحِبَّ في الله وتبغض في الله، وتعطي في الله وتمنع في الله» .[١]

وعن الإمام الباقر(ع): قال رسول الله(ص): «ودُّ المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شعب الإيمان، ألا ومن أحبَّ في الله وأبغض في الله وأعطى في الله ومنع في الله فهو من أصفياء الله» [٢].

وعن الإمام الصادق(ع): «قال رسول الله(ص) لأصحابه: أيُّ عرى الإيمان أوثق؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، وقال بعضهم: الجهاد. فقال رسول الله(ص): «لكل ما قلتم فضل، وليس به ولكن: أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله، وتولي أولياء الله والتبرّي من أعداء الله» [٣].

ولعل كون الحب والبغض من أوثق عرى الإيمان لأنهما يعنيان انغراس الإيمان في الشعور والجوارح وتحوُّله إلى عواطف مؤمنة قوية دافعة، وهو أقوى مراتب الإيمان: قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [٤].

والمؤمن الذي لا يمتلك عاطفة متحركة على ضوء الوحي قد لا يمتلك حتى صفة الإيمان: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [٥].

وتشترك الأنظمة الإسلامية المختلفة في خلق التأكيد المجسِّد لهذه الرابطة القوية،

---

١ – الكافي، ج٢، ص ١٢٥، مصنف ابن ابي شيبة، ج ٧، ص ٢٢٦، البخاري، ج ٩، ص ٨.
٢ – اصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٤، دار الكتب الاسلامية ، طهران، ط ٣، ١٣٨٨هـ .
٣ – اصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٦ مجمع الزوائد ج١، ص ٩٠ كنز العمال، ج ١٥، ص ٨٩٠.
٤ – الحديد: ١٦.
٥ – الماعون: ١ – ٧.

ومنها نظام العبادات الذي يقوم بدور أساس كبير بواجباته ومستحباته، ومنها النظام التربوي والأخلاقي وكلها تحقِّق التوازن في مجال انعكاس هذه الرابطة على عمل الإنسان، فتشبع فيه احتياجه للدين، وتعلِّمه كيفية التعبير عن تدينه، دون أن يبتلى بما سيأتي من أخطار.

هكذا ينمو الحب الإلهي إلى أروع الدرجات.. إلاّ أنه يبقى هناك خطر انقلاب هذا الحب على هدفه.. فإن أهم أخطار الانقلاب التي أصيب بها هي:

١ـ الرهبنة والانعزال والبعد عن الواقع الخارجي المعاش.

٢- الاغترار بهذا الحب، وادّعاء كفاية الجنبة العاطفية فيه.

٣- العنصرية والقومية فيه.

وكل من هذه الأمور يؤدّي الى عدم قيام النظام العالمي الاجتماعي للإسلام، وإلى ضياع طاقات المسيرة الإنسانية وتفكُّك قواها وروابطها الاجتماعية، والقضاء بالتالي على الأهداف الكبرى.

وكذلك فقد نبه الإسلام المسلم إلى الواقع الذي يجب أن يكون عليه الحب، فأعطى النماذج في أناس قادة يمثلون قمة الحبِّ الإلهي الواقعي النافذ إلى المشاعر، وقدوة للمسلمين في هذا السبيل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [1]. وقيل لهم: إنَّ اتباعهم هو ملاك الحب الحقيقي: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [2]. ومن ثم فقد جاءت آيات توضِّح بالتفصيل من هم أولئك الذين يحبون الله حقيقة فيحبُّهم الله تعالى، وهي تؤكِّد على: أنَّ الله يحبُّ التوابين، والمتطهرين، والمتقين، والمحسنين، والصابرين، والمقسطين، والذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص على طاعته وطاعة رسوله، وأنه تعالى: لا يحب المعتدين، والمفسدين،

---

١ - الاحزاب: ٢١.

٢ - آل عمران: ٣١.

والآثمين، والظالمين، وكل مختال فخور، والخائنين، ولا يحب الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلِمَ، ولا يحبُّ المسرفين، والمستكبرين.

فإذا تحقق العنوان المحبوب فالحبُّ المتبادل متوقع وإلاّ فلا، وهكذا لا ينسجم أدّعاء الحبِّ مع العناوين المبغوضة.

ومما نسب إلى الإمام الصادق(ع):

تَعصي الإله وأنت تُظهر حبَّه ... هذا لعمرك في الفِعال بديعُ
لو كان حبُّك صادقاً لأطعته ... إن المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ[1]

هذا وقد نقل القرآن دعوى العنصرية في الحُبِّ وأنَّ الحبَّ الإلهي مخصوص بطائفة بشرية دون غيرها وردَّها بشدة:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[2].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[3].

وجاءت آيات لتؤكِّد أنَّ الشريعة مفتوحة للجميع، وأن لا تمايز بين أحد وآخر إلاّ بالتقوى والعلم. ولم يقع هناك تمايز تشريعي بين طائفة وطائفة إلاّ فيما كان هناك غرض تربوي واجتماعي.

---

١ - البحار، ج ٤٧، ص ٢٤، الوسائل، ج ١٥، ص ٣٠٨، ونسب الى رابعة العدوية (تاريخ مدينة دمشق)، ج٦٩، ص ١١٨، وفيض القدير للمناوي، ج٢، ص ٣٦.

٢ - الجمعه : ٦ - ٧ .

٣ - المائدة: ١٨.

حبُّ الرسول والأئمة ملازمٌ لحبِّ الله تعالى:

ففي طول حبِّ الله تعالى يُركِّز الإسلام على حبِّ الرسول والأئمة(ع) والصحابة الأخيار وباقي المؤمنين. وينمّي عوامل هذا الحب، حتى أن الرسول لا يسأل أجراً للرسالة إلا حبَّ أهل بيته(ع)، وهذا الأجر ليس إلاّ لصالح الأمة، لأنه شدَّها بقيادتها الحكيمة. ونحسب أننا في غنى عن ذكر النصوص الواردة في هذا السبيل لوضوحها وضرورتها.

وسيأتي حديث عن هذا الموضوع عند البحث عن (المعقول والمحسوس).

٢- الميول بالنسبة لما سوى الله:

إتّضح بعد معرفة النقطة الأولى أنَّ الإطار الذي يؤطِّر هذه الميول هو إطار (رضا الله) و(الحبُّ في الله). وهذا الإطار يضمن لنا إشباعاً متوازناً لهذه الغرائز منسجماً مع الهدف، وهذا الإشباع المتوازن يتجلّى بوضوح عندما ندرس كل ميل.

ولنبدأ أولاً بدائرة الذات الإنسانية وما يتبعها، ثم ننتقل إلى الدوائر الأخرى.

حب الذات:

ويعبر عنها بـ (أمِّ الغرائز) باعتبار انها تستوعب دوافع الغرائز الأخرى كلها، إلا أنه قد يدّعى أنها ليست بهذا المستوى من المرجعية التامة، فهناك غرائز أصيلة لا تقوم على أساس حبِّ الذات.

وعلى أيِّ حال، فإنَّها غريزة أصيلة كبرى، ولا يمكن للمبدأ أن يكون واقعياً إذا أنكرها أو أنكر آثارها في حياة الإنسان.

وقد أكَّدت (الماركسية) على أنها من نتائج (الوضع البرجوازي) وأنه يمكن القضاء عليها بإقامة نظام حديدي من جهة، وتحريم (الملكية الخاصة) من جهة أخرى.

فكانت بذلك مبدأ غير واقعي وغير منطقي في نظرته إلى الإنسان. كما كانت من قبل مبدأ مشككاً في مجال معرفة الواقع حقيقة.

وهذه الغريزة أمر ينمو بشكل طبيعي جداً وتظهر أعراضها في تصرُّفات الحيوان قبل الإنسان وفي أولى تصرفات الإنسان، فتستوعب الأعمَّ الأغلب من تصرفاته حتى بعض تلك التي يبدو أنها مناقضة لها.

ولا ريب في كونها ضرورية جداً لبقاء النوع الإنساني، وذلك لكي يستطاع إيصال الإنسان إلى هدفه المنشود.

ولكن قد تطغى هذه الغريزة فتتجاوز الحدَّ المطلوب، ويعدُّ الإنسان من نفسه إلهاً ويرى بعد ذلك أنَّ كلَّ شيء خارج حدود الذات أمر غير طبيعي بل هو غريب عنها.

ومن هنا اتهم المادّيون الإلهيين: بأنهم اغتربوا عن ذواتهم إذ وضعوا كلَّ مالديهم من قوىً وإمكانات في موجودات خارجة عن الذَّات، ثم قدَّموا لها الطاعة والولاء. وعليه فالمادية في نظرهم: رجوع الإنسان إلى ذاته وحصر القوى فيها.

وكانت نتيجة هذه الدعوى: تأليه الإنسان وقواه، حتى بلغ الأمر ببعض الفلاسفة أن يعلن ديناً إلههُ الإنسان، وحتى جاءت الوجودية لتقدس الإنسان.

ومع التجاوز عن كل مافي هذه المبادئ المادية من ضعف نقول: إن هذه المبادئ حَصرت الإنسان في ذاته، وفصلته عن الوجود الأكبر، وتجاوزت به حدوده ونسيت ضعفه وإمكانه، وسلبته أمنه عندما وكلته إلى نفسه.. ومن هنا نجد الوجودية تنساق بشكل طبيعي إلى القلق والهذيان والعبث والقرف وغيره، وهكذا كان كل هذا الإنحراف تعبيراً واضحاً عن طغيان (غريزة حبِّ الذات) على سائر الغرائز وعلى الحقيقة نفسها ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[1].

﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

---

١ - الحج: ٣١.
٢ - الانعام: ٧١.

وهكذا قدر لهذه الغريزة أن تكون موضع جدل عميق جداً وأخذ ورد، فتارة تشبع حتى تطغى! وأخرى تكبت حتى لا تجد لها متنفساً! وكلا الحالين أمر لا ينسجم مع الميسرة المتوازنة للإنسان.. وذلك الإشباع وهذا الكبت نشآ في الواقع من وجهتي نظر مختلفتين في مجال حل المشكلة الإجتماعية الإنسانية، وهي مشكلة معرفة (النظام الأصلح) و تطبيقه.

وكان أهمّ ما يواجه الإنسان هذا التعارض الذي يظهر بصورة طبيعية بين المصالح الذاتية والمصالح الإجتماعية، فلابد أن تتنحى إحداهما حتى يسير الركب، ومن هنا كان البعض من أنصار كبتِ المصالح الفردية وتقديم المجتمع، في حين فضّلَ الآخرُ تقديمَ المصالح الفردية على المصالح الإجتماعية وكبت متطلبات المجتمع.

وقد رفض الإسلام كلتا النظريتين، مؤكداً، على أنهما توقعان الاختلال في مسيرة الإنسانية الصاعدة ومركزاً على حل التعارض بأفضل حلٍ متصورٍ، وذلك عبر الخطوات التالية:

أولاً: يبدأ قبل كل شيء بتعيين مركز الإنسان من الكون. وقد مرَّ بعض الحديث في هذا الجانب، وخلاصته: إن الإنسان موجود خلقه الله الكامل المطلق خالق الكون، ذو القدرة، والعلم، والحياة المطلقة، لأجل أن يعمر الأرض من خلال ممارسة حياة اجتماعية طويلة، ووضع له تشريعاً في سبيل ذلك.

ثانياً: وعلى ضوء الخطوة الأولى يُنمّي في المسلم حبَّ الله تعالى حتى يصل إلى الحد الذي يضحي فيه بذاته في سبيله تعالى، كما مرَّ.

ثالثاً: ثم يربط بين التقرُّب إلى الله والحياة الإجتماعية، ليكون سبيل الله يعني سبيل العمل لصالح الرسالة، وتحقيق رضا الله في الأرض ونشر تعاليمه بين الناس، وفي خدمة المؤمنين ورفع أدوائهم ونقائصهم، وإشاعة الأخلاق الحسنة بالإضافة إلى التكامل الفردي:

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾[١].

﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾[٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ﴾[٣].

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء﴾[٤].

وهكذا يرتبط سبيل الله بخدمة المجتمع خدمة يأذن بها الله ويراها لصالحه.

رابعاً: وعلى ضوء الخطوة الثالثة، يبدأ الإسلام بتربية أخلاقية طويلة المدى، من خلال نظم عديدة (كنظام العبادات، والنظام التربوي والأخلاقي، ونظام الأسرة وغيرها) كلها تؤكد على تنمية الحسّ الإجتماعي فيه، وتعمل على تربية الوجدان والضمير الأخلاقي في الإنسان، وتركّز على أن يرتبط بعلاقات مودة كبرى مع مجتمعه المؤمن خاصة ومع مجتمعه الإنساني عامة.

خامساً: وبعد هذا يعمل على أن يذكر الإنسان بالمنابع الكبرى التي تنفذ عبرها غريزة حبّ الذات فتنمّي نفسها وتطغى لتنتهي بتلك الصور. وكمثل لذلك: نلاحظ موقف الإسلام من كل من عنصري الغفلة والتكبُّر، وهما منفذان كبيران للذاتية.

سادساً: ومع كل هذا يأتي دور أصيل يشكل نقطة الحل الرئيسة، وهو الدور الذي يجعل المسألة الفردية والمسألة الإجتماعية أمراً واحداً، وهي تلك المعجزة التي عجزت عنها جميع الأنظمة الوضعية؛ وذلك بتركيز الاعتقاد بالآخرة، وإعطاء صورة واضحة عنها. وحينذاك، فالذات الإنسانية واحدة في كلا الحالين جميعاً، وعندها يكون التنازل البسيط المؤقت في هذه الحياة القصيرة عن بعض اللذات لصالح المجتمع الذي يحبه،

---

١ - البقرة: ٢٤٥.
٢ - البقرة: ١٥٤.
٣ - البقرة: ٢١٨.
٤ - البقرة: ٢٦١.

ولصالح رقي الإنسانية وهو عضو فيها، ويكون هذا التنازل موجباً لإشباع النفس والذات عينها بأسمى أنواع الإشباع بدخولها جنّة الخلد والرضا، وخلاصها من عذاب الخلدِ في النيران.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وقد كانت الآيات الشريفة دقيقة غاية الدقة عندما ضربت على وتر إشباع الذات إشباعاً خالداً في قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [2].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [3].

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [4].

وهكذا يتحول العمل الصالح لصالح المجتمع؛ لصالح النفس في الوقت نفسه:

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ﴾ [5].

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ﴾ [6].

ويكون المتاع الدنيوي المنحرف ظلماً وبغياً على النفس:

﴿أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [7].

---

١ - التوبة: ١٢٠ - ١٢١.

٢ - الزخرف: ٧١.

٣ - فصلت: ٣١.

٤ - الانبياء: ١٠٢.

٥ - البقرة: ١١٠.

٦ - البقرة: ٢٧٢.

٧ - يونس: ٢٣.

وهكذا ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (١).

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٢).

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٣).

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم﴾ (٤).

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٥).

فالنفس الإنسانية تباع في الدين لله وللرسول(ص) وللإئمة(ع) وللمؤمنين ليعوَّض عنها بالجنة:

﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ (٦).

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (٧).

وخاطب الرسول(ص) المؤمنين قائلاً:

«ألست أولى بكم من أنفسكم؟» قالوا: بلى، فقال: «فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه» (٨).

وقد جاء في (نهج البلاغة) قول أمير المؤمنين(ع):

«إنَّه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها» (٩).

١ - الاسراء: ٧.

٢ - البقرة: ٥٧.

٣ - آل عمران: ١٧٨.

٤ - الاعراف: ٩.

٥ - التوبة: ٤٢.

٦ - التوبة: ١١١.

٧ - الاحزاب: ٦.

٨ - حديث الغدير المعروف ،راجع: الغدير للعلامة الأميني، وكتاب السنة لعمرو بن ابي عاصم، ص ٥٩٢، والمعجم الكبير للطبراني، ج٥، ص ١٩٥، وكنز العمال ج ١٣، ص ١٣١.

٩ - الكلمات القصار، ص٤٥٦، نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٠٥، البحار، ج ٧٥، ص١٣.

وما أكثر الآيات والأحاديث الواردة في هذا المعنى، وكلها تنتج هذا الحل الوحيد للمشكلة الإجتماعية المستعصية. فلا يبقى - والحال هذه - إلاّ طريق الإسلام المتوازن تماما فحسب.

وهكذا رأينا:

أنَّ غريزة حبٍّ الذات غريزة طبيعية تنمو بشكل طبيعي ولا تحتاج إلى تربية منمية، وإنما تحتاج إلى تهذيب وتوجيه، وتحديد مصاديق الذات ومداها، وتنبيه على سبيل إشباع اللذات الإنسانية، وإن كان شعور النفس ببعض اللذات المعنوية يحتاج إلى تربية علميَّة صحيحة ليكون إشباعها إشباعاً لهذه الغريزة في الوقت نفسه.

الإرادة مظهر الذات:

وتشكِّل الإرادة الإنسانية المظهر الأساس للذات الإنسانية، وقوتها تعبر عن قوتها، والعكس بالعكس. كذلك تشكل الإرادة حركة نفسية تتبع التعقل، فالعلاقة بينهما علاقة قويَّة جداً، ومن هنا فكلما كان التعقل قوياً ورفيعاً سارت الإرادة معه في تساميه، وإذا هبط عنصر التعقل توقعنا للإرادة النزول تدريجياً. وكذلك نقول: إن ضعف الإرادة وعدم تقويتها ربما يسري إلى ضعف التعقل.. فإذا كانت التربية واقعية نظرت للأمرين المتفاعلين معاً، ولم تهمل أحدهما على حساب الآخر. وعليه فما هو موقف الإسلام من الإرادة نفسها؟

إن الإسلام يفرِّق بين الإرادة الواعية التي يوجِّهها العقل، والإرادة الطاغية العنود، فيؤكِّد على الأول ويرفض الثانية بنفس المستوى الذي يرفض فيه حالات موت الإرادة وضعفها. فلنستعرض حالات الإرادة في الإنسان، وكيف عالج الإسلام الحالات المرفوضة منها.

الحالة الأولى: ضعف الإرادة

الحالة الأولى من حالات الإرادة هي حالة ضعف الإرادة، وهي في الواقع ونظر الإسلام الواقعي حالة غير طبيعية، وفق ما عرفناه من دور لها سابقاً وهذه الحالة غير الطبيعية تنتج فقدان الشخصية الإنسانية أو ضعفها، وإذا فقدت الشخصية الإنسانية فقد الإنسان إمكان اتخاذ شخصية أخرى متفرعة عليها، كالشخصية الإسلامية، ذلك أن الإرادة هي أحد الركنين المقوِّمين لها.

والركن الثاني الذي يجب ان تعمل في اطاره الارادة هو التعقل وهما معاً يشكِّلان الشخصية الإنسانية المميزة عن الحيوان.

كما ينتج عن ذلك بعض أنماط التقليد في العقيدة، حيث لا يمتلك الإنسان مبرراً ودافعاً لأن يتخذ موقفاً محدَّداً من الواقع - ومن ضمنه العقيدة الصحيحة - وإنما يلجأ إلى عقائد جاهزة. والأغلب أن تكون هذه العقائد الجاهزة هي العقائد الموروثة من القبيلة أو البيئة ليعتنقها مشبعاً بها بعض متطلبات نفسه. وحتى لو أحسَّ بضرورة تغيير ما يعيشه من ظروف، إلاّ أنه لا يمتلك المقوِّمات التي تسمو به على واقعه المعاش ليغيره نظراً للتهافت في أركان شخصيته. وأقلُّ ما تعني هذه الحالة أن تستهلك المسيرة الإنسانية عناصر قوتها وتجمد على ما تملكه، دون أن تعمل على أن تصدق مع ذاتها وشعارها لأنها مسيرة نحو الكمال.

ثم إنه ينتج من ضعف الإرادة - مع غض النظر عما سبق - تأرجح في السلوك، ولا مبالاة مقيتة بالهدف.. وواضح أن الالتزام بالمقررات والقوانين التي يؤمن بأسسها الإنسان أمر لا يمكن الاستغناء عنه لتكوين المجتمع الصالح ودفعه، بل يكاد يمتلك الإلزام جذوراً أصيلة في النفس ذاتها والالتزام فرع قوة الإرادة ووعيها فإذا ضعفت مال صاحبها مع كل ريح ونعق مع كل ناعق، ولم يؤمَن عليه مطلقاً أن ينقض كل الالتزامات عليه لميول معينة.

كما ينتج عن ذلك أيضاً: طغيان كبير للغرائز وتحكم كبير أهوج لها في سلوك الإنسان. وحينذاك فالفوضى وعدم التوازن في المشتهيات النفسية الجامحة.

وقديماً قال أمير المؤمنين(ع):

«إن أخوف ما أخاف عليكم إثنان: إتباع الهوى، وطول الأمل».[1]

ومن هنا يمكن أن نفهم التأكيد الشديد على تمييع الشباب وتحطيم إرادته، ودفعه نحو اللامبالاة واتباع الغرائز الشهوانية دون أي تقيُّد بأيٍّ رادع أو وازع روحي، وذلك بشتى الأساليب المثيرة للغرائز والمحطمة للشخصيَّة من سينما وتلفزيون وصحف خلاعية وغيرها مما تعجُّ بها بلادنا الإسلامية، لا بل يعجُّ بها العالم كله نتيجة اليد الصهيونية أو الرأسمالية الجشعة.

ولعل أهم ناتج لذلك الضعف الإرادي هو الضعف العقلي والتفكيري الذي ينجرُّ إليه المرء، ذلك أن العقل يعمل ويعمل متى ما يجد أن نتائجه تنعكس في إرادة الإنسان وسلوكه، فهو يعبِّر عن نفسه من خلال تلك الإرادة والسلوك الذي يتبعانه، أما إذا لم يجد أذناً صاغية وهمَّة عالية هادفة فإنه يعيش حالة خمول وكسل، وهي خسارة وما بعدها خسارة.

والواقع: أن كل ما ذكرناه من تزلزل الشخصية، وفقدان القدرة على التغيير، والتأرجح في السلوك واللامبالاة، وطغيان الشهوات، والخمود العقلي.. هي أمراض فرديَّة واجتماعية، فإذا ابتلي بها المجتمع فقد وجوده الحضاري الموجه المتعالي، وإن ظلَّ مثلاً يحتفظ بشيء من وجوده التكنيكي المتقدم.. وفي مثل هذا المجتمع اللاملتزم يصعب أن ينمو فرد بشكل طبيعي ليرجعه إلى حالته العقلية المبدعة.

علاج الإسلام لهذه الحالة:

وتختلف أساليب العلاج الإسلامي لهذه الحالة، إلاّ أنها تتفق جميعها على تنمية الجانبين المترابطين معاً: (التعقل والإرادة) - كما أشرنا إليه - ويمكن أن نذكر منها مايلي:

---

١ - نهج البلاغة ج ١ ص ٩٢، الكافي ج٨ ص ٥٨، الوسائل ج ٢ ص ٤٣٨، فتح الباري ج ١١ ص ٢٠٢، كنز العمال ج ١٦ ص ٢٢ و ص ١٣٧ عنه (ص).

١. التوصيات المباشرة لتنمية الإرادة والعقل:

أما التوصيات المباشرة لتنمية العقل فنجدها في كثير من الروايات التي تمجِّد العقل وتجعله نبيَّ الباطن، وتجعله أساس الخير، وبه عُرِفَ الله، وبه يُعبَدُ، وكذلك الآيات الداعية للتفكر في خلق السموات والنعم الإلهية، والتدبُّر في الحكمة. وهي إذ تمجِّد العقل والتعقُّل والتفكّر، وتؤكد على ان الإنسان إنما هو بعقله، لتلتفتُ إلى حالة الإفراط التي تصيب الإنسان في تعقله، فتذكِّره بأن عقله وإن كان مطلقاً في عمله إلا أنه محدود، ولا يمكنه أن يدرك كل الحقائق، بل عليه أن يستمد من الوحي الكثير من المعلومات، وتعلمه: «أنَّ دين الله لا يصاب بالعقول». (الإمام الصادق–ع–) إذ أن الملاكات والمصالح بيد الله، وتؤكد له على عنصر التعبُّد كما مرَّ.

وهكذا نجد التأكيد الكبير على أن يمتلك الإنسان إرادته أمام الشهوات وأنَّ الشجاعة الحقيقية هي امتلاك السيطرة على النفس، وعدم اتباع هواها، وامتلاك زمام المبادرة في اختيار الطريق. ومن هذا القبيل نصوص المحاسبة التي تحرِّك الإنسان ليقوم بإرادته بمحاسبة نفسه كما في الحديث: عن النبي (ص) «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا».[1]

وعن الإمام الصادق(ع): «... فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها، فإن للقيامة خمسين موقفاً كل موقف مقام ألف سنة» ثم تلا(ع): «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة».

وفي رواية أخرى: «ينبغي أن يكون للعاقل أربع ساعات: ساعة يحاسب بها نفسه...».[2]

---

١ – البحار، ج ٦٧، ص ٧٣، الوسائل، ج ١٦، ص ٩٩، مصنف ابن ابي شيبة، ج ٨ ص ١٤٩، تفسير ابن كثير، ج١، ص ٢٧.

٢ – البحار، ج ١، ص ١٣١، مصنف الضعاني ج ١١، ص ٢٢، كنز العمال، ج ٣، ص ٤١، الدر المنثور، ج٤، ص١٨٩.

وعن الإمام الكاظم(ع):

«ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسنة استزاد الله، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب إليه».[١]

وعن الإمام الصادق(ع):

«إن رجلاً أتى النبي(ص) فقال له: يا رسول الله أوصني، فقال له رسول الله(ص): فهل أنت مستوص إذ أنا أوصيتك؟ حتى قال له ذلك ثلاثاً وفي كلها يقول له الرجل: نعم يا رسول الله. فقال له رسول الله(ص): فإنني أوصيك إذا أنت هممت بأمر فتدبَّر عاقبته (التفكير) فإن يك رشداً فأمضه، وإن يك غياً فانته عنه».[٢]

ويصف الإمام علي(ع) السالك الطريق إلى الله سبحانه، فيقول: «قد أحيا عقله، وأمات نفسه، حتى دقَّ جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثيرُ البرق، فأبانَ له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة، ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة، بما استعمل قلبَه، وأرضى ربه»[٣].

ومن قصَص القرآن يمكن أن نختار قصة طالوت والجنود:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ

---

١ - الاختصاص للمفيد ص ٢٤٣، البحار ج ٦٧ ص ٧٢.

٢ - الكافي، ج ٨، ص ١٤٩، الوسائل، ج ١٥، ص ٢٨١، كنز العمال، ج ١٥، ص ٧٩٤، ذكر اخبار اصبهان، ج١، ص٣٠٥ .

٣ - نهج البلاغة ، صبحي الصالح، ص ٣٣٧.

سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ. وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [١].

وكذلك قصة الجرحى الذين تحرك بهم النبي(ص) لملاحقة المشركين بعد معركة أحد. وفي مقابلها قصة ضعف آدم، ويونس على نبينا وآله وعليهما السلام.

٢- التحسيس بالهدف والواجب والموقع وأمثالها:

وهو أسلوب مهمٌ جداً، فكم نرى من أناس يعيشون حالةً مؤسفة إذا ذُكِّروا بها وبعواقبها، وعرض عليهم حالهم بوجوهه المقيتة انتفضوا وتحركوا وغيَّروا وضعهم.. والإسلام إذ يواجه حالة ضعف الإرادة يقوم بعملية التذكير بالموقع السامي الذي يمتلكه الإنسان من الكون كخليفة لله في الأرض، وكمجعول من قبل أكبر الحقائق الكونية لإعمار الأرض، وكموجود سُخِّرت له المخلوقات وفُضِّل بما يمتاز به على جميعها فضِّل بالعقل والإرادة المنفذة لنتائج التعقُّل، وبهذا كان كريماً يباهي الله به الملائكة إذا سلك الصراط السويَّ. كما ينصبُّ التحسيس الإسلامي على الفرق بين الحياتين: حياة الاستسلام للشهوة، وحياة السيطرة عليها. والحياة الأولى لا معنى لها في المنطق الصحيح، وهكذا.. وإذا شعر الإنسان بهذه الأمور ترفَّع - بلا ريب - عن

---

١ - البقرة: ٢٤٦ - ٢٥١.

المستوى المنحط، وعلت همته ونفسه:

«وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام»

٣- تربية الارادة الواعية عبر الصوم والحج والمستحبات

وإذا رجعنا إلى بعض النظم - وخصوصاً نظام العبادات - وجدنا فيه أروع تربية للإرادة الواعية.

ففي الصوم - مثلاً - نجد أن التركيز كله ينصبُّ على تربية إرادة الإنسان الواعية، أو كما يعبَّر عنه في الروايات بالصبر، وليس هو إلا امتلاك الإرادة القويَّة في ظل أوامر الله ونواهيه.. وهذا ما ورد في روايات عديدة.

عن رسول الله(ص):

«الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر على المعصية» [1].

وهكذا الصوم فهو صبرٌ على عدم القرب إلى أمسٍّ الأشياء به (الطعام والجنس) وذلك قربة إلى الله تعالى وإخلاصاً له.

وهكذا نجد الأمر في الحج، حيث يحرم على الحاج المحرم بعض المحرمات التي تمس حياته اليومية تقريباً، فيطلب منه أن يكون دقيقاً في التنفيذ، وفي جوٍّ من قصد القربة.. وهو بذلك يري إرادته القويَّة للقيام بحق العبودية لله، واجتناب الطاغوت، والصراع ضدَّ مظاهره المتنوعة، وذلك باعتبار ان الحج يستهدف تحقيق هدف الأنبياء جميعاً، وما بعثوا إلا لهذين الهدفين.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾ [2].

ويمكن هنا أن نضيف إليهما بعض المستحبات، التي تحدَّثنا عن تأثيراتها الكبرى في إيجاد العزيمة الذاتية عند المسلم.

---

١ - اصول الكافي، الكليني، ج ٢، ص ٩١، الوسائل ج ١٥، ص ٢٣٧، الدر المنثور ج١ ص ٦٦، كنز العمال، ج ٣، ص ٢٧٣.

٢ - النحل: ٣٦.

هذا بالإضافة إلى التلقينات النافذة التي تلقيها الصلوات في نفس المسلم، وهكذا الأدعية المختلفة من مثل: «واستعملني بطاعتك...».

٤- تقديم النماذج العملية المتمثلة في القادة:

وليس بغريب على الإسلام أن يقدم هذه النماذج الحسية العالية بعد أن اعتمد هذه الطريقة في مختلف الشؤون. فالمسلم إذ ينشدُّ فكرياً وعاطفياً إلى المثل الأعلى، ويشاهد بأمِّ عينه تضحيات النبي(ص) الجسيمة وصموده وبسالته الواعية في سبيل الحق بحيث لو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره ما ولّى عن الدعوة إلى الله ومواقف الأبطال المسلمين في صدر الإسلام، ومنها مواقف الإمام الحسن بن علي(ع) أو الحسين(ع) في معركته الخالدة النتائج وغيرهم.

إن استعراض مواقف هؤلاء القادة ليملأ النفس وعياً وثباتاً على الحق.

ويقرب من هذا حكاية القرآن العظيم لقصص الثبات على الحق للأنبياء والمؤمنين في سبيل الحق.. فإن المسلم إذ يقرأ الآيات التالية تتجلّى في ضميره الحقيقة المربية للإرادة:

﴿وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ، اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ، وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ، إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ، إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾[1].

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[3].

---

١ – يس: ٢٠ – ٢٥.

٢ – التحريم: ١١.

٣ – طه: ٧٢..

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [1].

بمثل هذه الأساليب وغيرها عالج الإسلام هذه الحالة الإرادية المرَضية:

الحالة الثانية: طغيان الإرادة

وهي حالة طغيان الإرادة حتى على التعقل أو قوتها مع ضعف التعقل. وهي حالة مرَضية لا إنسانية يرفضها الإسلام أيضاً. فإنها تنتج الحدة في كل المواقف وذلك أمر ينافي الحكمة كما يؤدي إلى عدم الإلتزام، وتبتلي الإنسان بمرض العناد المعبر عن إرادة عمياء.. ومن نتائجها الثقة المفرطة بالنفس. وهي من مهالك الإنسان ومزالقه، لأنها تتنافى مع التوكل الذي يريد الإسلام أن يشعر الإنسان به دائماً وأن القوّة والعزّة من الله دائماً.. وإذا استحكمت هذه الحالة جرَّت إلى التكبُّر. وهو من أشد الأمراض النفسية. والقرآن يؤكِّد أن سر العصيان الأول وبالتالي كثير من المعاصي الأخرى إنَّما هو التكبُّر الذي ابتلي به إبليس ففسق عن أمر ربه.

علاج الإسلام:

وبملاحظة علاج الإسلام للحالة السابقة نعرف موقفه من هذه الحالة. إذ أن نفس تربية الإرادة ضمن الوعي. أو نفس تربية التعقل والالتزام. له تأثيره الكبير هنا. يضيف الإسلام هنا. أن يذكر الإنسان بضعفه وواقعه. وكيف أنه لا يقوى على شيء مما تمده العناية الإلهية. ويذكّره بأصله الذي لا يكاد يذكر لولا مدد الله:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [2].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قوةٍ﴾ [3].

﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [4].

---

١ – الصافات: ١٠٢.

٢ – النساء: ٢٨.

٣ – الروم: ٥٤.

٤ – الانفال: ٦٦.

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [1].

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ، ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ، ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ، ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ، كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [2].

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ﴾ [3].

ويقول أمير المؤمنين(ع):

«أم هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام وشغف الأستار، نطفة دهاقاً، وعلقةً محاقاً، وجنيناً وراضعاً، ووليداً ويافعاً، ثم منحه قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً، ليفهم معتبراً، ويقصر مزدجراً؛ حتى اذا قام اعتداله، واستوى مثاله، نفر مستكبراً، وخبط سادراً، ماتحاً في غرب هواه، كادحاً سعياً لدنياه، في لذّات طربه، وبدوات أربه، ثم لا يحتسب رزيّة ولا يخشع تقيّة، فمات في فتنته غريراً، وعاش في هفوته يسيراً» [4].

ومن الأمثلة الرائعة التي يضربها القرآن على ضعف الإنسان مهما بلغ من القوة والوسائل المقوية، (قصة سليمان بن داود) النبي المؤمن صاحب القوة والسلطان الذي لا تتصور البشرية فعلا له مثيلاً، بحيث سخر له الريح والطير والجن بحيث يمكن لأحدهم أن يحمل عرش ملكة سبأ في أقل من طرفة عين.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ، فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [5].

وهذه القصة يذكرها القرآن في سياق عجز الإنسان أمام القدرة الإلهية، حيث يقول

---

١ - النحل: ٤.

٢ - عبس: ١٧ - ٢٣.

٣ - الانفطار: ٦ - ٨.

٤ - نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ١١٢ - ١١٣.

٥ - سبأ: ٣٤.

قبلها بقليل ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[1].

وللإمام أمير المؤمنين(ع) تذكير رائع بضعف الإنسان وعدم خلوده إذ يقول(ع):

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ألبسكم الرياشَ، وأسبغ عليكم المعاش.. فلو أن أحداً يجد إلى البقاء سلَّماً أو لدفع الموت سبيلاً، لكان ذلك سليمان بن داوود(ع) الذي سخر له ملك الجن والانس، مع النبوَّة وعظيم الزلفة، فلما استوفى طعمته، واستكمل مدَّته، رمته قِسيُّ الفناء بنبال الموت، وأصبحت الديار منه خالية، والمساكن معطَّلةً، وورثها قوم آخرون...»[2].

وما أكثر القصص التي تتحدث عن من طغى وتجبَّر، فقصمه الله سبحانه وتعالى.

وإذا تذكَّر الإنسان ضعفه ووظيفته عاد إلى صوابه.

وبعد هذا.. تأتي الروايات الكثيرة التي تذمُّ التكبُّر والعناد الصَّلِف والعجب. كما مضى شيء من ذلك عند البحث عن التسليم، ونحن نذكر هنا بعض ماورد هذا:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[3].

وعن الإمام الباقر(ع):

«الكبر رداء الله، والمتكبِّر ينازع الله في ردائه»[4].

والرواية التالية توضح النقص الكبير، وان ظنه المتكبر كمالاً.

يقول الإمام الصادق(ع):

«ما من أحد يتيه إلا من ذلة يجدها في نفسه»[5].

---

١ - سبأ: ٩.

٢ - نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

٣ - الاعراف: ١٤٦.

٤ - الاخلاق ، شبر، ص ١٧٠، منشورات بصيرتي، الكافي، ج٢، ص ٣٠٩، الوسائل، ج١٥، ص ٣٧٥، مصنف عبدالرزاق، ج ١٠ ص ٤١٦، كنز العمال ج ٣، ص١١٤.

٥ - اخلاق شبر، ص ١٧١، الكافي، ج٢، ص ٣١٢، الوسائل، ج ١٥، ص ٣٨٠.

وقد حلّل علماء الأخلاق (رحمهم الله) هذه الصفة وأبرزوا جوانبها ومختلف علاجات الإسلام لها، فلتراجع بحوثهم، وكمثال قرآني على الإرادة المعاندة نلاحظ ابن نوح وأولئك الذين كانوا يقولون:

﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [١].

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ، لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [٢].

ومن جوانب علاج هذه الحالة: تنمية روح التوكل عند الإنسان والتذكير بإرادة الله الحاكمة على كل شيء، وان النصر من عند الله:

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [٣].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [٤].

ومن الرائع: أن نلاحظ أن كل تربية على الاقدام والشجاعة والإرادة تقريباً، تقرن بما يعطي الاستمداد من الله، وإن الله هو المدُّ لكل شيء:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾ [٥].

وقد أوصى أمير المؤمنين(ع) ابنه محمداً بوصايا حربية وختمها بذلك إذ قال:

«تزول الجبالُ ولا تزل، عضَّ على ناجذك، أعِرِ الله جمجمتك، تد في الأرض قدمك، ارم ببصرك أقصى القوم وغُضَّ بصرك. واعلم أن النصر من عند الله سبحانه». [٦]

هذا وكل ما ذكرناه كان بعض العلاج الإيجابي لهاتين الحالتين المرضيتين، أما علاج التخويف بعذاب الدنيا وفوقه عذاب الآخرة فهو صاحب الدور الرئيسي في ردع المفرط وتقديم المتأخر المتكاسل.

الحالة الثالثة: حالة الإرادة الواعية

---

١ – الانفال: ٣٢.

٢ – المعارج، ١ – ٢.

٣ – آل عمران: ١٢٦.

٤ – الطلاق: ٣.

٥ – الانفال: ١٧.

٦ – نهج البلاغة ج١ ص ٤٣، البحار ج ٣٢ ص ١٩٥.

وهي الحالة التي تنسجم مع الواقع الإنساني بشهادة الوجدان، والتي يقبلها الإسلام، محققاً توازناً في الإشباع، وانسجاماً بين الطاقات والهدف، ومعطياً مجالها العلمي الصحيح.

ميول على أساس الذات:

كان هذا حديثاً موجزاً عن الميل نحو الذات وهناك ميولٌ فرعية تقوم على هذا الأساس لنلاحظ بعضها:

أولاً: حب المال والنعم ميل يقوم على أساس الذات

فإن الوجدان يشهد بأن الإنسان يريد أن يختص لنفسه ويستأثر بالمال، باعتباره يفتح له آفاق إشباع اللذة الذاتية. ولم يكبت الإسلام هذا الميل، ولا تركه طاغياً. ويمكننا تحديد هذه النظرة بملاحظة النصوص الإسلامية، حيث يمكن تلخيصها بنقاط:

النقطة الأولى: الملكية حقيقة، واعتبارية تخويلية:

إن كل مافي الكون - طبقاً للتصور الإسلامي - مخلوق لله تعالى، وان كل نعمة يصيب منها موجود هي منة إلهية عليه، ومن ذلك ما يتنعم به الإنسان في حياته من اموال وموارد مادية لاشباع حاجاته، وكلها تجمع تحت عنوان المال فالمال ملك لله تصوراً، والآيات والأحاديث تؤكد أن هذه الملكية الحقيقة لم تنتقل ولو اعتباراً - على إطلاقها - للإنسان، فالملكية باقية لله تعالى ولم تنتقل بإطلاقها، وإنما خوّل الانسان التصرف فيها وأعطي خلافة وشبه وكالة عليها، وهذه الخلافة لأجل قيام حياة اجتماعية، كما سيأتي. وهي - كأية وكالة أو تخويل - مشروطة بأن يقوم الإنسان بصرف هذا المال في السبيل الطبيعي له، الذي حدده الله للإنسان، وبالموت تنفي هذه الوكالة، وبحصول بعض الحالات يحجر عليه التصرف بمقتضى وكالته حتى تعود له حالاته الطبيعية، كما في مجال السفه والتفليس والصبا. فلنلاحظ النصوص التالية:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ

وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء﴾ [١].

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٢].

وواضح، أن النعمة هنا هي المال، أو تشمل المال على الظاهر، وهو المذكور في قوله:

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [٣].

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [٤].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [٥].

فالخلافة على المال جزء من خلافة الإنسان على الأرض:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ﴾ [٦].

وعلى هذا جاء التعبير عن المال بأنه مال الله. قال الله تعالى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [٧].

وطبق هذا الأساس، فكل أمر إلهي بالإنفاق والتنمية المعيَّنة يمتلك - بالإضافة إلى عنصر الطاعة الواجبة لله تعالى - عنصراً إضافياً هو كونه من المالك الفعلي لهذا المال، ومن الطبيعي أن يتصرَّف المالك كيفما شاء، ولكن اللطف الإلهي يتجاوز الحدود حينما يعبِّر القرآن عن مسألة الصرف في سبيل الله بـ(الإقراض) كما في الآية الشريفة:

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ [٨].

﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ﴾ [٩].

---

١ - الانعام: ٩٤.
٢ - الزمر: ٤٩.
٣ - الانفال: ٢٨.
٤ - الزمر: ٨.
٥ - الحديد: ٧.
٦ - الانعام: ١٦٥.
٧ - النور: ٣٣.
٨ - الحديد: ١٨.
٩ - التغابن: ١٧.

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾[١].

والذي يبدو أن هذا تشجيع رائع على الإنفاق المستحبٌ، بالإضافة إلى الإنفاق الواجب، وتبدو الروعة عندما نلاحظ أن الله هو مالك المال، ومع ذلك يعبٌر عن استرجاعه بالقرض، وأن المال يصرف في سبيل تحسين أوضاع المجتمع الإنساني نفسه، ومع ذلك يضيفه الله تعالى إليه، ثم يتعهَّد بإرجاعه وبشكل مضاعف، ويضيف إليه أجراً حَسَناً بل عظيماً يتناسب مع كرامته وعظمته.

فالنتيجة هي: أنَّ المال - في الواقع وحتى في الظاهر - ملك لله تعالى، وأن الملكية هي تخويل خاص للإنسان بالتصرُّف وفق خطوط عريضة عليه أن لا يتجاوزها. وإذا تجاوزها فإنَّ هناك آثاراً وضعية وتكليفية معيَّنة عليه أن يتحمَّل تبعتها. كل هذا في أثناء حياته، وبمجرد الموت تعود الأموال إلى الله يوزعها كيفما شاء ولا يبقى له إلا الثلث تفضلاً ورحمة. وواضح أن في هذه الفترة يندفع للأعمال الحسنة.

النقطة الثانية: أنواع الملكية

وعندما نستخدم هذا التعبير يجب أن لا ننسى أنه (التخويل الخاص).

وللملكية في الإسلام أنواع يمكن أن تُجمَعَ تحت العناوين التالية:

الملكيَّة الخاصة الفردية، والملكية الجماعية، وملكية الدولة الإسلامية (الامام).

والاسلام لا يعتبر أيَّ نوع من هذه الأنواع أصلاً والباقي استثناءً، فكلُّها أصول ولها أحكامها الخاصة ومواردها المعيَّنة ومصارفها الرئيسة. ولا مجال هنا للتعرض لذلك، وإنما أردنا أن نشخص نظرة الإسلام من بين تلك النظرات التي تقدس تارة ملكية الفرد فتتعدى على ملكية المجتمع، وأخرى تصنع العكس.

النقطة الثالثة: أهداف الملكية، والنظرة إليها

ما يمكن أن يستفاد هو أنَّ الملكية أعطيت لتنتظم شؤون المجتمع ولتقوم قائمته بها ولتقسم الأعمال وتعمر الأرض بالإضافة إلى أنَّها تشكِّل نوعاً من الإشباع لحبٍّ الذات بحصول الإنسان على نتيجة عمله واختصاصه بها. قال الله تعالى:

---

١ - الحديد: ١١.

﴿ولاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾[1].

«ووجَّه الخطاب إلى الجماعة لأن الخلافة في الأصل لها، ونهاها عن تسليم أموال السفهاء إليهم. وقد عقبت الآية على هذا بالإشارة إلى أهداف الخلافة ورسالتها فوصفت الأموال بأنها: «التي جعل الله لكم قياماً» فالأموال قد جعلها الله للجماعة، يعني أنه استخلف الجماعة عليها، لا ليبذّروها أو يجمّدوها، وإنّما ليقوموا بحقها، بأن يستثمروها ويحافظوا عليها، فإذا لم يتحقَّق ذلك عن طريق الفرد فلتقم الجماعة بمسؤوليتها»[2].

ووقع التفاضل في الرزق لتجري الحياة الاجتماعية، ويتعاون الجميع باستخدام أحدهم الآخر لتنفيذ مآربه الحياتية:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾[3].

وهكذا فالمال من نعم الله الكبرى، و«الغنى نعم العون على الآخرة» و«الفقر كاد أن يكون كفراً»[4] وهو «سواد الوجه في الدارين»[5] وهو «الموت المعجَّل» أو الاكبر أو الاحمر[6] كما في الروايات.

وفي مجال تعداد نِعَم الله التي تتبع الاستغفار تقول الآية الكريمة على لسان نوح(ع):

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾[7].

---

١ - النساء: ٥.

٢ - اقتصادنا، ج ٢، ص ٥٠١.

٣ - الزخرف، ٣٢.

٤ - الكافي، ج٢، ص ٣٠٧، البحار، ج ٦٩، ص ٢٩ الجامع الصغير للسيوطي، ج٢ ص ٢٦٦، كنز العمال، ج ٦، ص٤٩٢.

٥ - ميزان الحكمة، ج٣، ص ٢٤٤٤، كشف الخفاء، ج٢، ص ٨٧.

٦ - الكافي، ج٢، ص ٢٦٦، كنز العمال، ج ٦، ص ٦١٨.

٧ - نوح: ١٠ - ١٢.

وكذا في قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [1].

وتجعل الآية القرآنية النقص في المال إلى صفّ الخوف والجوع، وأنه يمتحن به الإنسان فيقول تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ [2].

والفقر أمر بنفسه لا يراد للإنسان والمجتمع. يقول الإمام أمير المؤمنين(ع) لابنه محمد بن الحنفية:

«يا بنيَّ إنّي أخاف عليك الفقر، فاستعذ بالله منه، فإنَّ الفقر منقصةٌ للدِّين، مدهشة للعقل، داعية للمقت» [3].

وهناك أقوال أخر للقادة عليهم السلام فيه تشبه هذا.

وما نجده منها ما يمدح به الفقر فإنّما هو باعتبار حالة الغرور التي يبعثها الغنى ويفقدها الفقر، وحالة الصبر التي تكون في الإنسان في تلك الحالة، وإلا فالإسلام يؤكِّد: «إن اليد العليا خير من اليد السفلى» [4]. وان المال المصروف في طريقه الطبيعي: «نعم العون على طاعة الله» [5] و«ملعون من ألقى كلَّه على الناس».

وواضح أن الغنى الاجتماعي هو من أكبر أسباب القوة في كل عصر، وقد أمرنا الله تعالى أن: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [6].

فالاسلام إذن لا ينظر إلى المال نظرة الكراهية –كما تنظر بعض الطرق المترهبنة– بل يطلب أن يكون صرفه في طريقه المعيَّن له.

---

١ – الاسراء: ٦.

٢ – البقرة: ١٥٥ – ١٥٦.

٣ – نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٥٣١، ح ٣١٩.

٤ – من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص ٣٧٦، الوسائل، ج٩ ص ٣٧٨، مسنداحمد، ج ٧، ص ٦٧، سنن الدارمي، ج١، ص ٣٨٩، صحيح مسلم، ج ٣، ص ٩٤، صحيح البخاري، ج ٢، ص ١١٧ وغير ذلك.

٥ – الكافي، ج ٥ ص ٧١، كنز العمال، ج ٣، ص ٢٣٩.

٦ – الانفال: ٦٠.

والقرآن في مواضع عديدة يؤكّد مسألة التمتُّع بزينة الدنيا والتي تمثّل الملكية وسيلتها الرئيسة:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ، قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (١).

وقد منع القرآن بعض الأساطير التي كانت تفرط في الثروة الطبيعية حيث قال:

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢).

وقال القرآن أيضاً مخاطباً المؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ﴾ (٣).

النقطة الرابعة: صيانة حقوق الآخرين

حفظ حق الأفراد في المال وعدم انتقاله إلاّ بطرقه المشروعة، فلا يحلُّ لأحد التصرف في مال أخيه إلاّ عن طيب نفسه وبرضاه، وذلك حفظاً للنظام العام:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ (٤).

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (٥).

وبنفس الملاك الذي تحفظ به للأفراد حقوقهم في مالهم؛ تحفظ للآخرين حقوقهم في

---

١ – الاعراف: ٣١، ٣٣.

٢ – الانعام: ١٤٣.

٣ – المائدة: ٨٧.

٤ – النساء: ٢٩.

٥ – الانعام: ١٥٢.

هذا المال بمقتضى التوازن والتكافل الإجتماعي:

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ. لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [١].

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [٢].

هذا وإنَّ نهج البلاغة يحدِّثنا عن ضبطٍ كبير للإمام وعدم أيّ تهاون في الحقوق المالية.

النقطة الخامسة: تنظيم كيفية الانفاق

ووفقاً لما سبق من تصور للملكية وأهدافها فإنَّ (سبيل الله) بابٌ واسع لإنفاق الأموال فيه، ولا يعني سبيل الله إلاّ مصالح المجتمع والإنسانية ككلٍّ:

﴿انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [٣].

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ﴾ [٤].

﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ [٥].

النقطة السادسة: الانحرافات في تصوُّر المال ونفيها:

منها – مقياسية المال للتفاضل:

هذا إلى جانب نفي أيّ مياس آخر عدا التقوى والعلم، لإيجاد نوع من التفاضل في الخير بين الناس.. فكثرة المال لا قيمة لها في أيّ حساب. ولا يكشف الغنى بنفسه عن قرب من الله ومحبوبية خاصة لله تجاه هذا العبد:

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [٦].

---

١ – المعارج: ٢٤ – ٢٥.

٢ – الذاريات: ١٩.

٣ – التوبة: ٤١.

٤ – البقرة: ٢٦١.

٥ – التوبة: ١١١.

٦ – المؤمنون: ٥٥ – ٥٦.

وذم من افتخر به:

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [1].

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [2].

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [3].

﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [4].

﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ﴾ [5].

ومنها – جمع المال للمال ونسيان وظيفته:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ، الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [6].

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [7].

ومنها – حبه الشديد والاغترار والافتتان به:

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [8].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [9].

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [10].

---

١ – الكهف: ٣٤.

٢ – سبأ: ٣٥.

٣ – الليل: ١١.

٤ – المسد: ٢.

٥ – الحاقة: ٢٨.

٦ – الهمزة: ١ – ٣.

٧ – التوبة: ٣٤ – ٣٥.

٨ – الفجر : ١٧ – ٢٠.

٩ – المنافقون: ٩.

١٠ – التغابن: ١٥.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [١].

وهنا يمكن أن نلتفت إلى روايات الزهد التي تؤكد على الإنسان أن يكون فوق كل المتع الدينوية بمعنى أن لا يكون أسيراً لها:

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [٢].

ونتيجة لهذا التوازن في التربية المالية نجد المؤمنين الفقراء في صدر الإسلام يتَّجهون إلى النبي(ص) طالبين منه أن يدعو الله تعالى ليرزقهم كي يتصدَّقوا فهم يطلبون المال للتصدُّق.

ونجد التنازلات الكبرى عن المال في سبيل الله، فكم تنازل الإمام الحسن عليه السلام عن ماله، وكم أنفق الإمام زين العابدين لتحرير العبيد، وهكذا...

ثم ما أكثر الأمثلة القرآنية على نمطين من الناس: نمط يغرهم المال فيتجبرون (كقارون) حيث قال فيه سبحانه:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ، وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ، قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ، فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ، وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ، فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ، وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ

---

١ - العلق: ٦ - ٧.

٢ - الحديد: ٢٣.

عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[١].

وهكذا قصة أصحاب الجنة:

﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ، وَلَا يَسْتَثْنُونَ، فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ، فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ، أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ، فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ، أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ، وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ، قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾[٢].

والنمط الثاني هو نمط أولئك الذين تعلَّقت قلوبهم برضا الله والجنة، فلم يعودوا يلتفتون إلى المال ثمناً عوضاً عن الجنة.

ومنهم أهل البيت(ع) الذين نطق عنهم الذكر الحكيم فقال:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا﴾[٣].

وكذلك امرأة فرعون:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٤].

وهكذا سليمان (ع) الذي لم تعمه هذه الدنيا عن الحق، فما أن تتجلَّى له قوة حتى يسجد لله، كما فعل حينما مرَّ بوادي النمل.

والملاحظة أنَّ سورة (ص) تعرض إلى جانب قصة سليمان(ع) قصة أيّوب(ع) الذي ابتلي بشتَّى الأمراض والمصائب، فصبر صبراً عظيماً، وكأنَّها تريد أن تقول: إن الإنسان المؤمن في عزَّ قوَّته، وشدَّة ضعفه، يتَّجه إلى الله ويسبحه.

---

١ – القصص: ٧٦ – ٨٢.

٢ – القلم: ١٧ – ٢٨.

٣ – الدهر: ٨ – ٩.

٤ – التحريم: ١١.

وبعد الخروج عن دائرة الذات تأتي الدوائر القريبة منها، وأقربها حب الأبناء، وينسجم موقف الإسلام منهم مع سائر مواقفه:

ثانياً - حبُّ الأبناء:

ويكاد حبُّ الأبناء يعالج بنفس الأسلوب الذي عولج به حبُّ الأموال، ومن هنا نجد الجمع كثيراً بين الأموال والأولاد عند محاولة إعطاء مفهوم عنهما.

فيعترف بأنهما أصيلان في النفس الإنسانية، كسائر الشهوات:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [1].

وعندما يتحدث القرآن الكريم عن الأنبياء يثبت لنا عنهم عواطفهم وشوقهم نحو الولد، كما في قصتي إبراهيم وزكريا(ع):

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا، قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا،قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا، قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [2].

وليس امتلاك البنين وامتلاك الأموال أمراً مكروهاً، بل هي نعمة إلهية وتقدير مطلوب لبقاء الحياة النوعية للإنسان لتحقيق كماله كما مر. وقد حارب الإسلام فكرة الوأد بشدّة، إذ كان قتلهم الأولاد «خشية الاملاق»:

﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً﴾ [3].

---

١ - آل عمران: ١٤.

٢ - مريم: ٧ - ١٠.

٣ - الاسراء: ٣١.

﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [١].

وكما كان المال مغرياً للانسان ومسبباً لأنواع من التفاضل المنحرف، كان الولد كذلك، بل قد يكون الولد أشدُّ تأثيراً في انحراف الإنسان. ولذا جاء التحذير الإلهي القاطع من المحبة الشديدة التي يذوب فيها الإنسان أمام عواطفه، كما في كل حب، وجعل القرآن حب الله فوق كل حب حتى أنه تنقطع هذه الرابطة النسبية فيما إذا تعارضت مع الرابطة القوية بين الإنسان وربه:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [٢].

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [٣].

ويفيد الأب حينئذ ابنه الحبيب غاية الحب في سبيل الله وأمره:

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [٤].

وهكذا كثرت الآيات التي تحذِّر من فتنة الأولاد، وحتى أنها تجعل بعض الأولاد اعداء لآبائهم.

﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [٥].

﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [٦].

---

١ – التكوير: ٨ – ٩.

٢ – التوبة: ٢٤.

٣ – هود: ٤٥ – ٤٦.

٤ – الصافات: ١٠٢.

٥ – التغابن: ١٤.

٦ – التغابن: ١٥.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [1].

وعليه فلا الإهمال لهذه العواطف وقتلها خوف الفقر، ولا الذوبان فيها بحيث ينسى الله وينسى الواجب الإنساني.

وإذا حصل التوازن في هذه العواطف يأتي التوجيه الإلهي ليضيف له واجب التوجيه للأبناء والتركيز على تربيتهم التربية الإلهية الصحيحة، فلا يسمع الابن إذ يأتي إلى الدنيا أي شيء قبل الأذان والإقامة، ولا يسير إلا وفق توجيه الهي منظَّم علَّمه الإسلام لوالديه ليطبقاه على ولدهما لينشأ متوازن الشخصية، محدَّد النظرة، قوي الإرادة، في إطار من الوعي يصحبه دعاء الأب طالباً من الله أن يوفِّق ولده وأن يجعله رضياً:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [2].

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [3].

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [4].

ومن أروع الحديث عن تربية الأبناء وتوجيههم حديث لقمان لابنه:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ، وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [5].

وما أكثر توجيهات النبي(ص) والأئمة (ع) بهذا الصدد.

---

١ – المنافقون: ٩.

٢ – البقرة: ١٢٧ – ١٢٨.

٣ – البقرة: ١٣٣.

٤ – مريم: ٦.

٥ – لقمان: ١٣ – ١٤.

ثالثاً - حب الآباء:

وهنا نواجه حالتين شاذتين متناقضتين، هما:

١ـ حالة موت هذا الحبِّ وضعفه بحيث يفقد دوره في الحياة.

٢- وحالة قوة الربط وتحوُّله إلى حبٍّ مسيطر موجِّهٍ لسلوك الإنساني وحاكم على كل شيء فيه.

أما الحالة الأولى:

فقد يكون سببها أنّ الارتباط بالأبوين لا يمتلك مثل تلك الدوافع الغريزية الكبرى التي رأيناها من قبل الأبوين بالنسبة للأبناء، والتي تظلُّ تقوى وتقوى شيئاً فشيئاً، في حين نجد أن العواطف القويَّة من قبل للأبناء تجاه آبائهم تحتفظ بقوتها مادام الأب يمثل الممون الفكري والتربوي والماديِّ للولد، فإذا ما ضعف التموين شيئاً فشيئاً ضعفت تلك الرابطة كذلك، وقد يصل الأمر بالابن إلى العقوق وفقدان العواطف تجاه الأبوين، خصوصاً إذا كان أحدهما أو كلاهما يمثلان كلاً مالياً على الابن بعد أن تقطَّعت الرابطة الثقافية بين الجيلين السابق واللاحق.

وهذه الحالة أمر لا يقبله الإسلام مطلقاً لأنها تعني بالإضافة إلى نكران الجميل تمزُّقَ رابطة إجتماعية قوية مؤثرة جداً في التماسك والتربية، في حين نجده يهدف إلى تقوية هذه الرابطة ولو بواجبات إلزامية، بعد أن اعتقد أن العائلة هي نواة المجتمع، ويجب أن تقوم على أساس المودة والمحبة والإحسان والحقوق المتبادلة والأخلاقية الإنسانية وأداء حق الشكر على التعب، ولذا فهو يقرن طاعة الله بطاعة الوالدين والإحسان إليهما، ويذكِّر الإنسان بالتعب والألم الكبيرين في سبيله منهما ليُقوِّي جذور هذه المحبة منه لهما:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾[1].

---

١ - البقرة: ٨٣.

﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [1].

﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [2].

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [3].

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [4].

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [5].

وعلى هذا جاءت الروايات الكثيرة التي تدعو إلى بر الوالدين وتحذّر من العقوق، وتذكّر بعقابه الدنيوي والأخروي.

ويوسعُ الإسلام من الدائرة العائلية ويجعلها تشمل العشيرة والأقربين، لأنهم أولى بالمعروف، ثم يوسّع الدائرة ليصل بها إلى دائرة المجتمع الإسلامي العائلي الكبير، حيث يكون إبراهيم(ع) أبا لهذه الأمة:

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ [6].

وذلك لأنه شيخ التوحيد وهذه الأمة أمة التوحيد، وحيث يكون الرسول(ص)، والإمام أمير المؤمنين(ع) أبوا هذه الأمة[7]، وحيث تكون أزواج النبي(ص) أمهات

---

١ - البقرة: ٢١٥.

٢ - النساء: ٣٦.

٣ - الاسراء: ٢٣ - ٢٤.

٤ - لقمان: ١٤.

٥ - الانعام: ١٥١.

٦ - الحج: ٧٨.

٧ - علل الشرائع، ج١، ص ١٢٧، عيون اخبار الرضا، ج١، ص ٩١، مسند الشهاب، ج ٢، ص ٢٦٠، كنز العمال، ج ٣ ،ص ٢٣٩، كشف الخفاء للعجلوني، ج ٢، ص ٣٢٠.

المؤمنين «وأزواجه أمهاتهم» وحيث تكون الأخوّة الإسلامية عامة بين المؤمنين: «إنّما المؤمنون إخوة».

كل هذه العاطفة والمودة في إطار كون الأبوين على صرط الحق، أمّا إذا لم يكونا كذلك، وشكَّلا عقبة في سبيل مودَّة الله والجهاد في سبيله؛ فإنَّ المودَّة منقطعة، وإن كانت المصاحبة بالمعروف محقَّقة إلا أن تقتضي المحبَّة الإلهية عدم ذلك، فإن المسلم مائل معها حتى ولو تطلَّبت منه أن يقتل أباه في سبيل الحق فهو يقدم على ذلك:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [1].

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ [2].

ونفس الآية السابقة من (سورة لقمان) التي أكَّدت على مودَّتهم يتبعها قول: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ﴾ [3].

والتاريخ الإسلامي يحدثنا عن صور رائعة في هذا المجال.

وأما الحالة الثانية:

فهي أيضاً حالة مرضيَّة خطيرة جداً، يذوب فيها الأبناء في شخصيات آبائهم، فلا يملكون من أنفسهم أي إرادة وتفكير، فهم لا يفكرون إلا في إطار تفكير آبائهم، وهذا يؤدّي إلى التقليد في العقيدة والعمل؛ وهو أمر مرفوض تماماً من قبل الإسلام.

والملاحظ أن القرآن يذكر لمختلف الأمم اعتراضهم على أنبيائهم الذين جاءوا ليغيروا الواقع والعمل السيء الذي كانوا فيه: بأنهم لا يستطيعون أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم، بل أن معارضي الأنبياء كانوا يتخذون هذا الجانب العاطفي لضرب حركة

---

١ – التوبة: ٢٣.

٢ – المجادلة: ٢٢.

٣ – لقمان: ١٥.

الأنبياء المغيرة للوضع الفاسد. وهذا ما نلاحظه في الآيات التالية:

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [1].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [2].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [3].

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [4].

﴿قَالَ مُوسَى أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ. قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [5].

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ. قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [6].

وهكذا تكثر الآيات الواردة في هذا السبيل.

وهنا يقوم الإسلام بعلاج هذه الحالة بتقوية الإرادة والتفكير كما سبق، وبالتحسيس بالفرق الكبير بين حياة الهدى وحياة الضلال، كما يعتبر الاستدلال ضد أولئك المحتجّين باتباع الآباء وأنه هو السبيل الأصوب؛ خطوة لتقريبهم إلى الحق، وذلك بأن يقال لهم: هل كنتم تتّبعون آباءكم لو علمتم بأنهم لا يعقلون شيئاً ولا يعلمون ولا

---

١ – الزخرف: ٢٣ – ٢٤.

٢ – البقرة: ١٧٠.

٣ – المائدة: ١٠٤.

٤ – الاعراف: ٢٨.

٥ – يونس: ٧٧ – ٧٨.

٦ – الانبياء: ٥٣ – ٥٤.

يهتدون؟! والجواب الطبيعي سيكون بالنفي، وحينذاك يعي هؤلاء أن الإتباع إنما يكون صحيحاً إذا عرف الإنسان حسن طريقة الأب وصواب معتقده:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [1].

وهذا هو الاتباع الواعي الصحيح على ضوء الحقيقة.

كما يذكّر القرآن بأن المترفين وأمثال فرعون كانوا دائماً هم الذين يستغلّون هذه النعرة لتنفيذ مآربهم، وهذا المعنى يساعد على أن يقوم هؤلاء بمراجعة أنفسهم مرة أخرى، وفي هذا كفاية للسير نحو الهدى.

رابعاً - حب النساء؛ أو الميول الغريزية الجنسية

والدور الأساس في هذا الميل يقوم به النظام الاجتماعي والقوانين المدنية الإسلامية، بالإضافة إلى الدور الذي تقوم به النظم الإسلامية الأخرى كالنظام الأخلاقي والجنائي وغيره.

وطبقاً لنظرة الإسلام الواقعية فإنه هنا أيضاً لم يكبت الغريزة، بل حتى لم ينظر إليها نظرة ازدراء واحتقار - كما تنظر إليها المسيحية المنحرفة وبعض المبادئ الشرقية - بل جعل تصريفها على الوجه الصحيح المهذّب من القربات إلى الله تعالى! ومن سنن الأنبياء والصالحين، وندب إليه، وحث على التخلص من حالة عدم التصريف النظيف.

وإذا كان لم يكبت هذه الغريزة فإنه لم يطلقها إطلاقاً هدّاماً بعد أن اعترف بدورها المهم في الحياة، إذ أن الإطلاق الإباحي يقضي - أول ما يقضي - على أساس التكوين الاجتماعي في نظره وهو (العائلة) ويذيب الأخلاقية العامة، وهي إطار ليس لكل العلاقات الاجتماعية بنظره فحسب، بل لكل السلوكات الانسانية. بعد أن يقضي

---

١ - البقرة: ١٣٣.

على التوازن المطلوب في الإشباع المتوازن للغرائز، ويحول الانسان إلى حيوان بل أضل! وهذه أخطار تعتبر أكبر بكثير من أخطار الكبت الجنسي رغم كبر أخطاره أيضاً.

فبين الكبت والإطلاق يتحدَّد موقف ثالث للإسلام العظيم يتحدَّد بالإشباع النظيف، ويسري روح هذا الإشباع عبر قوانين الزواج والطلاق والحجاب، وما يرتبط بالاتصال الجنسي والتكوين العائلي، بعد أن حدد الهدف من هذه الغريزة:

إن الهدف هدفان مترابطان بعضهما ببعض، ودخيلان في صنع المسيرة الانسانية بحيث يشكلان معاً هدفاً واحداً:

أحدهما: السكينة العائلية، والتي تعتبر النواة للسكينة الاجتماعية ككل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [1].

والثاني: الامتداد النوعي للانسان: فبعد أن تتحدث الآيات عن التربية والرعاية الإلهية للفرد، تذكر ما يشير إلى الامتداد النوعي كما في الآيتين التاليتين:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [2].

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [3].

وعلى ضوء ذلك: وجدنا الإسلام يدعو بشدة إلى الزواج في روايات كثيرة، وينظم قوانينه وآدابه ومقاييسه، ويعتبره من سنن الرسول(ص). ومن جملة ذلك: فتح باب (تعدد الزوجات) لمصالح كبرى، وكذلك فتح باب (الزواج المؤقت: المتعة) لمصالح كبرى أيضاً. فكان الزواج، وملك اليمين هما مجالي التصريف الصحيح لتلك الغريزة.. في حين أغلق كل مجالات التصريف الأخرى التي تتنافى مع أهدافه من هذه الغريزة الإلهية، وذلك من مثل : اللواط والسحق، والاستمناء، ووطء الحيوانات، والزنا. وعاقب عليها

---

١ - الاعراف: ١٨٩.

٢ - فاطر: ١١.

٣ - الشورى: ١١.

عقاباً شديداً مما يكشف عن اهتمامه الشديد بهذا الموضوع، حتى أنه جعل عقوباتها من قسم الحدود لا من قسم التعزيرات، لأنها ترتبط ترتبط بالمصلحة الاجتماعية الثابتة.

وبعد ذلك الفتح وهذا الإغلاق هيّأ الإسلام الجوَّ المناسب النظيف الذي يؤثران فيه.. تماماً كما فعل في كل مجال.. فلئلا تحرك الغريزة فيفقد الانسان إرادته تجاهها حذَّره أوّلا من عواقبها الوخيمة ليبقى على ذكر من ذلك دائماً، ثم حرَّم عليه النظر إلى ما يحرك فيه الغريزة، وجعل النظرة سهماً من سهام إبليس مسموماً، وكذلك حرّم عليه الخلوة بالأجنبية لغرض منع العواقب الوخيمة لذلك. وبالتالي أمر المرأة نفسها بالحجاب، وحرّم عليها كشف الزينة، والتطيب المهيج، بل حرَّم عليها القيام بكل عمل يؤدّي إلى ذلك كالترقيق لصوتها للأجنبي. والملاحظ أننا نجد أن الإسلام حرّم الموسيقى والغناء المطربين، ولعل إحدى علل ذلك ما يبعثانه من خفة وطرب يفقد الانسان معها اتزانه وتعقله، وهو جوّ مناسب جداً لأن تطغى عليه بعض الغرائز وخصوصاً غريزة الجنس.. ومن هنا نجد العدو الكافر يؤكّد على أن يوفر هذا الجو بأقصى ما يمكن توفيره.. ومن خلال تعبيرات جنسية ملحَّة مهيجة، وذلك في اللقاءات التي يصنعها لغرض تمييع شخصية الإنسان وتحريك العامل الجنسي فيه.. منفذاً من خلال ذلك مآربه الدنيئة.

هذا من جهة. ومن جهة أخرى؛ فإنا نجد أن الإسلام أغلق باب الاتصال الجنسي - إغلاقاً تاماً - مع أناس يضطر الانسان للعيش معهم غالباً، مع أنه لو تمَ - والعياذ بالله - فهو اتصال مخرِّب ينقلب على الهدف.

ومن هنا جاء تحريم الزواج بالأمهات والأخوات والخالات والعمّات وأمثال ذلك.

هذا في إطار الاتصال الجنسي غير المشروع، أما في إطار الاتصال المشروع فقد مرَّ أن له قوانينه الإسلامية الواقعية.. وقد حذّر الإسلام في هذا المجال من طغيان حبٍّ الأزواج بحيث ينقلب على هدفه، فذكَّر المسلم بأن من الأزواج من هي عدو للانسان، وذلك إذا فقد الانسان إرادته أمامها فقادته نحو الضلال.

هذا بإيجاز شديد عرض للموقف الإسلامي المتوازن. ونترك التفصيل إلى الكتب المفصلة.

خامساً - حب العشيرة

وتأتي الرابطة بينها وبين الفرد في المرحلة التالية للارتباط بالأب والإخوة، إلاّ أنها بنفس الملاك. وعلى هذا يكثر ذكر الأقربين مع ذلك الوالدين والإحسان إليهما في القرآن الكريم.

إلا أنّ شدة الحاجة للقبيلة في بعض المجتمعات وخصوصاً اللامركزية تحوّل الارتباط بها إلى شبه تعصُّب، بل إلى تعصُّب متزايد، وأخيراً إلى إله كاذب يعبد من دون الله سبحانه.

والإسلام يقبل هذه الرابطة في حدّها المعقول، ويوضّح الإمام أمير المؤمنين(ع) هذا الحدّ فيقول:

«أيها الناس إنه لا يستغني الرجل - وإن كان ذامال - عن عترته [عشيرته] ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم، وهم أعظم الناس حيطة من ورائه، وألمهم لشعثه، وأعطفهم عليه عند نازلة إذا نزلت به، ولسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يرثه غيره»[1].

ثم يقول:

«ألا لا يعدلنّ أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة أن يسدها بالذي لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه، ومن يقبض يده عن عشيرته فإنما تقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه إيد كثيرة، ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودة»[2].

إنّ الحد المعقول: هو أن تكون العشيرة سنداً للانسان تحفظ ذكره، وتعطف عليه

---

١ - نهج البلاغة، محمد عبده، ص ١١٥.

٢ - نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٦٥.

عند نزول النوازل وأمثال ذلك مما يكون عنصراً إضافياً للشدِّ الاجتماعي.. وقد لاحظ الإسلام هذا المعنى عندما وضع دية قتل الخطأ على العاقلة كنوع من التعاون والتكافل داخل المجتمع الصغير (الأقربين).

وعلى هذا الأساس دعت الآيات إلى ملاحظة حال الأقربين، وأنهم أولى بالمعروف والإحسان من غيرهم. والأقربون وإن كانوا أخصَّ من العشيرة - ظاهراً - إلا أنَّ العشيرة تعدُّ من الأقربين بالنسبة لغيرها قطعاً.

﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [١].

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ [٢].

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾ [٣].

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى﴾ [٤].

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [٥].

هذه هي الصورة الصحيحة لرابطة ذوي القربى والعشيرة: إنها صورة التعاون والتكافل الخاص. أمّا إذا تجاوزت الرابطة حدودها المعقولة وتحوّلت إلى ظلم للآخرين لصالح العشيرة، وتعصُّب أعمى للعشيرة ومبائدها ومعتقداتها، وطاعة عمياء لها في كل شيء وخصوصا لكبرائها المصلحيين؛ فهذا أمر يرفضه الإسلام رفضا قاطعا، على أساس أنه من أخلاق الجاهلية التي قضى عليها الإسلام، وقد عمل على أن يقضي عليه ووفق إلى حد بعيد في ذلك، وإن أحييت هذه العصبية بعد وفاته(ص) شيئاً فشيئاً حتى بلغت القمة على يد بطل التعصب الجاهلي (معاوية)!

أمّا التحيُّز للعشيرة وعدم مراعاة العدل؛ فهو ما تنفيه الآية الكريمة:

---

١ - البقرة: ٢١٥.
٢ - البقرة: ٨٣.
٣ - البقرة: ١٧٧.
٤ - النحل: ٩٠.
٥ - الروم: ٣٨.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ (١).

وأما التعصب والطاعة العمياء للقبيلة والكبراء؛ فقد وردت نصوص في ذمه وأنه من أخلاق الجاهلية. فتتحدث الآية التالية - مثلاً - عن حسرة الكفّار يوم القيامة لطاعتهم لهؤلاء الكبراء:

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا، وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (٢).

وذم القرآن الكريم ذلك التفاخر القبلي المقيت عند العرب فقال:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ (٣).

ويقول الإمام أمير المؤمنين(ع):

«ألا وقد أمعنتم في البغي، وأفسدتم في الأرض، مصارحة لله بالمناصبة، ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة، فالله الله في كبر الحميَّة وفخر الجاهلية! فإنه ملاقح الشنآن ومنافخ الشيطان، التي خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية، حتى أعنقوا في حنادس جهالته ومهاوي ضلالته، ذللا عن سياقه، سلساً في قياده، أمراً تشابهت القلوب فيه، وتتابعت القرون عليه، وكبراً تضايقت الصدور.

ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبَّروا عن حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم، وألقوا الهجينة على ربهم، وجاحدوا الله على ما صنع بهم، مكابرة لقضائه، ومغالبة لآلائه؛ فإنهم قواعد أساس العصبية ودعائم أركان الفتنة وسيوف اعتزاء (٤) الجاهلية! فاتقوا الله ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً، ولا لفضله عندكم حساداً، ولا

---

١ - النساء: ١٣٥.

٢ - الاحزاب: ٦٦ - ٦٨.

٣ - التكاثر: ١ - ٢.

٤ - اعتزاء الجاهلية: تفاخرهم بانسابهم.

تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، وخلطتم بصحتكم مرضهم، وأدخلتم في حقكم باطلهم، وهم أساس الفسوق وأحلاس العقوق، اتخذهم إبليس مطايا ضلال، وجنداً بهم يصول على الناس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقاً لعقولكم، ودخولاً في عيونكم ونفثاً في أسماعكم، فجعلكم مرمى نبله وموطئ قدمه ومأخذ يده»[١].

وهكذا يمضي أمير المؤمنين(ع) يشرح لهم عواقب الكبر والتعصب:

«ولقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصب لشيء من الأشياء إلا عن علة تحتمل تمويه الجهلاء أو حجة تليط بعقول السفهاء غيركم، فإنكم تتعصبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علة. أما إبليس فتعصَّب على آدم(ع) لأصله، وطعن عليه في خلقته فقال: أنا ناري وأنت طينيٌّ.

وأمّا الأغنياء من مترفة الأمم فتعصَّبوا لآثار مواقع النعم فقالوا: «نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين» فإن كان لابد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحام الأفعال، ومحاسن الأمور، التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب ويعاسيب القبائل؛ بالأخلاق الرغيبة، والأحلام العظيمة، والأخطار الجليلة والآثار المحمودة فتعصَّبوا لخلال الحمد...»[٢].

وكذا يذكِّرهم بتلك الخصال، ويدعوهم إلى الاعتبار بأحوال الماضين، وكيف اتخذهم الفراعنة عبيداً.. وبهذا يحاول(ع) أن يعطيهم البديل الصالح لتلك الصفة الذميمة.

سادساً - حبُّ أفراد المجتمع المؤمن

ويقوم هذا الحبُّ على أساس الرابطة الإيمانية والهدفية المشتركة، ويستمد من أسس الحبِّ الأخرى أسسه. وقد حاول الإسلام تنمية هذا الحبِّ تنمية قوية بمختلف الأساليب، لأنه يحتاج إلى تنمية كبرى.

فقد رأيناه من قبل ركَّز على أن يكون المقياس في الحبِّ: هو كونه (في الله).

---

١ - نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

٢ - نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٢٩٥ .

وهنا يطبق هذا المقياس بشدة على أفراد المجتمع المسلم، فإن الله تعالى يحبُّ المؤمن، فالمؤمن يحب المؤمن ويكرمه لله سبحانه.

كما نراه يضع قاعدة لهذا الحب وهي: (الأخوة) فيقول:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [1].

وتتواتر الأحاديث في أخوة المؤمن للمؤمن، وفي حقوقه على أخيه هذا.

وقد أكّد النبي(ص) هذه الأخوة حينما جسَّدها في عملية التآخي الكبرى في مطلع بناء المجتمع المسلم في المدينة. ومن ثم يذكر المسلمين دائماً بنعمة الأخوّة الإسلامية الكبرى:

﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [2].

ثم إنه لا ريب في أن الواجبات المشتركة والسلوكات المتحدة تشدُّ المؤمنين بعضهم إلى بعض؛ فتقول الآية الكريمة:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [3].

وبعد هذا نجد الإسلام يؤكِّد على نفي كلِّ أسباب التباغض بين أفراد المجتمع المسلم نفياً قاطعاً.

ومن أسباب التباغض: السخرية، والظن السيء، والتجسس، والغيبة.. فيقول الله سبحانه بعد قوله:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. يَا أَيُّهَا

---

١ – الحجرات: ١٠.

٢ – آل عمران: ١٠٣.

٣ – التوبة: ٧١.

الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [1].

وهنا تأتي قاعدة (حمل عمل المسلم على الصحة) وأمثالها، لتعمق الثقة بين المسلمين، وتنشئ الحقوق الكثيرة لبعض المسلمين على البعض الآخر، والتي تذكر في مختلف كتب الروايات والأحاديث.

ومما يعمق هذا الحبَّ كثيراً حثُّ المسلمين على العفو عن الإساءة إلى الآخرين، وأمرهم بالتسامح، كما في الآيات التالية:

﴿وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [2].

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [3].

﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [4].

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [5].

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [6].

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [7].

---

١ - الحجرات: ١٠ - ١٣.

٢ - البقرة: ٢٣٧.

٣ - النساء: ١٤٩.

٤ - التغابن: ١٤.

٥ - النور: ١٣.

٦ - المائدة: ١٣.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (٢).

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣).

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤).

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥).

سابعاً - حب الانسانية

والإسلام في هذا المجال أيضاً يؤكد تنمية حب المسلم للانسان بما هو انسان، فهو: نظير له في الخلق، كما في تعبير الإمام أمير المؤمنين(ع) في عهده إلى مالك الأشتر. وجاء الكثير من النصوص القرآنية مصدرة بعبارة: يا أيها الناس، وكانت الرحمة الإلهية عمومية شاملة لجميع الناس.

فالإنسان محبوب للمسلم حتى ولو لم يكن مسلماً، فهو يسعى لهدايته حباً له وانقاذاً من الضلال والعمى، ولا يمنعه الإسلام من البر والإحسان إلى غير المسلم مالم يكن هنا مانع آخر ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦).

---

١ - البقرة: ١٧٨.
٢ - البقرة: ٢١٩.
٣ - الاعراف: ١٩٩.
٤ - آل عمران: ١٣٤.
٥ - النور: ٢.
٦ - الممتحنة: ٨ - ٩.

وهكذا يحد هذا الحب بما إذا لم يكن الطرف الآخر قد سعى إلى ضرب العقيدة وإيذاء المسلمين.. وطبيعي هذا التقييد لتحقيق التوازن، وإلا فإنّا سوف نتوقّع من العدوّ أن يستعمل هذا الولاء والمحبّة جسراً يعبر عليه إلى مآربه الدنيئة في ضرب العدل ورمزه المتمثل بالإسلام.

كما أن هذا الميل لا يبقى عندما يرى المسلم أنه لا سبيل إلى هداية هذا الإنسان، وحينئذ تنقطع الروابط فلا يستغفر المؤمن للكافر مطلقاً، ولا يقعد بعد الذكرى معه، بل لا يعتبره إنساناً:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [١].

الصفات النفسية التي هذَّبها الإسلام

وإذا رجعنا إلى الصفات النفسية الأخرى نجد الإسلام يهذّبها غاية التهذيب بعد أن يعترف بها أيضاً.

فالغفلة مثلاً: صفة جديرة بأن تخلّص الإنسان من أكثر همومه، وترجعه إلى حالته الطبيعية بعد أن يغفل عن صورتها المجسمة، إلاّ أنّ هذه الغفلة يجب أن لا تطغى في وجود الإنسان فتنسيه الواجبات وتفقده توازنه بعد ذلك.

وأهمُّ شيء يجب أن لا يغفل عنه الإنسان هو وجود الله تعالى المهيمن المسيطر المنعم، ومركزه الضعيف تجاهه تعالى، وما يتصل بعالم الآخرة والمصير وغير ذلك:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [٢].

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [٣].

---

١ – الانفال: ٥٥.

٢ – الكهف: ٥٧.

٣ – طه: ١١٥.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[١].

﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا﴾[٢].

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[٣].

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[٤].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[٥].

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾[٦].

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٧].

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾[٨].

وغيرها من الآيات التي تذكّر بالله ونعمه الكبرى.

ولعل في الصلاة أعظم مذكٍّر بالله تعالى ووظيفة الإنسان والآخرة، وبه فسِّر قوله سبحانه:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّه اكبر﴾[٩].

وهكذا نجد عملية التذكير المجسد في الحج مثلاً.

كلُّ ذلك لئلا تنقلب هذه الخاصة على أهدافها فينحرف الانسان وتلقيه في بحر من القلق والاضطراب والارتباك، بعد أن كانت لكي تخلِّصه منه.

---

١ - يس: ٧٨.

٢ - الاعراف: ٥١.

٣ - ص: ٢٦.

٤ - الحشر: ١٩.

٥ - الاعلى: ١٤ - ١٥.

٦ - البقرة: ١٥٢.

٧ - آل عمران: ١٩١.

٨ - آل عمران: ٤١.

٩ - العنكبوت: ٤٥.

بعض الصفات النفسية المهمة المؤثرة في حياة الإنسان

الغضب: فالغضب مفيد جداً للانسان، إذ يحركه غاية التحريك أحياناً ليؤدّي الأعمال الكبرى التي قد لا يؤدِّيها لو لم تكن تلك الحالة.. إلاّ أنه يجب أن لا يتجاوز حدود التحريك في إطار من التعقل السليم، وإلا أفقد الإنسان وعيه، ووقع مالا تحمد عقباه. ولذا جاء التحذير الشديد من مثل هذا الغضب الأهوج.

فكما أننا نجد القرآن يصف المؤمنين بـ(الشدة على الكفار) ويأمر الرسول(ص) (بالغلظة عليهم)، نجد الرسول(ص) يقول: «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل»[1].

وعن ميسر قال: ذكر الغضب عند أبي جعفر (ع) فقال:

«إنّ الرجل ليغضب فما يرضى أبدا حتى يدخل النار، فأيّما رجل غضب على قوم وهو قائم فليجلس من فوره ذلك، فإنه سيذهب عنه رجز الشيطان، وأيما رجل غضب على ذي رحم فليدن منه فليمسه، فإن الرحم إذا مسّت سكنت».

وعن الإمام الصادق(ع): «الغضب مفتاح كل شرّ».

وهكذا يوصف المؤمنون بكونهم (الكاظمين الغيظ)، وها نحن نتعرض بشيء من التفصيل لحالة نفسية هامة هي حالة التأثر بالمحسوس أكثر منه بالمعقول لنجد موقف الإسلام منها:

المحسوس والمعقول وآثارهما وموقف الإسلام منهما

إذا تجاوزنا مرحلة التأثيرات الغريزية تبرز لنا مرحلة التأثر بالمحسوس والمعقول وأزاء هذه المرحلة تنطرح أسئلة عامة حول أكثرية تأثير أحدهما على الإنسان، وحول مضار التطرُّف فيهما أو منافعه لو وجدت، وحول دور كل منهما في تنمية

---

١ - الاخلاق، شبر، ص ١٤٤ - ١٤٥، الكافي، ج ٢، ص ٣٠٢، الوسائل، ج ١٥ ص ٣٥٨، كنز العمال، ج٣، ص ١٣٨، الدر المنثور، ج ٢، ص ٧٤، المعجم الكبير للطبراني، ج ١٩ ص ٤١٧.

الاستعدادات الذاتية في الانسان، وغير ذلك.

ونحن بعد أن نحاول إعطاء إجابة موجزة عليها على ضوء الوجدان والواقع، نحاول أن نقيس موقف الاسلام بالنتيجة الوجدانية فنعرف بالتالي واقعية الاسلام وتوازن موقفه.

تأثر - الانسان - بمحسوساته أكثر من تأثره بمعقولاته

إن الوجدان يشهد بأنّ القضية كلّما قربت إلى عالم الحسّ كانت أبعد أثراً وأكثر وضوحاً في سلوك الإنسان.

ويمكن أن نرجع هذه الظاهرة إلى كون الانسان في نفسه قد مرَّ بمرحلة لا يألف فيها إلا التأثر بالمحسوسات - وهي مرحلة الطفولة الأولى - ومن ثم يحاول أن يتجرَّد من أسر المحسوسات بالتفكير المجرّد وذلك كله مما يركّز في ذهنه أصالة التأثر بالماديّات المحسوسة.. ويصوِّر له كون الاتصال بالأمور المحسوسة اتصالاً مباشراً، في حين يبقى اتصاله بما يتعلَّقه اتصالا غير مباشر.

التأثير الإيجابي لهذه الظاهرة

وهذه الظاهرة لو نظرنا إليها في حدِّها المعتدل، لو جدناها أمراً ضرورياً جداً:

أ- لجعل الانسان يتأثر بواقعه الذي يعيش فيه ويعمل بكل جهده على أن يكون واقعياً في نظراته بعيداً عن عالم الخرافة والأساطير.

ب - في إضفاء نوع من الهدوء والرضا على حياة الانسان بحيث لا يتأثر بكل ما مرَّ عليه فعاد الآن من المعقولات، أو ما يتصوَّر أنه سيمر عليه ولكنه فعلا من المعقولات.. وبعد هذا الهدوء يستطيع أن يعود نفسه فيفكر تفكيراً مستقيماً بناءً هادئاً، ويفسح المجال لتأثير المعنويات التي صدَّق بها لكي تعمل عملها.

وهذا يمكن أن يجر الانسان إلى مسارب لا تحمد عقباها بل هو قد فعل ذلك كما

نشاهده في من سيطر الحسُّ على مشاعرهم وشغفوا به حتى لم يُعوَّدوا النظر إلاّ من خلاله، والإيمان إلاّ بواسطته ومن هنا شاهدنا تجنيهم على الواقع، وإنكارهم لدور المعقول إلا في ضمن الحسِّ، ورفضهم الأمور المعنوية التي لا يصل إليها الحسّ نظراً لقصور أدواته فحسب، دون أن يلتفتوا إلى أنّهم لا يمكنهم إنكار عالم وراء الحس بآثاره وإن لم نحسَّ به.

حتى لقد رأينا البعض من هؤلاء الذين أغرقوا بالتأثير بالمحسوسات ينكر حتى الأمور الضرورية (كمبدأ العليّة) لأنه يستطيع أن يحس بالرابطة بين العلة والمعلول أو يجعل الموجودات الخارجية مجرد ظواهر لا غير، ذلك لأنه لا يمكن للحس النفاذ إلى واقعها الجوهري بل تطرّف البعض من هؤلاء فلم ينكر أبده البديهيات عند الانسان (وهو مبدأ استحالة اجتماع النقيضين) فحسب بل جعل ذلك أساساً لنظرية تاريخية.

وقد كان لكل هذا التطرف آثاره الممتدة في كل الجوانب، وأقل هذه الآثار تشويه المفعول الحقيقي لجانب المعقول في الانسان، ومحاولة صوغه ضمن إطار ماديٍّ محاولة يستحيل الركون إليها.

هذا في مجال التطرُّف في الجانب المحسوس. أمّا في مجال التطرّف في الجانب المعقول فهو لا يقل أثراً عن ذلك التطرُّف إذ أدى هذا إلى طوبائية مغرقة، ويوتوبية سلوكية لا تمتُّ إلى الواقع بصلة بل لا تهتم به، وكان من نتائج ذلك أن تعذّب الحسُّ في الإنسان - ممثلا في جسده - أشدَّ التعذيب، وحلّق العقل في آفاق صاغها له طموحه الغريب فتصوَّر صاحبه أنه تحوّل إلى معنى كامل، وتخلّص من أسر الجسد والحسِّ.

وكل هذا فيه مافيه من بعد عن المسير الطبيعي للإنسان وتحطيم للروابط والعلائق الاجتماعية، وإماتة للكثير من النوازع الإنسانية الأصيلة، والتجاء إلى عوالم الخرافة والأساطير.

ظاهرة تكامل الغرائز الحسيَّة أسرع من تكامل العناصر الفطرية المرتبطة بعالم المعنى

ونقصد بالغرائز الحسيَّة تلك الطاقات والاستعدادات التي تتفتَّح عن ميول مادية نحو الأكل والجنس، كما نقصد بالقسم الآخر ذلك النوع من الطاقات التي تنبع من الفطرة والتي تتفتح عن ميول لعالم المعقولات والمعنى.

والملاحظ بكل وضوح أن القسم الأول مادام يتعامل ويتأثر بالجانب المادي الحسي فإنَّه سيتفتح بصورة طبيعية وبلا احتياج إلى تربية معينة، ويكفي فيه حضور المنبهات الحسيّة، في حين انّ القسم الثاني يظلّ كامنا في أعماق النفس الإنسانية متطلباً المنبهات المعنوية أو ما يقوم مقامها من منبهات حسية تعبر عنها لينعكس على سلوك الانسان شيئاً فشيئاً.

ومن هنا فإن المبدأ إذا كان واقعياً ملتزماً يجب عليه أن يركز على القسم الثاني من هذه الغرائز - دون إغفال القسم الأول - لتحقيق التوازن. لكي يشكل هو الدوافع والمنبهات التي تقوم بما تقوم به المنبهات الحسية للقسم الأول من دور، وهذا الدور يتمثل في نظام خلقي تربوي، متعدد الجوانب، بعيد النظرة، محدَّد المقاييس.

ننتهي من هذا إلى مايلي:

١ـ يجب أن نعترف بكل من واقعية التأثر بالجانب الحسّي والتأثر بالجانب العقلي المعنوي، وننفي كلّ نزعة تطرُّفية في البين.

٢- إن التأثر بالأمور المحسوسة هو أكبر من التأثر بالأمور المعقولة مع افتراض وحدة هذين النوعين، أي مع افتراض تحوُّل الأمور المحسوسة إلى أمور معقولة، وإن ذلك أمر ضروري لحياة الإنسان.

٣- إنَّ التكامل في الاستعدادات للميول المادية طبيعي، وليس كذلك بالنسبة للاستعدادات للميول المعنوية، ولذا فعلى المبدأ الواقعية أن يقوم بجانب التعويض عن المنبه الحسيّ.

موقف الإسلام

وقد وقف الاسلام من هذه الظواهر موقفاً يتناسب مع كل مواقفه الأخرى. ذلك هو موقف الواعي المدرك لها المستغل تمام الاستغلال.. خصوصاً وهو المبدأ الذي يقوم على أساس غيبي معنوية ينطلق منه، فيلون الحياة المادية والمعنوية للإنسان بلون خاص، بل يمنحها روحاً معينة.. فمن الضروري له جدا أن يحاول التقريب بين عالمي الغيب والشهادة بمختلف الأساليب.

ومن الضروري له جداً أن يعمل على تنمية الطاقات المعنوية في الانسان لأنها ستكون سبيله نحو الحياة التي يبتغيها له.

وأخيراً فمن الضروري له جداً أن لا يقتصر في توجيه الانسان على إقناع عقله وتوجيهه نظرياً فحسب، وأنما عليه أن يقدِّم النماذج الحسيَّة العليا في مختلف التوجيهات المعنوية.

اعتراف الاسلام بهذه الظاهرة

إنَّ الاسلام يعترف بهذه الظاهرة، ويعتبرها أمراً طبيعياً ناتجاً من الضعف الملازم للإنسان مهما بلغ من درجات الكمال.

ففي قصة إبراهيم (ع) يقول القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

فرغم أنَّ إبراهيم (ع) كان من المؤمنين تماماً بقدرة الله وإحيائه، ولم يشك في ذلك مطلقاً، لكنه أراد أن ينفذ هذا الإيمان إلى كل وجوده ومشاعره. وهذا ما عبَّر عنه بقوله: «ولكن ليطمئن قلبي» فللحس أثره النفَّاذ في المشاعر والعواطف.

---

١ – البقرة: ٢٦٠.

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا، قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا، قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [1].

فرغم علم زكريا السابق بقدرة الله تعالى وأنه لا مجال للتساؤل أمامها، عاد يسأل عن إمكان ذلك، ولما جوبه بأن ذلك لا يعدُّ شيئاً أمام قدرة الله؛ راح يطلب الآية الحسيَّة كي يقنع مشاعره بعد أن أقتنع عقله بأنه سيحصل على الولد. فكانت الآية حبس لسانه ثلاث ليال سويا.

وهكذا نشاهد في قصة موسى(ع) مع العبد الصالح، فإنه رغم أنَّ موسى(ع) كان يعلم بأن العبد لم يكن ليفعل شيئاً يخالف الحكمة والمصلحة، ولكنه لـمَّا كان يواجه بموقف لم يألفه حِسُّه من قبل إلا في مجال الانحراف، لذلك لم يكن ليكفيه علمه المسبق، وكان يحتاج لتذكير متكرِّر من ذلك العبد الصالح بها.

هكذا كان الحال مع الأنبياء فكيف بالأمر مع الباقين.

إن ذلك ليكشف لنا عن أن الاسلام لا يعتبر ذلك ظاهرة مرضية بل ظاهرة يجب العمل على التقليل من حدتها فقط شيئاً فشيئاً.

ومن هنا فقد عمل على التقريب بين العالمين المعنوي والحسي، وطلب أن ينفذ الإيمان إلى الأعماق.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [2].

وجعل المؤمنين الواعين هم أولئك الذين تفاعل حسيُّهم مع تعقلهم:

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ

---

١ - مريم: ٧ - ١٠.

٢ - الحديد: ١٦.

الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [١].

﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [٢].

ويقول تعالى:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [٣].

وهذا الربط يقوى وتقل المسافة بين العالمين كلَّما قوي التعقل والإيمان بالفكرة معاً إيماناً صنّاعاً نافذاً للمشاعر.

وعلى طريقة القرآن عمل الأئمة المعصومون على تركيز هذا التقريب. فهذا بعض أصحاب أمير المؤمنين(ع) رأى كيف أظفره الله بأصحاب الجمل فقال:

«وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك».

فقال(ع) : «أهوى أخيك معنا؟» فقال نعم قال (ع): «فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان»[٤].

وهو(ع) يصف المتقين فيقول: «فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعَّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون» [٥].

---

١ - المائدة: ٨٣.

٢ - التوبة: ٩٢.

٣ - الزمر: ٢٣.

٤ - نهج البلاغة ، صبحي الصالح، ط ١٢،ص ٥٥، الهم والحزن لابن ابي الدنيا، ص ٦٩، تاريخ خليفة بن خياط العصفري، ص ٣٠٩.

٥ - نهج البلاغة، صبحي الصالح، ط ١٩٣، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

ويقول(ع): «فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنُّوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم».

كل هذه النصوص تعمل على تقريب مستوى التأثر بالجانب المعقول وجعله على مستوى التأثر بالجانب المعنوي أو فقل تجسيد المعقول والإحساس به.

القرآن يجسِّد المعاني بأساليب مختلفة

والقصص والتمثيل وتناسق الحروف والصياغة المتناسبة مع الموقف هي أساليب استعملها القرآن في سبيل تجسيد المعاني.

القصص:

والقصة لا محالة لها تأثيرها الإيحائي في جعل الإنسان يتتبع خطاها خطوة خطوة، وكأنه يعيش عالمها وكأنه هو البطل، وهذا مما يوحي له بالتمثيل والتشبه به فينسى عالمه ليعيش ذلك العالم، ومن ثم فقد كانت القصص سيفاً ذا حدَّين يمكنه أن يبني وأن يهدم، ومن هنا رأينا إكثار القرآن لذكر القصص الهادف الذي يحاول أن يجسد المعاني العقائدية للدعوة الإلهية... ولا نريد هنا أن نستعرض كل أهدافها وما أوجدته من تأثيرات وإنما نذكرها كأسلوب من أساليب تقريب المعاني وتركيزها وتحويل السامع للقرآن إلى مشاهد لعملية تجسّد هذه المعاني.

فلأجل بيان آثار العقيدة الإلهية في خلق الثبات، يعرض القرآن لنا مثلاً قصة السحرة الذين جيء بهم لتأييد باطل فرعون، ولكنهم ما أن يجابهوا بالحق حتى يؤمنوا به، وإذ جاءهم تهديد فرعون بأشدِّ العذاب ينطلق قائلهم قائلاً:

﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[1].

---

١ - طه: ٧٢.

وكذلك يعرض لنا موقف مؤمن آل يس من قومه المنحرفين بتلك الكلمة الخالدة ﴿إنّي آمنت بربكم فاسمعون﴾[1].

وفي مجال بيان العفة التي تبعثها في النفس مراقبة الله يضرب لنا مثلاً قصة النبي يوسف (ع)، وكيف أنه قال حين جوبه بكل أنواع المتعة المادية والإغراء مع التنازل عن شيء من مقتضيات العقيدة، قال:

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾[2].

وفي مجال تركيز عبودية عيسى لله تعالى يذكر لنا قصة مريم، وكيف انطلق لسان عيسى في ذلك الموقف العاطفي الرهيب وهو في المهد:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾[3].

وهكذا فإن القرآن عندما يريد أن يجسد للمسلمين أخلاقية اليهود يعرض لهم شيئاً من قصصهم التي تمثل ماديتهم ولجاجتهم وقتلهم الأنبياء وحقدهم وغير ذلك.

ولهذا الجانب حديث مفصّل.

التمثيل ودوره في تجسيد المعاني

والتمثيل لما كان تشبيهاً بالأشياء الأقرب إلى الحسّ فقد استعمله القرآن أروع استعمال في تجسيد المبادئ والمعنويات التي أراد أن يفهمها للناس وها نحن نستعرض بعض هذه التمثيلات:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[4].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ﴾[5].

---

١ - يس: ٢٥.
٢ - يوسف: ٢٣.
٣ - مريم: ٣٠.
٤ - البقرة: ١٧.
٥ - البقرة: ٢٦١.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ (١).

﴿وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (٢).

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾ (٣).

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ (٤).

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ (٥).

﴿ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ (٦).

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ (٧).

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ (٨).

---

١ – البقرة: ٢٦٤.

٢ – ابراهيم: ٢٦.

٣ – النور: ٣٥.

٤ – العنكبوت: ٤١.

٥ – الجمعة: ٥.

٦ – النحل: ٧٥.

٧ – الزمر: ٢٩.

٨ – الفتح: ٢٩.

التناسق الأدائي في القرآن ودوره في خلق الإحساس بالموقف

ونقصد ذلك الجرس اللفظي القرآني الذي يتناسب أروع المناسبة مع المعنى المتوخّى من اللفظ مما يعطي للَّفظ بعداً آخر غير البعد الدلالي المعتاد... وإذا بالإنسان يجسد المعنى ضمن سماعه لصوت اللفظ وأدائه. ويتوضح هذا إذا لاحظنا أمثلته وها نحن نختار مثالين لذلك، ونكتفي بهما. يقول القرآن الكريم في مجال التذكير بعاقبة البطر والترف وعدم شكر النعمة:

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ، وَلَا يَسْتَثْنُونَ، فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ، فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ، أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ، فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ، أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ، وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [١].

نحن أمام أصحاب جنة وروضة دنيوية كان للمساكين فيها حظٌّ ولكن ورثة صاحبها أرادوا أن يمنعوها ذلك. ويقرُّ رأيهم على أن يقطعوها صباحاً بلا استثناء لحظ المساكين. فبينما هم في عالمهم ينقلنا القرآن إلى مفاجأة تتم خفية حيث يطوف طائف من ربك وهم نائمون فتصبح خاوية كالصريم ويصبح أولئك الماكرون وهم يتنادون فيما بينهم ويحمس بعضهم بعضاً وينطلقون وهم يتهامسون لئلا يسمعهم أحد، ولكنَّهم مصمِّمون على المنع وهم يتصوَّرون أنفسهم قادرين. فلمَّا وصلوا ورأوا الحالة ظنوا أنهم أضاعوا الطريق، ولكنَّهم في النهاية عرفوا الحقيقة.

والمشاهد في هذه القصة وعرضها أن الموسقة اللفظية تتناسب مع الحالات التي تنقلها مما تضفي طابعاً من التجسيد لها.

وفي معرض وصف مايجري يوم القيامة يقول تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه،

---

١ - القلم: ١٧ - ٢٧.

يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ، مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ، خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾[1].

ويلاحظ في هذا النص الشريف وجود حالتين: حالة يأس الكفار، وحالة غضب الله تعالى.

ففي الحالة الأولى نجد الوقفة الطويلة والحسرة المديدة والنغمة اليائسة والرنّة البائسة.

وفي الحالة الثانية نجد النغمة الآمرة والتشديد والواو المخيفة والسلاسل السبعين وغير ذلك.

وهكذا نلاحظ هذا المعنى في اختيار الألفاظ التالية لمعانيها وهي: الحاقة، الطامة، الصاخة، القارعة[2] أثّاقلتم إلى الأرض، وغير ذلك. أما الأحاديث الشريفة فقد حفلت أيضاً باستعمال هذه الأساليب مثل الحديث الذي يشبه الصلاة بالحمة التي يغتسل فيها، والحديث الشريف الذي يشبه المجتمع بركّاب السفينة، وعمل المخرب بمن يريد أن ينقب موضعه فتغرق السفينة، وغير ذلك كثير، ومثل الروايات التي تتحدث عن قصص الماضين وغيرهم.

الوحي والنبي جسران حسيّان إلى عالم الغيب

أما الوحي فإنه على درجاته يمثل دور الممثل المجسد لعالم الغيب أمام النبي.. وعلى اختلاف مدى الاستعداد الفعلي له في تقبل تجسد ذلك العالم العظيم في شخص وعلى ضوء الضرورة المتطلّبة يتمثل الوحي بشكل حسي ومن درجاته: الإلهام القطعي، والمنام، وسماع الصوت، وعدم رؤية الشخص، والسماع والرؤية، وهي غاية ما يمكن به تمثيل ذلك العالم البعيد عن أوضار المادة.

---

١ – الحاقة: ٢٥ – ٣٢.

٢ – راجع: التصوير الفني للقرآن، سيد قطب.

ومهما كان فإن في التجسُّد حتى لشخص النبي(ص) اطمئناناً وتأثيراً قوياً لا يمكن الاستغناء عنه.

وكذلك فإن النبي(ص) نفسه يمثل التجسيد المجمل لعالم الغيب وذلك ضروري جداً بالنسبة لما يراد من النبي من القيام بأعباء التربية مهما اختلفت مساحاتها ومسؤولياتها.

وقد حرصت السماء على أن يكون التجسيد في شخص آدمي، لأن الهدف تربية البشرية فلا بدَّ من أن يتجسَّد الغيب في شخص منها غير غريب عليها لئلاً تستطيع – من جهة – أن تكذبه لانه عاش معها ورأت منه ما يثبت صدقه، و لكي يستطيع –من جهة اخرى ـ أن يشكل النموذج في العمل للقيم المعنوية. هذا بالإضافة إلى أن التجسيد من إنسان بشر يحتاج إلى الطعام والشراب ويمشي في الأسواق يشكِّل مانعاً قوياً من تأليهه والمبالغة فيه، ممَّا يقلب الغرض من التجسيد رأساً على عقب. أمَّا لو كانت القيم تتجسَّد في مخلوق غريب، فإنَّه حينئذ لن يستطيع أن يؤدّي الدور الذي يقوم به الإنسان النبيُّ.

ومن هنا رأينا أنَّه رغم أن الجاهلية كانت دائماً تعجب من عملية التجسيد في إنسان وتتصوَّر أن من المنطقي أن لا يكون النبيُّ بشراً، وأنه ينبغي أن يكون أقرب إلى الموجودات الغيبية، غافلة عن أن ذلك لن يحقق المقصود من تربية الإنسان المتكاملة، وقد كان الأنبياء العظام يؤكِّدون على بشريّتهم تأكيداً شديداً؛ وهذا ما يتوضح فيما يلي:

﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[1].

﴿قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا﴾[2].

﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[3].

---

١ – الانعام: ٩١.

٢ – ابراهيم: ١٠.

٣ – الانبياء: ٣.

﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾ [١].

﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا﴾ [٢].

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً﴾ [٣].

وفي مقابل ذلك تأكيد الأنبياء:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [٤].

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [٥].

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴾ [٦].

والنتيجة أنّ كلا من الوحي المجسَّد والنبيّ أمر ضروريّ لتقديم المنظار الحسي الذي يتطلع العالم من خلاله إلى عالم الغيب وقيمه ومثله.

المفاهيم في قالب الحس

وهذه الحلقة من حلقات التقريب لها مجال واسع تناول أغلب المفاهيم بالمقدار الذي سمح به التطبيق، حيث عمل الإسلام على أن يعطي النماذج الحسية للمفاهيم المعنوية والنفسية لأجل تركيزها في النفس، ولم يتركها تُعطى على الصعيد النظري فقط.

استعراض بعض النماذج لذلك:

أ ـ كانت مسألة الشرك الداء الكبير الأول الذي واجهه الإسلام وحاربه بكل قوة، ورفض كلَّ مقتضياته رفضاً باتاً، وأوضح الأدلة والبراهين القوية التي تقتلع من نفوسهم

---

١ – المؤمنون: ٣٣.

٢ – التغابن: ٦.

٣ – الاسراء: ٩٤.

٤ – فصلت: ٦.

٥ – ابراهيم: ١١.

٦ – الاسراء: ٩٣.

ذلك، وقد استند بعضها إلى أمور حسية سيأتي الحديث عنها.

والمقصود هنا أن نعرف أنَّ عملية إنزال الأصنام على الصعيد الفكريّ استتبعت على الصعيد الحسي عملية حسيَّة مؤثرة: وهي عملية إنزال الأصنام وتكسيرها وإزالتها وتطهير الكعبة منها في موقف رهيب عظيم يصعد فيه الإمام أمير المؤمنين(ع) على كتف النبي الأعظم(ص) ليعلن أنَّ الأصنام قد انهارت وانهار نظامها البائس.

ب - وكانت مسألة الارتباط بأهل البيت(ع) وانشداد الأمة بهم، وتعيينهم بالخصوص، وخلق نوع من العاطفة الشديدة نحوهم؛ مسألة لها أهمية قصوى بالنسبة للدعوة الإسلامية باعتبار أنهم(ع) الوارثون للرسالة، وأنهم الذين سيحملون لواءه بعده(ص).

فقد جاءت النصوص القطعية في القرآن الكريم والحديث الشريف تعبر عن لزوم ذلك الربط، وتحاول أن توجد الدوافع نحوه باستعراض سيرتهم الطاهرة وجهادهم وكونهم سفناً للنجاة وغير ذلك وكان التركيز على الإمام أمير المؤمنين باعتبار أنه الوصي المباشر بعد النبي(ص) وعلى فاطمة (ع) باعتبار أنها المرأة الطاهرة المعصومة التي ستكون أمّ الأئمة(ع).

كل ذلك كان على الصعيد النظري، ولكن هذا لا يكفي، فالأمر يحتاج إلى المواقف الحسية المختلفة.

ومن هنا رأينا النبي(ص) يقف مرات خلال شهور عديدة على باب فاطمة(ع) ويقول «السلام عليكم يا أهل البيت»[1] وكان آخر بيت يزوره عند عزمه على السفر هو بيت فاطمة وأول بيت يزوره عند الرجوع هو ذلك البيت.

ونراه(ص) يجمعهم تحت كساء واحد ويقول «اللَّهم هؤلاء أهل بيتي».[2]

---

١ - أمالي الطوسي، ص ٢٥١، البحار، ج ٢٥، ص ٢١٩، المعجم الأوسط للطبراني، ج ٨، ص ١١٢، مجمع الزوائد للهيثمي، ج٩، ص ١٦٩ .

٢ - أمالي الطوسي، ص ٣٦٨، سنن الترمذي، ج ٥، ص ٣٠ و ٣٢٨، مستدرك الحاكم، ج٢، ص ٤١٦.

وهكذا نتابع خطاه حتى نقف على ذكر المنظر العظيم في الصحراء بعد حجة الـوداع والمسلمون جميعاً يعيشون الأيام الأخيرة معه(ص) فيوقفهم عند غدير خم ويرفـع يـد علي(ع) حتى يبين بياض إبطيهما ويقول: «من كنت مـولاه فهـذا علـي مـولاه»[1] ثم يأمرهم بالسلام عليه وتهنئته بذلك.

ج - رفع الإسلام كل الفروق المصطنعة بين الطبقات الاجتماعيـة، وفـتح المجـالات أمام الجميع للرقي، ولم يرض أي مقياس للتفاضل إلاّ التقوى والعلم، وقد جـسَّد هـذه الأمور المعنوية في المجال العملي؛ فزوَّج زينب بنت عمة النبي(ع) (وهي من أرفـع بيـت في العرب) من زيد بن حارثة (وهو مملوك).

وجعل بلالاً الحبشي الأسود مؤذناً للدعوة الإسلامية، ونصب أسامة بن زيد (وهـو شاب) قائداً على جيش فيه المهاجرون والأنصار، وغير ذلك كثير.

د- نشر الاسلام مفاهيم الأخوَّة وزين الصفات الخلقية، ولكنـه لم يكتـف بالـدعوة إليها فكرياً وحسب، وإنَّما جسّدها عملياً. ومن ذلك:

عملية المؤاخاة الكبرى التي قـام بهـا الـنبي(ص) بـين المهـاجرين والأنـصار وقـد آخى(ص) بينه وبين الإمام علي(ع).

ومنها مسألة إعطاء الغنائم في حنين للمسلمين الجدد، وتربية المسلمين الأوائل على معاني الإيثار في ذلك.

هـ - وهناك ظاهرة البيعة وهي ظاهرة تستحق التأمل.

فإننا نجد النبي(ص) قام بها وطلبها من المسلمين في بعض الأحيـان، وقبـل القيـام بالأعمال المهمَّة التي تتطلب مواقف صلبة غاية الصلابة.

ولكن ماذا تعني البيعة بعد حصول الاعتقاد الجازم للمسلمين بنبوتـه(ص) وقيادتـه الحكيمة الواعية وتفانيهم في سبيله ووجوب طاعته؟ إنها تعني دفقـاً حـسياً وتجـسيداً

---

١ - راجع: أمالي الطوسي، ص ١٤٣ .

للرابطة المعنوية، والعهد الذي قطعه المسلمون على أنفسهم، فذكرى البيعة ستبقى مؤثرة وشاخصة تعمل إلى جنب الوجود العقلي للعهد في سبيل إبقاء جذوة الالتزام بل وإذكائها، وهذا يتضح تماماً إذا درسنا بما يوضح لنا أن صفقة اليد كان لها دور ضروري. ومن هنا أيضاً نجد إصرار الإمام أمير المؤمنين(ع) على أن تكون البيعة عامة في المسجد بعد أن أخذ من الأمة العهود الوثيقة على أن تسند أهدافه كل ذلك لأجل أن يهيئها لخطوة جبّارة في حياتها؛ هي خطوة إعادة الاسلام من جديد، ومحو غوائل الانحراف وتطبيق مبادئه السامية.

الأماكن والأزمنة التي تمثل أموراً معنوية

وهذا جانب مهم من جوانب تقريب المعقول إلى الحسّ، والاستفادة من ظاهرة التأثر بالمحسوس فرغم أن الله تعالى له مافي السماوات والأرض، وهو معكم أينما كنتم، إلاّ أه شاء أن يعيِّن بعض الأماكن وينسبها خصوصاً له بما يسمى (بيوت الله)، كما شاء أن يعيِّن مكاناً معيَّناً في الأرض ليكون بيته الحرام، ورغم أن الزمان ملك الله تعالى وحده، لكنه شاء أن يعيِّن شهر رمضان المبارك شهراً له.

فكانت الكعبة على هذا رمزاً حسيَّاً للتوحيد المعنوي يتوجه إليها المسلمون من كل نقاط الأرض في صلواتهم، ويطوفون حولها في حجهم، ويذبحون ذبائحهم في اتجاهها، وغير ذلك.

وكان شهر الله رمزاً حسيَّاً لعبادة الله الكثيرة، والدخول في دورة تربوية للتكامل.

ويمكننا أن نعدّ من هذا القبيل مسألة الحجر الأسود وتقبيله كرمز حسيّ للجنة والتعلق العاطفي بها، كما نعدُّ من ذلك الجمرات كرمز للشرّ، فيكون رجمها رجماً للشرّ، كما نعدُّ من ذلك مسألة زيارة مراقد الأئمة الطاهرين التي لها تأثير قويٌّ في تجسيد الربط بهم (ع) وخلق العاطفة نحوهم(ع)، خصوصاً إذا لاحظنا ما جاء في بعض الزيارات: (أنا موالٍ لأوليائكم، معادٍ لأعدائكم..).

العبادات ودورها في عملية التقريب

يكفي مجرَّد تمعن بسيط في مغزى العبادات وما يقوم به المسلم من خلالها؛ لتكوين فكرة عن عملية إيحائها الحسيِّ وتقريبها للمعاني لدى الانسان المسلم.

فالصلاة – مثلاً – تدع الإنسان المسلم يحوِّل معانيه إلى حسِّه، ويقف أمام ربِّه ويخاطبه بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ويطلب منه تعالى مايريد، فيكون ذلك تجسيداً لمعنى الآية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [١]، وهكذا يكون للركوع والسجود نفس الإيحاء في نفس المسلم.

ونجد التجسيد القويَّ في عملية الصوم التي تعني امتناعاً وقهراً لبعض الشهوات قربة إلى الله تعالى، فإن الصائم حينذاك يجسِّد مراقبة الله له وطاعته إياه، ويزداد التجسم كلَّما ضغط الجوع والجنس عليه، وكذلك نجد الأمر في العملية الرائعة التي يؤمر بها الانسان مرة واحدة على الاقل (وهي الحج) حيث يجسد الانسان فيها ارتباطه بذكريات تلك الأراضي المقدَّسة وما انطلق منها من نوره، فكلُّ خطوة من خطوات الحاج تعبير حسيٌّ عن معنى جميل لا يتسع المجال لذكره هنا، وسنعود للموضوع مرة أخرى.

قراءة القرآن والإكثار من الذكر

وهذان أمران لهما دورهما الكبير في تركيز المعاني التي يريد لها الإسلام أن تتجسد في وعي الإنسان، فمن المعلوم أنهما مستحبان استحباباً مؤكداً، فالمسلم الكامل هو الذي يلتزم بهما ويأتي بهما عن وعي، ولا يمكن إنكار دور ترديد الفكرة باللسان. وعن وعي. في تركيزها وتقريبها إلى النفس الإنسانية، وجعلها تحس بحلاوتها إحساساً يفوق أيَّ إحساس بأيٍّ لذة أخرى.

---

١ – البقرة: ١٨٦.

مفهوما الدعاء والتوبة

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نصنف هذين المفهومين إلى جنب الأمور التي توحي للإنسان بتجسيد المعاني أمامه، وعزل كل الموانع الحسية بينه وبين من يدعوه ويتوب إليه.

ولا ننس هنا دور الأدعية الغنيَّة بالمعاني الإيحائية الواردة عن المعصومين(ع).

فنفس ترديد تلك المعاني يخلق تجسيداً لها أمام النفس مما يربيها ويلقنها طريق السعادة.

الاعتماد على الحسِّ في مقام الاستدلال

وقد اعتمد الإسلام على هذه الظاهرة كثيراً في إثبات أحقيّته، وتقريب وتوضيح مفاهيمه وعقائده إلى الناس، والاستدلال عليها. وفيما يلي نذكر بعض النماذج لذلك.

أ ـ المعجزة الحسية

مهما يكن المعنى الدقيق للمعجزة فإنها تعبر – علي أيّ حال – عن عمل حسيّ تعجز الانسانية عن الأتيان بمثله، فتقف مدهشة لعظمته وهو بالتالي يقودها لإعمال عقلها فتقول بأن ذلك ليس من عمل الانسان بل من عمل القوة القاهرة المسيطرة على الكون، وقد جرى على يد هذا الانسان كاثبات لصدقه.

صحيح أن الإيمان بالنبي وصدقه قد لا يحتاج إلى ذلك بإعمال العقل، ولكن هذه حالة غير سائدة، فإذا أراد النبي أن يقنع الناس؛ عليه بهذا العمل الحسي الخارق وبتكراره.

والقرآن الكريم إعجاز مجسد خالد تبدو جوانبه الإعجازية بصورة أوضح كلما تقدم الزمان.

فالحسُّ لا يمكن إنكاره، والحسُّ لا يمكن الانفلات منه.

وإمعاناً في التجسيد نجد أنّ المعجزة تتحدَّى كلَّ قوم بأعلى فنونهم لتتأصل في وجدانهم، وتبقى صورتها القوية في أذهانهم.

ب - الإخبار بالغيب

وهو تجسيد حسيٌّ رائع الإثبات للاتصال بعالم الغيب.

إنه يعطي المعنى ويؤكده، ويبقى هذا المعنى في عالم التعقُّل حتى يتجسد في الخارج، وحينذاك يكون دليلاً حسيًّاً قويّاً على صدق الخبر في دعواه واتصاله بذلك العالم الغائب.

ج - المقارنة والتنبيه إلى الشواهد الحسية

وتبرز هذه الظاهرة بوضوح في استدلالات القرآن الكريم فكثيراً ما نجده يقارن بين ما يريد إثباته وقضية حسية مسلَّمة، وذلك ليمهد لقبول الأمر العقائدي ولينبه الفطرة الغافية.

نماذج لذلك:

١ـ كلُّ الآيات التي تستدل على وجود الله ووحدانيته بالنظام الكوني وعجائب الصنعة مثل:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾[1].

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ﴾[3].

٢- الآيات التي تستدل على المعاد بالإحياء والإماتة التي تلاحظ في الأرض.

---

١ - يونس: ٣١.

٢ - الرعد: ٣.

٣ - الانفطار: ٧ - ٨.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[2].

وكذلك الإحياء في الإنسان:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[3].

٣- استدلال إبراهيم(ع) على عدم تأثير الأصنام وعدم أهميتها بعملية حسية هي تكسيرها وذلك كما يقول القرآن الكريم:

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ، قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ، قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ، قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ، قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ، فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ، ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ، قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ، أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[4].

وأخيراً: نودُّ أن نذكر أنه من المناسب جداً أن نتحدّث هنا عن الآثار العملية التي تركها استغلال الإسلام لهذه الظواهر الوجدانية، وكيف ولّد هذا العمل الجيل العقائديّ الذي يتشوق إلى الحور العين وكأنه ينظر إليها، ولا يسمح لنفسه حتى مقدار أكل تمرات في سبيل الوصول إلى الشهادة، ويمكننا أن نجد أروع الأمثلة في أصحاب النبي الذين قتلوا في بدر واحد، وفي أصحاب الإمام أمير المؤمنين(ع) كمالك الاشتر وميثم

---

١ – فصلت: ٣٩.

٢ – ق: ١١.

٣ – القيامة: ٣٧ – ٤٠.

٤ – الانبياء: ٥٨ – ٦٧.

وغيرهما، وكذلك في أصحاب الحسين(ع) إذا كتب هؤلاء سجلاً خالداً ينعدم نظيره كنتيجة لتلك التربية الإسلامية العالية.

لقد كان لكلّ ذلك الأثر الكبير في تقدُّم الإسلام وانتشاره، وتركيز الحق والوعي في الامة الإسلامية.

ولكنّا هنا - واختصاراً للموضوع - لن نتعرض لتلك المواقف تاركين للقراء دراستها وملاحظة تأثير خطة الإسلام فيها.

كما أننا نشير أيضاً إلى لزوم استخلاص العبر وأخذ الدروس من أسلوب الإسلام هذا والاستفادة منه في مجال تبليغنا الاسلامي، واتّباع تلك الخطوات التي تقرِّب المعاني إلى الناس وتجسّدها أمامهم، وأن من الضروري جداً أن يكون العامل في سبيل الله إسلاماً مجسَّداً، أي عقيدة ونظاماً وأخلاقية مجسَّدة كلها في شخصه لكي يكون ذلك البرهان العملي للناس على مدى قدرة الإسلام على التسامي بالنفوس، وخلق الفرد الكامل والمجتمع الفاضل.

كما أنَّ من الضروري جداً نستفيد من ما مضى درساً في تقديم الإسلام إلى الناس بمختلف الوسائل الإعلامية، وخصوصاً تلك التي تجسِّد المعاني، ومنها استغلال القصة وباقي فروع الأدب لهذا الغرض، تماماً كما استعملها الإسلام من قبل.

كما أنَّ من اللازم التركيز على أن تعي الأمة المدلولات الصحيحة للرموز الحسية التي وضعها الاسلام؛ كالكعبة، وزيارة القبور، وغير ذلك، والتركيز على كونها وسيلة للوصول إلى الأهداف العليا.

ومن هنا نجد من اللازم أن نعمل على إعطاء الشعائر الاسلامية الاهتمام البالغ وتوضيح معطياتها، بل وتجسيد تلك المعطيات أيضاً أمام الناس.

وفي مجال تطهير النفس فإنّا على ضوء هذا ندعو لعملية الإيحاء النفسي، والتخزين الروحي في لحظات الإقبال القلبي، والاستفادة من الاستعداد النفسي الذي يوجده النموذج الحسيُّ المؤثّر تربويّا، فمثلاً إذا اتيح لنا ووفّقنا لزيارة بيت الله الحرام علينا أن نستوحي معطيات كل موقف، وما أن نحسَّ في أنفسنا إقبالاً - إذ «إنّ للقلوب إقبالاً

وإدباراً» كما يقول الإمام أمير المؤمنين(ع)[١] - حتى نخزنها بالطاقات الروحية التي تنفعنا في حالات الإدبار وتزوّدنا عندما يخبو الحماس أحياناً.

دعاء مكارم الأخلاق والتوازن الأخلاقي

وهنا نجد أنّ من المناسب أن نذكر مقاطع من دعاء (مكارم الأخلاق) الذي كان الإمام السجّاد عليه السلام يدعو به، طالباً منه تعالى مكارم الأخلاق ومرضيَّ الخِصال، وراسماً لنا أروع صور التوازن في الأخلاق الإسلامية:

يقول عليه السلام:

«أللهم صلِّ على محمد وآله، وبلغ بإيماني أكمل الإيمان، واجعل يقيني أفضل اليقين، وأنته بنيتي إلى أحسن النيّات، وبعملي إلى أحسن الأعمال. أللهم وفِّر بلطفك نيتي، وصحِّح بما عندك يقيني، واستصلح بقدرتك ما فسد منّي».

«أللهم صلِّ على محمد وآله، واكفني ما يشلغني الاهتمام به، واستعملني بما تسألني غداً عنه، واستفرغ أيّامي فيما خلقتني له:

وأغنني، وأوسع عليَّ من رزقك، ولا تفتنِّي بالنظر.

وأعزني، ولا تبتليني بالكبر.

وعبدني لك، ولا تفسد عبادتي بالعجب.

وأجر للناس على يديَّ الخير، ولا تمحقه بالمنِّ.

وهب لي معالي الأخلاق، واعصمني من الفخر».

أللهم صل على محمد وآله

ولا ترفعني في الناس درجة، إلا حططتني عند نفسي مثلها

ولا تحدث لي عزاً ظاهراً، إلا أحدثت لي ذلَّة باطنة عند نفسي بقدرها».

«اللهم اجعلني أصول بك عند الحاجة، وأتضرَّع إليك عند المسكنة.

---

١ - نهج البلاغة، ج٤، ص ٧٤، الوسائل، ج٤ ، ص ٧٠، مصنف ابن ابي شيبة، ج ٦، ص ٢٣٩، و سنن الدرامي، ج١، ص ١١٩.

ولا تفتنّي بالاستعانة بغيرك إذا اضطررت، ولا بالخضوع لسؤال غيرك إذا افتقرت، ولا بالتضرّع إلى من دونك إذا رهبت فأستحق بذلك خذلانك ومنعك وإعراضك. يا أرحم الراحمين».

«أللهم صلّ على محمد وآله:

ولا أظلمنّ وأنت مطيق للدفع عنّي، ولا أظلَمَنّ وأنت القادر على القبض مني، ولا أضلَّن وقد أمكنتك هدايتي، ولا أفتقرنّ ومن عندك وسعي، ولا أطغينّ ومن عندك وجدي».

«اللَّهم خذ لنفسك من نفسي ما يخلصها، وأبقِ لنفسي من نفسي ما يصلحها فإنّ نفسي هالكة أو تعصمها».

«اللهم صلّ على محمد وآله، وامنعني من السرف، وحصِّن رزقي من التلف، ووفِّر ملكتي بالبركة فيه، وأصب بي سبيل الهداية للبرّ فيما أنفق منه».

اللهم صل على محمد وآله، وصنْ وجهي باليسار، ولا تبتذل جاهي بالإقتار».

«أللهم صلّ على محمد وأله، كأفضل ما صليت على أحد من خلقك قبله، وأنت مصلّ على أحد بعده، وأتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقني برحمتك عذا النار»[١].

وبهذا انتهى البحث عن صور من التوازن في النظام التربوي الأخلاقي في الإسلام وقد فصَّلنا البحث فيه لأهميته وأهمية مسألة التوازن التي يعالجها.

ثانياً: التوازن في النظام الجنائي الإسلامي

يجدر بنا - قبل أن ندخل في عرض بعض هذه الصور - أن نلاحظ كيفية خلق الإسلام للتوازن الحكيم بين أنواع العقوبات المتصوَّرة، الأمر الذي فقدته النظم والمبادئ الأخرى، وجاءت بالتالي عقوباتها ناقصة عاجزة عن منع الإجرام.

---

١ - الصحيفة السجادية.

فإن الإسلام استفاد من الجزاء الأخلاقي فأكَّد على تنمية الوجدان المحاسب في نظامه التربوي، ونبّه على عذابه. كما استفاد من الجزاء الطبيعي أو الوضعي - بتعبيره - وجاءت الروايات الكثيرة المؤكّدة على ذلك والمبيّنة للآثار الوضعية الكبرى للجرائم المتعدّدة. كما أكّد على ذلك والمبيّنة للآثار الوضعية الكبرى للجرائم المتعدّدة. كما أكّد أيضاً على الجزاء الاجتماعي في (نظام العقوبات) الذي سنعرف شيئاً من التوازن فيه. وفوق كل هذه الأنماط من العقاب جاء الجزاء الأخروي العظيم الذي يشكل أقوى عناصر الردع عن الجريمة، بعد أن كان يتمُّ على أساس مراقبة عينية دقيقة، وضمن عذاب يفوق حدَّ التصوُّر حتى يصل إلى الخلود في النار والبعد الدائم عن رحمة الله ورضوانه.

ولئن كانت لكلٍّ من هذه الأنواع فوائد ونواقص، فإن مجموعها والتوازن بينها هو الذي يحقق الغرض المنشود من العقوبات، في حين فقدت المبادئ الوضعية بعض هذه العقوبات فضجَّت من الجريمة.

فإذا عبرنا هذا التوازن إلى داخل النظام الجنائي، وجدنا هذا يوازن بين التحديد الصارم للعقوبة، ومنح القاضي صلاحية تحديد العقوبة، وهما الأمران اللَّذان تراوحت القوانين الوضعية بين تمجيد أحد الطرفين منهما والتأكيد عليه دون الآخر. فتارة نجدها صارمة محددة للعقوبات بغض النظر عن الظروف والشخصيات فتقع في مشاكل وأنماط من الظلم، في حين نجدها تارة أخرى تفسح المجال لاجتهاد القاضي وإحساساته فتقع في تسامحات وغيرها مما يضرُّ برادعية القانون.

في حين نجد القانون الجنائي الإسلامي يقسم العقوبات إلى: حدود، وتعزيرات على أسس واقعية. فالحدود: عقوبات صارمة لا تقبل التغيير، لأنها تتعلق بمشاكل اجتماعية ثابتة خطيرة على أي حال، في حين تتبع التعزيرات تقديرات القاضي، وفقاً لشروط وقواعد وإرشادات عامة، ومراعاة للتغييرات التي تطرأ.

ومن خلال هذا النوع من التوازن نجد توازناً آخر بين العقوبة والمسؤولية؛ فكلَّما كانت المسؤولية أكبر؛ كانت العقوبة منسجمة معها. أمّا إذا قلَّت المسؤولية أو فقدت

فإنَّ العقوبة تخفف أو تنعدم، خلافاً لبعض النظم الأخرى.

كما أن هناك توازناً بين العقوبات لمصلحة الفرد والأخرى لمصلحة المجتمع. وغير ذلك مما تلاحظ تفصيلاته في محلها الخاص.

ثالثاً: التوازن في النظام الإقتصادي الإسلامي[1]

الصورة الأولى: التوازن بين أشكال الملكية

لقد تراوحت المبادئ الأرضية الكبرى بين تقديس الملكية الخاصة وجعلها هي الأصل - كما في الرأسمالية - وقد أدى ذلك إلى ويلات ومصائب كبرى جعلتها تقول بالملكية العامة ولكن بشكل استثناء وضرورة، وتقديس الملكية العامة وجعلها هي الأصل كما في الاشتراكية.. وقد أدى ذلك أيضاً إلى ويلات ومصائب، وأمات روح الإبداع في الناس، وسلبهم الكثير من حرياتهم الطبيعية، مما دعا قادة (الشيوعية) إلى أن يعيدوا النظر في نظامهم فيشرٌعوا الملكية الخاصة ضرورة.

والإسلام لم يعتبر أيّاً منهما اصلاً والآخر استثناءً، بل قال بمبدأ (الملكية المزدوجة) بعد أن أوضح لكل من هذه الأقسام حدوده وخصائصه وأهدافه وأنواعه.

فالملكية الخاصة: قد تتخذ صورة حق خاص، أو تتخذ صورة ملكية تامة، أو ملكية متزلزلة، وأمثال ذلك. والملكية العامة قد تكون ملكية الأمة كلها. وقد تكون ملكية لمنصب القيادة. وبين كل هذه الفروع فروق ولها أحكام.

هذا في حين ترك مساحة للمباحات العامة، وبيَّن لها صور تَملُّكٍ محدَّدة.

وبهذا تخلَّص الإسلام من عيوب التطرُّف المقيت (تفريطاً اشتراكياً، أو إفراطاً رأسمالياً)، وأعطى لكل مقام مقاله وفق مذهب اقتصادي حكيم، وليس فيه أيُ حقّ مطلق إلا لله سبحانه، كما مرَّ.

---

١ - اعتمدنا في هذا الفصل، على الجزء الثاني من اقتصادنا، للشهيد الصدر، من ص ٦١٥ - ٦٣٦، ط ٤، دارالفكر، بيروت ١٩٧٣م.

الصورة الثانية: التوازن الاجتماعي الذي يحققه الاسلام

إن الدولة في الإسلام مسؤولة - وفق قواعد الاقتصاد الإسلامي - عن تحقيق أمرين أساسيين؛ هما: الضمان الاجتماعي، والتوازن الاجتماعي.

ويقوم الضمان الاجتماعي على أساسين هما:

أ ـ مبدأ التكافل العام الذي هو من أهم واجبات المسلمين أنفسهم، التي تطلب منهم أن يشبعوا احتياجات المسلمين الآخرين وفقاً لمبدأ الأخوة العامة. والدولة هنا تقوم بدور إلزام المسلمين بالقيام بواجباتهم.

ب - الحق الذي تعطيه للجماعة في مصادر الثروة التي تستثمرها الدولة باعتبارها قائمة على مصالح المجتمع.

أمّا التوازن الاجتماعي: فإن الإسلام حين عالجه انطلق من حقيقتين:

الأولى: كونية، وهي تفاوت أفراد النوع البشري في الخصائص والصفات التي تؤهل الإنسان لمراكز اجتماعية مختلفة.

والثانية: مذهبية؛ أي منسجمة مع تصوّراته المذهبية، وهي: كون (العمل أساس الملكية ومالها من حقوق).

والجمع بين هاتين الحقيقتين يعني السماح بظهور التفاوت الاقتصادي بين الأفراد، إلا أنَّ هذا التفاوت في نظر الإسلام يجب أن لا يتعدَّى كونه تفاوتاً في مستوى الدخل لا في مستوى المعيشة، أما في مستوى المعيشة فيجب أن يتحقق التوازن بين المستويات، بمعنى «أن يكون المال موجوداً لدى أفراد المجتمع ومتداولاً بينهم إلى درجة تتيح لكل فرد العيش في المستوى العام، أي أن يحيا جميع الأفراد مستوىً واحداً من المعيشة، مع الاحتفاظ بدرجات داخل هذا المستوى الواحد، تتفاوت بموجبها المعيشة، ولكنه تفاوت درجة وليس تناقضاً كلياً في المستوى، كالتناقضات الصارخة بين مستويات المعيشة في المجتمع الرأسمالي».

وهكذا نجد التوازن في مستوى المعيشة بين عدم الإسراف من جهة، والارتفاع بالجميع إلى مستوى الغنى من جهة أخرى.

أما الإمكانات التي وفَّرها الإسلام للدولة لكي تحقِّق هذا الهدف فتتلخص في:

١ـ فرض ضرائب ثابتة كالخمس والزكاة:

٢ـ جعل قطاعات عامة وهي الأنفال.

٣- طبيعة التشريع الإسلامي، كمحاربة الإسلام اكتناز النقود، وإلغائه للفائدة، وتشريعه لأحكام الأرش، وإعطاء الدولة صلاحيات ضمن منطقة الفراغ، وإلغاء الاستثمار الرأسمالي للثروات الطبيعية الخام بجعل شرط المباشرة (كما يرى بعض الفقهاء).

هذا بالاضافة إلى دور التربية الخلقية الإسلامية للأفراد، والذي يدفع الانسان المسلم أحياناً للتنازل عن مجموع ماله أو بعضه لصالح قضيتي التكافل والتوازن. وما أكثر النصوص المحبذة لذلك، وما أكثر الأخبار التي تحدثنا عن قيام القادة المعصومين(ع) بأمثال ذلك ليكونوا أسوة للمسلمين في ذلك.

الصورة الثالثة: التوازن بين نوعيق الانتاج والتوزيع

إذا كانت (الماركسية) تربط شكل التوزيع بشكل الإنتاج ربطاً طبيعياً حتمياً، وتكون بالتالي مبررة لألوان الظلم الذي تمَّ به التوزيع عبر التاريخ لا لشيء إلا لأنَّ هذا لظلم في مرحلته كان يواكب الإنتاج، فإن الإسلام يرفض هذه التبعية الظالمة الحتمية، ويقرر تبعية مذهبية لنوعية الإنتاج وفقاً للشكل العادل للتوزيع في حدوده العامة، لأنه يرتبط بالانسان وعلاقته بأخيه الانسان.

وتقوم العلاقة المذهبية على أساس النقاط التالية:

١ـ إن الاقتصاد الاسلامي يرى قواعد التوزيع قواعد ثابتة لكل زمان ومكان، كقاعدة (ان من حق العامل أن يقطف ثمار عمله).

٢- إن عمليات الانتاج هي تطبيق لتلك القواعد التوزيعية، كإحياء الأرض.

٣- إذا ارتفع مستوى الإنتاج نمت سيطرة الإنسان على الطبيعة، وتعاظمت إمكاناته.

وعليه: فإنه قد يستغل قواعد التوزيع خلال عمليات الانتاج كما في احياء الأرض بالآلة مثلاً.

ومن هنا: جاء الحكم الإسلامي بالتطبيق الموجه لتلك القواعد بإعطاء ولي الأمر الحق في التدخل، ومنع الاستغلال متى ما رأى ذلك.

الصورة الرابعة: التوازن بين الاسراف والتقتير والاكتناز

قلنا خلال عرض التوازن في النظام التربوي: إن المال والملكية إنما هما لصالح الرقي المادي والمعنوي للانسان، وأيُّ انحراف عن هذا المعنى يعني عدم تسخير المال لصالحه، فهو إمّا عبودية للمال، وإمّا استهانة وتفريط بنعمة إلهية، وكلاهما أمران غير مقبولين في الإسلام.

وعلى ضوء من هدف تسخير المال لصالح الحياة الاقتصادية التي هي مهد للرقيٍّ المعنوي، رفض الإسلام التقتير والبخل في الإنفاق، واعتبر ذلك صفة نفسية ذميمة لا إنسانية، في حين أعتبر الكرم والترفُّع عن الاغراء المالي من الصفات الفاضلة السامية، كما حرَّم الاكتناز ومنع الأموال من التداول بين الناس، وأوعد على ذلك بالعقاب الشديد. وفي نفس الوقت منع من الإسراف في الإنفاق. أللهم إلاّ فيما يعود على حياة المجتمع. ويرتبط بهدف الملكية، وطلب من المجتمع أن يحدَّ من تصرفات: السفيه والمجنون والصبي، لئلا تؤدّي إلى تضييع الثروة التي هي أحد أسباب القوة الاجتماعية، وهذه المعاني نلاحظها في النصوص التالية:

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[2].

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ، إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ، هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[3].

---

١ – الحشر: ٩.

٢ – الليل: ٨ – ١٠.

٣ – محمد: ٣٦ – ٣٨.

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ﴾ (١).

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ، الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ (٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (٣).

﴿وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾ (٤).

﴿وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾ (٥).

ومن صفات المؤمنين أنهم:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٦).

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٧).

﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾ (٨).

رابعاً: التوازن في نظام العبادات

ويمكننا بهذا الصدد أن نقول: إنَّ التوازن الذي يحقِّقه هذا النظام هو أعمق توازن وأشمله، وأكثر تأثيراً في وجود الفرد والأمة.

وها نحن نحاول استعراض بعض أنواعه، مذكِّرين بأنَّ هذه الوجوه قد تتداخل في

---

١ - آل عمران: ١٨٠.

٢ - الهمزة: ١ - ٢.

٣ - التوبة: ٣٤ - ٣٥.

٤ - الاعراف: ٣١.

٥ - الانعام: ١٤١.

٦ - الفرقان: ٦٧.

٧ - الاعراف: ٣١.

٨ - النساء: ٥.

بعض مواردها، وذلك لوجود التلاحم القوي بين كل الأجزاء الإسلامية، إلا أنها على أيّ حال تبرز نقطة أخرى من نقاط هذا التوازن.

الأول: التوازن في مجال الإرتباط بالمطلق

وهذا الجانب هو من أهم الجوانب في نظام العبادات:

فإن البشرية خلال مسيرتها الحضارية ابتليت بعقبتين رئيستين منعتاها عن مواصلة التقدم الحضاري، وهاتان العقبتان هما:

أ ـ اللاإنتماء.

ب – والانتماء المفرط.

وإذا كان اللاأنتماء يعني عدم الاستهداف وعدم الإيمان بشيء، وهو بالتالي يعني وجود دافع للحياة والبناء والإعمار؛ فإن الانتماء المفرط إلى مطلقات وهمية خلقها ذهن الانسان وبدائيته وعواطفه، من أمثال القبيلة أو الجنس أو الاقتصاد أو الطبيعة أو العلم أو الدم قد شكَّل أكبر عقبة أمام الفكر والطموح الإنسانيين، لأنهما – أي الفكر والطموح – أكبر من كل هذه الأمور النسبية التي تمتلك تأثيراً في طرف خاص، والتي تشكل قيوداً على الذهن الانساني الذي يحاول الانطلاق إلى عوالم أوسع.

وكان العلاج الحقيقي يكمن في (الإيمان بالله الكامل المطلق الحق) الذي يستوعب المسيرة الانسانية بكل تطلعاتها.

الثاني: التوازن بين الحرية الانسانية والعبودية لله

وقد مرّ سابقاً أن العقيدة الإسلامية تحقق هذا التوازن، وتشكل العبادات تعبيراً عملياً عن هذا التجسيد، ولذا يكون العبد أقرب ما يكون إلى الله وهو ساجد، لأنه في هذه اللحظة يحقق الأمرين معاً، أي يحقق تحرراً من كل ما عدا الله تعالى، ويحقق عبودية لله، بل إن احدهما عين الآخر في الواقع.

وبهذا يتخلص من النظر النسبي لنفسه ومشتهياتها كمطلقات، كما يتخلص من ثقل كل القيود الصنمية الوهمية. فالعبادة تربي الارادة والتعقل الانسانيين، وتركز على

قوتهما في النفس، في مثل الصلاة والصوم والحج، من جهة، وتركز من جهة أخرى على التسليم والخضوع بحالات الركوع والسجود والتقرب، لتحقيق هذا التوازن.

الثالث: التوازن في اشباع غريزة التديّن

فإن هذه الغريزة عبّرت عن نفسها بتعبيرات منحرفة كثيرة، طغى في بعض الحالات اشباعها على اشباع باقي الغرائز، وتقلص حالات أخرى حتى كاد ينمحي، وكان الأمران غير طبيعيين للحياة الانسانية، ومن هنا فقد اشبعت العبادة - بالمعنى الأخص - الحاجة النفسية لهذه الغريزة وبشكل يجعلها تنسجم مع وظيفة العقيدة في وجود الانسان كقاعدة لمجموع الحياة.

الرابع: التوازن بين عزل المسجد عن الحياة وحصرها فيه

وهما حالتان ابتليت بهما المجتمعات مما أقعدها عن مسيرتها المتوازنة، فبينما يحاول اتجاه بشري أن يعزل المسجد عن الحياة بأن يجعل للمسجد طقوسه الخاصة به في وقت خاص، ثم الانطلاق إلى الحياة والعمل والابتعاد عن أيٍّ توجيه مسجدي، وذلك ما نشاهده في المجتمعات المسيحية، حاول اتجاه منحرف أن يختصر الحياة كلها في الدير والمسجد مترهباً؛ وذلك في المسيحية والصوفية والبوذية.

وكلاهما اتجاهان خاطئان:

لأن الأول؛ يعزل الحياة عن ربِّها العظيم وتخطيطه الحكيم لها.

والثاني؛ يميت الحياة في تصوّرات لا واقعية.

ومن هنا فقد حاولت العبادة أن تنقل روح المسجد إلى كل جوانب الحياة، بعد أن كان الإنسان المسلم يتعبد بعبادة مالية وعبادة تفكيرية وعبادة بدنية لها جوانب اجتماعية مختلفة. وهكذا حققت أروع التوازن بين الاتجاهين.

الخامس: التوازن بين المصلحة الذاتية والمصلحة العامة

وقد ذكر من قبل أن الاسلام يعمل بأساليب مختلفة على محاولة التقريب بل التوحيد بين المصلحتين، باعتبار الأولى عملية ذاتية دافعة، والثانية ضرورة نظامية لا

يستغنى عنها.. ومن أساليب القرآن لذلك: العبادات التي تركز في الانسان الشعور بالمسؤولية تجاه مجتمعه، وتجعله يرى مصلحته الذاتية تكمن في كل ما يتقرب به إلى الله، ومن الواضح التحام المصالح الاجتماعية التي يراها الاسلام في مفهوم: سبيل الله.

السادس: التوازن بين الاتجاه العقلي المحض والاتجاه الحس المحض

وهما أيضاً اتجاها منحرفان يركز كل منهما على جانب واحد من الانسان وينسى الجانب الآخر فيه، إلا أن العبادة بجمعها بين التفكير والقيام بعمل حسي عبرت عن التوازن بينهما.

السابع: التوازن بين الغيبة ووعي المصالح

ورغم أن الإسلام يربِّي الإنسان على الوعي والإدراك المستوعب لمختلف الجوانب الحياتية، فإن هناك أموراً كثيرة جداً يقصر عن إدراكها عقل الإنسان ولو في بعض الظروف، في حين يعلن الله بضرورتها ويشرع التشريعات التي تحقق اشباعها.

ومن هنا لزم أن يربّى الإنسان على عنصر التعبُّد والتسليم لكل شيء من الله، أدرك المصلحة فيه أو لم يدرك. والعبادات باحتوائها على بعض التفصيلات التي لا يمكن إدراك حكمتها تربي في الإنسان عنصر التعبد هذا.

هذا.. إلى غير ذلك من كثير من أنماط التوازن في أنظمة الإسلام.

البحث الثالث: التوازن والوسطية

ان كل هذا الزخم الاسلامي في مجال الفكر والعمل يربي الروح الوسطية في المسلم ولكن كيف يتم ذلك؟

من الواضح لدى كل دارس للاسلام، أنه حدد الهدف من خلقة كل المخلوقات، وهو كمالها اي تحول طاقاتها الذاتية الكامنة بالقوة الى ظواهر فعلية، بل ان هذا هو ما يدركه الوجدان الفطري حينما يلاحظ التخطيط الإلهي لهذا الكون والتنسيق والهدفية في الخلق.

وبالنسبة للإنسان يحدد القرآن هدف خلقته بوضوح اكبر حين يعلن (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[١]، مما يوضح ان تكامل الانسان يتم كلما تأصلت صفة العبودية لله تعالى فيه كفرد، وأوج كمال الفرد يتمثل في النبي، وأرقى صفة تمنح للنبي انه (نعم العبد).

يقول تعالى: (ووهبنا لداوود سليمان نعم العبد انه اواب).[٢]

وحين يشهد المؤمن لرسول الله سيد البشرية بالرسالة يقدم العبودية اولاً فيقول: (اشهد ان محمداً عبده ورسوله) وينعكس هذا على الانسان كمجتمع حيث يعمل عباد الله الصالحون وطليعتهم هم الانبياء على اقامة المجتمع العابد.

﴿ولقد بعثنا في كل امة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[٣]. هكذا اذن تكون المسيرة الصحيحة المتوازنة المتكاملة للبشرية ضمن خطين. خط العبادة وخط اجتناب الطاغوت، وهما الناتجان الأساسيان من حالة العبودية المطلقة لله تعالى.

فنحن هنا نواجه تفصيلاً وتوضيحاً اكبر للعبودية يتمثل في (العبادة) و(رفض الطاغوت).

ولكن ماذا يعنيان؟

إن العبادة في مفهومنا الاسلامي باختصار تعني تعبيد الحياة لله (تعالى) وتنفيذ اوامره ونواهيه.

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم﴾[٤]

وهذا المعنى يشمل العبادة بالمعنى الأخص كالصلاة والصيام، ولا يلخص الحياة فيها بل تتحول الحياة كلها الى مسجد وصلاة.

١- ص: ٣٠.
٢- ص: ٣٠.
٣- النحل: ٣٦.
٤- الأنفال: ٢٤.

أما الطاغوت: فهو باختصار المتجاوز للحد الوسط في تصور الاسلام، المتعدي عليه، والطغيان هو تجاوز الحد كما يقول الراغب[١] ولذا قال تعالى: (انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية).[٢]

والوسطية الاسلامية تعني: العدل، والتوازن، والحكمة ووضع الشيء في موضعه بما يحقق الهدف منه، وليس المقياس الكمي، وإذا كانت الأمة الاسلامية هي الأمة الوسط ﴿وكذلك جعلناكم امة وسطاً﴾[٣]، فإنما لأنها الأمة القدوة والأسوة الحضارية للأمم بعد أن تقتدي بالرسول الأسوة.

وإذا راجعنا كل المفاهيم التي ينفر منها الاسلام وجدناها تخرج عن الحد الوسط بهذا المعنى: فمفاهيم: الالحاد والشرك والفاحشة والتهور والاسراف وامثالها بل حتى المفاهيم السلبية كالرهبنة والبخل والجبن واللامسؤولية، هي نوع من أنواع تجاوز الحد او فلنعبر بعدم الالتزام بالحد الشرعي.

فالمعيار هو الحد الإنساني الذي ارتضاه الله تعالى، وربما ادركناه بوجداننا لوضوحه كالطيبات والخبائث، ولكن المنظار الإلهي يعطينا صورة كاملة عن الحد الوسط او فلنعبر بالحد الطبيعي الذي يعني الخروج عنه خروجاً عن الذات ونسيانها، وهنا يأتي هذا التعبير الإلهي الجميل ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾[٤]، تماماً كما تفسق النواة حين تخرج عن موقعها الطبيعي فتسميها العرب نواة فاسقة.

والامن البشري على مدى التاريخ مهدد من قبل الطغاة والفاسقين. ذلك اننا لو نظرنا من عل الى كل انهار الدماء والدموع والاعتداء على النسل والحرث والعقل والانسانية فإننا بكل سهولة نستطيع ان نرجعها الى مظهرين من مظاهر الطغيان هما: كما يعبر الشهيد الصدر:

١- مفردات الراغب، ص٣٠٥.

٢- الحاقة: ١١.

٣- البقرة: ١٤٣.

٤- الحشر: ١٩.

مشكلة الضياع واللاانتماء، ومشكلة الغلو في الانتماء بتحويل الحقائق النسبية الى مطلقات، والتعبير الإسلامي عنهما هو (الالحاد) و(الشرك)، وهما يلتقيان في نقطة واحدة اساسية هي (إعاقة حركة الانسان في تطوره عن الاستمرار المبدع الصالح)[1] اما العلاج فهو الايمان بالله الواحد والمسؤولية تجاهه.

ان اللاإيمان او الايمان بالوثنية هما حالتا طغيان او فلنعبر هما سببان عظيمان للطغيان فإما أن تنتفي المسؤولية في حالة اللاإنتماء أو تتضخم الصورة الوثنية للذات او للحجر او للحاكم او للاسطورة او للمنصب او للمال او للقوة او للشهوة - وكلها امور نسبية يحولها الجهل الى امور مطلقة - وحينئذ يكون الدمار، ويكون التهديد العظيم للامن الانساني بشتى انواعه.

اننا نستطيع ان نتصور انماطاً شتى من الأمن للانسان فهناك (الامن الفكري والاجتماعي، والاخلاقي الانساني والعائلي والصحي والبيئي والسياسي والاقتصادي وغير ذلك).

والطغيان وتجاوز الحد والافراط والتطرف يهدد هذه الانواع جميعاً.

ونحن نعلم ان فرعون يمثل نموذج الطغيان في النصوص القرآنية ﴿اذهبا الى فرعون انه طغى﴾[2]، ﴿وان فرعون لعال في الارض وانه لمن المسرفين﴾[3]، فحتى الايمان يحتاج الى إذن منه ﴿قال فرعون آمنتم له قبل ان آذن لكم﴾[4]، وكان فرعون رمز التهديد للوجود الشعبي والنسل والخلق، يقول تعالى: ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين﴾.[5]

١- الفتاوى الواضحة، ص٥٩٥.

٢- طه : ٣٢.

٣- يونس: ٨٣.

٤- الاعراف: ١٢٣.

٥- القصص: ٤.

وكـان رمـز الاسـتخفاف بالامـة ﴿فاسـتخف قومـه فأطـاعوه انهـم كـانوا قومـاً فاسقين﴾.[١]

وربما كان من نافلة القول بعد هذا ان نتحدث عـن دور الاسـلام في تحقيـق الامـن للانسان بشتى انواعه بعد أن عرفنا رفضه لكل الاسـاليب الطاغوتيـة الفرعونيـة جملـة وتفصيلاً.

فهو يعمل على توفير الأمن الأخلاقـي مـن خـلال نظامـه الأخلاقـي والتربـوي ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم﴾[٢] وهو ينفي كـل ما يلوث الجو الانساني الخلقي عبر تحريمه المفاسد الخلقية التي تميت انسانية الانسان.

كما يعمل على توفير الأمن الاجتماعي من خلال اقامة البناء العائلي ونفي كل مـا يوجه الغرائز نحو التحلل او الاشباع الخـاطئ، ومـن خـلال تقديمـه نظامـاً للعلاقـات الاجتماعية المتعالية ونفيه كل ما يمزق الأمة من مقاييس مادية، كاللون واللغة والعنصر والقبيلة والجغرافيا وغيرها، وكذلك من خلال ضمانه لكل حقوق الانـسان في الوجـود والكرامة والحرية والضمان الاجتمـاعي والاقتـصادي، ورفـضه كـل عوامـل التهـديم كالبخل والغصب واكل المال بالباطل وتمركز الثروة والاسراف والتبذير والحرابة والبغـي والقتل وغيرها، وكلها تتعاون لتحقيق الهدف، كما يعمل على ضمان المشاركة الـشعبية السياسية من خلال مبدأ الشورى ومبدأ الولاية المتبادلة وتعميم المسؤولية ولا نريد ان نستمر في هذا العرض وهو واضح صريح.

إن الاسلام يعمل على المستوى الحضاري لتحقيق الامن والسلام العـادل للبـشرية منطلقاً من مبادئه الانسانية، وحتى لو اضطر للحرب فإنه يشنها حرباً نظيفة لا رد فيها إلا على المعتدي أما الابرياء فلا ينالهم شيء بل وحتى الطبيعة تبقى آمنة سليمة.

١- الزخرف: ٥٤.

٢- الجمعة: ٢.

يوصي الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى آله وصحبه، اصحابه فيقول (سيروا باسم الله وبالله وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله، لا تغلو ولا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا صبياً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً الا أن تضطروا اليها ...).[١]

ان الأمن البيئي والطبيعي والحيواني مضمون اسلامياً وان قاعدة (لا ضرر ولا ضرار في الاسلام) قاعدة عامة تمنع الاضرار بالبيئة بلا ريب، لانه اضرار بكل البشرية، وان الاسلام يجعل الطبيعة مسخرة للانسان نفسه فعليه ان يشكر نعمتها ولا يكفر بها، **﴿وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار﴾**.[٢]

وحتى علاقات الحب والعواطف قد تقوم بين المسلم والطبيعة، فيمر الرسول الكريم(ص) على جبل أحد، فيقول: (هذا جبل احد يحبنا ونحبه).[٣]

ويبقى الوعد الإلهي قائماً في خلد المسلم هدفاً يسعى اليه حثيثاً، إذ يقول تعالى: **﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾**.[٤]

انه المجتمع الخليفة الآمن العابد، الآمن من العدو الخارجي والداخلي، وانه هدف الأنبياء وقد تحقق: عبادة وأمن من الطاغوت.

والحقيقة اننا إذا فسرنا الارهاب بالمنطق الانساني العام بأنه (كل عمل لا ينسجم مع الوجدان الانساني من حيث الوسيلة او الهدف ويهدد الأمن بشتى انواعه) فسنجد

١- كنز العمال، ج٤، ص٢٢٣، والكافي، ج٥، ص ٢٧، مصنف ابن ابي شيبة، ج ٧، ص ٦٥٤، سنن ابي داود، ج١ص، ٥٨٨ وغيرها.

٢- ابراهيم: ٣٤.

٣- روته الصحاح الكثيرة (راجع: ص ٢١).

٤- النور: ٥٥ ، ٥٧.

ان الاسلام يقف بقوة ضده بل ويعمل على اجتثاث جذوره من الاساس.

ومن الطبيعي ان نقول هنا اننا لا نستطيع ان نقضي على المعلول مع الابقاء على العلل.

إن معظم ما نشاهده من مظاهر الارهاب يعود الى عوامل كثيرة منها:

أ ـ انتشار الجهل وروح التعصب الأعمى والنظرة الظلامية للعالم.

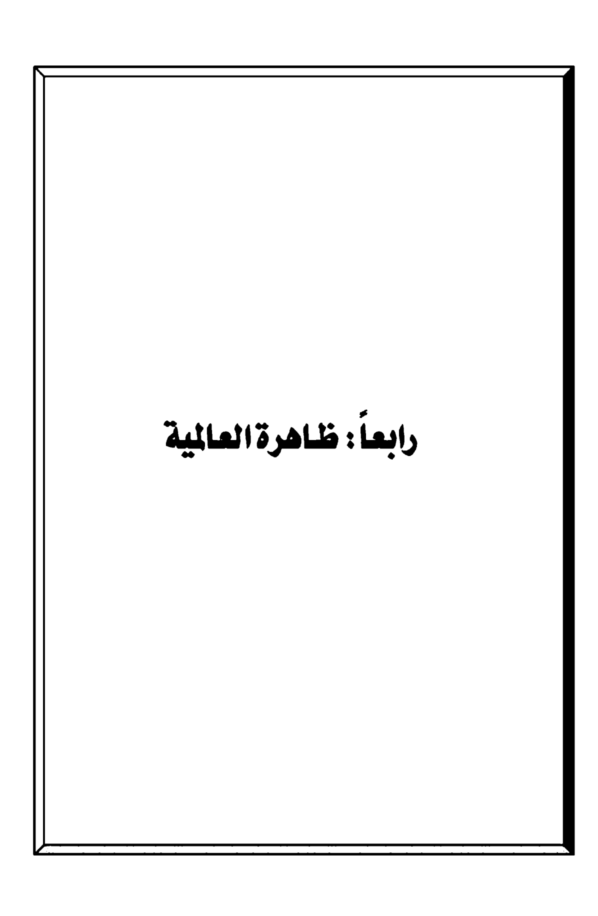
ب - انتشار الفقر والجوع والحرمان، وكاد الفقر ان يكون كفراً.

ج - انتشار الظلم والاستبداد والقهر والعنف وسلب حقوق الانسان ومصادرة حرياته المشروعة.

د - فقدان الوازع المعنوي وتدني المستويات القيمية وانتشار الروح الحيوانية الجشعة العمياء.

فما لم توضع الخطط العالمية المخلصة للقضاء على هذه العلل او التخفيف من وطأتها فإنها سوف تظل تزرع الارهاب.

والأنكى من كل ذلك ان نجد الدول العظمى التي ارتبط تاريخها بالحروب والدمار والارهاب على رأس قائمة محاربته وهي حتى في حربها المفروضة ضد الارهاب ترتكب ابشع انواع الارهاب وتدعم نظماً ارهابية فاشية مثل النظام الصهيوني الارهابي بكل ما في هذه الكلمة من معنى.



رابعاً: ظاهرة العالمية

صفحه سفيد

وينقسم البحث الى اقسام:

القسم الأول: الوضع الطبيعي

إذا اردنا ان نعرض الواقع الطبيعي للعالم فإنه ينبغي أن نعرضه على مستويين. تارة على المستوى النظري، من وجهة نظر الإسلام، وأخرى على المستوى الواقعي الحالي القائم. من وجهة نظر هي اقرب الى العدالة كما نتصورها.

أما على المستوى النظري فإن الاسلام يرى ان الوضع الطبيعي للبشرية إنما يتم إذا قام نظام عالمي شامل له قانون واحد، وله امام واحد، ويتمتع بخصيصة:

امتلاك قوانين منسجمة مع الفطرة الانسانية، باعتبار ان الفطرة هي الحد المشترك بين الأفراد. والدين ينسجم تمام الانسجام مع هذه الفطرة، وهي سنة الله في خلقه كما في الآية الشريفة ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾[1]، وهذه الفطرة تقتضي اللجوء الى الله تعالى، واستمداد الشريعة في أصولها من الله تعالى؛ لأنه أعلم بما يصلح الانسان، ويحقق العدالة في هذا الاصلاح لانه تعالى الخالق العليم الرحيم؛ فلا حيف ولا ظلم ولا جهل، والرسالة التي تأتي من الله تعالى تعتمد منطق العدل والاحسان. والعدل يقتضي عدم التمييز إلا بالصفات التي يكتسبها

١- سورة الروم: ٣٠.

الفرد، وهذه الصفات هي التقوى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1]، والجهاد ﴿وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾[2]، والعلم ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[3]، كما ان هذه الرسالة تقتضي اتباع منطق الشورى في الأمر، هذا هو التصور الاجمالي للوضع الطبيعي للبشرية ـ على المستوى النظري: مجتمع واحد وإمام واحد وقانون واحد يستمد اصوله من هداية الله تعالى، ويسير وفق التشريع الإلهي.

أما على المستوى الواقعي الحالي والمنطق السائد فإننا إذا لاحظنا الوضع الحاضر فإنه يبدو ان الوضع الطبيعي للعلاقات الدولية والنظام الحاكم في الأرض يقتضي أن تكون هناك أمم متحدة، وقانون دولي واحد ومنظمات دولية واحدة تنظم هذه العلاقات، خصوصاً وانها مسيرة تكاملية، وحركة من التفرق الى التجمع، وان هناك مسائل لايمكن ان تعالج اليوم على اساس محلي من قبيل (مسائل البيئة الحياتية، وحقوق الانسان، والاقتصاد العالمي والتجارة العالمية والطاقة والارتباطات والقوانين الدولية لحركة السنن والطائرات والامواج الاذاعية والتلفزيونية) وان تعامل الثقافات اليوم ضرورة ملحة للشعوب ولكن هذا النظام العالمي يجب ان يقوم على أسس منها:

١ـ احترام سيادة الدول وعدم التدخل في شؤونها الداخلية.

٢ـ احترام الثقافات المتنوعة.

٣ـ اتباع سياسة عامة لمحو الفقر ودعم العدالة الاجتماعية.

٤ـ دعم الديمقراطية في اطار احترام القيم التي يؤمن بها المجتمع.

٥ـ اتخاذ منطق الحوار للوصول الى المشتركات والتعاون في هذه المشتركات وذلك على المستويات كافة، سواء كان حواراً بين الحضارات او بين الأديان او بين المدارس والمذاهب المختلفة.

١- سورة الحجرات: ١٣.

٢- سورة النساء: ٩٥.

٣- سورة الزمر: ٩.

٦ـ الارتفاع بالمستوى العلمي الانساني، والتعاون بين الدول في هذا المجال.

٧ـ دعم قضية السلام العالمي العادل.

٨ـ نفي الاحتلال والظلم والارهاب بأنواعه.

٩ـ فتح المجال للمعلوماتية البناءة النافعة للبشرية.

١٠ـ تقوية الجوانب المعنوية الانسانية وعدم السماح للأفكار الهدامة بالظهور، من قبيل النازية والفاشية والعنصرية وباقي الأفكار الشيطانية باجماع البشرية.

القسم الثاني: عناصر مهمة في العلاقات مع الآخرين في رأي الاسلام

وهنا نود أن نجمل الأمر، فنذكر بعض العناصر التي تلعب دورها الكبير في تحديد نوعية العلاقات الدولية للسياسة الخارجية الاسلامية، إلا أننا قبل ذكر هذه العناصر، نشير الى الأساسين الرئيسين، اللذين تقوم عليهما السياسة الخارجية الاسلامية، وهما:

١ـ المصلحة الاسلامية العليا على ضوء الواقع القائم.

٢ـ الروابط والرحمة الانسانية، والصلات الخلقية.

والواقع ان كل التشريع الاسلامي يستقي من هذين المعنيين، بل يمكننا القول ـ عند التعمق ـ انهما يعبّران عن موقف واحد، فلم يكن الاسلام ليقصد إلا أن يضع الانسان على طريق تكامله، ويفجّر طاقاته، وينفي عن حياته كل المعوقات التي تقف في وجه مسيرته، المستمدة من هدي الرسولين، الداخلي والخارجي، أي الفطرة والتشريع.

والواقع الذي لاشك فيه أن الواقعية والروح المناقبية تعتبران من أهم سمات التشريع الاسلامي في شتى جوانبه، وما سنراه فيما يلي من أسس انما ينبثق عن هاتين الصفتين الرئيسيتين.

أما العناصر التي وددنا التركيز عليها في نظرتنا السريعة هذه، فهي كما يلي:

أولاً: العمل على ابقاء الامة نموذجاً أعلى للمجتمعات البشرية:

فالأمة الاسلامية التي يصفها القرآن: هي الأمة الوسط. والوسطية هنا بلا ريب يراد بها النموذج الأسمى، وما يمكن استفادته من تعبير واسطة العقد، حيث الجوهرة الثمينة

التي تتبعها الجواهر الأخرى فيه. وهي الأمة الشاهدة، وهي خير أمة أخرجت للنـاس، وعلى هذا فالسياسة الخارجية الاسلامية تسير بشكل منسجم مع مجمـوع السياسات الداخلية باتجاه تحقيق هذا الأمر بـشتى الوسـائل والـسبل، أي سـواء علـى الاصـعدة السياسية، او الاعلامية، او الاجتماعية، او العسكرية، او غيرها.

إن هذا العنصر يدفع الأمة الى التعالي والتكامل في كل حقـل، والاسـتفادة الأكمـل من تجارب الآخرين، واستغلال كل تسابق في سبيل تحقيقه.

انه يعني الانفتاح على كل مجالات الحياة، وحمل رسالة انـسانية حـضارية كـبرى، نقول هذا ونحن نعترف بأنّ أمتنا ــ نتيجة عوامل كثيرة ــ قد اقصيت عـن هـذا الـدور الطليعي الذي أهلت له، ولكن هذا لا يعني أن لا تظل تلح على الوصول اليه، او تنساه عندما تحاول او تؤصل اية علاقة دولية.

ثانياً: المبدئية في التعامل:

وهي سمة عامة في كل خط سياسي سواء على الصعيد الداخلي او الخارجي، ذلك:

أن الدولة الاسلامية دولة عقائدية، تؤمن بمبادئ تصورية تقوم على أسـاس منـها خطوط عملية تستوعب حياة الانسان الفرد والمجتمع.

ولهذا فهي تقترب من الآخرين بمقدار قربهم من المبدأ، وتبتعد عنهم بنفس المقياس، وهي لا تتعامل معهم إلا من خلال الامتدادات التي يسمح بها المبدأ ... فعلـى ضـوء المبدأ يتحدد نوع العلاقات الدولية، وكونها ودية، او حسنة، او سيئة في الأصل.

أما العلاقات الاخوية فلا تقوم إلا بين المؤمنين، وذلك لأنها علاقـات سـامية، قـد تعني وحدة الأفراد في مختلف الشؤون وليس هناك إمكان أن يـصلها أنـاس يختلفـون على قضية الايمان.

ثالثاً: نفي السبيل على المؤمنين:

وتعتبر هذه القاعدة من أروع قواعد الـسياسة الخارجيـة، وربمـا كانـت في بعـض جوانبها تطبيقاً للقاعدة الأولى، كما تعبِّر عن علو الاسلام علـى غـيره مـن الأنظمـة، وكرامة المسلمين التي يجب أن لا تُمسَّ مطلقاً.

وبموجب هذه القاعدة فإنّ أي تصرف او معاهدة او عقد يؤدّي الى تفوق الكـافرين على المسلمين يعد ملغياً من أساسه ـ وكما يعبر الفقهاء ـ فإن هذه القاعدة شأنها شأن قاعدة (لا ضرر ولا ضرار في الاسلام) [١] وقاعدة (نفي العسر والحرج) تعد من القواعد الثانوية التي تستطيع أن تحكم على الأحكام الاولية بمجموعهـا، اللـهم إلا تلـك الـتي تتضمن بنفسها تحمل الضرر في سبيل تحقيق غاية أسمى كالجهاد.

وتستند هذه القاعدة الى أدلة، منها: الآية الشريفة:

﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾.[٢]

ومنها الأحاديث التي تطبقها في بعض الموارد، كالحديث الوارد بما نصه:

(الاسلام يعلو ولا يُعلى عليه، والكفار بمنزلة الموتى، لا يحجبون ولا يورثون).[٣]

كما تستند الى اجماع الفقهاء، وربما أمكن أن يقال: إن روح التوجهـات الاسـلامية، وملاحظة المناسبات بين الحكم والموضوع، تقـرر هـذه الحقيقـة بوضـوح، و**﴿لله العـزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾**.[٤]

وينبغي أن ننبه هنا الى أنّ هذا التوجه لا يعبر عن نـوع مـن التكبّـر - كمـا يقـول البعض - وانما هو تقرير حقيقة علوّ النظـام الاسـلامي علـى غـيره، باعتبـاره النظـام الأكمل، وبالتالي افضلية تابعيه، فهو يعمل على أساس من معيار إنساني. نعم، يمكن أن يناقش او يتساءل أحد عن أصل المعيار، ويتحول البحـث حينئـذ الى الأدلـة. أمـا أن يطلق القول على عواهنه، ويعتبر ذلك بشكل عام عملاً عنصرياً، فهو من أشد الظلم.

إنها قاعدة تعاملية مهمـة، لهـا تطبيقاتهـا في مختلـف المجـالات، ومنـها: المجـالات السياسية.

---

١ - الوسائل، ج٢٦، ص ١٤، من لا يحضره الفقيـه ج ٤ص ٣٣٤، مجمـع الزوائـد ج٤ ص١١٠، المبسـوط للسرخسي ج٢٣ ص ١٧٥.

٢- النسـاء: ١٤١.

٣- من لا يحضره الفقيه، ج٤ ص٢٣٤، الوسائل، ج ٢٦، ص ١٢٥، البخاري، ج٢، ص ٩٦، الجامع الصغير، ج١، ص٤٧٤.

٤- المنافقون: ٨.

وليس هنا بأروع من تطبيقها اليوم، في تعاملنا مع القوى العظمى، التي تعمل على ابتلاع العالم ونهب ثرواته، وعبر بعض الأساليب الخداعة.

وتعد حادثة تحريم شراء وبيع التبغ الداخلي والخارجي لبريطانيا، من خلال تاجر انكليزي يدعى (رجي) تطبيقاً لهذه القاعدة في ايران، حيث سلّط الشاه الظالم الكافرين، على جانب اقتصادي اسلامي، فاصدر الميرزا الشيرازي فتواه المعروفة القائلة:

(إن استعمال التبغ ومشتقاته حرام اليوم، وانه يعدّ بمثابة اعلان الحرب ضد الامام المهدي ـ عج ـ).

والتطبيق السياسي الثاني المعاصر: هو الموقف الحازم الذي وقفه الامام الخميني من معاهدة الكابيتولاسيون (أي الاشتراط) ويعني: اشتراط ان لا تطبق على السكان الاجانب في ايران إلا قوانين دولهم، حيث يقوم قنصل الدولة المذكورة بتطبيقها.

وما كانت تعني إلا نوعاً من الحصانة القضائية للأجانب، وتسليطهم على رقاب المسلمين، وقد قام نظام الشاه المقبور بعقد هذه المعاهدة في عام ١٩٦٣م، فنهض العلماء الكبار ـ وفي طليعتهم الإمام القائد ـ ضد هذا العمل المنافي للاسلام والعدالة، مما أدّى به الى إبعاده من قبل الحكم الطاغي الى تركيا. والواقع أن بذرة الثورة الاسلامية الكبرى غرست في ذلك اليوم. والرائع ان الإمام استهل بيانه الجريء وفتواه بالآية القرآنية الشريفة: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾.[1]

ولو أن الأمة الاسلامية، أو هؤلاء القائمين عليها، راعوا هذه القاعدة في تعاملهم، لما أصيبت الأمة بالحالة التي هي عليها الآن قطعاً.

ومن الجدير بالذكر:

إن العناصر الثلاثة الماضية تشكل أساساً لروح الاستقلال، والترفع على أي نفوذ أجنبي مذل.

١- النساء: ١٤١.

رابعاً: التوعية قبل أية خطوة أخرى

الاسلام دين التوعية والتربية ... وهو بمقتضى واقعيته وفطريته يقرر لزوم القيام بتوعية أي انسان يراد له أن ينضم الى معسكره، وأي مجتمع يراد للاسلام ان ينفذ الى عمقه ... انه يعرض جوهرته الثمينة، لأنه يعلم أن قيمتها ستنكشف بكل وضوح للجميع ... ولذا فهو يرفض أي تقليد في العقيدة، ويدعو الى البحث والبرهنة، ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ وهو يرفض أية عملية إكراه عقائدي ﴿لا إكراه في الدين﴾ كما يريد من الأمة أن تكون من أولي الأيدي والأبصار، قوية في بصرها وبصيرتها ... وفي مجال التعامل مع الآخرين يأمر بالدعوة البيّنة الواضحة قبل كل شيء، يقول القرآن الكريم: ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾.[١]

﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم﴾.[٢]

﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾.[٣]

﴿قل هذه سبيل أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾.[٤]

وفي هذا يقول آية الله السيد محمد باقر الصدر في كتابه (اقتصادنا):

(والأمر الآخر: أن يبدأ الدعاة الاسلاميون - قبل كل شيء - بالإعلان عن رسالتهم الاسلامية، وايضاح معالمها الرئيسية، معززة بالحجج والبراهين، حتى إذا تمت للإسلام حجته، ولم يبق للآخرين مجال للنقاش المنطقي السليم، وظلوا بالرغم من ذلك مصرّين على رفض النور ... عند ذلك لا يوجد أمام الدعوة الاسلامية - بصفتها دعوة عالمية تتبنى المصالح الحقيقية للانسانية - إلا أن تشق طريقها بالقوى المادية، بالجهاد المسلح).[٥]

١- النحل: ١٢٥.
٢- الشورى: ١٥.
٣- فصلت: ٣٣.
٤- يوسف: ١٠٨.
٥- البقرة: ٢٧٥.

وقد جاء في كتاب الكافي للمرحوم الكليني عن الصادق (عليه السلام) قوله:

(قال أمير المؤمنين (ع): بعثني رسول الله (ص) الى اليمن، فقال: يا علي لا تقاتلنّ أحداً حتى تدعوه الى الإسلام، وأيم الله لأن يهدي الله عزّ وجل على يديك رجلاً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه يا علي).[1]

إنه اسلوب القرآن قبل كل شيء، الذي علّمه الله لموسى وهارون(ع) **﴿اذهبا الى فرعون إنه طغى، فقولا له قولاً ليّناً لعله يتذكّر او يخشى﴾**.[2]

انه الدعوة ـ حتى عند مواجهة الطواغيت ـ عسى أن يهتدوا الى الحق.

وها نحن نجد الرسول العظيم يكرر عبارة (ادعوك بدعاية الاسلام) في رسالته الى شاه ايران، وقيصر امبراطور الروم تطبيقاً لهذا التعليم الاسلامي السامي.

وهكذا راح الدعاة يبثون الدعوة الى الأقطار. وقد ذكرت اسماء بعض الدعاة الى الله، ومنهم:

عبدالله بن حذافة السهمي ـ مبعوث الرسول (ص) الى ايران.

حاطب بن أبي بلتعة ـ مبعوث الرسول (ص) الى مصر لدعوة المقوقس.

دحية الكلبي ـ مبعوث الرسول (ص) الى روما.

عمرو بن أمية ـ مبعوث الرسول (ص) الى الحبشة.

سليط بن عمرو ـ مبعوث الرسول (ص) الى اليمامة.

عمرو بن العاص ـ مبعوث الرسول (ص) الى عمان.

حرملة بن زيد مع وفد معه الى مدينة (أبلة) الواقعة على ساحل البحر الأحمر.

المهاجر بن أبي أمية ـ مبعوث الرسول (ص) الى ملوك حِمْير.

خالد بن الوليد ـ مبعوث الرسول (ص) الى همدان (مدينة قرب بحر عمان).

علي بن أبي طالب (ع) ـ مبعوثه الثاني الى هذه المدينة.

١- وسائل الشيعة: ج١١: ص٣٠، الكليني، ج٥، ص٢٨، تهذيب الاحكام، ج٦، ص ١٤١، مجمع الزوائد، ج٥، ص ٣٣٤، كنز العمال، ج ١٠ ص ١٥٦، المعجم الكبير، ج١ ص ٣١٥.

٢- طه: ٤٣ ـ ٤٤.

حذيفة بن اليمان ـ مبعوث الرسول (ص) الى الهند.

عبدالله بن عوسجة ـ مبعوث الرسول (ص) الى قبيلة حارثة بن قريظ.

جرير بن عبدالله البجلي ـ مبعوث الرسول (ص) الى قبائل ذي الكلا.

وغيرهم ممن حمل مهمة الدعوة الى الشعوب.

وإذا اردنا ان نجد التطبيقات السياسية لهذا الأصل في التعامل الدولي، أمكننا أن نلحظها في بعثات الإيضاح المرسلة من هنا الى هناك، وفي اساليب توضيح الحقيقة عبر الوسائل السمعية والبصرية. وفي مذكرات الايضاح الموجهة، والمذكرات التفسيرية المقدمة الى المؤتمرات الدولية.

ومما تتميز به العلاقات الدولية الاسلامية: أنها تنظر الى عملية التوعية والايضاح كرسالة الهية ومبدأ ضروري يجب الالتزام به قبل القيام بأية خطوة عسكرية او سياسية او غيرها تجاه الدول الأخرى.

اما ما نجده من السياسة الماكرة القائمة بالفعل، فهو اعتماد هذه السياسة التوضيحية باعتبارها مناورة سياسية فإذا لزم الأمر، قلبت الحقائق، وتغيرت الموازين.

ونذكر هنا بان الاسلام قدم للبشرية وللمسلمين بالاخص ارشادات رائعة تؤكد على:

١ - ان ينطلق الحوار من مبادىء ثابتة لا اسماء موهومة.

٢ - ان يكون موضوعياً.

٣ - ان يتم في جوخال من التهويل بل يتبع التي هي احسن.

٤ - ان يبتعد عن الجدال العقيم.

٥ - ان يستهدف غايات نبيلة.

وغير ذلك.

خامساً: مراعاة العدالة في التعامل

يشكل العدل أهم اصول التصور الاسلامي عن الواقع.

﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولو العلم، قائماً بالقسط﴾.[١]

وأهمّ الأسس عند التعامل الاجتماعي.

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله﴾.[٢]

ومن الطبيعي أن يأتي التأكيد على العدالة حين تثور الإحن والشنآن، ويكاد العدل ينسى من البين، وحينئذ تقول الآية:

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾.[٣]

وإذا لاحظنا أن العدل في التعامل مع الأجانب عن دار الاسلام يلحظ فيه واقعهم القائم، أدركنا البعد الانساني في هذا لأصل، وهذا ما تؤكده أحكام الاسلام في الجهاد والعهد والإجارة وغيرها.

وهو ما يفسر وقوف الدولة الاسلامية الى جانب قضايا المستضعفين والمحرومين في الأرض، ومقارعة الظلم والطغيان في كل مكان، حتى لو لم يكن الأمر يمسها من قريب، وعملها على نفي العلاقات الظالمة بين الدول.

فليس وقوفنا الى جانبهم وقوفاً مصلحياً دعائياً، حتى إذا ما تسنّى لنا الأمر ومنحتنا المقادير أزمّتها رحنا نسومها سوء العذاب، وهو ما نجده من القوى العظمى، شرقيّها وغربيّها.

وإنما هو موقف مبدئي أصيل، قائم على أساس متين، متى ما خالفناه ـ وفي أية لحظة ـ خرجنا عن الخط الاسلامي القويم، ودخلنا في عداد المستكبرين، الذين يقول فيهم تعالى:

﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتُقطّعوا أرحامكم • أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم﴾.[٤]

١- آل عمران: ١٨.

٢- النساء: ١٣٥.

٣- المائدة: ٨.

٤- محمد : ٢٢ ـ ٢٣.

إن القرآن على العكس من ذلك، يعطينا صورة الجماعة المسلمة المتمكنة، بقوله:

﴿الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾.[١]

سادساً: مبدأ تأليف القلوب

وهو مبدأ يمثل ايجابية الشريعة الاسلامية بكل وضوح، كما يعكس واقعيتها في نفس الوقت.

ففي الجو الذي يتم فيه تأليف القلوب، تنفتح النفوس للحقيقة، وتتقرب الى الواقع، والأصل في هذا المبدأ هو: سهم المؤلفة قلوبهم في مصارف الزكاة، حيث فتح هذا مجالاً للعمل المنظم لتحقيق ذلك، عبر الوقوف الى جانب كل المستضعفين، والدفاع عن قضاياهم، وجلب القلوب الى الاسلام.

ورغم أن الفقهاء يختلفون في مساحة هذه القلوب المؤلفة، وهل تختص بغير المسلمين، أم تشمل المنافقين، أم تعم بعض المسلمين ضعيفي الإيمان، إلا أنّ الذي يبدو من روح الاسلام واتجاهاته الاقتصادية، ومن أقوال فقهاء الشيعة والسنة - ومنهم الإمام الخميني القائد - أنه مبدأ عام، وأصل يتيح للدولة الاسلامية أن تلحظ المصلحة أينما تكون. ومن هنا فمن الطبيعي أن يشكل عنصراً إسلامياً، له دوره في تحديد العلاقات الدولية، وتقديم المساعدات الى مختلف الدول والشخصيات والجمعيات على شتى مذاهبها.

ولئن كان هناك بعض البحث في لزوم العمل بهذا المبدأ في عصر معيّن، وبالنسبة لأشخاص معيّنين، بعد وفاته (ص) فإنّه لا شك في إسلاميته اصلاً، ولزومه في العصور الأخرى.

على أننا ننبه هنا الى أنّ هذا السهم المعطى للمؤلفة قلوبهم لا يختص مورده بباب الزكاة، وإنما نجد الاسلام يسمح للإمام بأن يقوم بالإنفاق بما يحقق مصلحة الاسلام

١- الحج: ٤١.

العليا من أموال الدولة، وتفصيل هذا يذكر في البحوث الاقتصادية الاسلامية.

وبانفتاح هذا الباب نجد المجال السياسي لتطبيقاته واسعاً جداً يشمل كل المعونات الاقتصادية والسياسية التي يمكن أن تقدمها الدولة في سبيل تقريب القلوب الى مبادئها ... إلا أنّ من الواضح فيه ملاحظة مدى ما يعود به من نفع على القضية الكبرى بغض النظر عن أية منافع سياسية ضيقة.

سابعاً: احترام العهود والعقود والاتفاقيات الدولية

وهذا الأصل هو من أهم الأصول التي تعتمدها السياسة الاسلامية الحقة، وكما قلنا من قبل، فإنه يستمد من الواقعية التي تتسم بها النظرة الاسلامية من جهة، واحترام مقتضيات الحق من جهة أخرى.

فالقائد الاسلامي يفكر ملياً في أيّ عهد او عقد يعقده، ولكنه إذا عقد العقدة ـ مستوفية لكل شروطها ـ التزم بها تمام الالتزام.

﴿وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسؤولاً﴾.[1]

والعهود التي تعطى للدول الأجنبية او الأجانب، تارة تدخل ضمن عقود صرّح بها الإسلام، وحدّد لها قوانينها العامة، فيجب الالتزام بذلك، وأخرى تسير بمنحى مستقل، يرى وليّ الأمر أن يعقدها لأنها تحقق المصلحة الاسلامية العليا.

فمثال الأول: عقد الذمة، وعقد الهدنة، وعقد الأمان. ومثال الثاني: كل العقود الأخرى والتي تعقد على الصعيد العسكري والاقتصادي، وأمثال ذلك.

وتستمد التعاليم الاسلامية - الخاصة بهذا العقد او ذاك - من نصوص القرآن الشريفة، والأحاديث المباركة، وعمل الرسول (ص).

ففي مجال عقد الذمة: تستفاد بعض الأحكام من الآية الشريفة: **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾**.[2]

١- الاسراء: ٣٤.

٢- التوبة: ٢٩.

وهناك عقود أهل الذمة التي عقدها (ص) مع نصارى نجران وبني تغلب ومجموعات من اليهود.

ولا نريد هنا أن ندخل في تفاصيل هذه العقود، وإنما نريد التأكيد على أن مسألة العهود تحتل جانباً مهماً من الفقه الاسلامي، وتستمد خطوطها العريضة من القرآن الكريم.

ثامناً: التعامل بالمثل

يقول تعالى: **﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتقين﴾**.[١]

وإذا كان مبدأ القصاص من جهة، ومبدأ جزاء الإحسان بالإحسان من جهة أخرى، مبدأين واقعيّين يرتضيهما المنطق الإنساني في التعامل الفردي والاجتماعي الداخلي، فإنّهما كذلك في مجال التعامل الدولي، بل ربّما عاد أحدهما من الضرورات، إما لردع الأعداء، وإما لجلب القلوب.

تاسعاً: نظام الجهاد بمختلف أنواعه

وهو باب واسع الأبعاد والفروع، حاول الاسلام فيه تنظيم الأعمال الحربية، مستهدفاً تحقيق الأهداف الاسلامية العليا، من خلال رفع الموانع في سبيل الدعوة الاسلامية، والحفاظ على محورها المتحرك. كل ذلك مع ضمان أكبر لالتزام الأساليب الانسانية الممكنة ولن نتحدث طويلاً عن هذا الباب لسعته وضيق مجالنا عنه.

كانت هذه بعض الأسس القرآنية للتعامل الدولي، أشرنا اليها في لمحات سريعة، تاركين التفصيل فيها الى مظانه، وملاحظين أنه قد يكون البعض فيها داخلاً في اطار البعض الآخر، كما في مسألة المبدئية في التعامل مثلاً، او نظام الجهاد.

١- البقرة: ١٩٤.

القسم الثالث: الاتجاهات العالمية لدى النظم

هناك اليوم ثلاثة مذاهب متنافسة هي الإسلام، الاشتراكية، الرأسمالية. وهي تمتلك جميعاً توجهات عالمية، وهنا أؤكد على انه لا فرق من حيث هذا التعريف بين العولمة والعالمية. و الاسلام باعتباره آخر حلقة من حلقات الدين الإلهي جاء ليصلح البشرية، باعتباره طريق خلاصها الذي اراده خالق البشرية، وهو بذلك يركز على الفطرة الانسانية المشتركة بين ابناء البشر، ويعتمد منطق الحوار والاقناع، ويعرض نفسه باعتباره السبيل الوحيد لخلاص البشرية، هذا الاسلام استخدم، لتحقيق اهدافه، عملية التغيير الفردي والتغيير الاجتماعي، وسعى لحذف الحدود الجغرافية والحدود اللونية واللغوية، وإقامة مجتمع عالمي يطبق قانوناً واحداً، ويتبع قائداً واحداً، ويمتلك احاسيس مشتركة، وأهداف انسانية واحدة. وهذا الاتجاه العالمي يبدو في كثير من النصوص الاسلامية، مثل قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون وما هو إلا ذكر للعالمين﴾[2].

وهناك نصوص كثيرة تؤكد على عالمية الاسلام منذ انطلاقته الأولى خلافاً لما يدعيه بعض المستشرقين والمؤرخين؛ من أن العالمية الاسلامية جاءت بالتدريج ولا مجال هنا للتفصيل في هذا المجال.

ان الاسلام يعتبر نفسه مرحلة اسمى في مسيرة الرسالات السماوية جاء فيها التصور الكامل للعقيدة بكل تفصيلاتها، وللشريعة الشاملة لابعاد الحياة الانسانية، ومنها كيفية تشكل الامة الاسلامية وخصائصها لتكون خير امة اخرجت للناس، والامة التي تملك النموذج الحضاري على مدى التاريخ الذي يتلو انطلاقة الاسلام، فلا يختص هذا النموذج بقومية او منطقة او طبقة او مرحلة زمنية دون اخرى بل يعلو على كل التمايزات المادية.

١- الأعراف: ١٥٨.

٢- القلم: ٥١.

ورغم ما ابتليت به مسيرة الاسلام والامة من مشاكل تمزيقية فان معالم العالمية الاسلامية بقيت واضحة تماما. ومازال المنطق الاسلامي الذي يفسرها حيا منطقيا. فان اي قبول بالاسس التالية يعني القبول بالعالمية.

١ ـ الاسلام خاتم الرسالات ولذا فهو الدين الخالد.

٢ ـ الاسلام دين الانسجام مع الفطرة الانسانية

٣ ـ الاسلام ينفي اي تمايز مادي ويقيم معاييره على اساس من التقوى والعمل الصالح والعلم.

٤ ـ الاسلام يستهدف اقامة مجتمع العدالة التامة ونفي كل مظاهر الظلم والفساد.

ان اي قبول بهذه المبادىء يعني الايمان بعالمية الاسلام اما اثبات هذه المبادىء فهو امر تتكفل به بحوث اخرى والذي نرمي ذكره هنا هو ان الاسلام يصرح بها بقوة ووضوح فهو يملك الاتجاه العالمي منذ انطلاقته.

فالإسلام إذا انطلق باتجاه عالمي وما زال، عبر العصور، يؤكد هذا الاتجاه، ويؤكد وحدة المنطلق الانساني، والمسير والهدف، هذا هو رأي الإسلام، أما الاشتراكية فهي ايضاً عندما طرحت فلسفتها عن التاريخ طرحت مسألة المادية التاريخية، والمراحل التي اشتهرت في هذه المادية، حيث تنتقل البشرية من مرحلة العبودية الى المرحلة الاقطاعية، الى الرأسمالية التجارية، الى المرحلة الرأسمالية الصناعية، الى المرحلة الاشتراكية، وبالتالي الى المرحلة الشيوعية، عبر بعض القوانين ومنها صراع الأضداد الاجتماعية هذا التصور اعطى الاشتراكية نظرتها العالمية في ايجاد تحول عالمي في مسيرة الانسانية. وواضح ان الاشتراكية اعتمدت في هذا المجال قضية صراع الطبقات، والثورة والنظام الحديدي الاشتراكي، الذي يوصل المجتمع الى الجنة التي يتصورها الاشتراكيون، وهي الشيوعية[1]، وقد فشلت هذه الرؤية سواء على الصعيد النظري او على الصعيد التطبيقي في اثبات ذاتها.

---

١ - للوقوف على تفصيل هذا الأمر، راجع: بحوث الشهيد الصدر في (اقتصادنا)، ص ٥٣ ـ ٢٣٨، حول الموضوع.

هذا بالنسبة الى الاشتراكية. أما بالنسبة الى الرأسمالية؛ فقد انطلقت منذ بداية حركتها دون أساس ايديولوجي[١]، ولم تكن تهتم بالأساس الايديولوجي، وانما همها تنظيم الحياة، واقامت نظامها على اساس الحرية الفردية الرأسمالية، ولكنها عندما انطلقت وواجهت اتساع الأفكار المعادية لها، راحت تأخذ من الاشتراكية شعاراتها وتستبدلها بشعارات مقابلة، من قبيل العدالة الاجتماعية؛ حيث استبدلتها بمسألة حقوق الانسان، والتنمية الاقتصادية؛ حيث استبدلتها بمسألة السوق الحرة ونمو الانتاج، وبالتالي فإنها اخذت شعار الأممية البروليتارية واستبدلته بشعار العولمة الرأسمالية، إذ انها عندما انطلقت انطلقت محلية وكان تركيزها على الغرب، ولم تطرح نفسها بشكل عالمي، إلا بعد أن توفرت ظروف مناسبة لذلك، فراحت تطرح مفاهيم العولمة اما النظام العالمي الجديد فهو مصطلح استعمله الغرب سياسيا في فترة مبكرة لكي يفرض هيمنته السياسية وقد اتخذ في فترات متفاوتة قوالب متعددة. تبعا لسخونة الحرب وبرودتها.

وهنا نذكّر بالمراحل التي ذكرها (روبنسون) فقد تصور (روبنسون) ان العولمة الرأسمالية مرت بمراحل هي المرحلة الجنينية، وتبدأ منذ القرن الخامس عشر الميلادي وحتى منتصف القرن الثامن عشر، بسيادة القومية والجغرافية، ثم مرحلة النشوء، التي رآها تستمر حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر بتبلور مفاهيم العلاقات الدولية ثم مرحلة الانطلاق وأوصلها الى عشرينيات القرن العشرين بظهور المفاهيم الكونية، ثم مرحلة الصراع من اجل الهيمنة حتى منتصف الستينات، حيث ظهرت الامم المتحدة، ثم مرحلة الاتصال وادماج العالم الثالث، والتعدد الثقافي، وبالتالي تصور اوج العولمة في الثمانينات والتسعينات[٢]. وهذا التصور كما نعتقد مصطنع وفرضي ولا واقع له، لأن الرأسمالية لم تنطلق بنظرة عالمية مطلقاً، وانما كان تركيزها على الغرب والدول الغربية بشكل جغرافي لا غير، ولكن الظروف التي حصلت في اواخر القرن العشرين دعت

١- ن. م ، ص٢٤٧ ـ ٢٥٠.

٢- نقلا عن سيد ياسين ، مجلة المستقبل العربي، عدد ٢٢٨، فبراير ١٩٨٨م.

لطرح مفهوم العولمة كما يبدو للباحث. فإن تنامي القدرة الغربية وامتلاكها المعلوماتية الضخمة وقدرة الاعلام النافذ الى كل انحاء العالم من جهة، وكذلك تعاظم القدرة الاسلامية وانتشار النظرة الشمولية الاسلامية، التي شكلت في نظر الغرب خطراً على كل الحضارة الغربية من جهة ثانية، وانهيار الاتحاد السوفيتي كقدرة منافسة، كل هذه الأمور فسحت المجال لطرح نظرية العولمة على هذا المستوى الواسع.

القسم الرابع: تعريف العولمة

لا ريب ان تعريف العولمة غامض والتعاريف المقدمة متناقضة ومتنوعة، والحقيقة إن الإنسان يدرك من خلال معرفة نوع التفسيرات والتعاريف؛ إن العولمة هي محاولة نفي الحضارات غير الغربية، وتحميل الرأسمالية، ومحاولة فرض الأمركة والهيمنة على العالم. ونذكر في هذا الصدد ثلاث محاولات:

١ـ تعريف اللجنة الدولية عام ١٩٩٥م وهو يفسرها بالتداخل بين أمور الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك عبر رفض الحدود والانتماء الوطني والاجراءات الحكومية.[١]

٢ـ بعض التعاريف العربية للعولمة بأنها حقيقة التحول الرأسمالي في ظل هيمنة الدول المركزية وسيادة نظام عالمي غير متكافئ، وهناك تعريفات اقتصادية او ادبية او تعاريف باعتبار اللوازم (للجابري) و(التيزيني) وغيرهما.[٢]

٣ـ تعريف (روزناو) الاميركي ويطرح تساؤلات: هل تنطلق العولمة من التجانس، او تعميق الفوارق؟ وهل لها مصادر واحدة او متفرقة؟ وهل لها ثقافة واحدة او متعددة؟ وبالتالي يعتبر ان هناك ثلاثة عناصر دخيلة في العولمة، هي ازالة الحدود وابراز تشابه المجتمعات الكبرى وفرض طريقة حياتها على الآخرين[٣]، ومن هنا

١- مجلة النهج، عدد ٥٠، ربيع ١٩٨٨.

٢- مجلة الواحة، عدد ١٦، ص ١٥٣.

٣- جيمس روزناو ، ديناميكية المعرفة.

نستطيع ان نقول: أن العولمة في الواقع هي محاولة امركة العلاقات السياسية والحقوقية والاجتماعية، عالمياً، وفرض ثقافة الهيمنة الغربية على الآخرين فهي من أخطر الأفكار الشيطانية. وقد استفاد الغرب من قدرته التكنولوجية والعلمية والثقافية والعسكرية لطرح هذه الفكرة، كما قام بعض الفلاسفة والكتاب بالتمهيد النظري لها، وكلنا يعرف نظرية (هانتنكتن) التي تركز على الحضارة الغربية وتعتبرها تتميز بالتسامح والانسانية والتعددية، في حين تصف الحضارات غير الغربية بالاستبداد والانغلاق على الماضي، والفشل في حل المشكلات الانسانية، كالفقر والبطالة ومستوى المعيشة، وكثرة الانجاب والديكتاتورية. وهي تقترح على الغرب أن لا يتعاون مع غيره، ولا يصدّر التكنولوجيا، ويوحد نفسه اقتصادياً وسياسياً وادارياً، وترى ان الحضارة الغربية تعتمد على الأرث اليوناني والمسيحية الغربية والعلمانية، وسيادة القانون والتعددية الاجتماعية والمجتمع المدني وحقوق الانسان، وهي أمور تميزت بها الحضارة الغربية ولا تتحقق في حضارات اخرى. ويأتي (فوكوياما) ليجعل النظام الرأسمالي غاية التاريخ، ويرى ان المجتمعات كلها يجب ان تتجه نحو الرأسمالية، ويجب توفير الشروط السياسية والاجتماعية، وأهمها تطوير البنية الاجتماعية نحو المساواة واللاطبقية واللاطائفية، وايجاد تفسيرات دينية مرتبطة بهذا التطور، وكذلك قيام المجتمع النامي لايجاد المؤسسات الوسيطة بين الأفراد والدولة، كما يجب عدم المبالغة بالتمييز القومي مما يدعو للعزلة الحضارية، ويدعو الى تفسيرات مستنيرة للنصوص الدينية، وينتقد كل الحركات المتطرفة، ويدعو لتوجه الصفوة لدعم القيم الديمقراطية والحريات؛ فهو اذن يجعل المجتمع الرأسمالي الغاية التي يجب ان تسير اليها كل الحضارات.[١] كذلك نجد (بيدهام برايان) المفكر الانكليزي في سلسلة المقالات التي نشرها في مجلة الايكونومست خلال عام ١٩٩٤ يؤكد ان هناك تشابهاً بين الوضع الاسلامي في القرن الخامس عشر الهجري ووضع اوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي، ويرى ان كلا

الوضعين متشابهان في توفر الارضية المناسبة للاصلاحات، وفي نوع المؤسسات الدينية لدى المسلمين ومؤسسات الكنيسة في القرن ١٥ م وفي المستوى البائس لديهم، وفي الشوق لتحسن الاوضاع، ويرى ان هناك عاملاً خارجياً يحرك هذه الحالة ويدعمها، ففي الوقت الذي شكل فيه (المسلمون) العامل الخارجي لتطوير اوروبا في حينها، يشكل الغرب اليوم عامل دفع للعالم الاسلامي نحو التطور والتقدم ويرى ان التحرك يبدأ من الاسلاميين المتحررين الذين يؤمنون بالديمقراطية، ولابد من التحرك بقوة لدعم هؤلاء، وفي ختام مقالاته يوجه الى العالم الاسلامي توصيات ثلاث لكي يتأهل للتعامل مع الغرب والدخول في ركب الحضارة الانسانية السائدة هي:

١ـ الانسجام مع الاقتصاد الحديث.

٢ـ القبول بفكرة المساواة بين الرجل والمرأة.

٣ـ العمل على تمثل القواعد الديمقراطية وتطبيقها في نظم الحكم.[1]

هذا وقد شملت عملية التمهيد لنظرية العولمة والأمركة المجالات المعلوماتية كما في مجال الانترنيت والفضائيات، كما شملت عملية السيطرة على المنظمات الدولية، فإن استجابت لهذا الهدف وإلاّ تمّ تجاوزها وراح التخطيط لفرض السياسة الأميركية على العالم. وقد استغلت اميركا حوادث ١١ سبتمبر لتطرح نفسها القوة الاولى في العالم، والمسيطرة على كل مقدراته السياسية كما جاء التخطيط للسيطرة على الثقافات والقيم، والتدخل في التشريعات الاجتماعية، كما رأينا في مؤتمرات الاسرة في القاهرة وكوبنهاغن، ومكسيكو سيتي، وبكين وغيرها؛ حيث تم التدخل في الأمور التشريعية الاجتماعية تحت شعار حماية حقوق الانسان.[2]

القسم الخامس: الآثار السلبية للعولمة

لقد توضحت للعالم جميعاً الآثار السلبية التي تركتها هذه الفكرة المخربة، ولذلك

١- راجع، مجلة المنهاج، عدد ٢٢، السنة السادسة، ص ٢٤٨، مقال للمؤلف حول هذا الموضوع.

٢- راجع: كتاب مؤتمر السكان والتنمية في القاهرة وتداعياته، للمؤلف.

وصفت العولمة بكثير من الأوصاف منها العولمة المتوحشة او العولمة المجنونة او العولمة الفخ، او وصفت بأنها أما أن تأكل او تؤكل، وقد ذكرت الدراسات المتنوعة هذه الآثار السلبية التي نشير الى بعضها:

١ـ سيطرة القوى الكبرى على حركة الاقتصاد العالمي والمصادر الانتاجية والتبادل المالي والتجارة، حتى قيل ان هناك ٥٠٠ شركة تسيطر على ٧٠٪ من حجم التجارة العالمية، وان هناك ٢٠٪ فقط يعيشون في اكتفاء ذاتي في حين يقبع ٨٠٪ في عالم التبرعات. وان ما تكسبه الولايات المتحدة من حركة تحرير التجارة لايقل في المتوسط عن ٢٠٠ مليار دولار سنوياً منذ انشاء منظمة التجارة العالمية وحتى عام ٢٠٠٥ بينما تقدر خسائر الدول الافريقية بحوالى ٢٠٩ مليار سنوياً.[١]

٢ـ سيطرة اميركا على وسائط نقل المعرفة.

٣ـ كسر هيبة الدول الصغيرة، وقدرتها على النمو.

٤ـ التدخل في التقنين الداخلي لباقي الشعوب كما رأينا في مؤتمرات الأسرة وغيرها.

٥ـ الغزو الثقافي لكل المناطق، ومحاولة استئصال الثقافات الأخرى. فهي تدعو الى تطبيقات عصر ما بعد الحداثة والغاء دور الدين وقد نادى الفيلسوف دجاك دريدا الى حل المؤسسات الدينية والتعليمية.[٢]

وهانحن نجد الغرب يسوق بعض مفاهيمه على انها مفاهيم مسلمة وعلى العالم ان يلتزم بها من قبيل (الديمقراطية) و (الحرية الفردية) و (الحرية الجنسية) بل راح اخيرا يجعل (العلمانية) مبدأ انسانيا لايمكن تركه، وهكذا يمكن الحديث عن النماذج الاقتصادية الغربية في الاستهلاك من زاوية ثقافية وكذلك من الممكن الاشارة للغزو

١- الاستاذ المنياوي، نقلا عن تقرير المجلس القومي للانتاج والشؤون الاقتصادية (المصري)، والذي عرض في ٢٠٠٢:٣:١٧.

٢- الدكتور عبدالعزيز حموده ، الثقافة، اختيار للثقافة القومية، الاهرام ٢٠٠٢:٧:٥، ص١٣.

الثقافي الواسع الابعاد والعمل على محو الهويات الوطنية وايجاد هويات مجازية ومصطنعة بواسطة وسائل الاعلام الواسعة التأثير.

٦ـ التقليل من شأن المحافل الدولية، واستغلالها لصالح هيمنة القوى الكبرى، كاستغلال صندوق النقد الدولي والبنك الدولي وغيرها من المنظمات لتنفيذ السياسات المصلحية وقد رأينا قبل أيام ان رئيس دولة غربية يعلن ان الناتو والقوى الغربية وجّهوا اكبر ضربة للنظام العالمي لاستغلالهم المحافل الدولية.[١]

٧- تلويث البيئة نتيجة الجشع الذي ابتليت به القوى الكبرى.

٨ – وهناك عمل رهيب على تغيير الخارطة السياسية في بعض المناطق (من قبيل منطقة الخليج ومنطقة شمال افريقيا، وروسية وتايوان) وربما لايجاد سايكس بيكو جديدة.

وهناك آثار سلبية كثيرة اخرى للعولمة نعرض عنها فعلاً.

الموانع بوجه مخططات العولمة الاميركية (المتفردة)

ونحن نجزم بان اميركا التي تقف وراء حركة العولمة هذه، لن تستطيع ان تحقق مآربها رغم ما تملكه من امكانات. فهناك موانع كثيرة امامها ومنها:

١ – وقوف دول كبرى وتكتلات عالمية مختلفة المصالح بوجهها.

٢ – وقوف الشعوب بوجه المخططات الرامية الى مسخ الهوية بل وربما الاحتلال المبطن.

٣ – حصول الازمات العالمية على مختلف الصعد وخصوصا الاقتصادية كازمة الطاقة التي قد تشعل النظام العالمي كله.

١- وتتابع الأدلة يوماً بعد يوم على هذا الاستغلال فإذا لم تحقق لهم مصالحهم تركوها وهذا ما شاهدناه من موقف أميركا من معاهدة (كيوتو) التي تمنع تلويث البيئة لانهم اكتشفوا انها تقلل من انتاجهم من الفحم الحجري، والنفط الثقيل، والطاقة النووية وذلك بعد ان كانت قد وقعت عليها ومن المحكمة الجنائية الدولية أخيراً، بعد ان ساهمت هي في انشائها ولكنها عملت على اعفاء جنودها من اجراءات المحاكمة. وكذلك عملت على الخروج من اتفاقية (Ctbt) لمنع التجارب الذرية واوقفت العمل التنفيذي في مجال تحريم الاسلحة الكيمياوية.

٤ – عدم امكانها الاستمرار في عملية تحدي نظام العلاقات الدولية وتخطي المؤسسات العالمية مما يحرك العالم ضدها.

٥ – تنامي الوعي العالمي لهذه المخططات بنفسه يؤدي لارتفاع وتيرة المقاومة ومن هنا يمكن ان تتحول الوسائل الحديثة التي تستغلها العولمة الى ادوات تنمي عنصر الوعي بمخططاتها.

٦ – الوعي الديني المتنامي للشعوب فهو يشكل المانع الاكبر بوجه المخططات التي تعمل على محوه.

القسم السادس: بين العالمية الاسلامية والعولمة الغربية

وقبل ان نطرح تصورنا لما يجب ان تفعله الامة، نحاول ان نلخص الفروق بين عالميتنا وعولمتهم فيما يلي:

ان العالمية الاسلامية تمتاز بانها:

* عالمية اقناعية لاتفرض على الشعوب ايديولوجيتها ولاتحاول سلبها ثقافاتها ونمط حياتها. وانما تعمل على التعايش والتفاهم معها وهذا ما تثبته النصوص الاسلامية وتؤكده الوقائع التاريخية المنسجمة مع النصوص فلا اكراه عقائدي ولامسخ ثقافي ولا محو عنصري.

* وهي لاتعمل على سلب حقوق الآخرين ونهب ثرواتهم.

* وهي لاتعمل على اشاعة مفاهيم مصلحية كتعميق مفاهيم الاستهلاك بل توازن في اتجاهاتها بين الانتاج البشري والحاجة العامة نافية اي كفر بنعم الله واي ظلم في التوزيع مستهدفة قبل كل شيء سعادة الانسان وكرامته رافضة الاسراف انتاجا او توزيعا.

* كما انها لاتتحرى ما يوجب الاضرار بالافراد او الجماعات او المجتمعات بل تعمل على اعطاء كل ذي حق حقه موفرة الامن بكل انواعه للجميع.

* وهي لاتحاول فرض هيمنة شعب او طبقة او فرد على الآخرين ، وتتصدى لكل انواع الديكتاتورية والتعالي وتعتبره مظهرا للطاغوت معتبرةً ان الصراع ضد الطاغوت هو احد هدفي الانبياء الى جانب تعبيد الارض لله.

* وهي تعمل على نشر القيم الانسانية والاخلاق الحميدة كهدف لاتحيد عنه.

* وتعمل بواقعية اصيلة على ان تتجلى باقي المظاهر الانسانية في السلوك الفردي والاجتماعي والدولي.

* ومن هذه العناصر الفطرية العدالة التي يعمل الدين لتحقيقها في كل المجالات ويحذف كل ما يتنافى معها مهما كان.

* كما تعمل هذه العالمية على احترام الآخر واشاعة منطق الحوار قبل اي عمل (ليحيى من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة) وهو ايضا من مقتضيات الفطرة الانسانية.

* ومن المبادىء التي تعمل على اشاعتها التعاون والتعارف والاستخلاف الالهي والتكافل الاجتماعي.

* وتقوم الانسان ومركزه بمعايير الالتزام والعمل الانساني.

* وتوازن بين الحريات الفردية والمنافع الاجتماعية وبالتالي فهي تبني كل المسائل الاجتماعية على فلسفة واقعية تنطلق منها وتلتزم بمقتضياتها الى ما هنالك من خصائص لايسع المجال لاستقصائها.

اما العولمة الغربية فنكاد نقطع بانها تقف على النقيض مما سبق.

فهي تتصف - كما رأينا - بالاكراه الثقافي، والنهب اما بشكل همجي مجنون او بشكل عصري حداثي، كما انها تعمل على تعميم المنطق الحيواني للاستهلاك، وتتدخل في كل شؤون المجتمعات حتى الاجتماعية والمدنية منها وتستهدف الهيمنة بشتى انواعها، ثم انها لاتعرف اي معنى للقيم الاخلاقية بل هي تسخر الاخلاق لتحقيق مآربها السياسية - كما رأينا في بيان المفكرين الاميركيين اخيرا - فلامجال للامور المعنوية في

قاموسها بل هي تعمل على محاربتها بما تمتلك من وسائل ومنها الوسائل الاعلامية الاباحية، كما ان العدالة عندها نسبية تتناسب مع مصالحها الضيقة، وبالتالي تطرح بوحشية لامثيل لها منطق الصراع بدلا عن الحوار، اما معيار العدالة والتقويم فليس الا القوة والمصلحة الضيقة ولذا تستسيغ الكيل بمكيالين باعتبار الآخرين لايملكون استحقاق التعامل الانساني - وفقا لنظرية هوبز في تقسيم المجتمعات على اساس الحداثة - وقد وجدت اليوم اتباعا اكثر من المفكرين الغربيين وخصوصا في انجلترا واميركا.

واخيرا فقد قلنا ان العولمة الغربية تستغل الظروف المواتية لها دون ان تستند الى فلسفة واقعية تبرر لها هجمتها المتوحشة.

القسم السابع :موقف الأمة والخطوات العملية التي يجب ان تتخذها اتجاه العولمة

وقبل بيان هذه الخطوات نؤكد بأن الرفض الانفعالي لن يؤدي الى نتيجة، وانما يجب التأمل واتخاذ الخطوات العملية المدروسة للوقوف بوجه هذا الغزو العالمي الكبير، فيجب علينا في هذا المجال:

أن نقوم بوضع استراتيجية عملية وواضحة وشاملة، ويتعاون الجميع على وضعها أولاً، وعلى تنفيذها ثانياً، كما يجب علينا ان نقوم بفضح النظريات التي مهدت لمثل هذه النظرة التخريبية.

وبالنسبة للاستراتيجية نطرح بعض الخطوات التي نراها مهمة في هذا المجال:

عالمياً:

١ـ يجب علينا أن نعري الجانب الايديولوجي للهيمنة الاميركية والمقصود الحقيقي من مقولات هذا الجانب (القرية الصغيرة، حرية السوق، حرية التدخل وفتح الحدود وأمثال ذلك).

٢ـ يجب علينا حذف هيمنة السوق على الجانب السياسي.

٣ـ يجب تعميق قيم الانسان الفطرية مع عرض نظرية الفطرة الاسلامية.

٤ـ يجب توسيع لغة الحوار بين الأديان.

٥ـ يجب التأكيد على الهويات الاقليمية وهويات الشعوب وتوعية الشعوب للاحتفاظ بهوياتها وثقافاتها.

٦ـ يجب الارتقاء بالقدرة العلمية والتنموية للشعوب.

٧ـ يجب العمل على اعطاء الحريات والحقوق الاصيلة للشعوب.

٨ـ يجب تقوية المؤسسات الدولية وتعميق استقلالها.

٩ـ يجب تعميق الثروة الثقافية المتنوعة.

وفي الاطار الاسلامي يجب علينا بالاضافة لما سبق:

١ـ أن نعمق الحوار بين المذاهب اتجاها لتكوين الوحدة في الموقف الاسلامي.

٢ـ يجب العمل على تقوية المؤسسات الشمولية الاسلامية وتفعيلها في الجانب السياسي والاقتصادي والثقافي.

٣ـ يجب ان نطور دراساتنا الاقليمية والعالمية ونحقق الانفتاح على التاريخ.

٤ـ علينا ان نقوي كل عوامل الصمود والتعاون والوحدة، كمسألة اللغة العربية وتعميقها.

٥ـ علينا ان نجمع بين الأصالة، والمعاصرة في الدراسات الدينية ونروج للاجتهاد الجماعي، وغير ذلك مما يؤدي للوقوف أمام هذا الهجوم العالمي الكبير.

٦ – علينا ان ندعم قضية الصحوة الاسلامية.

واخيراً فان علينا ان لاننسى ان عولمة كبرى موازية قد امتدت ايجابيا وهي الاتجاه العالمي لنمو المعنويات وروح التدين لدى الشعوب والتفاهم بين القادة الدينيين وخصوصاً في العالم الاسلامي حيث الفهم الشمولي للاسلام فهماً يجعله امل هذه الامة في احتلال موقعها الحضاري المطلوب.

واننا لنعتقد ان مظاهر هذا الاتجاه العالمي تتجذر يوماً بعد يوم حيث نشهد مثلاً:

أ – اتجاه الجماهير في العالم الاسلامي نحو الدين بشغف ومطالبة العلماء بالتدخل المباشر في الحياة العامة وابداء الرأي في القضايا الملحة.

ب - تحكيم دور الكنيسة السياسي والاجتماعي في العالم المسيحي وخصوصاً في الدول التي تشكلت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي حرر قوة البوذية المعنوية في صياغة القرارات الاجتماعية في جنوب آسيا.

د - ازدياد الاقبال على النظريات والمؤلفات الدينية.

هـ - اتجاه الامم المتحدة الاخير نحو القادة الدينيين كما في مؤتمري نيويورك وبانكوك.

و - اتساع نطاق الحوار الديني بين الاديان المختلفة فيجب ان يقوم رجال هذه الاديان بواجبهم في دعم المسيرة المعنوية الصاعدة.

القسم الثامن: القيم الإنسانية المشتركة ودورها في تعزيز التضامن بين الشعوب والامم

تمهيد:

كيفما عرفنا الحضارة فانه يجب ان نقر بان الصفة الإنسانية -بمعنى: امتلاك الاتجاه العام لخدمة الإنسان وتطوير إمكاناته الذاتية والعرضية - هي أهم مقوماتها بلا ريب.

ولا يمكن ان يتسم أي مذهب أو تخطيط أو حتى مجرد سلوك بالسمة الحضارية الا اذا اتسم بالصفة الإنسانية.

والصفة الإنسانية، عبر ادراكات الوجدان ، وبلا حاجة الى استدلال، تلازم الايمان بمجموعة من القيم المطلقة والمشتركة ، فلا يمكن ان نفترض النسبية في كل شيء ثم نفترض وجود خصائص انسانية فان ذلك يستبطن نوعاً من التناقض :

مفاده: الاعتراف - من جهة - بأن الإنسان له هويته المتفردة جزئياً - إن لم يكن التفرد كلياً - ورفض أي تمايز انساني أو قيمة ثابتة فيه من جهة اخرى.

فما هي هذه السمة الثابتة المميزة؟

إن الجواب الوجداني (ونؤكد على وجدانيته لأن ذلك يغنينا عن الاستدلال) هو: الفطرة الإنسانية.

والمقصود بالفطرة هو أن الإنسان مخلوق الهي اودعت الحكمة الإلهية في وجوده

وطينته الاصلية مجموعة من القضايا البديهية والقدرات العقلية والميول والغرائز التي تضمن له سيراً طبيعياً نحو تكامله المرسوم له.

وقد قلنا – من قبل – كل الحضارات والمذاهب والاديان إنّما جاءت لتثير له دفائن العقول – كما يعبر الإمام علي(ع) – وتهيئ الجو المناسب لبروز هذه الطاقات الكامنة على سطح حياته فتهديه سبيلاً يختلف كل الاختلاف عن السلوك الذي تسلكه الحيوانات العجماء التي لا تتمتع بما يتمتع به من طاقات.

اما القضايا البديهية فهي التي تمنحه القدرة على المعرفة: معرفة نفسه ومعرفة الكون والواقع، وفلسفة الوجود والعلاقات القائمة بين الأشياء وتلك من قبيل: الايمان بمبدأ العلية، والايمان بمبدأ استحالة التناقض (الجمع بين النقيضين، وارتفاع النقيضين) و(بعض القضايا الأخرى) فهذه قضايا مغروزة في القناعة والوجدان الإنساني لا يحتاج للاستدلال عليها وإلا دخل في طريق مسدود لأنّ الاستدلال نفسه يتوقف عليها كما هو واضح.

أما القدرات العقلية فهي نفس قدرة النفس الإنسانية على التأمل والتفكير وتجريد القضايا من ملابساتها والصعود من مرحلة الجزئيات إلى مرحلة الكليات، والقيام بقياس الأشياء للوصول إلى تصورات جديدة والتخطيط الذهني لمراحل غير موجودة على صعيد الواقع القائم. ان هذه القدرة الذهنية هي من مختصات الإنسان وهي سرّ مسيرته التكاملية وابداعه ونموّه.

واما الميول الغريزية فهي التي تقوده نحو كماله وتدفعه للاستفادة من طاقاته في هذا المجال:

ومن هذه الميول: ميله نحو الكمال، والسير نحو الكمال المطلق، ومحاولة سد جوانب العجز في وجوده، والركون إلى هذا المطلق القادر وأداء حقه وشكر نعمه والقيام بحق طاعته – فهذه امور يجدها الإنسان مغروزة في الطينة الإنسانية وان اختلف تجلياتها وتعددت أساليبها وربما غطت الشبهات على هذه الميول وكبتتها.

ومنها أيضاً غريزة حب الذات والعمل على تحقيق طموحاتها فهي من الغرائز

الاصلية في الإنسان والتي لا يمكن تجاوزها والقضاء عليها، كما تصورت الماركسية يوماً ما أنها ظاهرة فوقية يمكن حذفها من الوجود الإنساني من خلال تحريم الملكية.

ومنها التذوق الفني: والابتهاج لعناصر الجمال التي يزخر بها هذا الكون.

وعلى هذا فالذي يبدو لنا بكل وضوح ايضاً ان مسألة الايمان بنظرية الفطرة الإنسانية يفسح المجال للحديث عن جملة مفاهيم من قبيل مفاهيم (الحقوق) و(التكاليف) و(العدالة) و(الإنسانية) و(الاخلاق) و(الذوق الفني العام) و(القيم المشتركة) و(الحضارة) و(الحوار) و(الدين) و(المعرفة) و(التصديق) و(المنطق) بل وحتى (البرهان والاستدلال) و(العلم) لانهما يعتمدان على عنصر ثابت بدونه لا تسلم لهما حدود ومعالم.

وبدون الايمان بهذه النظرية يبقى الإنسان حبيس نفسه ولا يتصل إلا بصوره الذهنية - كما يعبر جورج باركلي - بل يمكن القول بانه لا يستطيع الايمان بذاته هو وهذا منتهى الخواء.

وبدونها فكل حديث عما مضى انما هو حديث بلا معنى كما نتصور. وهذه حقيقة كبرى تصطدم بها الاتجاهات المادية بقوة، ومن هنا جاءت النصوص الإسلامية لتؤكد على (الفطرة) وان الدين في الحقيقة ينسجم مع (الفطرة) لانها واقع أصيل والدين مشروع واقعي لاصلاح الإنسان يقول تعالى:

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾ [1] .وهذه الآية الكريمة تقرر كما يقول الامام الشهيد الصدر(قدس سره) في كتابه «اقتصادنا» (ص ٣١٢):

أولاً: إن الدين (بكل مافيه من حقوق وتكاليف ومنظورات للعدالة) هو من شؤون الفطرة الإنسانية التي فطر الناس عليها جميعاً لا تبديل لخلق الله.

ثانياً: إن هذا الدين الذي فطرت الإنسانية عليه ليس هو إلا الدين الحنيف الخالص

---

١ - الروم: ٣٠ .

اما اديان الشرك والايمان بالالهة الوهمية النسبية فهي لا يمكن ان تحلّ المشاكل الإنسانية.

يقول سيدنا يوسف لصاحب السجن: **﴿ما تعبدون من دونه الا اسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾**[1] .

وثالثاً: ان الدين الحنيف الذي فطرت عليه الإنسانية يتميز بكونه ديناً قيماً على الحياة قادراً على التحكم فيها وصياغتها في إطارها العام.

ذلك ان المسألة الاجتماعية المهمة في تاريخ الإنسان هي التعارض الذي ينشأ بين المصالح الفردية (وهي تؤدي لان يتصور الإنسان لنفسه حقوقاً في الحصول عليها بمقتضى حب ذاته و(المصالح الاجتماعية) التي يطرحها النظام الاجتماعي الذي يعيشه ويفرض عليه (تكاليف) تجاهها باسم (العدالة) وهذا التناقض بين المصالح الفردية والاجتماعية لم يستطع العلم ان يحلّه، فان علم الإنسان لن يقف مطلقاً امام ترجيح مصالحه الشخصية.

ولم تستطع المادية التاريخية من خلال قوانينها التاريخية أن تقدم الحلّ ويبقى للدين الحل النهائي لهذا التعارض وتحقيق العدالة وذلك من خلال ربطه بين المصالح الذاتية وسبل الخير إذ يقول القرآن الكريم: **﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة، يرزقون فيها بغير حساب﴾**[2] ويقول: **﴿من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها﴾**[3] .

وهكذا تتلاحم المصلحة الفردية والمصلحة الاجتماعية و(الحقوق) و(التكاليف) تلاحماً رائعاً ينفي التعارض.

وهنا يؤكد المرحوم الشهيد الصدر (قدس سره):

«فللفطرة الإنسانية إذن جانبان، فهي من ناحية تملي على الإنسان دوافعه الذاتية

---

١ - يوسف: ٤٠ .

٢ - غافر: ٤٠ .

٣ - فصلت: ٤٦ .

التي تنبع منها المشكلة الاجتماعية الكبرى في حياة الإنسان (مشكلة التناقض بين تلك الدوافع والمصالح الحقيقية للمجتمع الإنساني) وهي من ناحية اخرى تزود الإنسان بإمكانية حل المشكلة عن طريق الميل الطبيعي إلى التديّن»[1] .

ونضيف الى ماسبق ان الإنسان بفطرته يطمح الى (التغيير) أي تغيير الواقع الذي يعيشه الى الافضل باستمرار. فهذا من نوازعه الفطرية التي قد تخمد لديه أحياناً ولكنها لن تنمحي من صفحة الذات وهو مجهز بإمكانات التعالي على الواقع والخلاص من ضغوطه وتصور الحالة الأفضل تصوراً إجمالياً - وربما كان تفصيلياً - ثم العمل على تغيير الواقع الى الصورة المفروضة. وهي حالة لا يتمتع بها اي حيوان آخر. ومن هنا تنشأ عملية التغيير وتطبع الحياة الإنسانية بطابعها الحضاري دون غير الإنسان من الموجودات.

وهكذا يمكن ان نقرر ان العملية الحضارية تحتاج في كل مراحلها الى الايمان بالقيم الثابتة وعلى النحو التالي:

اولاً : في مرحلة ايمان الإنسان بذاته.

ثانياً: في مرحلة العبور الى خارج الذات.

ثالثاً: في مرحلة صياغة الفكر وتكوين الصورة عن الحاضر والمستقبل انطلاقاً نحو التغيير الى الافضل .

رابعاً: في مرحلة نقل الفكرة الى الآخرين واستلام افكارهم .

خامساً: في مرحلة السبر والتقسيم والتمحيص والتداول.

سادساً: في مرحلة الاستنتاج والاقتناع .

سابعاً: في مرحلة التخطيط للتغيير.

وأخيراً : في مرحلة تنفيذ التغيير وتحقيقه.

وخلاصة الأمر:

---

١ - اقتصادنا، ص ٣١٠ - ٣١٢، طبعة مشهد.

ان هناك تلازماً تاماً بين المسيرة الحضارية الإنسانية التغييرية وعملية الحوار والايمان بالقيم المشتركة والمطلقة.

القيم المشتركة مطلقة واقتضائية:

اننا وبالتحليل النفسي الوجداني الذي اعتمدناه في مسيرتنا هذه ندرك وجود منظومتين من القيم احداهما مطلقة التأثير لا تحدها حدود او ظروف معينة والاخرى هي قيم الحالة الطبيعية او (قيم الاصل) مما يعني تحولها الى النقيض او فقدانها التأثير المطلوب اذا طرأت ظروف اخرى.

ومن امثلة المجموعة الاولى:

قيمة العدالة فهي مطلوبة مهما كانت الظروف.

وكذلك تقديم الشكر للمنعم المتفضل.

ومن أمثلة المنظومة الثانية:

حفظ الذات، حفظ الكرامة، التعاون، الدفاع عن المستضعفين و السلام والامن، التغيير الى الافضل، الرحمة، الايثار، الامانة.

فقد يكون الصدق في بعض الأماكن نتيجة ما يؤول إليه من تبعات ظلماً لا عدالة، وكذلك السلام احياناً بما يؤدي إليه من جرأة على حرمات الإنسانية. فإذا كانت العدالة قيمة مطلقة فان السلام قيمة نسبية نعمل على تحقيقها إذا عادت وجهاً من وجوه العدالة، ونرفضها ان كانت ظلماً، ولكن التساؤل الأساس هو: ماهي معايير العدالة؟ وكيف نتأكد من تحقيقها.

إن الأديان السماوية كلها تؤكد على معيارين:

الأول: معيار تعبدي نستفيد فيه من علم العالم المطلق وهو الله تعالى وهو تعليمات الدين الثابتة، والتي نتأكد من كونها صادرة من الله سبحانه ذلك اننا نتأكد قبل ذلك من علم الله الشامل، ومن لطفه ورحمته بالإنسان المخلوق ومن عدالته وتمتعه بكل صفات

الكمال، فهو لا يريد بالإنسان الا الخير ولا يخدع الإنسان وانما يكشف له كل الواقع ويريد له كل الخير.

الثاني: معيار وجداني يكفي فيه التأمل في الاعماق وقناعاتها أو فلنعبر بأنه يكفي فيه الرجوع إلى الفطرة نفسها.

وما يساعدنا في اكتشاف العمق الفطري هو كون هذه القناعة -أيّة قناعة كانت- من ملازمات الطبيعة الإنسانية، ولذلك نجدها متوفرةً لدى كل ابناء الإنسان في مختلف ظروفهم وحالاتهم الفردية والاجتماعية وازمنتهم وامكنتهم.

ولكي نتأكد من هذا المعنى نستطيع ان نطرح هذا السؤال على اي إنسان (هل تعتبر ان السلوك الفلاني سلوكاً انسانياً أم سلوكاً حيوانياً) فمثلاً لنركز على (قتل اليتامى والعجزة والمستضعفين للتلهي والتشهي) مثل هذا السلوك يعد سلوكاً وحشياً من قبل اي إنسان بلا ريب والقرآن الكريم احياناً يعيد الإنسان إلى تأمله الوجداني وقناعته الفطرية حينما يقول: ﴿أحلّ لكم الطيبات﴾[1] ويترك أمر تعيين الطيبات له، ويقول ﴿إنّما حرّم ربّي الفواحش﴾[2] ويترك أمر تعيين الفواحش له أيضاً ويعتبر الخروج عن الحالة الإنسانية (فسقاً) وانحرافاً عن الطبيعة (نسوا الله فانساهم انفسهم اولئك هم الفاسقون)[3].

وهكذا ننتهي إلى هذه الحقيقة وهي:

ان الأديان تؤمن بالفطرة الإنسانية، وان الفطرة تقرر كون العدالة مطلوباً مطلقاً وكون السلام مطلوباً اذا شكل مصداقاً من مصاديق العدالة وتجلياً لها ومن هنا كان التأكيد الدائم على (السلام العادل) تأكيداً انسانياً صحيحاً.

---

١ – المائدة: ٥ .

٢ – الحشر: ١٩ .

٣ – الأعراف: ٣٣.

السلام العالمي والموقف منه :

قلنا لا ريب في كون الامان مطلباً انسانياً فطرياً يستمد جذوره من أهم غريزة وجدت في فطرة الإنسان، وهي غريزة (حب الذات). وهذه الغريزة تعمل مع باقي الغرائز بشكل متناسق لتحقيق سير إنساني متوازن نحو الأهداف التكاملية العليا للانسان .. فلا يكفي وجود الدوافع الغريزية لتأمين المسير المتوازن وإنما يجب تأمين جو طبيعي للذات الفردية وللذات النوعية كي تدفعها تلك الدوافع نحو أغراضها المنشودة.

وتأكيداً من الفطرة نفسها على توفير الجوّ الآمن، نجد العناية الإلهية قد غرست فيها بديهيات الحكمة، والميول نحو العدل، والنفور من الظلم والاعتداء، بل ومنحتها القدرة على تعيين الكثير من مصاديق العدل والظلم، مما يمهد لها السبيل للاتصال بالخالق العظيم وتقديم معاني الولاء له، وحينئذ تنفتح لها آفاق الوحي، وتكتشف بذلك الأطروحة السماوية الرحيمة التي تعطيها المخطط الكامل للمسيرة، وتضمن لها كل ما يوصلها إلى أهدافها.

فالامن إذن حاجة انسانية دائمة لا تغيّرها الظروف، وليس ظاهرة عرضية حتى يقال، بأنها معلولة لوضع اجتماعي معين إذا ما تبدل تبدلت هذه الظاهرة معه. ومن هنا أيضاً يكون من الطبيعي أن نتصور الحاجة إلى نظام شامل يتكفل حماية الأمن الفردي والاجتماعي على مدى مسيرة الإنسان الطويلة.

ولا يمكننا أن نتصور حدوداً لمسألة حماية السلام والأمن إلا في إطار مسألة التكامل الإنساني ذاتها، بعد أن ندرك أن الفطرة هي معيار الحقوق الإنسانية كلها بشكل اجمالي. وأنها هي التي فرضت حماية الامن الإنساني لتحقيق الهدف الكبير. وحينئذ لن يقبل الامن تحديداً الا اذا خرج عن وظيفته الحياتية، وعاد عنصراً ضد الامن نفسه، فلا معنى إذن لضمانه.

وإلاّ فكيف نتصور الفطرة التي أعلنت الحاجة إلى الامن وهي تسمح للفرد بالقضاء

على أمن نفسه هو، أو أمن الآخرين، وبالتالي على أمن المسيرة الإنسانية كلها دون أن تحدده بما يردعه عن فعلته، حتى ولو كان ذلك بتهديد أمنه؟

الحوار بين الديانات واسع الابعاد

بعد ما سبق نستطيع بكل وضوح أن نقرر امكان الحوار بشكل واسع الابعاد بين الاديان وذلك:

١ـ لأنها جميعاً تؤمن بنظرية الفطرة الإنسانية وتوابعها .

٢- لأنها جميعاً تؤمن بقيم مشتركة كثيرة حتى ليلمح الإنسان تطابقاً تاماً في اصول القواعد. وربما ذكر بعض المؤلفين المسلمين القدامى مجمل تعليمات المسيح واعتبرها تعليمات اسلامية[1].

وقد قام محققان فاضلان مسيحيان باعداد بحث جيد عن القيم والقواعد المشتركة للاحكام القانونية انتهيا فيه الى نتائج جيدة فهما يقولان:

(تكفي محاولة اقامة جسور حول السؤال الذي يطرحه الناس نساءً ورجالاً، عندما يريدون ان يعيشوا بمقتضى ايمانهم: «ما هي مشيئة الله؟ ماذا يتوجب علي ان افعل؟ يبدو لنا ان الديانات الابراهيمية الثلاث تسير في جوابها في اتجاه واحد»[2] .

وهما يقرران في النهاية: وحدة الناس في الله .

٣- ان الاديان كلها تدعو الى الحوار المنطقي ولما كانت الاديان هي روح الحضارات فان الحوار بينها يفسح المجال لحوار حضاري اصيل ممتد الى مختلف المساحات الحياتية، ويوجه الحوار الحضاري نحو مسارات اكثر انسانية.

---

١ - لاحظ مثلاً، ماذكره الشيخ ابن شعبه الحراني، (وهو من علماء القرن الرابع الهجري)، في كتابه المشهور (تحف العقول)، اذ ذكر الكثير من الحكم والمواعظ الحياتية، عن عيسى(ع).

٢ - الاستاذ عادل خوري، والاستاذ فانوني، كما جاء في تقرير الندوة الايرانية النمساوية المشتركة، المنعقد في فينا، عام ١٩٩٩م ، ص٢٦٠.

الحوار بين الحضارات ودور القيم فيه

بعد ملاحظة ماسبق يمكننا القول ان السير الطبيعي للبشرية يقتضي ان يسود منطق الحوار بين الحضارات. باعتبار ان الحضارات تحمل بشكل واضح بصمات الفطرة - اعترفت بها بشكل فلسفي او رفضتها[١] . ولذا ففيها جوانب مشتركة تفسح المجال للحوار لا محالة.

كما اننا ذكرنا من قبل ان الاديان تشكل جوهر الحضارات - حتى ولو انكرت الحضارات ذلك - وبالتالي تبقى التأثيرات الدينية واضحة المعالم واخيراً نجد المجالات المشتركة بين الاديان تفسح المجال لحوارات مشتركة بين الحضارات.

هذا بالإضافة الى حقيقة امتدت مع البشرية وتعاظمت مساقطها باستمرار وهي هذا الترابط المصلحي بين عمار الارض وساكنيها على مختلف الاصعدة.

وهو ترابط عبرت عنه طموحات الأديان العالمية، والفاتحين الكبار بشتى التعابير منذ اقدم العصور، واشتد على مر الايام حتى عدنا اليوم نشبه العالم بقرية صغيرة. والعالم هذا لم يصغر ولكن وعينا لترابطه وشدة الالتحام بين اجزائه هو الذي اوصلنا الى هذه النتيجة.

فلم يعد بمقدور اي بلد او دولة ان تخطط لبيئتها ولطاقاتها وقوانينها الجوية والبحرية ومواصلاتها ومخابراتها بل وتعليمها وتربيتها وثقافتها ونهضتها واقتصادها ودفاعها، بمفردها بعيداً عن ملاحظة مايجري في العالم.

ومن هنا نعتبر ان الاتجاه نحو العالمية اتجاه طبيعي لا معنى لمقاومته، بل يجب تشجيعه ودعمه. واذا كنا نقف بوجه (العولمة) ونعتبرها تحدياً خطيراً فانما ذلك لان هذا النمط يعني تفسيراً خاصاً لهذا الاتجاه يصب في مصلحة القوة العظمى او فلنقل يعني

---

١ - ولتوضيح ذلك يلاحظ: ان كل فلسفات التشكيك، في الحقائق المطلقة، في مجال الفكر، او السلوك، كالماركسية والفرويدية، والدوركهايمية والكانتية، وفلسفة باركلي، وغيرها، هذه كلها تحمل نوعاً من الجزم والقطع، لا محالة، وإلا لشكت في نفسها ايضاً، وهي لا تفعل ذلك.

سيطرتها على مقود المسيرة وتحويلها لصالح امة بعينها مهما كان الأمر، وأمركة للعلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية وغيرها بمختلف الوسائل وشتى السبل القمعية. ولذلك وصفت بالعولمة المتوحشة والمجنونة و(ان تأكل او تؤكل) وامثال ذلك.

وعلى أي فان الحوار هو مقتضى الترابط ووحدة المصير الإنساني ولا بديل له الا الصراع وهو منطق الغابة لا الإنسان بلاريب.

فيجب اذن تأكيد انسانيته وتعميقها بتأصيل القيم الإنسانية فيه.

ويمكننا الحديث عن هذه القيم في ما ياتي كنماذج فقط والا فمجال هذه القيم واسع جداً .

نماذج من القيم المشتركة التي يجب أن تسود

١ـ قيم الحوار المنطقية.

وهي قيمٌ انسانية ثابتة. لا تتغير باختلاف الظروف فيجب ان يكون الحوار قائماً على مفروضات متفق عليها بين الطرفين وإلا لم يعد منتجاً.

ويجب أن يدخله الطرفان بروح طلب الحقيقة ، وأن تكون اطراف الحوار بمستوى دراسة الموضوع ويجب ان يتوضح محور الحوار بشكل تام كما يجب أن يكون امراً عملياً لا طوبائياً.

ويجب أن تسوده روح احترام الآخر، كما يجب ان يتخلص من رواسب الماضي أيضاً.

ويجب أن يتم في جو حر بعيد عن الضغط والعنف والتحايل والضوضاء والتهويل.

وغير ذلك من مقتضيات الحوار السليم.

واستطيع بكل اطمنئنان ان اقول إن القرآن الكريم اشار الى كل هذه القيم الحوارية الثابتة في اصالتها.

٢- قيم العدالة ومعاييرها ومساحاتها.

فمهما اختلفت الآراء وتنوعت المذاهب فانه تبقى هناك مساحات لا يختلف عليها اثنان. وهل يختلف أحدٌ على ضرورة إعطاء الحق لأهله، وأن سلب الشعوب حقوقها في الارض والمصير ظلم، وان التنمية والاستثمار الصحيح للموارد أمر حميد وغير ذلك.

فيجب اذن اكتشاف هذه المساحات والسعي لتعميمها وتعميم الالتزام بها.

٣- الاتفاق على الحقوق الأساسية للانسان، والسعي لتوسعة هذا الاتفاق ليشمل الحقوق التفصيلية الأخرى، وهو امر غير صعب اذا حسنت النوايا لان البحث بحث في عمق الوجدان الإنساني وفي قيم تدرك بالفطرة الصافية.

٤- الاتفاق على حدود الحرية الإنسانية ومحاولة ترجمتها الى معالم واضحة وتطبيقات عملية.

٥- الانطلاق من القيم الإنسانية لتحديد الايديولوجيات الهدامة: كالارهاب والعنصرية والاستبداد والتفرقة العنصرية والاستعمار وغير ذلك.

٦- وضع مبادئ سلامة البيئة وتعميمها .

٧- الاتفاق على مبادئ الفن الرفيع بما يخدم البشرية ويستجلي كوامنها.

٨- الاتفاق على القيم الاجتماعية ومقومات المجتمع السليم الخالي من الشذوذ والتسيب.

٩- الاتفاق على نوع التخطيط للصراع ضد التحديات المتفق على رفضها من قبيل: الأمراض والفقر والجهل والأمية. والتخطيط لتقليل آثار الكوارث الطبيعية كالزلازل والسيول والحرائق وغيرها .

١٠- تنظيم الحقوق الدولية المشتركة في مجال الملاحة والمواصلات والمعلومات وامثال ذلك.

١١- بناء المؤسسات الدولية العاملة بمقاييس متعادلة واحدة بعيداً عن الازدواجية والتفرقة.

١٢- الوصول الى آليات عملية لتعزيز التضامن وتعميم المسؤولية الإنسانية تجاه عملية السلام ونشر العدالة.

معاً لتعميم منطق الحوار

وفي ختام حديثنا المختصر هذا لابد أن ندعو بقوة لتعميم منطق الحوار بعد أن آمنا بانه أمر تقتضيه الحكمة والفطرة والعقل السليم، في قبال مقتضيات العاطفة الجامحة والعصبية المقيتة والانحباس في بوتقة الماضي.

وفي هذا الصدد ندعو لتكوين أمة من المفكرين من كل الاطراف القائمة في الواقع العملي تعمل على تهيئة الظروف لهذا التعميم، وتضع الخطة اللازمة لذلك، وأرى ان نسميها بـ (الوسطية العالمية)، اسوة بما ندعو إليه ونسميه داخل الهوية الاسلامية بـ(الوسطية الاسلامية). وذلك انطلاقاً من ايماننا بان هذه الوسطية لها مفهوم شمولي يعم تصورنا عن الوجود (باعتباره متوازنا)، وموقف الإنسان منه موقفاً متوازناً، كما يشمل تصورنا عن التاريخ والعوامل المؤثرة فيه، فضلاً عن كونه تعبيراً عن طبيعة الاسلام وموقفنا منه ايضاً.

ومن هذا المنطلق (الوسطي) نرى ان تعتمد الخطة العالمية الدعوات التالية:

١ـ الدعوة الى التفرقة الجادة بين الثنائيات الحدية المتناقضة أو المتضادة بحكم العقل القطعي من قبيل ثنائيات (الوجود والعدم) و(التوحيد والشرك) و(الاطلاق والنسبية) وأمثالها، وبين الثنائيات اللاحدية او المصطنعة من قبيل (انا الخير والآخر الشر) (اما محاربة الارهاب او الكون معه) (اما ان تكون ماركسياً او فانت لا تفهم الماركسية). (انا التوحيد وما عداي الشرك) (انا التمدن وما عداي التوحش) (مبادئي هي منتهى التاريخ وما عداها هي التي يجب ان تزول) (اما انا او الهمجية) وأمثالها، فان النمط الاول مما يمكن الاتفاق عليه وان شكك في ذلك الماركسيون . أما النمط الثاني فهو من قبيل الاصنام الفكرية التي تتم عبر عملية (تصعيد) ذهنية او نفسية او تاريخية او عصبية فيتحول (النسبي) فيها الى (مطلق) وبالتالي يقيد كل عمليات التفكير ويمنع كل

احتمالات التطور. نعم يجب الاذعان للقيم الإنسانية المشتركة التي اشرنا اليها ودل عليها الوجدان.

٢- العمل على إشاعة روح الانفتاح الواعي على الحاضر ، وعدم الانحباس الأعمى في الماضي أو حتى في النظريات التي تم القبول بها مع احتمال وجود ثغرات فكرية فيها.

٣- السعي لتعميم ما قلناه من قبل من ان كل الحضارات لابد ان تستقي من الفطرة بعض مكوناتها أو على الاقل نبقي احتمال استقائها وارداً وحينئذ تنفتح أمامنا كوى الحوار.

٤- الاتجاه نحو تعميق مفهوم التطور الفكري والابداع الجديد وعدم التأثر بمفهوم (ليس في الأمكان أبدع مما كان) وابقاء روح اكتشاف الحقائق حية دافعة متدفقة.

٥- السعي نحو تعميم الاحساس الإنساني المشترك بالاخطار التي تهدد البشرية جمعاء ولا تفرق بين حضارة وحضارة، وقومية واخرى، ومنطقة وثانية كالمرض والجهل ونقص المعنويات وتلويث البيئة وتفكك العائلة وسيادة منطق العدوان وغيرها.

٦- الدعوة الى تغليب التعقل على عنصر التطرف فهو امر يعمي البصيرة ويمنع من التفكير بهدوء مهما كانت الايديولوجية .

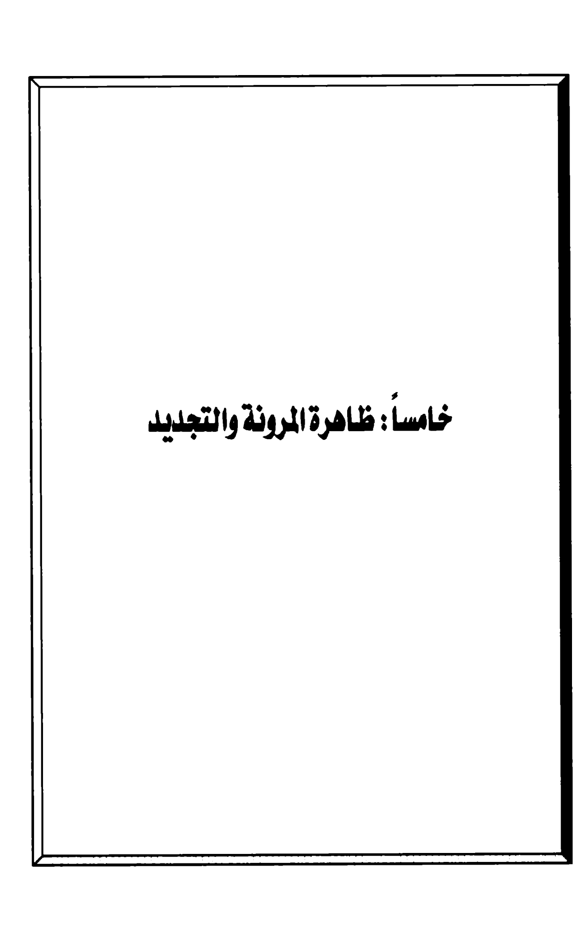
٧- السعي للتوصل الى حل متوازن بين الاتجاه العالمي وبين احتفاظ الشعوب والامم بخواصها الثقافية وغيرها. وهذه الجادة الوسطى هي التي تضمن نجاح الاتجاه العالمي من جهة لكيلا يصطدم بالعقبات الجادة، كما يحفظ للبشرية والامم ثرواتها المتنوعة على مختلف الصعد. فنحقق بذلك مبدأ فلسفياً يقول بـ (الكثرة في عين الوحدة).

٨- ضرورة تثقيف الجميع بان مصالح الامم هي جزء من ماتؤكد عليه قيمها. وحينئذ لن يقوم هناك تناقض بين القيم والمصالح وتتهيأ فرص واسعة للحوار.

٩- تعميق الروح الموضوعية الإنسانية لمحو الروح الاستعلائية العنصرية من جهة وعدم التأكيد على القيم الحضارية الخاصة واعتبارها قمة الانتاج الحضاري واعتبار ماعداها تخلفاً . نعم يجب الايمان بالقيم الإنسانية المشتركة.

وقبل أن ننهي حديثنا نؤكد أن بوادر الأمل بالمستقبل الواعد - من وجهة نظرنا - كثيرة:

فهذا القبول العالمي بحوار الحضارات في الامم المتحدة، وهذه اللقاءات المتتابعة منذ الثلاثينات في القرن الماضي وعلى مختلف المستويات ، وهذا الانفتاح من قبل المرجعيات الدينية المتنوعة على الحوار، وهذا الاتجاه الواسع نحو المعنويات، وهذه المعلوماتية المنتشرة والتي تكشف الحقائق امام الجميع، كل هذا وغيره يعدنا بمستقبل مثالي رغم ما نواجهه من تحديات العولمة المصلحية، والنظريات الاستعلائية، والظلم الفاحش ضد الشعوب، والاحتلال والارهاب الفردي والرسمي، والتعامل المزدوج. ذلك اننا نؤمن ونرى أن قوى الخير تنتصر على عوامل الشر وفقاً لسنن الله في الحياة.



خامساً: ظاهرة المرونة والتجديد

صحفه سفيد

نستهدف في هذا البحث جلاء قابلية الإسلام الخارقة على الانسجام مع الفطرة، وبالتالي قابليته على البقاء والخلود، بقاء الفطرة وخلودها.

ويشمل الأمور التالية:

أ ـ عنصر المرونة الإسلامية في التشريع.

ب ـ عنصر المرونة الإسلامية في التطبيق والتبليغ.

جـ ـ الانزال التدريجي للقرآن وفوائده.

وقبل كل شيء نود أن نشير إلى حقيقة مهمة.

فإن المرونة لا تتصور في الجانب العقائدي فإنها لا تعني التنازل المبدئي مطلقاً كما انها لا تعني الميوعة التنظيمية، فإن كلاً منها، يتنافى مع عقائدية المبدأ المرن وواقعيته العملية، ذلك أن العقائدية والواقعية – خصوصاً إذا تصورنا حقيقتهما وانسجامهما الكامل مع حركة الكون والتاريخ والإنسان بتركيبته الفطرية الأصيلة – توجبان ثبات الأسس العقائدية والمفاهيم التصورية عن الواقع من جهة، وثبات النظم والبناء العلوي الذي يقوم على أساس من ذلك التصور الرصين، الأمر الذي لا يدع مجالاً لما أسميناه بالتنازل المبدئي أو الميوعة التنظيمية.

فماذا تعني المرونة إذن؟ أنها تعني:

أولاً: على الصعيد العقائدي تكتيكاً وتدرجاً واقعياً في إعلان المعتقد يلحظ ضغوط الواقع ولكنه يستهدف تعميق التصور الأصيل، وانتظار اللحظة المناسبة لارتفاع الضغط وإعلان العقيدة وهو بالضبط ما يقصد بالتقية.

ثانياً: على الصعيد التشريعي قدرة النظام على استيعاب التحولات الزمانية والمكانية والتعقيدات الاجتماعية كلها، ووضع العلاج الواقع لها في إطار الأطروحة العامة للتنظيم.

فالعقيدة – بما هي صفة نفسية – لا تتغير تحت ضغط الواقع، الذي يعلم الإنسان بأنه منحرف والعقيدة بما هي الأساس والخط العام لا يمكن التنازل عنها بل يجب أن تبقى الروح التي تميز كل التصرفات ومن هنا نجد أن القرآن يعرض علينا صوراً لبعض المساومات العقائدية التي حاول فيها الطرف الكافر أن يجبر النبي(ص) على اعتناق بعض مبادئه ولو لبعض الوقت في مقابل مصلحة كبرى للدعوة الإسلامية نفسها، وفي مقابل أن يؤمن الطرف الآخر بالإسلام أيضاً فترة أخرى. إلا أن الوحي يجابه أولئك بالموقف الحدي الصارم، الذي لا تنازل عنده باعتبار أن المصلحة لا يمكنها أن تبرر هذا الموقف.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ، وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [1].

وقد وقف الإسلام من مسألة الشرك هذا الموقف عل طول الخط حتى أنه حرم تشريعياً صناعة الأشياء المجسمة لأن فيها ظلاً من الفكرة الصنمية.

وكذلك نقول في مجال النظام العملي، انه يجب ان يحتفظ بمقوماته الأساسية التي تشخص هويته ويترك مساحات مرنة لاستيعاب المتغيرات ومن هنا فنحن لا نتفق مع الفكرة القائلة بان الاسلام لم يضع أطرا لنظامه السياسي ولم يحدد له اية خطوط عامة مراعاة للمرونة.

الأمر الاول. عنصر المرونة في التشريع:

وتتمثل أهم مظاهر المرونة في الشريعة الاسلامية بما يلي:

---

١ – الكافرون: ١–٦.

١ـ مقاصد الشريعة وقواعدها الفرعية، وهي - كما يقول العلماء - على نوعين: مقاصد عامة، وترتبط بالغايات العامة للشريعة، والتي من شأن أحكامها الكلية تحقيق مصالح الأمة؛ ومقاصد خاصة ترتبط بغايات باب محدد من التشريعات التي تحقق مصلحة معينة من مصالح الناس. والمقاصد الخاصة فيها أيضاً جزئية ترتبط بحكم شرعي معين. وقد اختلف الفقهاء والأصوليون في تحديد أنواع المقاصد العامة للشريعة، ولكنهم اتفقوا على خطوط عامة تدخل في إطار تحكيم العدالة وتحكيم الأخوة وحفظ الدين وحفظ النفس والعرض وحفظ النسل وحفظ المال وحفظ العقل وغيرها. وبما أن قضية المقاصد ترتبط بتحقيق المصالح ودرء المفاسد؛ فإن الخشية من الوقوع في ملابسات الظنون الفردية التي تتجاذب الأفراد، تجعلنا نحيل هذه القضية في المجالات الفردية إلى قطع المجتهد فقط، إما بالنسبة للمجال الاجتماعي أو أمر الأمة فتحال إلى ولي أمر الأمة الشرعي؛ لتكون جزءاً من اختصاصاته في عملية التقنين، وهي بالتالي مساحة مرنة في الشريعة ترتبط باجتهاد ولي الأمر وتشخيصه المصلحة التي تحقق مقصد الشريعة، كما سيأتي.

٢ـ الأحكام الشرعية التي تحدد موضوعاتها الأعراف وأهل الخبرة، وهو ما يمكن أن نعبِّر عنه بتأثير الزمان والمكان في الاجتهاد ونوعية التأثير هذه لها مدخلية في موضوع المرونة؛ لأن تأثير الزمان والمكان في موضوع الحكم الشرعي هو الذي يحدد مضمون الحكم الشرعي وشكله. ومن مظاهر ذلك اختلاف مصاديق المفاهيم من مكان لآخر، كطبيعة الإسراف والغنى والاحترام وإعداد القوة وغيرها. كما أن متطلبات الزمان والمكان قد تتطلب - أحياناً - تعطيل حكم ما أو نظام ما لفترة معينة؛ نتيجة التزاحم بين ضرورة تطبيق الحكم والآثار السيئة التي قد تنجم عن التطبيق في ظل ظروف معينة قاهرة. وإذا كان الحكم يرتبط بعمل الأمة فلابد من إيكال تشخيص التزاحم وتقديم الأهم لولي الأمر ايضاً.

٣ـ فتح باب الاجتهاد في مجال استنباط الأحكام الشرعية، وهي المساحة الأكثر مرونة في الشريعة نفسها، أي أن عملية الاجتهاد عملية بالغة الدقة وبحاجة إلى نوع

متميز من التخصص الذي لا يستطيع أي مكلف بلوغه، بل ولا يستطيع المجتهد نفسه ممارسته برأيه واستحسانه. فالمجتهد إذا لم يعثر على دليل من مصادر التشريع فإنه يرجع إلى الأصول العملية، أي الاصول التي تحدد الموقف العملي عند غياب الدليل الشرعي النصي في إطار منهجية لصيقة بالشريعة. ومثال ذلك المسائل المستحدثة والجوانب التنظيمية الجديدة، سواء على مستوى فقه الأفراد أو فقه المجتمع، ككثير من قضايا العلوم التطبيقية والقضايا الداخلة في الأمور الحسبية، كنظم المرور والتسعير والتعليم، وقضايا الإعلام والاتصالات والفنون والآداب وغيرها.

والحقيقة أن النصوص التي تركتها مصادر التشريع تحديداً (القرآن الكريم والسنة الشريفة) تتناول قضايا الواقع المرتبط بفترة الصدور، وتتناول أيضاً الخطوط العامة للنظم الاسلامية، إضافة إلى بعض الأحكام التي تستمر موضوعاتها مع الزمان والمكان. والحال أن كل يوم يمر على البشرية يحمل معه قضايا وموضوعات جديدة، لا تعجز الشريعة مطلقاً عن تحديد أحكامها، وذلك من خلال نافذة الاجتهاد، هذه المكرمة العلمية التي منحتها الشريعة للأمة (من خلال مجتهديها)، لكي تبقى قادرة على إخضاع واقعها لأحكام الدين الحنيف. وبالطبع فإن موضوع الاجتهاد يشتمل على تحديد دور العقل في عملية الاستنباط، كإدراك المصالح العامة أو إدراك التلازم بين أحكامه وأحكام الشرع.

ومن البديهي أن يرفض الشرع المقدس - خلال ممارسة عملية الاجتهاد - القواعد الظنية التي لم يقم على اعتبارها دليل قطعي، بل يحدد الاجتهاد في إطار القواعد التي قام على اعتبارها دليل قطعي؛ لأن الشارع لا يسمح للفكر البشري المحض أن يضيف من ذاتياته للإسلام. وهذا الأمر دليل على دقة عملية الاجتهاد، وكونها لا تترك للمجتهد اختراع منهجية أو قواعد وأصول غريبة عن جنس الشريعة، أي لا تفتح الباب على مصراعيه للمجتهد بأن يجدد ويصلح ويطور في الشريعة كيفما شاء، هذا فضلاً عن غير المجتهد، فذلك من باب أولى بأن لا يتدخل في هذه الامور التي لا تعد من اختصاصه.

٤ـ تشريع الأحكام (الشرعية) الثانوية في الحالات الطارئـة. فـالحكم الـشرعي - لاعتبارات مختلفة - ينقسم إلى حكم أوّلي وحكم ثانوي وحكم ولائي. وما يهمنا هنا هو الحكم الثانوي، ويمكن أن نعرّفه: بأنه الحكم المجعول للموضوع بلحاظ ما يطرأُ عليه من عناوين خاصة تقتضي تغيير حكمه الأولي. وهذه الحالات الطارئة هي من قبيـل: (الضرر)، (العسر والحرج)، (العجز)، (الإكراه)، (الخوف)، (المرض)، (تزاحم الحكم عنـد تنفيذه مع حكم أهم منه)، (وقوع الحكم مقدمة لحكم آخر)، إضافة إلى تحوّل الأحكام الوجوبية الكفائية إلى تعيينية إذا انحصرت بشخص واحد. ومن هنـا فـالحكم الثـانوي يعبِّر عن مرونة تشريعية؛ لأن المرونة هنا تعني الاستجابة للحالة الـضاغطة بمقـدار مـا تحمله من ضغط. والحالة الضاغطة هنا ليست دائمة، بل إنها استثنائية، فمثلاً في حالـة (الاضطرار) نستدل بالآية الكريمة: (... فمن اضطر غير باغ فلا إثم عليه)[1] وفي بـاب تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها. وكذا في حالة (الحـرج)، فـإن الآيـة الكريـة تقول: (وما جعل عليكم في الدين من حرج)[2] وغيرها. ولابد أن نؤكد هنـا علـى أن الأحكام الثانوية تختلف عـن الأحكـام الولائيـة (أحكـام ولي الأمـر)، لأن الأحكـام الثانوية هي أحكام شرعية وضعت للعناوين الطارئة، وتنحصر عناوينها فيمـا ذكـر في القرآن الكريم والسنة الشريفة، فهي ترتكز عليها، بينما ترتكز الأحكام الولائيـة علـى المصلحة العامة ومتطلبات الوضع العام للمجتمـع، ويـصدرها ولي الأمـر مـن منطلـق صلاحياته، وهو الذي يحددها، بينما يستطيع الفرد تحديد الأحكـام الثانويـة في اطـار الضوابط والشروط المنصوص عليها.

٥ـ المساحة التي ينفذ فيها حكم ولي الأمر، أو ما يصطلح عليه فقهياً بـ (الأحكـام الولائية) أو (الحكومية) أو (السلطانية)، وهي مساحة من الأحكام خاصة بـولي الأمـر الشرعي، أي الذي تولى أمر المسلمين في أطار ضوابط الـشريعة، ومنـها قابليتـه علـى استثمار هذه المساحة من الأحكام الشرعية، وهي القابلية الـتي تـرادف القابليـة علـى

١- البقرة: ١٧٣.

٢- الحج: ٧٨.

الاستنباط. بالاضافة الى قدراته الإدارية وتشاوره مع الإخصائيين وملاحظته للأضوية الكاشفة التي هيأها الشارع المقدس له ونعرف الحكم الولائي بأنه: الاعتبار الصادر من الحاكم الشرعي بمقتضى صلاحيته الشرعية، والمتعلق بأفعال العباد، وهو يشتمل على الأحكام التكليفية والوضعية. وهذه الأحكام لا تطلق لكل مجتهد، فذلك ما يؤدي إلى تعدد الإرادات الاجتهادية، وبالتالي تفتت وحدة الأمة وتدمير كيانها، وهو ما يتناقض مع مقاصد الشريعة وروحها وغايتها، بل إنها تنحصر في الولي الذي حددت الشريعة مباني ولايته، أي الولي الحاكم.

ومن هنا فالأحكام الولائية تختلف عن الأحكام الأولية والثانوية التي يحددها جميع الفقهاء، شريطة أن لا يكون فيها تقاطع مع الأحكام الولائية، كما أنها محددة بموضوعات معينة هي مساحة المباحات في الشريعة، وتشمل أساليب تطبيق الشريعة الإسلامية، كأساليب تطبيق النظام المالي والاقتصادي، أو اساليب تطبيق مبدأ الشورى. وتدخل الاحكام القضائية في هذا الباب. وباختصار فإن ولي الأمر يصدر الأحكام الولائية في إطار الكليات الشرعية ومقاصد الشريعة، وليس له في هذا المجال -كما يقول الإمام الخميني- أن يستبد بالأمر، بل عليه أن يستشير ذوي الخبرة والاختصاص، ثم ينتهي إلى الحكم الشرعي في ضوء:

١ـ مصلحة الأمة، وهنا تسمح الشريعة لولي الأمر بالنظر في المصالح وتحديدها عبر استشارة المتخصصين.

٢ـ الأضوية الكاشفة -كما يعبّر عنها الإمام محمد باقر الصدر-، وهي التي أعطته إياها الشريعة ليسلطها على الواقع ويشخص الحكم المطلوب، ومن هذه الأضوية الأحكام الولائية التي أصدرها الرسول العظيم بصفته ولياً للأمر، وهذا باب واسع لا نستطيع تفصيله هنا.

٣ـ الأولويات، وهي التي يواجه بها المساحة التي تتزاحم فيها الأحكام فيقدم الأهم على المهم، أو في إطار الاحتياط لقضية معينة، فيصدر حكماً يستبق فيه وقوعها أو مضاعفاتها، كما هو الحال في مجال سد الذرائع التي يظن أنها تؤدي إلى المفسدة، أما

الذرائع القطعية الأداء فهي محرمة بالعنوان الثانوي الذي يشخصه المكلف نفسه ولا تحتاج لحكم ولي الأمر في المجالات الفردية.

وهنا لابد أن أوضح نقطة التقاء مهمة بين المدرستين الفقهيتين الكبريين: مدرسة أهل البيت(ع) ومدرسة أهل السنّة، وتتمثل في سماح مدرسة أهل البيت(ع) لولي الأمر باستخدام قواعد المصالح المرسلة وسد الذرائع وغيرها، وهي القواعد التي لا يسمح الفقه الإمامي باستخدامها في عملية الاجتهاد بالنسبة لمجمل الفقهاء. فعلى مستوى التطبيق فان الجمهورية الإسلامية الإيرانية وضعت أعلى مجلس استشاري في الدولة هو (مجمع تشخيص المصلحة)، أي اكتشاف مصلحة الأمة وتحديدها، ثم تقديم القرار لولي الأمر بعد دراسة دقيقة، ثم يقوم ولي الأمر بإصدار الحكم الشرعي المناسب. ونرى أن هذا المجمع يبت في الخلاف - على مستوى التقنين - بين مجلس الشورى ومجلس حماية الدستور، إذ يتخذ القرار بتحديد القانون المناسب الذي ينظر فيه لمصلحة الأمة والدولة.

منافذ الفكر البشري إلى المساحة المشروعة

لا شك أن هناك مساحات في الفكر الاسلامي لها علاقة بالفهم البشري ومدارك الانسان وطبيعة نظرته للواقع ورؤيته لمنهجية النتاج الفكري، وهي المساحات التي يمكن أن نعدها بشرية، وهذه المساحات تقتصر على المتغيرات، أي المساحات المتغيرة في الفكر الاسلامي، ولا تتمدد إلى الثوابت؛ لأن هذه الثوابت مقدسة وهي الدين بعينه. ويمكن تحديد منافذ الفكر البشري إلى الفكر الاسلامي في المجالات التالية:

١ـ فهم مقاصد الشريعة، العامة والخاصة أو الجزئية، فهذا الفهم متغير من مفكر لآخر، وهنا قد تختلف النتائج التي يخرج بها المفكرون والفقهاء بالنسبة لواقعة واحدة، مما يشير إلى بشرية هذه المساحة. وبالطبع يتأثر هذا الفهم بعوامل متغيرة بشرية ايضاً، كامتلاك ثقافة الواقع والعصر، وعمق النظرة وبعدها وشموليتها وغيرها.

٢ـ فهم المصاديق، أي تطبيق الكليات على جزئياتها وتطبيق المفاهيم على

مصاديقها. وهكذا تتدخل ذهنية الفقيه والمفكر في نوعية التطبيق وفي اكتشاف المصاديق والجزئيات. وتدخل في هذا الإطار ايضاً محاولات المجتهد للتخريج الفقهي للعقود الجديدة، كالتأمين مثلاً. وهذا الفهم والتخريج يخضع لعنوان بشرية الفكر.

٣ـ سير عملية الاستدلال لدى المجتهدين وترتيب أدلتهم.

٤ـ تحديد موارد الأحكام الثانوية، والظروف والمتغيرات التي ينطلق منها في تجاوز الحكم الأولي إلى الحكم الثانوي، وهي مساحة دقيقة ومحدودة، ولكنها - في كل الأحوال - تتدخل فيها طبيعة استيعاب المجتهد وتشخيصه للموضوع، وبالتالي فهي مساحة متغيرة.

٥ـ تحديد ولي الأمر لمصلحة الامة في قضية من القضايا، ونوعية تسليطه الأضوية الكاشفة على الموضوعات والأحكام، ونظرته لتحديد الأهم والمهم في الأحكام أو في موارد الاحتياط، وهذه المساحات خاضعة هي الاخرى لطريقة تفكير ولي الأمر واستيعابه للواقع ودقته في تصريف الامور وفي اختيار الرأي الصائب بعد استثمار مبدأ الشورى.

وفي مجمل المساحات المذكورة تدخل عملية التأصيل والأسلمة والتجديد والاكتشاف والتي تهدف بأجمعها إلى اختيار الاسلوب الأمثل لتطبيق النظم الإسلامية التي تتضمنها الشريعة، وهو ما يمكن أن نسميه بالتقنين أو التشريع - مجازاً - وهي مساحات تتسع للفكر البشري ليتحرك فيها بحرية عملية ترشدها الضوابط الشرعية ومقاصد الشريعة العامة.

ونشير هنا إلى أن عملية التقنين لا تحوّل الحكم الشرعي إلى قانون بشري، وإن كان للفكر البشري دور في صياغته وتشكيله، بل إن عملية التقنين تتمثل في اكتشاف الحكم الشرعي لموضوع معين أو تحديد الاسلوب الشرعي لتطبيق هذا الحكم، واذا تدخّل الفكر البشري في صياغة الاسلوب أي تحويل الحكم الشرعي إلى قانون - وفقاً للمفهوم الوضعي للقانون - فلا يعني هذا أن القانون قد ألغى الشريعة وأنه أنزلها من السماء إلى الارض. وبالتالي فهي تكييف منضبط لحكم شرعي.

بعد هذا لنلاحظ بعض تطبيقات عنصر المرونة الاسلامية على النحو التالي:

الامر الثاني - عنصر المرونة الإسلامية في التطبيق والتبليغ:

يمكننا أن نكتشف المرونة في التبليغ والدعوة إذا عرفنا أن القاعدة الأولى في العمل التبليغي تتضمن هذا العنصر بكل وضوح وتلك هي الآية الشريفة:

﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [1] ولا يمكننا أن نفسر الحكمة إلا باتخاذ أصوب موقف مناسب للظرف الذي يراد التبليغ فيه، بشرطين: أحدهما ضمني، والآخر مذكور في الآية الكريمة، وهما: أتباع الطرق الشرعية وعدم الانحراف. .

ولذا يمكن القول بأنه ليس هنا أسلوب محدد لا يمكن أن يحيد الإنسان عنه في إطار ذينك الأمرين في مجال العمل في سبيل الله ونشر الإسلام.

وقد أكد علم الأصول على أن فعل الرسول(ص) لا يكتشف منه غير الإباحة للعمل أو الاستحباب على الأكثر ما لم تقم قرينة تجعله يدل على الوجوب. إلا أن تلك السيرة المباركة – مهما كانت دلالتها – تبقى هي الهدى النير في كل حقل ومجال، ومن هنا فسوف نركز عليها في بحثنا هذا قبل أي شيء آخر.

مظاهر التدرج والمرونة في هذا السبيل:

ويمكن أن نعين أهم هذه المظاهر في النقاط التالية:

أـ التدرج في إعطاء الأحكام وتطبيقها.

ب – التدرج في توسيع رقعة الدعوة.

ج – التدرج في الموقف من أعداء الدعوة.

أما النقطة الأولى: فملخص القول فيها، إن الإسلام بمقتضى مرونته النابعة من واقعيته أدرك أنه جاء ديناً يقلب الحياة الجاهلية رأساً على عقب، ويغير تصورات

---

١ - النحل : ١٢٥.

الناس وأخلاقهم ويوجه كل سلوكاتهم التوجيه الأكمل، وكما أن الإنسان مرتبط بعقيدته كذلك هو مرتبط بعادته السلوكية. بل يمكننا أن نؤكد أن ضعف المستوى العقائدي عند أمة يمكنه أن يتأثر بشكل قوي بالسلوك والعادات والأعراف العامة والخاصة. ومما يؤكد ذلك أن المجتمع الجاهلي استطاع التنازل عن عقيدته ولكنه لم يستطع التخلص تماماً من عاداته وسننه القبلية. ومن هنا فإن من الصعب جداً أن يحاول مصلح تغيير كل ذلك بقانون واحد، كما فعلت بعض الدول اليوم حين أرادت أن تقتلع من المجتمع عادة أضرت به وفتكت بقواه، فأصدرت قانوناً يحرم الخمر وجهّزت لتنفيذ القانون جيشاً ضخماً من الوسائل الرادعة ولكنها فشلت في نهاية الأمر، لعاملين:

الأول: إنها لم تغير النفسية والشخصية.

الثانية: إنها واجهت المجتمع المعتاد وأرادت أن تغير عادته بلحظة.

نعم، أدرك الإسلام هذا المعنى فاتخذ الأسلوب التربوي واستعمله في مجال إعطاء الأحكام السماوية، فكان يبدأ أولاً بصياغة العقيدة الواضحة والشخصية المتعبدة ثم يهيء الأرضية الاجتماعية لصدور الحكم، وهكذا يتدرج حتى يعطي الحكم النهائي في الموضوع. وها نحن نضرب مثلاً في هذا المجال، بقضية تحريم الربا، وقبل الدخول في عرض هذا المثال ينبغي التنبيه إلى أمرين:

الأول: إن النسخ في القرآن لا يمكن أن يتصور قيامه إلا على هذا الأساس.

الثاني: إن القرآن المكي غالباً ما كان يقوم بعامل تهيئة المراحل الأولى لعملية التدرج، فبالإضافة إلى تركيزه العقائدي وتأكيده على خلق الشخصية المتعبدة كان يشير إشارات عابرة إلى الأحكام التي يراد بعد ذلك أن يلتزم المجتمع بتفاصيلها.

وهذا ما يلاحظ في مثل الآيات التالية:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا.فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا.قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. قَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [1].

---

١ – الشمس:٧–١٠.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (١) ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (٢).

فهي تركز على تهيئة النفسية التي تتطلب الصلاة وتتقبل ما يفرضه الإسلام عليها من أحكام الزكاة، وهي مما يزكي النفس... ومن ثم تأتي الآيات المدنية غالباً لتبين تفصيلات للتشريع وعلى مستواها من التدريج، حتى تصل إلى القالب النهائي المقصود من أول الأمر.

تحريم الربا

وقد ذكرت لهذا التحريم مراحل أربع وهي – وإن لم نستطع إثبات تسلسلها الزمني مباشرة – متسلسلة منطقياً على الأقل مما يوحي بالتسلسل الزمني.

المرحلة الأولى: مرحلة الوعظ الأخلاقي، وبيان أن المرابي سوف لن يحظى برتبة رابية عند الله.

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (٣).

المرحلة الثانية: إيجاد أرضية التحريم بالحديث عن اليهود وصفاتهم الرذيلة التي منها ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ (٤).

وهذا يوجد حالة انتظار لعملية التحريم.

المرحلة الثالثة: تحريم الربا المضاعف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٥).

---

١ – الأعلى: ١٤–١٥.

٢ – المدثر: ١–٥.

٣ – الروم: ٣٩.

٤ – النساء: ١٦١.

٥ – آل عمران: ١٣٠.

المرحلة الرابعة: التحريم النهائي الشامل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ [1].

وهذا التدرج لم يقتصر على الربا فقط بل اتخذ أسلوباً عاماً في تطبيق الأحكام كما حصل في تحريم الخمر وتشريع الإرث وتحويل القبلة ومعالجة قضية الرق وغيرها من الأحكام، أعرضنا عن بيانها لنبتعد عن الإطالة.

النقطة الثانية من نقاط التدرج هي الترتيب في توسيع رقعة الدعوة:

وملخصه: إن الإسلام بلا ريب كان هو الدين الذي بعث إلى العالم جميعاً، وإن هذا الهدف كان واضحاً لدى الرسول الأكرم (ص) تماماً.. بل إن الإسلام خاتم الأديان بمقتضى عالميته واستيعابه لكل الأجيال العرضية والطولية؛ وقد أكدت بعض الآيات الأولى للدعوة على هذا المعنى، كما في الآية الشريفة: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ، وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[2].

إلا أنه لما كانت الدعوة تحاول الانطلاق من نقطة الصفر فقد كان التوسيع في نطاق المدعوين يتم وفق طاقات الدعوة، وعلى مراحل.

المرحلة الأولى – مرحلة الدعوة الفردية السرية:

يقول هيكل في كتابه حياة محمد(ص): «وكان المسلمون الأولون يستخفون لعلمهم بما تضمر قريش من عداوة لكل خارج على أوثانها، فكانوا إذا أردو الصلاة انطلقوا إلى شعاب مكة وصلوا فيها، وظلوا على ذلك ثلاث سنوات ازداد الإسلام فيها انتشاراً بين أهل مكة، ونزل على محمد(ص) من الوحي ما زاد المسلمين إيماناً وتثبيتاً وقد اقتصر في هذه الرحلة على دعوة الأفراد فردا فرداً».

---

١ – البقرة: ٢٧٨–٢٧٩.

٢ – القلم: ٥١ – ٥٢.

المرحلة الثانية – رحلة إنذار العشيرة علناً ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١).

المرحلة الثالثة – مرحلة إنذار مكة ومن حولها

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (٢).

المرحلة الرابعة – مرحلة إنذار العرب

﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ (٣) ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤).

المرحلة الخامسة – مرحلة إنذار الناس جميعاً

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (٥). ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٦). وهنا بعث (ص) رسائله إلى الملوك.

النقطة الثالثة: من نقاط التدرج، الموقف من أعداء الإسلام:

وهو مورد آخر من موارد حكمة الإسلام وأسلوبه المدرك للظروف، ونحن نوجز الحديث فنصور الموقف في أساليبه التي قد تتغاير زمناً وقد يتعاصر بعضها وتختلف ظروفها.

١ـ أسلوب الدعوة السرية:

إذ مع قوة الطرف المقابل المعادي لا يجد الإسلام بداً من التخفي وعدم اطلاع الآخرين على نوعية سيره وهكذا كان الأمر، ودامت هذه المرحلة ثلاث سنوات كما مر.

---

١ – الشعراء: ٢١٤.
٢ – الأنعام: ٩٢.
٣ – مريم: ٩٧.
٤ – القصص: ٤٦.
٥ –الأعراف: ١٥٨.
٦ – الأنبياء: ١٠٧.

٢- أسلوب المجادلة العلنية:

فبعد أن أمر النبي(ص) بأن يعلن دعوته، كان من الطبيعي أن يثور جدل عنيف وتبدأ الحزازات والعناد. ومن هنا فقد أمر المسلمون –كتوجيه عام غير مخصوص بزمان – بأن يجادلوا بالتي هي أحسن. فجاءت الآيات التالية: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [1].

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [2].

ونجد كتطبيق لذلك: النماذج التالية:

١ـ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [3].

فالآية – أولاً تحاول تحريك فطرة المخالفين وتنبيهها إلى الرزاق، ثم تحاول التشكيك في موقفهم فيبدو المؤمن وهو المعتقد بأحقية ما يعتقده مردداً فيقول للمخالف: إن الأمر لا يعدو أن يكون أحد منهما على الحق أما هو أو مخالفه. وهذه الروح الموضوعية تساعد على دفع العناد.

٢- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [4].

وهذا الأسلوب هو أسلوب إعادة الجماهير إلى وعيها. وتخليصها من العقل الجمعي المسيطر عليها بدعوتها إلى التفرق والتفكير مثنى وفرادى.

٣- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [5].

---

١ – النحل: ١٢٥.

٢ – فصلت: ٣٤.

٣ –.سبأ: ٢٤

٤ – سبأ: ٤٦.

٥ – آل عمران: ٦٤.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

ويلاحظ فيهما التأكيد على نقاط الالتقاء قبل بيان مواطن الاختلاف. ويمكننا أن نجد في أسلوب دعوة الأنبياء لقومهم ومجادلتهم له خير مرشد للمسلمين في مجادلتهم، وهذه هي إحدى فوائد قصص القرآن وما أكثر تلكم الفوائد. ومن تلك الآيات ما ورد في الأنعام، الآيات ٧٥-٧٩، والآيات ٥١ – ٦٧ من سورة الأنبياء، والآيات ٤٣ – ٤٤ من سورة طه، وغيرها.

٣- أسلوب الموقف السلبي:

وهذا الموقف يقوم على أسس واقعية أصيلة، سواء كان في مجال العقيدة أو العمل أو العواطف، ويشتد هذا الموقف صرامة في حالات عناد الطرف الآخر أو عمله على سلوك طرق المساومة أو إثارته الماكرة للروابط العاطفية إلى غير ذلك، وهذه المقاطعة قد أدت دوراً كبيراً في إعطاء المسلمين شخصية مستقلة، وشلّت تأثير الكفار في إغواء بعض الأفراد واستغلال الروابط العاطفية في ذلك. أما المقاطعة الفكرية فتركزها الآية الكريمة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ،وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٢). فليس هنالك أي نقطة التقاء في العقيدة ولا معنى للمساومة العقائدية. ولا يعني الالتقاء إلا تنازل الإسلام عن عقائده، وأما المقاطعة العملية – أي عدم الركون والتعامل العملي مع الظالمين – فالآية القرآنية الأخرى تشير إلى ذلك: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (٣).

وأخيراً، فالمقاطعة العاطفية لأجل أن تبتني عواطف المسلم على أسس عقائدية، جاءت الآية الكريمة:

---

١ – العنكبوت: ٤٦.

٢ – الكافرون: ١-٦.

٣ – هود: ١١٣.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (١).

وقد استعمل الإسلام هذا الأسلوب في المجال الداخلي أيضاً. وأقصد به أنه استعمله كعقاب لأولئك المسلمين المتقاعسين عن واجبهم الإسلامي كما في قضية الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد، وأمر المسلمين بمقاطعتهم وكانت المقاطعة شاملة حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم جاءهم العفو الإلهي.

والمقاطعة السلبية عنصر مهم وأسلوب أصيل في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما هو مبين في محله.

٤- أسلوب الجهاد:

ونعني به المقابلة المسلحة من قبل المسلمين في مواجهة العدو. والذي نجده في هذا الأسلوب أنه كان ممنوعاًمنعاً باتاً في الفترة التي مرت على المسلمين وهم في مكة، ولعل مبررات ذلك بعض الأمور التالية أو مجموعها، وقد أشار إليها الكتاب المسلمون، وهي:

أ ـ ضعف الدعوة الإسلامية واحتمال القضاء عليها تماماً لو تطور الأمر إلى مجابهة مسلحة.

ب – كون تلك الفترة فترة إعداد تربوي للقادة، وهي تتطلب جواً قد لا يتوفر في حالات المجابهة بالسلاح. وعلاوة على هذا فإن قريشاً وإن استعملت كل وسائلها في سبيل منعه(ص) من التبليغ إلا أنها فشلت في ذلك، فلم يكن طريق التبليغ مسدوداً في وجه المسلمين.

ج – قوة نظام الثأر العشائري والذي يؤلب على المسلمين مختلف القبائل العربية.

د – إن المجابهة كانت تعني حدوث المعركة الدامية في كل بيت. ومن اثار ذلك قوة الإشاعات والتقولات التي تستغل الجانب العاطفي فتزعم للناس أن النبي(ص) جاء لضرب وحدة الناس وشق عصا الجماعة الواحدة. وهذا ما شهدناه قوياً مؤثراً في بعض

---

١ – المجادلة: ٢٢.

الساذجين، وشهدنا القرآن الكريم يعرض قصة «آل يس» هادفاً – فيما يهدف – السخرية من أولئك الذين يطلقون هذه الإشاعات ويعتبرون مجيء الأنبياء موجباً للتشاؤم والتطير.

فكيف يكون الحال لو أمر النبي أخاً لقتل أخاه؟ وما هو تأثير ذلك في النفوس والدعوة الإسلامية ضعيفة كل الضعف؟ ثم إن هذا الأمر سيكون ذا وطأة ثقيلة لا تتحملها إلا النفوس المشبعة بأفكار العقيدة والتي صيغت عواطفها على أساسها.

هـ – إن المجابهة المسلحة ستحرك القبائل البعيدة ضد المسلمين، إذ ستخرج عن إطار كونها دعوة محلية وحركة داخلية فتحسس باقي القبائل بالخطر الذي يتهددها في المستقبل القريب فتمد يدها لمعارضي الإسلام كي يسهل لهم القضاء على نبتته الضعيفة، وقد رأينا أن تلك القبائل قد شكلت خطراً كبيراً بعد ذلك حينما أحست بالخطر يحدق بها من قريب.

و– إن اتخاذ دور المظلوم المقهور المعتدي عليه من قبل زعماء قريش كان يدفع الكثيرين للدفاع عن الدعوة بدافع النخوة العربية التي تنتصر للمظلوم، فلم ننس بعد أن الكثير من هؤلاء المتحمسين لهذا الأمر كانوا قد تجمعوا في تلك الفترة تقريباً لأجل تشكيل حلف يدافع عن المظلومين «حلف الفضول» وقد اشترك فيه النبي(ص) وكان يذكره بتبجيل فيما بعد.

ز– هذا بالإضافة إلى أن الإسلام كان ينظر نظرة بعيدة فيتوقع لهؤلاء المعارضين أن يكونوا في المستقبل في طليعة حاملي الإسلام العالمي، وكذلك بالإضافة إلى طبيعة الإسلام الخيرة التي تتجنب إيصال الأذى مهما أمكن .

لعله لكل هذه الأسباب ولغيرها منعت المجابهة المسلحة في الفترة المكية قبل وفي فترة يسيرة بعد الهجرة. وعندما اشتدت وطأة الكافرين أمر الرسول(ص) بالهجرة.

ولكن الإسلام أمر بالقتال حين أحس بضرورته من جهة وبضعف المبررات التي منعت من جهة أخرى.

وكان أول لواء عقد لحمزة (رض) في رمضان الشهر السابع للهجرة ثم تتابعت السرايا، وكانت سرية عبدالله بن جحش في رجب الحرام، وهنا نزلت الآية الكريمة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [1]. ثم كانت غزوة بدر وهكذا.

شبهة السيف

وهي شبهة انطلقت أول ما انطلقت من المستشرقين – فيما نقدر – وكان الغرض منها تشويه سمعة الإسلام والانتقاص من قدراته الذاتية على التوسع، فادعى بأن الإسلام إنما انتشر بالسيف وقد قام كتّاب أخذتهم الغيرة على الإسلام، ودافعوا عن ذلك قائلين: بأن حروب الإسلام كانت كلها حروباً دفاعية فلم يهاجم الإسلام أحداً مطلقاً، والحقيقة أننا لا نستطيع المجازفة بذلك أولاً ولا نجد داعياً للقول به ثانياً.

إن من ينظر إلى طبيعة الإسلام العقائدية والعالمية، والى أهداف الإسلام في قيادة العالم وإيصاله إلى الكمال، ثم ينظر إلى ضراوة الكفار وتوسلهم بكل وسيلة للقضاء عليها، يجد أن من الطبيعي أن يحمل الإسلام السيف.

فلم يكن الإسلام دين أفراد بل كان دين الانسانية، ولم يكن الإسلام مجموعة أفكار بل كان فكرة عن الكون، ونظاماً يقوم على أساس تلك الفكرة، لا يقوم إلا بتملك السيطرة على تطبيقه، والقضاء على من يقفون حجر عثرة في ذلك، والدليل على ذلك واضح من استقراء تاريخ أي دعوة تملك هذه الطبيعة. وقد بيّنت الآيات القرآنية مبررات القتال:

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [2]. ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ

---

١ – البقرة: ٢١٧.

٢ –النساء: ٧٦.

بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [١]. ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [٢].

إن الهدف هو تكوين البشرية المؤمنة، وأن يكون الدين كله لله، باعتبار أن الله تعالى خالق البشرية، علم أن الإسلام هو دواؤها، فالذي يقف حجر عثرة في سبيل كمال الإنسانية ولا يرضى بالتسليم على الأقل للحكومة الإسلامية ويعمل على تقويض عملية انتشار الإسلام، مثل هذا اللسان يعتبر جرثومة سارية للإنسانية جميعاً.

نعم، لا يكره الإسلام على العقيدة ولكنه لن يدخر وسعاً في تعميم حكومته على الأرض فلن تصلح الأرض مع وجود مقاييس مختلفة وأهداف متوزعة.

وإذا تم هذا نقول: إن حمل السيف ضروري في بعض الأحيان ولكنه فرق بين يد تحمل السيف لتحرير الإنسان من كل العبوديات المذلة له وتجعله عبداً لله فقط، ويد تحمله لأجل إذلاله واستغلال موارده وطاقاته.

على أنه لا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن أمماً كثيرة أسلمت بواسطة التبليغ والدعوة. كما لا يفوتنا أن ننبه إلى أن المسلمين الأوائل كلهم أسلموا بالدعوة، وان الأراضي التي فتحت عنوة بقيت مسلمة حتى بعد زوال الضغط الإسلامي عنها، وغير ذلك...

٥- أسلوب الهجرة:

وهو أيضاً أحد الأساليب المهمة التي اتبعها المسلمون للحصول على مكاسب كبرى في تاريخهم الأول، وقد تمت الهجرة أولاً على صعيد محدود، وإن كانت إلى بلد بعيد وهو الحبشة، ثم كانت على نطاق شامل إلى يثرب؛ أما الهجرة الأولى إلى الحبشة فقد حققت بعض الأهداف بنجاح، وذلك أنها:

١ـ أنقذت بعض المسلمين من العذاب المر الشديد الذي كان قد يودي بحياتهم.

٢- أكدت مظلومية المسلمين وجبروت قريش للعرب وغيرهم مما زاد في عطف الغير عليهم.

---

١ -التوبة: ٢٩.

٢ - البقرة: ١٩٣.

٣- أحدثت هزة كبرى في ذلك المحيط مما وجه الأنظار نحو الدعوة الجديدة ومعرفة حقيقتها.

٤- كان لتلك الهزة أثرها الكبير في إضعاف عزائم الأعداء أمام ذلك الإصرار الهائل.

٥- يمكن أن نعتبر الهجرة دورة تدريبية على التشبع بروح العقيدة وصياغة الحياة وفق أوامرها وتركيزها في النفس.

٦- نقل إشعاعات الدعوة الإسلامية إلى الخارج بأسلوب بسيط.

وكانت الهجرة الثانية إلى يثرب، وهي الهجرة العامة والحدث التاريخي الكبير الذي أحس الكل بقيمته المهمة، فابتدأ تاريخ المسلمين من الهجرة مشعراً بعظمتها.

إن هذه الهجرة كانت تمتلك النتائج السابقة بصورة أقوى وأعمق. بالإضافة إلى كون المدينة تمتلك آفاقاً أرحب يمكن للدعوة الإسلامية فيها أن تتنفس ويبدأ المجتمع الاسلامي أولى مراحله، بعد أن كادت قريش تخنقها بضغطها العنيف، وبعد أن مات نصيرا الإسلام العظيمان، أبو طالب وخديجة.

وهنا نود أن نشير إلى أن البعض اعتبر الهجرة نوعاً من الموقف السلبي، وهذا أمر لا نقبله بل هي – بالنظر إلى طبيعتها ونتائجها – عمل إيجابي فعّال.

٦- أسلوب المعاهدة والصلح:

وهو أسلوب آخر من أساليب الإسلام في تحديد موقفه من غير المسلمين عامة والأعداء منهم بصورة خاصة، وقد كان لهذا الامر دور مهم في حماية ظهر الدعوة الإسلامية وفي بسط نفوذها والتمهيد لانتصارها النهائي. ولا يسعنا الحديث عن الفوائد المختصة بكل عهد.

٧- الحرب الفكرية المضادة:

وهذا ما اضطلع بحمله القرآن الكريم الذي كان يضعف عزائم العدو بآياته المتدرجة ويحكي قصص الأمم التي تشابه الأمة المعارضة وكيف وصلت إلى الخسران وغير ذلك.

كانت هذه هي أهم الأساليب التي اتخذها الإسلام في مجال موقفه من أعداء الدعوة.

وأخيراً، فإن من الضروري أن نتعرض إلى أهم فوائد نزول القرآن التدريجي، فإن لها تأثيراً كبيراً على استكمال الصورة في هذا الموضوع.

الامر الثالث - الإنزال التدريجي للقرآن وفوائده:

يمكننا أن نتصور لذلك فوائد كثيرة أهمها:

١ـ تفادي الصدمة – وذلك لأن العرب كانت تعبث بها الصنمية والطبقية وغير ذلك، وتسودها الزعامات القبلية، وفي مثل هذا الجو يكون التعدي على فرد واحد موجباً لروح الثأر فكيف بنسف العقائد والزعامات مرة واحدة. إن ردود الفعل ستكون قوية جداً مما يتوقع معه القضاء على الدعوة الإسلامية وهكذا الأمر بالنسبة لضرورة التدرج في إعطاء الإسلام.

٢- تفهم القرآن بروحه – إذ إن فهم القرآن ليس أمراً يسيراً كما أنه غالباً ما يرتبط فهم الآية بالموقف النفسي، فالمحارب يشعر بقيمة الآية التي تطمئنه وجوّها، غير ما يشعر به الجالس في بيته.

إن الفهم يحتاج إلى فرصة كافية ليتعمق المسلم في معاني الآيات. وخصوصاً إذا تنبهنا إلى أن العملية تبدأ من الصفر.

يروي ابن مسعود: «كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».[1]

ومن علل التدرج التي يذكرها مجمع البيان قوله: «ويكونوا أقدر على التأمل والتفكّر فيه» ولذا كان من الضروري أن ينزل تدريجاً.

إن عجزهم عن الفهم ينتج شيئين:

أما الانبهار بالعظمة – والانسياق الأعمى وراءه. وهذا ما لا يريده الإسلام، لأنه استهدف تربية المسلم الواعي الرصين العقيدة لكي يحق له أن يحمل العقيدة للأرض. ولا يريد أن يتحول إلى مذهب طوبائي ينفذ اتباعه ما يريده بلا وعي.

أو التوقف والتملص من هذه العملية بكاملها. وبتعبير آخر، فإن القطرة قطرة هي التي تؤثر تماماً والدفعة تغرق –كما يقولون – .

---

١ – بحار الانوار، ج٨٥، ص ٦٤، منية المريد، للشهيد الثاني، ص ٣٦٨.

٣- تركيز التربية في النفوس – فإننا لو لا حظنا الفروق بين المعجزة الإسلامية الخالدة «القرآن» وباقي المعاجز التي جرت على أيدي الأنبياء عرفنا أن تلك المعاجز كانت تتصف بما يلي:

أ- المحدودية الزمانية والمكانية.

ب – إنها تجعل الإنسان أحياناً أمام أمرين لا ثالث لهما، أما الإيمان وأما العذاب والضلال التام، وهذا مما قد ينتج الإيمان الإجمالي لا الايمان النافذ الواعي.

ج – الانفصال بين الرسالة والمعجزة التي توفر السند لها.

د – إن أكثرها بل كلها ترتبط بجانب الإعجاز المادي.

هـ – إنها تعتبر خرقاً للنواميس الطبيعية.

إلى غير ذلك، في حين نجد القرآن على العكس من ذلك باعتبار أنه:

أـ ليس إعجازه محدوداً بزمان ومكان خاصين مما يؤكد أنه معجزة الرسالة الخالدة.

ب – إنه يربي الإيمان في النفس قطرة وبكل تأن وروية، وهذا أمر تتطلبه عملية التربية الطويلة للأجيال.

ج – الانفصال بين الرسالة والمعجزة التي توفر السند لها.

د – إن أكثرها بل كلها ترتبط بجانب الإعجاز المادي.

هـ – إنها تعتبر خرقاً للنواميس الطبيعية.

وعلى أي حال، فإن أهم ما يميزه هو هذه الصفة التربوية الرائدة المربية للأجيال وهذه الصفة تستدعي أن ينزل القرآن بالتدرج ليصعد بالإنسان من مرحلة إلى أخرى.

يقول في مجمع البيان معللاً هذا التدريج بأنه «ليكون أمكن في قلوبهم».

٤- لتركيز الاتصال الحسي المتواصل بالسماء – وهذا يلحظ من جوانب:

أـ إن هذا التدرج يعمق في نفوسهم عنصر انتظار السماء ورأيها في كل حادثة مما يطبع حياتهم بطابع الصياغة وفق أوامر الله. وهكذا تكون الآيات القرآنية أوامر سماوية يتلقاها المسلمون كما يتلقى الجنود الأوامر اليومية.

ب – خلق الصمود والعزة والأمل في نفوس المسلمين باعتبار أنهم يشعرون – حسياً – بأن جبار السماوات يسندهم وهو معهم يسدد خطواتهم، فينطلقون مجاهدين باذلين كل ما يملكون في سبيله، فنجد القرآن العظيم:

تارة يسلي النبي(ص) ويأمره بالصبر ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [1]. ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [2] وينهاه عن الحزن ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [3] ويذكره بأن الكافرون يعاندون الحق لمصالحهم ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [4] ويسدد خطواته فيقول: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [5] ويخفف عنه: ﴿طه، مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [6] وإذ يشعر المسلمون بتسديد قائدهم من قبل السماء يحسون بالمدد وتزداد عزائمهم وكذلك عندما توجه أوامر القتال أو آيات الإسناد الملائكي للمسلمين أو آيات الرضوان عنهم، عندما يشعرون بذلك، فلا بد أن نتوقع منهم كل التضحيات. ومن هنا يقول في مجمع البيان:

«إذا كان يأتيه الوحي متجدداً في كل حادثة، وكل أمر، كان ذلك أقوى لقلبه وأزيد في بصيرته».

ج – ويمكن أن نلتفت إلى جانب تأثير ذلك على المنافقين وخطط الأعداء الآخرين إذ تجعلهم جميعاً في حذر شديد من انكشاف مؤامراتهم الحاقدة مما يثبط عزائمهم بلا ريب.

٥- ظهور وجه الإعجاز بصورة أكبر:

وذلك لأن القرآن نزل خلال ٢٣ سنة متفرقاً هنا وهناك، وفي حالات الحرب والسلم والأمن والخوف والنصر والهزيمة والموقف الجاد والمواقف العاطفية وهكذا، وتناول مختلف الشؤون الإنسانية، ومع كل هذا التفرق تلحظ الوحدة فيه كاملة: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [7].

---

١ – سورة ق: ٣٩.

٢ –الأحقاف: ٣٥.

٣ – يونس: ٦٥.

٤ –الأنعام: ٣٣.

٥ – التوبة: ٤٣.

٦ – طه : ١، ٢ ..

٧ – النساء: ٨٢.

٦- تركيز الاثنينية بين الله تعالى - موحي القرآن - وبين الموحى إليه وهو الرسول(ص) في نفوس المسلمين.

فهو تارة ينهاه عن العجلة بقراءة القرآن من قبل أن يقضى إليه وحيه، وأخرى يتدثر فتأتيه سورة «المدثر»، وتأتيه سورة «اقرأ» ثم يفتر الوحي ثلاث سنوات ويأتي حديث الإفك، ويضطرب الجميع، ويتأخر الوحي فينتظره الجميع حتى ينزل. وهكذا يشتاق النبي(ص) إلى الكعبة ويقلب وجهه أشهراً عديدة ولا ينزل القرآن، ثم بعد ذلك تأتي الآية الكريمة: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ [1]. وهكذا تتابع المواقف التي يوصف فيها بالعبودية ويقف فيها موقف المتأدب أمام الله.

وكل هذا يركز - كما يبدو - :

أ- الأثنينية التامة بينه وبين الباري جلّ وعلا تحرزاً من دعوات الانحراف والخلط مما قد يؤدي إلى انحرافات كبرى.

ب - دفع الشبهات التي قد تثار - كما أثيرت من قبل البعض - بان الوحي كان حالة من حالاته(ص) ومن إبداعاته والعياذ بالله.

وعلى ضوء ما سبق، يمكننا أن نفهم بشكل أعمق مغزى الآيات القرآنية الكريمة التي تحدثت عن الموضوع.

يقول تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ [2].

ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [3].

الخلاصة:

عرفنا مما سبق، إن التدرج في مختلف المواقف كان تعبيراً أصيلاً عن مرونة الإسلام التي هي بالتالي تعبير عن واقعية الإسلام.

---

١ -البقرة: ١٤٤.

٢ - الإسراء: ١٠٦.

٣ - الفرقان: ٣٢.

سادساً : ظاهرة ابقاء الأمل حياً

صفحه سفید

ويتم الحديث عن هذه الظاهرة في مقدمة وفصول:

مقدمة

عنصر الأمل أحد معالم المبدأ الناجح

يتعب المفكرون كثيراً في تحديد معالم المبدأ الناجح والَّذي يمكنه أن يقود الإنسان لحل مشكلته المستعصية عليه اجتماعياً ضرورياً يجب توفره في أي مبدأ يريد لنفسه أن يقود جماعة من النَّاس، فضلاً عن إدعاء قيادة الإنسانية. وذلك العنصر هو «الأمل».

ولو استقرأنا ما طرح على الساحة الفكرية والعملية في نظريات مختلفة، ومبادئ متكثرة، فإنَّنا نجد أنَّها اعتمدت كثيراً على أنَّ تجلّي هذا العنصر فيها، وتمنحه سمة ما، بحيث يتصور الاتباع أنَّه لا شك متحقق، إن آجلاً أو عاجلاً.

ولو أردنا أن نرجع بالأمر إلى جذوره النفسية، لوجدنا أنَّ هذا العنصر يعتبر خير ما زود به الإنسان من بين الحيوانات بعد نعمة العقل الكبرى. بل نكاد نجزم بأنَّ الأمل - وهو نتاج عقلي وغريزي في آن واحد - يقوم بدوره الكامل في العمليات العقلية الثانوية ولولاه لما أمكن أن نبصر نتائج تلك العمليات.

وتوضيح هذا الأمر: إنَّنا يمكننا أن نختار إحدى العمليات العقلية الَّتي تشكل الخط العريض لسلوك الإنسان، وهي عملية التغيير الفكرية، التي يتمتع بها هذا النوع دون غيره، فنشاهد أنَّ الفكر والتعقل، يمنحه طاقة التعالي على أي واقع يعيشه، وينحدر به. بمعنى أنَّ الإنسان تؤطر جانبه المادي أطر زمانية ومكانية مختلفة، لا يمكنه بجسمه أنَّ

يتخلص منها. ولما كانت عملية التغيير تستدعي أن يحيط الإنسان بالشيء المغيّر، ويمسك بخيوط جوانبه العديدة، وينسلخ من قيوده المادية لكي يشخص الحالة الأفضل - لما كان كل ذلك - فقد زود الإنسان بالعقل ليقوم عن طريقه بهذا الجانب الحيوي في حياته.

فالتغيير هو سرّ البقاء المتطور للإنسان، وهو يعتمد على عملية التعالي عن الواقع، والنظر إليه من علّ لتغييره، وهذه العملية متوقفة على الجانب الروحي الذي لا تقيده القوانين المادية.

وبعد ذلك، تأتي مرحلتا التخطيط والتطبيق.

كل هذه كانت عمليات يجربها الفكر، ولكن لو تساءلنا عن الدافع الذي يبعث الفكر إلى إجراء هذه العمليات، بما فيها من عقبات متوقعة، فالجواب لن يكون مركزاً الا على الأمل: أمل الحصول على واقع أفضل، وأمل الحصانة الأقوى للنوع، وأمل السعادة بالتالي.

فالأمل - إذن - هو الروح المحركة لمسيرة الإنسان الفكرية، التي تبنى عليها كل فعالياته الأخرى.

وقد ورد في الحديث الشريف : «الأمل رحمة لأمتي ولولا الأمل ما أرضعت والدة ولدها ولا غرس غارس شجراً» [1].

اما ما قلنا به من فطرية الأمل، فإنّه يتضح بعد التأمل المركز في الغرائز الإنسانية التي ترتبط دائماً بحركية الإنسان ودافعيته. وتلك من امثال غريزة حب الإستطلاع، وغريزة حب الكمال، وغريزة التدين. فإنّ كل هذه الغرائز وغيرها مما يرتبط بهذا المجال تعتمد على عنصر الأمل، أما في أساس وجودها، كغريزة حب الاستطلاع باعتبار أنّ الإنسان يريد أن يستطلع على أمل أنّ يكتشف الواقع، واكتشافه للواقع هو بنفسه يقوم على أمل انكشاف طريق آخر، يمكنه من أن ينمي وجوده ويشبع نهم ذاته، أو في تحقيق مقتضياتها كالآخرين.

---

١ -بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٧٣، تاريخ بغداد، ج٢، ص ٥٠، كنز العمال، ج ٣، ص ٤٩١، لسان الميزان، لابن حجر، ج ٥ ص ٨١.

اما وقد ارتبط الأمل بالأفكار الغريزية، فهو إذن يجد له مواضعه في كل أنماط السلوك.

فلا معنى لأن يقال: بأنَّ المنتحر، والزاهد الراهب، والحقود على الإنسانية، كل هؤلاء أناس حرموا نعمة الأمل، ولذا فهم يسلكون سلوكاً منافياً للسلوك الطبيعي! وذلك: لأنَّ الأمر على العكس تماماً فكل هؤلاء يأملون، وتتعلق آمالهم بأشياء، غاية الأمر: أنَّ ما تتعلق به آمالهم - في الواقع - خلاف الأشياء الطبيعية .

إذا توضح هذا، فلنراجع انفسنا، وسوف نجد أنَّ الطفل يشاكس هذا وذاك على أمل، وأنَّ العامل ينبعث إلى عمله على أمل، وهكذا التاجر والعالم وغيرهم.

ومتى ما ضؤل الأمل، قلت الطاقة الحركية، إلى أنّ ينعدم الأمل فلا يبقى دافع للعمل، وحينذاك فالجمود.

العلاقة بين النمو العقلي والأمل:

يمكننا أنّ نراقب الخط البياني، لنوعية الأمل في حياة الإنسان ونقارنه مع الخط البياني للرشد العقلي له، لنكتشف نوعية العلاقة بدقة.

انَّ الملاحظ، أنَّ آمال الإنسان تكاد تكون خيالية مائة بالمائة، عندما تتحرك لديه ملكة الخيال - أول ما تتحرك فتجده يبني أمجاده، ويصوغ أبطاله الذين يحتذي بهم أشخاصاً خياليين، يمزقون الأرض بقبضة واحدة! ومن هنا نجد ولع الأطفال الشديد بالقصص الخيالية، والأبطال الأسطوريين!

ونحن هنا لا نعني أنَّ أبعاد الموضوع هي هذه فحسب! بل تشترك هذه العلاقة، في صياغة الموقف الطفولي. والافالدور الأكبر - إلى جنب هذه العلاقة - لغريزة حب الكمال الأصيلة للإنسان، والتي تنطلق حينذاك بلا ضابط.

وكلّما ازداد النمو العقلي بعد ذلك، اكتسبت الآمال شيئاً من الواقعية، إلى أن يصل الإنسان إلى المرحلة التامة من الرشد، وحينذاك يكتشف تفاهة الآمال الخيالية، وتفاهة الأشياء التي تصور من قبل وبمقتضى بيئته أنَّها أمور بعيدة المنال.

وفي هذه المرحلة بالذات، يحاول الإنسان أن يقيّم آماله الماضية على ضوء عقيدته من جهة، وظروفه الخارجية من جهة أخرى.

وإذا توضحت الآمال جيداً، وتأكد الإنسان من واقعيتها، انطلق يخطط بدقة للوصول إليها. فقد أصبح سلوكه حينذاك سلوكاً يتم وفق اعداد مسبق، وبثقة أكبر، وبدافع أقوى، وهذه هي أرقى شروط العمل الناجح.

ونقصد من الواقعية: الإمكانية العقلائية لتحقق الأمل المعين. والتي تثير في الإنسان دوافع الطموح نحو الوصول للهدف الممكّن من نفسه.

يقول الدكتور علي أحمد علي: «ولكي يؤدي الهدف دوره الفعّال في تحريك السلوك وتوجيهه،يجب أنّ يكون الهدف واقعياً،يمكن للفرد من تحقيقه بجهد مناسب ومعقول»[١].

التناسب الطبيعي بين نوعي الأمل والعمل

لا ريب في أنَّ الأهداف الكبرى تمتلك طاقة جذب كبرى، لا تقاس إليّها طاقات الأهداف القريبة والساذجة، وتلك الطاقة تستدعي عملاً يتناسب معها.

ويمكننا التأكد من ذلك بسهولة، إذا قسنا هدف قارئ للقرآن، كدارس له لأجل الوصول إلى فهم شيء من معناه الحرفي، وبعض قواعده، للتوفر على تدريسها لأبناء قرية منزوية، إلى هدف انسان آخر، يدرس القرآن ويقرأه، لأجل أن يتوفر على معالم أطروحة القرآن، التي اريد لها أن تنتظم كل ارتال البشرية ،وأجيالها في مسيرة واحدة. إنّ هذا الأخير - وهو يعلم عظم ما يبغيه - ليبذل من الجهد والتعب والفكر والمعاناة ما لا يقاس إلى الجهد الذي يبذله الأول في ذلك، وأن أطلق على كليهما اسم دارس القرآن.

فهناك إذن تناسب بين نوعية الأمل الجاذب، وطاقة العمل المراد في سبيل تحقيق ذلك الهدف.

---

١ - مجلة العربي، العدد ١٦٧، السنة ١٩٧٢، ص ٥٤.

مع المبادئ الوضعية

ونظرة استعراض بسيطة لهذه المذاهب، تكفينا لتأكيد المقصود: فالماركسية أعلنت للبشرية أنها اكتشفت طريق السعادة بكل ما فيه من معالم، وأنّها تخطط لليوم الموعود الذي تكون فيه «الإنسانية كلها طبقة واحدة، وتتمثل مصالح كل فرد في مصالح تلك الطبقة الموحدة.. حيث يسود الوئام - آنذاك ويتحقق السلام، وتزول نهائياً كل الآثار السيئة للنظام الديمقراطي الرأسمالي»[1].

ويسرف الخيال الماركسي، في تصور تلك المرحلة الذهبية الموهومة من عمر البشرية ككل، فيتصور أنّ أعمق غريزة من غرائز الإنسان، وهي غريزة حب الذات، تذوب وتنصهر في المختبر التاريخي، متحولة إلى غريزة حب الآخرين! وحينذاك يكون الإنسان موجوداً ملائكياً خيراً! وبالتالي.

فلا معنى لوجود قوانين وضوابط، وسلطة تقنينية، وأخرى تنفيذية! فكل هذه الأمور إنما تتعلق بمرحلة ما قبل الفردوس الموعود، أما وقد بلغتها الإنسانية فلا معنى ولا مبرر لوجود الدولة! إنما هي السعادة والعدالة تقوم بصورة طبيعية بين البشر... إلى ما هنالك من الخيال المنسوج!!

ولأجل أن تؤكد واقعية هذه النتيجة الحتمية، فقد هداها ذكاؤها لأن تجعلها من مقتضيات القوانين الطبيعية الحتمية التي لا تقبل التبديل ومن هنا فقد عمدت إلى التاريخ الإنساني، تقسمه إلى أدوار، محاولة أن تضع في رحم كل دور عوامل تآكله وتفسخه الآتي.. وهكذا تتسلسل الأدوار وفق قوانين المادية التاريخية، حتى يصل الدور للمرحلة الرأسمالية - وهي المرحلة التي قامت الماركسية كحركة سياسية أصلاً لإذابتها. ثم استعانت بالتصور الفلسفي للتاريخ، لتسند أهدافها السياسية هذه، كما هو واضح لمن درس تاريخها بعمق.

ومن ثم ركزت على هذا الدور، وحللته كما تشاء، متصيدة له بعض الأمثلة،

---

١ - المدرسة الإسلامية، ج ١، ص ٥٣.

ومستعينة بالآثار المشؤومة لنفس النظام، محاولة بذلك أن تبرر حركتها بأنها تساند حركة التاريخ، التي ما أن تتفاعل مع الجماهير ذات المصلحة، وبصورة طبيعية حتى ينتج الأمر الانتصار! وعندما أفلحت في مرحلتها الأولى، بدأت ترسم ذلك الهدف المعسول، لأجل أن تبرر ستارها الحديدي المقيت، في مرحلة اسمتها «الإشتراكية» داعية في هذه المرحلة إلى «بروليتارية العمال»، والضغط والقوة والعنف الثوري، واعدة الإنسان بتحويله في النهاية إلى إنسان يصلح أن يدخل دور الشيوعية التي لن يجد فيها إلاّ البرد والسلام..!

أما الرأسمالية: فهي بدورها أيضاً لم تقم إلاّ على أساس الوعود العريضة، وفي ظل قادة كانوا يصفون للبشر الجنّة الموعودة، ويعدونهم بالخلاص من نير الحكام والاقطاعيين والسادة، والحصول على أروع جوهرة، ركب حبها في أعمق الإنسان وهي «الحرية»! وهكذا وعدت بالمجتمع الإقتصادي الحرّ، والمجتمع الفكري والسياسي الحرّ. حيث لا ضغط من أي جهة، وحيث الفرد فيه يحصل على ما يريد، وفقاً للمجالات المفتوحة له على مصراعيها.!

وكان سندها في هذه الآمال، نفس نزوعه نحو الحرية، وطلبها بأي ثمن، محاولة بذلك أن تضفي عليها ثوب الواقعية!

ولا يهمنا الآن ذكر ما لاقاه العالم من هذين النظامين بعد ذلك، من مآس مروعة، ودمار فكري واخلاقي، بقدر ما يهمنا أن نؤكد أنّ كليهما أكد على عنصر الأمل فيه، وحاول جهده أن يضفي عليه ثوب الواقع، سواء بالإستناد إلى قوانين التاريخ، كما فعلت الماركسية أو الإستفادة من النزعات الداخلية للإنسان، كما فعلت الرأسمالية، مما يؤكد لنا ما قلناه.

الأمل في النظم الوضعية حدوده، وموهناته

رأينا أنّ كل النظم التي تحاول أنّ تجد لها اتباعاً تشعر بأنّ الأمل هو الديناميكية المحركة للإتباع، بل العامل الرئيسي في جلب الإتباع أنفسهم إليها.

والآن، نحاول أن نخطو خطوة أخرى من البحث، فندرس إمكانيات عمل هذا العنصر في الأنظمة التي يخترعها الإنسان، والتي تسمى بـ «الوضعية» وهي التي لا ترتبط بأي عنصر غيبي، ولكن إعتمدها الإنسان لأجل أن يرسم لنفسه أسلوباً يوصله للسعادة، بغض النظر عن هدى السماء. وبعد هذا، ننفذ إلى فاعلية الأمل في الإسلام وطاقاته، بعد أن نؤكد على أنَّ الإسلام هو الصورة الصادقة للنظام المستند إلى قاعدة غيبية أصيلة واقعية.

وأهم صفة يبتلى هذا العنصر في النظم الوضعية هي «التحديد المادي».

وذلك لأن الأنظمة الوضعية كلها إنما تخطط للجانب المادي من حياة الإنسان، ولا تعترف بأي تأثير لأي عامل غيبي، في تخطيط مصيره وتقريره.

فغاية ما يمكن أن يعد به النظام المادي ويتعهد به، هو أنه يستطيع أنّ يوفر للإنسان حياة سعيدة هانئة، يأكل فيها ما يريد ويشرب كذلك، ويعيش في مسكن آمن، يحترمه مجتمعه ويضمن له حقوقه من تعليم وصحة، وتقاعد في الشيخوخة وما إلى ذلك.

هذه هي غاية ما يمكن أنّ تمنحه النظم الوضعية للإنسان، ولكن بعض هذه النظم لّما لم تجد ذلك كافياً لإشباع طموح الإنسان، واصطدمت بواقع شوقه لبناء الإنسانية الموحدة، فقد تجاوزت هذه الغاية بعد أن مهدت لهذا التجاوز بالقيام بطرح فلسفة، ومفاهيم تتنافى والمفهوم المادي الذي بنيت عليه أساساً. فأخذت تقوي عناصر التضحية، والعمل في سبيل الجماهير، والكدح في سبيل رقي المجتمع، والنضال لتحقيق الديمقراطية، والعمل على تغيير العالم، ولو فنيت الأشخاص الفردية للإنسان، وذبحت الآلاف وديست الحقوق الشخصية، وامتهنت إيما امتهان...! وضرب النطاق الحديدي حول الحريات.. أنّ كل هذه الأشياء لا قيمة لها في حساب تحقيق الهدف الأبعد، وهو صياغة عالم شيوعي مثلاً، ولو فني ثلثا العالم - على حدّ تعبير بعض قادة الشيوعية - أو التحضر والتمدن للإنسان كل الانسان، حتى ولو ذبحت في سبيل رسالة الرجل الأبيض هذه شعوب، وأحرقت مدن، وإمتصت دماء ودماء!

والحقيقة أنّها شعرت بأنَّ اهدافها لن تحقق لو إنحصرت بالشكل المادي، فإنَّها لا

تكفي مطلقاً لبعث مفاهيم الإيثار والتضحية والولاء الصادق وبعد النظرة، بل لبعث أي مفهوم أخلاقي أو عملي. لذا فقد عمدت إلى طرح هذه الشعارات، متناقضة مع أسسها هي، سواء كانت اعتمدت عليها، أو اغفلتها وهي متعمدة إذ أنّ كل ذلك لا يتلاءم والإعتقاد بأنَّ الحياة الإنسانية محصورة في هذا الشوط وهو الحياة الدنيا فقط. فإذا مات الإنسان إنقطع عن أيّة علاقة له بأي شيء، فهو العدم المحض الذي لا يصله أي خير، ولا يوصل أي خير للآخرين، ولا يحس حتى بكلمات المدح والذكر العالي الطنان، إن كان الذكر العالي لقادة هذه النظم أعلى من صرخات اللعنة الصادرة من المعسكر الآخر!

الإعتراض بملاحظة الواقع التطبيقي

فإن واجهنا أحد – معترضاً : بأنَّ هذا المعنى يختلف مع الواقع التطبيقي، حيث نشاهد أولاء الذين قدموا اعناقهم إلى المشانق، وعملوا جهدهم في سبيل إنتشار مبادئهم، وناضلوا سنين متطاولة في ذلك.

والجواب:

أنا نقول لمثل هذا المعترض: أليس تحليلنا السابق والتناقض القائم بين البناء والأساس حقيقة؟ فإن كان كذلك فيجب أن نبحث عن العلة في أساليب الإغراء التي تتبعها هذه المذاهب، والأهداف الشخصية للقادة الذين يمتلكون زمام هذا الهمج الرعاع، وفي الظلم والإجحاف الشديد، الذي يواجهه أولئك الذين إستهدفهم نظام معين من النظام الآخر، وفي المفاهيم الخاطئة التي قد تستحكم في طبقة من الناس حول الوطنية والقومية وغير ذلك، فتمنحها صفة ألوهية محدودة، وأخيراً في بعض صفات السوء التي تتحكم في أمثال أولئك الذين إعتنقوا مثل هذه المبادئ كالكبر، والعناد، والصلف.

كما إننا يجب لا ننسى دور العقد التي تنعقد في نفس الإنسان نتيجة عوامل عديدة، فتعميه وتدعه لا يأبه لكل شيء إلا تحطيم ما يتخيله عدوه، ولو فقد كل شيء. وهل

نسينا الحوادث المتكررة التي يضر الإنسان فيه نفسه أكبر الضرر لا لشيء إلا ليضر عدوه جراء ذلك ولو بأقل الضرر؟ وقد حدّثنا القرآن عن مثل ظواهر العناد والتعقيد كثيراً ومن الموارد التي يذكرها مورد أولئك الذين قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [١]. إنّه منطق العقد فبدلاً من أن يقول هؤلاء اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا للإيمان به، يقولون «فامطر علينا حجارة من السماء».

كما أن للطمع المالي والإغراءات المنصبية دورها الفعّال وهل نسينا منطق المرتزقة في (افريقيا) وهو الموت في سبيل الذهب؟

وكذلك يمكننا أن نضيف إلى جنب هذه العوامل الدور الذي يلعبه التحزب وتعميق الطاعة الحزبية بشكل يفقد الفرد معه شخصيته ويتحول إلى آلة طيعة بيد الحزب أو الفئة المسيرة.

وأخيراً فإنّه يمكن أن نضيف الى ذلك عامل الغرق في الخيال الكاذب والعيش على موائد أمل التمجيد، حيث يترنح الإنسان حينما يتصور الإنسانية يوماً ما ستصحو على تضحيات هذا البطل فتنصب له تمثالاً في ميدان، أو تطلق إسمه على ساحة كبرى، أو تقيم له احتفالات سنوية متكررة.

لا يمكن للإغراء أن يحل محل الدين

فإن ادعي بعد ذلك: إننا نستطيع أن نقوم بأداء ما يؤديه الدين في حياة الإنسان، بأساليب الإغراء هذه رغم ضحالتها، فالغاية تبرر الوسيلة! فإنّ جواب ذلك واضح للمتبصر. إذ أنّ مثل هذه الاساليب إنما هي وسائل وقتية المفعول بنفسها، وتعتد على التخدير الآني للفكر الإنساني، في حين أنّ أساليب الايمان بالغيب تتصف بالدوام

---

١ - الأنفال: ٣٢.

والعمق في ضمير الإنسان وفطرته، وإستيعاب مختلف الظروف، أي العمل تحت أي ظرف كان.

ومن هنا، فلا مجال للمقارنة بين أساليب الدين، وهذه الأساليب هذا بالإضافة إلى أنّ الروح العدوانية الضيقة، واللاخلقية المقيتة التي تنشرها هذه الأساليب، هي مما يؤدي إلى القضاء تدريجياً على نفس الفكرة التي تتخذ هذه الوسائل لنيل مآربها.

عل أنّا، يجب أنّ لا ننسى أنّه ما من موقف وقفه أحد انصار المبادئ المادية يمكن أنّ يقارن إلى بعض المواقف الصارمة التي وقفها أنصار العقيدة الدينية.

انّ الخيال ليكاد يعجز عن أمثال مواقف النبي العظيم(ص)، وأصحابه الكرام، والأئمة من اهل البيت(ع)، في مجال التضحية بكل غالٍ ورخيص في سبيل تحقيق الهدف.

وهل تقاس مواقفهم إلى مواقف الحسين وأصحاب الحسين(ع) مثلاً في صبيحة كربلاء؟!

ولا معنى لأنّ تقام جان دارك مثلاً أمامنا، بعد أنّ إتضح لنا أنّها المرأة التي حركتها تخيلاتها والأرواح الخفية التي آمنت بأنها تناديها نحو المجد. على أنّها على أية حال، لم تكن ذات عقيدة مادية لتكون مادة للإعتراض.

أهم موهنات الأمل المادي

فأهم ما في الأمل المادي من موهنات يمكن أن يلخص في نقاط:

أ ـ أنه هدف مرحلي، لا يمتلك ما يمتلكه الهدف البعيد الكبير الذي يمكن للإسلام أن يستهدفه من تشريعاته، من طاقات دافعة، ومن نظرة شاملة.

ب – إنّه ينسى الإنسان جوانبه الأخرى غير المادية.. ففي الإنسان جوانب أخرى لا ترتبط بالمادة مباشرة، وإنّما ترتبط بالعقل والفكر والوجدان. فإذا استهدفنا في حياتنا هدفاً يؤمن حاجات جزء من كياننا، فانا نكون قد اخللنا بالتوازن الروحي المادي، المطلوب حقاً في حياة الإنسان. ولهذا الإخلال آثاره النفسية والفكرية، فضلاً

عن الآثار الإجتماعية العظمى له. ونحن نعلم أنّ الإنسان إذا ما ربي تربية صحيحة ونميت لديه الإحساسات المعنوية، أو ما يسميه البعض بـ «الاحساس الخلقي بالحياة» فإن ذلك كفيل لأن يدفعه وبصورة منتظمة بل ومتصاعدة في الشدة نحو العمل الجاد المجهد، ونحن نرى في أصحاب المبادئ أنهم بعيدون تماماً عن ذلك المستوى . إنّهم لا يحسون بنكهة معينة لعملهم، اللهم إلا كما تحس الحيوانات بنكهة طعامها ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾[1]. ففرق في الأداء - فضلاً عن النتائج - بين أنّ يقوم الإنسان بعمل ما يحس من ورائه بأنه أشبع لذة موقتة، وبين أنّ يقوم بنفس العمل وهو يعمل أنّ ذلك جزء من حلقة تنتهي إلى سعادة أبدية، ورقي معنوي رائع.

ج - إنه لا يمتلك خاصية التجميع على طريق واحد.. وذلك فإن أي نظام يدعي لنفسه، إنه منفذ الخلاص للمشاكل البشرية، لا يمكنه أن يكون محدوداً بحدود خاصة. وإلاّ كان علاجاً موضعياً قد يضر - ويضر بالتأكيد - بالمواضع الأخرى، فلأجل أن يكون أميناً مع دعواه، عليه أنّ يخطط للعالم والأجيال البشرية المعاصرة - على الأقل - وتخطيطه يتطلب أول ما يتطلب، هدفاً عالمياً. وقد يفلح في إصطياد هدف براق جامع، يسميه العالم الحرّ أو العالم الشيوعي أو أو ... ولكنه يجد نفسه في النهاية محكوماً للمصالح المادية التي يسعى جاداً لتحقيق مقتضياتها، وهذا يعني أنه يظل تتقاذفه رياح المصالح الشخصية. وان تجاوزنا ذلك فالمصالح الضيقة لمجتمع دون اخر... وهذان أمامنا، النظامان الرأسمالي والإشتراكي وكلاهما يناديان بهدفين براقين، الأول يدعو إلى الحرية، والثاني يدعو إلى الحياة التي ليس فيها إستغلال! هذان النظامان هل سلما - في نظرتهما المبدئية وتطبيقهما - يوماً من الأيام من الأهواء الشخصية أو على الأقل من الأهواء الضيقة لأحد المجتمعات؟ انّ نظرة واحدة إلى عملية التعامل الإجتماعي القائمة بين النظامين، بل وبين اتباع النظام الواحد، كافية لاشعارنا، بأنَّ الأهداف المادية رغم

---

١ - مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي ، ص ٢٤٦.

كل بهرجتها لا تستطيع أن تجمع البشرية كلها على مقصد واحد في طريق واحد.. وستظل البشرية تبحث وتبحث بمقاييسها التي تخترعها هي.. وستنكشف لها الحقيقة بعد لأي... وأنّه لا علاج لها إلاّ بهدى السماء ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ وإنّ حياتها الدنيا قبل حياتها الأخرى لن تجد لها رونقاً انسانياً إلاّ في إطاره. وبدون ذلك فالضنك والمصاعب: «ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً».

ولن نسهب هنا في عرض النماذج الواقعية والتاريخية لهذه القضية، بل نكتفي بالإشارة، اقتناعاً منّا بأنّ القارئ الكريم لا يفوته النظر إلى الاختلافات المصلحية الضيقة بين روسيا والصين مثلاً، وبين أمريكا وفرنسا مثلاً آخر، بل بين قادة كل من هذه الدول المبدئية على زعمها ليتأكد أن الأهداف المادية لشخص ما، أو طبقة ما، لا يمكن أن تحدها حدود وتمنعها من التوسع ضوابط، مادام الجانب المعنوي قد أبعد عن مسير الإنسان، وهذا ما يمكن أن نسميه بالطمع. فلن تكتفي الطبقة المسيطرة مثلاً على الحكم في بلد ما بتوفر أسبابها المادية، وإنما تحاول أن تستزيد وتستزيد، فتسلب الطبقات الأخرى كل حقوقها، بل تدفعها لذة الإنتقام إلى الاعتداء على وجودها وسلبها أقل ما يمكن أن تقوم به الحياة الإنسانية، في حين نلاحظ أنّ الأهداف التي تسمو على مستوى المادة، تمتلك من الضوابط الدقيقة ما يمكنها من إيقاف أي متجاوز عند الضرورة عند حده كما سيأتي شرحه إن شاء الله تعالى.

ولئن اعترض علينا بوضع المسلمين اليوم فإن جوابنا واضح لأن هذا الوضع لا يمثل الصورة الإسلامية المثلى.

د- افتقاده للضمان في مرحلة السير إليه أولاً. وفي مرحلة ترتب النتيجة ثانياً:

ونقصد من ذلك أن الهدف المادي مهما كان، لا طريق إلى تحقيقه، ولا ملزم بالسير نحوه، إلاّ الرغبات النفسية والقانون. والرغبات النفسية ليست وفيّة للهدف الواحد دائماً، بل هي متقلبة مع أية ريح تميل بها إلى اهداف أخرى، أو هي متوقفة عند أقل شبهة تثار اماها. وأما القانون فهو صنيعة الإنسان، متى شاء غيره إن استطاع. هذا من جهة حتمية، وأما مع غض النظر عن ذلك فغير خاف، أنّ القانون، إنما يعامل الإنسان

على حدّ أدنى من الطاعة، ولا يمكنه - بأية حال - أنّ ينفذ إلى أعمق جانب وأهمه في الإنسان، ذلك هو الجانب الخفي في تفكيره، والذي يشكل ضمانة الدفع الضرورية لكل عمل متواصل مترابط يتطلب سعياً وصبراً للوصول إلى غايته المنشودة، وحينئذ يكون القانون عاجزاً عن تقديم الضمانة الكاملة للتطبيق. هذا أولاً. وأما الأمر الثاني الذي يفتقد الهدف المادي على أساس منه ضمانة التحقيق، فهو الترابط العلي بين سلوك الطريق المعين من قبل المبدأ، وحصول الهدف المعلن من قبله... فإنه يظل الهدف الذي يرفعه أي مبدأ ما، مجرد شعار وأمل غير مرتبط بالواقع، ما دام معرضاً لإحتمالات كثيرة منها الخطأ في الإجتهاد الذي تصور الترابط، ومنها تبدل الظروف التي يصبح معها الترابط بين السبيل والهدف واهياً، إلى غير ذلك.

في حين يسلم الهدف الديني من مثل هذه النقاط الموهنة، فالإنسان المسلم مثلاً - كما سيأتي إن شاء الله - يشعر تماماً بأنّه مرتبط بسرّ الكون والحقيقة التي ليس فوقها شيء. وأنّه ان سلك الطريق المرسوم فانه سيصل حتماً إلى النتيجة وإن كان أخطأ الطريق في الواقع.

وسنرى أنّ المسلم ينقطع رجاؤه إلاّ من الله تعالى. ويعتقد أن غير الله لا قيمة له في أية نتيجة. وهذا ما نراه واضحاً في الدعاء الذي يعلمه الإمام لاتباعه إذ يقول العبد فيه مخاطباً ربه: «ولو رجوت غيرك لأخلف رجائي».[1]

هـ - الفشل الظاهري الأول يكفي لزعزعة الثقة بالمبدأ في مجال تحقيقه للهدف. وذلك أمر مهم جداً يسلم منه الهدف الديني. وتوضيحه هو: أنّه لو إفترضنا أنّ مبدأ مادياً حمل لواء دعوة إلى هدف معين ودعا اليه الإنسانية كلها، ثم نهض بالأمر وامتلك زمامه في منطقة ما، ولكنه فشل في تحقيق ما كان يدعو إليه، فإنّه حتى لو كان الفشل نابعاً ن ظروف خارجية، فأنّ ذلك بلا شك، يوضح عدم إمكانياته في تحقيق ذلك الهدف للعالم كله.. في حين لا يكون ذلك موجباً لأي وهن أو ضعف في إتباع الهدف

---

(١) الصحيفة السجادية، ص ٢١٤، واقبال الاعمال، ص١٥٧، تاريخ دمشق لابن عساكر، ج ١٧، ص ١٠٥.

الغيبي. إذ لا يهم أولئك النصر والهزيمة ماداموا قد ادوا واجباتهم إداء كاملاً. لأنهم يعلمون أنّ النتيجة لهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

مثال رائع

وتحضرني وأنا أمر بهذا الجانب كلمة قالها بطل الإسلام الخالد الإمام أمير المؤمنين(ع) وعبر بها عن شعور المسلم الواعي الأصيل، بأنه المنتصر مهما كانت النتيجة الظاهرية.

فحياته (ع) في حساب الموازين المادية - خسارة ما بعدها خسارة - ليس فيها إلاّ العناء، وإلاّ الجهاد، المتواصل والخسران الشخصي المادي، وتألب الأعداء، والأصدقاء وغير ذلك. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهو يلمح مستقبلاً مظلماً كئيباً مخضباً أفقه بدماء أولاده الطاهرين.

كل هذه يحسبه أمير المؤمنين، في لحظة رائعة من لحظات تهجده، والدم يخضب شيبته الكريمة، وهو في محراب مسجد الكوفة، وسم السيف ينفذ إلى أوصاله، يحسب ذلك علي(ع)، ثم ينطلق بمقولته الرسالية الواعية الخالدة: «فزت ورب الكعبة».[2]

نعم إنّه الفوز الكامل: أن يقوم الإنسان الواعي الهادف لأهداف تسع الوجود كل الوجود، بما عليه من واجبات ومهمات وتضحيات فيؤديها خير إداء وفوق ما تتطلب ويعود إلى ربه هادئاً مطمئناً واثقاً حقاً من العطاء الخالد الذي ينتظره.

ولعمري هل يقاس مثل هذا الموقف إلى موقف قادة الشيوعية أو النازية، أو ما إلى ذلك من بادئ مادية، والذين ما أن شعروا بهزيمتهم حتى رأيتهم يتهافتون على الإنتحار...!!

---

١ - الأعراف: ١٢٨.

٢ - البحار، ج ٤١، ص ٢، تاريخ دمشق لابن عساكر، ج ٤٢، ص ٥٦١، واسد الغابة ج ٤، ص ٣٨، انساب الاشراف، ص ٤٩٩.

و- قطع الصلة الواقعية بين الجيل الحاضر والأجيال الماضية.

وهذا جانب مهم في مجال تعداد موهنات الأهداف المادية. فكلنا يعلم أنّ الأهداف الكبرى - والمفروض أن الأهداف المادية كذلك إذ عرفنا أنها أهداف عالمية - لا يمكن تحقيقها بجيل واحد، وإنما قد يحتاج الأمر إلى أجيال وأجيال. فما من مبدأ عالمي امكن أن يحقق أهدافه العظمى في إطار جيل واحد، بل ما من مبدأ إدعى ذلك. وهذا يتطلب حياة دائمة لكل أفراد المسيرة.

وقد قلنا: ان هذا الأمر يتناقض مع الأساس المادي للمبادئ المادية بـإعتبار أنها افترضت فوائد تصيب الإنسان بعد موته، مع أنّ ذلك خرافة في نظرهم، وفي هذا المقطع نحاول أنّ نشير إلى نفس النقطة من جانب آخر، وهو جانب الجيل الآتي وتأثره الفكري والعاطفي بالجيل السابق.. فلا ريب في أن كل جيل بنفسه يمتلك منابع الطاقة المحركة التي قد لا يملكها أو لا يملك مثلها الجيل الآخر. واقصد بهذه المنابع أمثال وجود القائد المحنك الذي يستطيع أن يحرك الجماهير بطاقاته، أو وجود الفرقة المنظمة المحكمة التي يجد قدمها وتماسها بالأمة له مساقط في عواطفها لا يمكن أن تنمحي أحياناً. وذلك ملحوظ في الأمة التي امتلكت قائداً معيناً اعطاها كل ما يملك، وعاش معها آلامها وآمالها، فإنّ هذه الأمة ستظل بعد وفاته تعيش إلى زمان يطول أو يقصر - حسب قوة التأثير - على بقايا شخصيته، وانشدادها بها.

واحسب أننا بهذا المثال قد أعطينا النموذج العالي، ويمكننا أن نجد نماذج على مختلف المستويات تصل إلى التأثير الذي يتركه أب حازم حليم متزن، في ابن نما ومثله الأعلى ذلك الأب، أو معلم عالم أمين مرب في تلميذ تربى على يده واستقى أهدافه من تعليماته، وأخيراً صديق ودود عاقل ذو شخصية جذابة تشدّ إليها نفوس اصدقائه وتربطهم به ربطاً يظل يمتلك القوة الشادة حتى بعد وفاة ذلك الصديق.

ولو تعدينا هذا الإرتباط المباشر بين الجيلين الماضي والتالي، فانا نشاهد عملية ربط أكبر من ذلك، يقوم بدور الوسيط فيها الفكر والقلم البناء، حيث يقدم القائد الفكري مثلاً نتاجه إلى التاريخ ويسجله التاريخ في صفحاته الخالدة، ثم تأتي أجيال وأجيال

تتملى ذلك النتاج وتعشق تلك الروح العالية التي أبدعته، وتروح تستمد منها العزم والاخلاص، وتناجيها في خطواتها الحياتية.

إننا نؤكد على أنّ لكل ما بيناه من أنواع الانشداد تأثيره الفكري تارة، والعاطفي أخرى، والاثنين معاً مرّة ثالثة. وذلك لخلق دفع وعزم وإصرار طموح للعمل، هذا هو الأمر بغض النظر عن ما نريد تطبيقه عليه. وإذا رجعنا إلى مجالنا هذا نجد أن الأهداف المادية لا تملك وبالأحرى فإن اتباع المبادئ المادية لا يجدون في أنفسهم ذلك الدافع القوي المؤثر وذلك الارتباط إلا في الحدود العاطفية الخيالية فقط، وهم يشعرون بذلك - ولو في لحظات وعيهم لأنفسهم على الأقل - وهذا الشعور كاف للتقليل من الإنشداد ان لم نقل بكفايته للقضاء عليه.

وفي هذه النقطة نجد من الطريف حقاً بل من موجبات السخرية أن يقف قائد مادي على جسد قائد آخر فيقسم له بشرفه أنّه سينتقم له، أو أنّه سيبقى حياً في القلوب أو بقوله: «نم قرير العين فجيلك الذي ربيته على مبادئك سيسير على نفس الطريق... كذا» أنّ ذلك يتناقض مع عقيدته بالروح أو الحياة الأخرى. و و.. إلى غير ذلك.

أما إذا انتقلنا إلى الطرف الآخر، إلى محيط الدين والأهداف الدينية، فإنا سنجد ذلك أساساً من أسس العقيدة. فالمسلم يعتقد في أصول عقيدته أنَّ الإنسان يمكنه أن يعيش عالماً غيبياً آخر غير ما نحس ونتصل به اتصالاً مادياً.

وهناك في ذلك العالم يمتلك بصراً جديداً، ونفوذاً عملياً فريداً غريباً على عالمنا... فهو إذن يرقب من خلفهم وراءه بكل دقة وهو يفرح واقعاً كلما عمل الآخرون له عملاً خيراً، ويسوؤه جداً ما يطلع عليه من إنحراف.

فالجيل التالي في ظل العقيدة الإسلامية يعتقد بكل جدّ، ان الجيل الماضي وفيهم القائد الفلاني الكبير يرقبهم في كل خطواته ويلاحظ كل إنماط سلوكه... بل يمكن القول بأنّ الأمر يزداد تأثيراً بعد الموت عنه في حالة حياة القائد. فلربما كانت حياة القائد المادية تمنعه عن مراقبة أنواع السلوك التي كان يقوم بها أتباعه، ولكنه بعد موته يمتلك تلك الطاقة التي يمكنه بها أن يطلع ويراقب.

وسيأتي إن شاء الله حديث يرتبط بهذه النقطة، عندما نبحث الأمل في العقيدة الإسلامية والمفاهيم القائمة على أساسها ونربط بينها. وهناك نشير إلى عنصر انتظار القائد المهدي(ع) وتأثيراته في حياة الجماعة المسلمة.

الأمل في الإسلام

يحسن بنا قبل أن ندخل في بيان مظاهر الأمل في الإسلام أو منمياته على الأصلح، أن نحدد مفهوم كل من الأمل والرجاء والتمني، كمقدمة لفهم النصوص التي ترد في البحث.

ولأول وهلة، يبدو أنّ الأمل يعني ما يتوقعه الإنسان أو يتطلبه ويتصور وقوعه بما يتعلق بالأمور المادية في هذه الحياة الدنيا في حين أنّ الرجاء يتعلق بالأمور المعنوية التي تدخر للإنسان في عال الغيب. ويختص التمني بعد ذلك بالظن الكاذب والتخمين الخادع.

ولكن هذا التصور الأولي الذي اوجدته كثرة الإستعمال في هذه المعاني غير صحيح كذلك سيتوضح بعد قليل.

رأي بعض المراجع اللغوية

يقول المحقق الكاشاني:

الرجاء: الفرح لإنتظار محبوب. فأن حصل أكثر أسبابه صدق اسم الرجاء، وان فقد فالغرور، فإن شك فالتمني[1].

ويقول في مجمع البحرين: الأمل بالتحريك... الرجاء... وهو ضد اليأس ومنه قوله تعالى: «وخيرأملاً »[2].

وقال الراغب الأصبهاني في مفرداته:

---

١ - المحجة البيضاء في تهذيب الاحياء، ج ٧، ص ٢٤٩.

٢ - مجمع البحرين، ص ٤٢٣، الطبعة القديمة، باب الأمل.

والتمني تقدير شيء في النفس وتصويره فيها. وذلك قد يكون عن تخمين وظن، ويكون عن رؤية وبناء على أصل، لكن لما كان أكثره عن تخمين، صار الكذب له املك. فأكثر التمني تصور مالا حقيقة له»[١].

وقال: «والرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة». وعلل تفسير الرجاء بالخوف في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[٢]. بأنَّ الرجاء والخوف متلازمان [٣].

وهكذا رأينا أنّ بعضها يفسر الأمل بالرجاء، وبعضها الآخر يجعل الرجاء المبتني على أساس اصل معين نوعاً من التمني وإن كان الإستعمال فيه قليلاً.

الإستعمال في النصوص الشرعية

يمكننا بملاحظة النصوص الشرعية أن نخرج بالنتيجة التالية وهي: إنّ الأمل والرجاء والتمني كلها تستعمل في معناها اللغوي وهو طلب الحصول، وذلك أعم من حصول الشيء الدنيوي أو الأخروي والقرينة اللفظية أو الحالية هي التي تحدّد أيهما المراد.

فنحن نجد إلى جنب النصوص التي تذم الأمل من قبيل ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾[٤]. وما نجده في دعاء أبي حمزة الثمالي الذي علمه الإمام السجاد(ع) إياه، إذ يقول في مقام المعتذر: «فقد أفنيت بالتسويف والآمال عمري »[٥]. وما ورد في دعاء كميل الذي علمه الإمام أمير المؤمنين(ع) لكميل بن زياد: «وحبسني عن نفعي بعد أملي« [٦]. وقول الإمام(ع): «اخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل»، والمقصود بها طبعاً بقرينة الحال الأمل الدنيوي الدنيء، نجد إلى جنبها نصوصاً

---

١ - المفردات، ص ٤٧٦.

٢ - نوح: ١٣.

٣ - المفردات، ص ٤٧٦.

٤ - الحجر: ٣.

٥ - مفاتيح الجنان، ص ٢٤٦.

٦ - نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج ١، ص ٧١.

تمدح الأمل مثل ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1]. «عظم يا سيدي أملي وساء عملي فاعطني من عفوك بمقدار أملي»[2] بل يعتبر الإمام(ع) الدنيا دار أمل، كما جاء:

«ألا وأنكم في أيام أمل من وراءه أجل فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله، نفعه عمله ولم يضرره أجله» [3].

ومن دعائه يقول: «أن تؤمل فخير مؤمل». وفي موضع آخر: «وقد ساقني إليك أملي». والنكتة في الذم والمدح كلها تكمن في متعلق الأمل، فإنّ كان في إطار مادي محض أي مجرد عن الإستعانة بالله تعالى فإنّه غرور وضياع، كما تقدم في شرح الأهداف المادية، وإنّ كان المتعلق أخروياً أو دنيوياً طريقياً إلى الأهداف المعنوية فهو الخير كل الخير.

يقول(ع): «ان الدنيا تغرّ المؤمل لها والمخلد إليها»،[4] «أنّ النعمة لن تسلب إلا بكفر يؤملهم بخير الدنيا ظاهراً».

وسيأتي في خلال البحث نصوص وأحاديث توضح هذا المعنى.

وهكذا لفظ الرجاء فقد استعمل في معناه اللغوي، ولكنّا وجدنا أنّ الغالب في استعمالات النصوص الشريفة له، هو فيما إذا كان متعلق الطلب أمراً مشروعاً وغالباً ما يكون معنوياً اخرويا، كما يلاحظ في النصوص التالية: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾[5].

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾[6].

---

١ – الكهف: ٤٦.
٢ –بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ٣٣٣.
٣ – نهج البلاغة، ج ١، ص ٧١، تاريخ دمشق، ج ٤٢ص ٤٩٧، كنز العمال، ج ١٦، ص ٢٠٢، البداية والنهاية لابن كثير، ج ٨، ص ٧، يقول أمير المؤمنين(ع): «والبصير منها متزود، والأعمى لها متزود».
٤ – نهج البلاغة، ج ١، ص ٩٨.
٥ – النساء: ١٠٤.
٦ – الكهف: ١١٠.

ويقول أمير المؤمنين(ع): «وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة»[1].

«الحمد لله الذي لا أرجو غيره ولو رجوت غيره لا خلف رجائي»[2].

«يارب أنّ لنافيك أملاً طويلاً كثيراً – أن لنا فيك رجاء عظيماً»[3].

أما التمني فهو يستعمل غالباً ومع القرينة في الأمور الدنيوية، وقد يستعمل في المعاني الصالحة، مثل ما ورد في الدعاء «وبلغني مناي ولا تقطع من فضلك رجائي»[4].

وهكذا تكون النتيجة أنّ كل هذه الألفاظ تستعمل في الأمل الصحيح في نظر الإسلام وأن كان الأخير غالباً ما يستعمل في الأمور الدنيوية.

وبعد هذه الالمامة السريعة بالألفاظ ننتقل إلى موضوع بحثنا الرئيسي وهو استعراض روافد الأمل ومقتضيات فعاليته في الإسلام. ومن الطبيعي أن نحاول التعرف على منابع الأمل في مجالين: الأول، مجال العقيدة والثاني، مجال القوانين والمفاهيم المبتنية على أساسها، ونحاول أن نبحث عن الروافد في كل منهما على حدة، بعد الإشارة إلى نكتة مهمّ جداً في البين هي:

الترابط بين أجزاء الإسلام

فإنّنا نضطر في كثير من الأحيان لتجزئة الإسلام لأجل التوضيح والبرمجة في البحث. فنبحث مثلاً عن أهمية الاقتصاد الإسلامي وأهمية النظام الجنائي وغير ذلك كل على حدة، وذلك على ما فيه من منافع قد يخل بإعطاء الصورة الكاملة الإسلامية العامة، بحيث أنّ التجزي، يخلّ قطعاً بها، بإعتبار أنّ كل ما تحويه العقيدة

---

١ – مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي، ص ٢٤٦ – ٢٤٨.

٢ – المصدر السابق، وراجع: ص ٣٠٥.

٣ –المصدر السابق.

٤ – المصدر السابق.

والتشريع والمفاهيم منطلق من زاوية تقييم واحـدة، وملحـوظ في الكـل منـها وجـود الأجزاء الأخرى لكي تثمر ثمرتها الكبرى في صياغة إنسانية متكاملة.

وهكذا نحن هنا في بحثنا يجب أن نلتفت إلى التركيب بين روافـد الأمـل في العقيـدة وفي المفاهيم لكي تتوضح لنا الصورة كاملة. ولا يكفي في معرفة ذلك دراسة كل علـى حدة، بل يجب ملاحظة كل جزء مفهومي في إطار العقيدة التي يقـوم عليهـا، وفي جـو المفاهيم الأخرى التي ترتبط به لنعرف ثراء ذلك الرافد.

الفصل الاول - روافد الأمل في العقيدة الإسلامية

يجد الإنسان المتبصر في العقيدة الإسـلامية منـابع عظمـى للأمـل الـواقعي المحـرّك المطلوب لكل سلوك... ونحن هنا سنستعرض ان شـاء الله تعـالى مـوجزاً عـن معـالم العقيدة بما يرتبط وهذا العنصر، بأسسها الثلاثة، التوحيد والنبوة والمعاد، وتفريعاتها، ثم نعقب ذلك ببحث حول القوانين التي يحدّثنا القرآن عن أنها تحكم هذا الكون بالإضـافة للقوانين الطبيعية، ثم نستعرض النتائج التي يمكن أن نستخلصها بعد الوقوف علـى مثـل هذه الأمور وأثرها في رفد الأمل المحرّك عند الإنسان.

التوحيد

وملخص نظرة المسلم إلى الواقع الموضوعي[1]، أنّ كـل مـا هنـاك في الكـون مـن موجودات وحوادث، سواء كانت واقعة تحت الحسّ الإنسـاني أو غـير قابلـة للوقـوع تحته، وسواء كانت في أعماق المحيطات، أو في آفاق السماوات، أنّ كـل مـا في الكـون على العموم يرتبط بمركز قوة واحد، ومصدر عطاء واحد ارتباطاً قوياً جـداً، بحيـث لا يمكن تصور الانفصال، بل يعتقد أنّ الكون كله إنما هو مجرد ارتباط وجودات حقيقتـها الإرتباط، وواضح أنّ الوجـودات الإرتباطيـة لا تقـوم إلا بـالوجود المـستقل بنفـسه

---

١ - سنحاول هنا، الخلط بين الصفات الذاتية والفعلية لسبب موضوعي.

المفيض على غيره ما يحقق وجوده وبقاءه، ذلك الصدر الأعلى والمبدأ الأول هو الله تعالى الماسك بزمام الكون. وعند التفصيل أكثر والانتقال إلى صفاته تعالى فأنّ المسلم يعتقد - على ضوء تعاليم الإسلام - أنّ الله خالق الجميع بلا فرق بين جنس وجنس، وعنصر وعنصر، وحي وغير حي، وهو ربّ كل الأشياء في الكون. (الحمد لله رب العالمين) فهو الاله للعالم. وهو الاله الواحد المسيطر على كل فعاليات الوجود. فهو إله القدرة والبركة والبحر والصحراء وكل ما يتصور، وأنّه لا يتصور الإرتباط القرابتي له مطلقاً من نسبة ولد أو زوجة أو بنت له تعالى فنسبته إلى الجميع نسبة واحدة، وهي نسبة الخالقية، وهو مسبب الأسباب كلها ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ (١). والمطلع على كل ذرة في الكون ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ (٢). وهو الإله الحي، بمعنى أنّ حقيقته هي الحياة ﴿اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٣). فحياته هي علمه وقدرته، وهو الإله الأبدي والأزلي بمعنى أنّه فوق الزمان وفوق المكان، وأنّه الحقيقة المطلقة التي لا تتقيّد بأي منهما فنسبته إلى الجميع واحد ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (٤).

وهو الإله القادر قدرة مطلقة أيضاً بلا حدود. وهو الإله السميع البصير، وهو الإله القيوم، والقهار والرؤوف إلى ما هناك من صفات الكمال والجمال.

فخلاصة الأمر

إنّ الله في الصورة الإسلامية، هو الحقيقة المطلقة التي لا تحدّ قدرتها وعلمها وحياتها حدود.

وهذا يستلزم في النهاية أن يكون تعالى منزها عن كل قوانين المادة. فكيف تحكمه وهو خالقها والمادة معاً، فليس هو بمركب ولا قابل للتغيير، وهو غير محتاج للمكان

١ - الاعراف: ٥٤.
٢ - الانعام: ٥٩.
٣ - البقرة: ٢٥٥.
٤ - الحديد: ٣ .

والزمان، ولا تأخذه سنة ولا نوم.

وملخص الصورة، أنّ الكون كله محكوم لتلك القدرة الحكيمة الخالقة المسيطرة التي لا يعزب عنها مثقال ذرة: في الأرض أو في السماء.

النبوة

ويعتقد المسلم ان مسألة النبوة تطرح نفسها من خلال ضرورات كبرى هي من أمثال:

ضرورة وجود القانون الذي يقوم بمهمة الحفاظ على المسيرة البشرية، وتنظيم أمورها وضمها في درب واحد نحو تحقيق السعادة بأقصى درجاتها.

وضرورة كون هذا القانون محيطاً بكل جوانب الاحتياج البشري، وملائماً ومقيماً العدالة بينهما، وهذا ما لا يتأتى للإنسان ان يصل اليه تماماً ومن هنا نبعت الضرورة للإستمداد من الخالق الجبّار المحيط العالم بكل ذلك. وتبقى بعد ذلك ضرورة أنّ يبعث الله تعالى هذا القانون ويوصله إلى البشرية، مربياً إياها على مراحل وهذا كله بمقتضى لطفه ورحمته تعالى، وهما من صفات الكمال.

وأخيراً ضرورة أنّ تبعث الرسالة إلى الإنسان على يد أفراد من البشر مؤمنين طاهرين، يؤدونها بكل إخلاص بعد أنّ يتسلحوا بما يثبت للإنسانية إتصالهم الغيبي وسفارتهم المقدّسة عن السماء. وقلنا ضرورة ذلك ونحن نعني ما نقول: إذ لا يمكن أنّ يقود الإنسانية إلاّ أفراد منها يعيشون معها ويقدمون لها النموذج الإنساني الأفضل، ومن هنا كان الإعتقاد بنبوة الأنبياء الكرام عليهم أفضل الصلاة والسلام.

كما ويعتقد المسلم أنّ الأنبياء كلهم، بعثوا إلى غاية واحدة، وهي تعبيد الإنسان لله. بمعنى أن ذلك هو الواقع الذي يجب أن يسود البشرية، لتبصر حينذاك طعم سعادتها الحقيقية، سواء في الجانب المادي أو في الجانب المعنوي وأنهم ساروا بالتدريج مع الإنسان يربونه على مراحل، شيئاً فشيئاً. وتختلف عندهم النظم بمقدار قابلية إنسان عصرهم، ولكن الأسس واحدة، وأن اختلفت في درجات توضيحها وتركيزها وفقاً للمستوى العقلي السائد في كل مرحلة.

كما ويعتقد المسلم، أنّ الإسلام هو الدين النهائي أو الوصفة النهائية التي قدمتها السماء علاجاً لكل أدواء الأرض بكل أجيالها وأزمانها، وأن فيه ما يتكفل إيصال ركب الإنسان إلى غايته المنشودة.

الامامة

ويستمر المسلم الشيعي في الخصوص بالإعتقاد بوجود أوصياء اثنى عشر اختيروا من قبل السماء وبمقتضى مؤهلات عقائد وقيادية عالية منهم، وأنّ أرادة الله شاءت أنّ تحفظ آخرهم من نقمة الظالمين فتمنحه بقدرتها الخارقة صفة الغيبة عن الأنظار. فهو إذا المدخر لإحياء دين النبي، وتقويم الشريعة، وإستثمار جهود الأنبياء في دولة العدل الكبرى في اليوم الموعود، محققاً بذلك كل الآمال التي طمحت إليها كل الأمم والملل.

وفي مجال صفات هذه السلسلة الطاهرة من لدن آدم، يعتقد المسلم أنها أيضاً جامعة لكل صفات الكمال في الإطار البشري أي بمعنى أنّها تجمع صفات الكمال التي يمكن أن يتصف بها إنسان بشر محكوم لكل قوانين المادة.

فهم الطاهرون المؤمنون الواعون المضحون، بعيدو النظر القائمون على تبليغ رسالة الله للإنسان، المحبون للإنسانية العاملون على رفعتها، ودفع ركبها نحو الغاية المنشودة من كل ذلك.

المعاد

ويعتقد المسلم بالمعاد كركن ثالث من أركان عقيدته، وملخص عقيدته فيه، أنّ الإنسانية ستنتهي من خلال مسيرتها الطويلة إلى مرحلة أخرى من مراحل تكاملها بعد أن تطوى حياتها الحالية بكل ما فيها من سعادة.. وشقاء وخصائص أخرى وهناك الثواب والعقاب العظيمان.

هذه هي أصول العقيدة الإسلامية وتتفرع منها تصورات لها دورها الكبير في مجال

تنمية الأمل الإيجابي الفعّال.

الفصل الثاني – الأمل في التصورات النابعة من العقيدة

واهم هذه التصورات ما يأتي.

١- مسألة القضاء والقدر

في مطلع الإشارة إلى بعض القوانين العامة المتحكمة في الكون، نود أنّ نكون على ذكر من روح مسألة القضاء والقدر. وخلاصة الأمر أنه قد شطت فيها الكثير من العقول، وانقسمت لأجلها الآراء على طول خط الزمن الطويل، فبين من فرضت عليه مسألة الايمان بعمومية قدرة الله تعالى وعدم تحديد مشيته في مورد ما أنّ يقول بالجبرية. مما كان له أبعد الأثار في عملية التقاعس عن مقارعة الباطل، وشدّ أزر الأقوياء للتحكيم بدماء الأمة، بحجة أنّ ذلك قضاء وقدر إلهي، وكذلك موت روح الإبداع والتسابق نحو الخير، إذ ما الداعي لذلك والإنسان محكوم لتلك القوة الجبارة المتحكمة. وبين من فرضت عليه مسألة الوجدان القاضي بأنّ الإنسان مختار في أعماله وليس مجبوراً على عمل أي عمل، أنّ يقول بالتفويض الكامل، وتحديد المشية الإلهية.

ومنهم فريق ثالث أقتصر على تخصيص آثار المشية الإلهية في خصوص ما عدا أفعال الإنسان الإختيارية.

ولا يهمنا إلاّ الإشارة لهذه الأقوال لنخلص إلى أنّ الواقع الذي لا يقبل الرد هو أنّ المشية الإلهية لها عموميتها، وأنّ الحرية الإنسانية أيضاً لها وجودها، على اساس أنّ إرادة الله تعالى ارادت لنظام العلية أن يقوم بعمله خير قيام بنفس الإرادة عينها التي خلق العالم بها. بجريان نظام العلية هو بنفسه معلول للمشية الإلهية. ونفس هذه الإرادة هي التي اقتضت أن يصدر العمل الإنساني. بمقتضى إختيار الإنسان. هذا هو الواقع الذي يؤيده الوجدان والدليل العقلي، وهو الذي التزمته مدرسة أهل البيت(ع) حينما أعطت رأيها في هذه المسألة. كما أنه الذي فهمه المسلمون الأوائل ببساطتهم قبل أن

تطغى عليهم الشبهات التي أثارتها الفلسفة المستوردة.

فلم يكن اعتقادهم بالقضاء والقدر ليمنعهم عن أن يسألوا الله خير قضاء وخير قدر، وعن العمل والدعاء في آن واحد.

والذي يجب أن نلتفت إليه أيضاً في المسألة، هو النظر إليها من الزاوية الإلهية الإسلامية.

وقيّدت النظر بالإلهية، لأنفي انحصار العوامل والعلل في الكون بالعلل والعوامل المادية، ولأثبت - كما عليه النظرة الإلهية - تأثيرات أخرى لعوامل معنوية لها أثرها الكبير في تعيين المصير وذلك كما سيأتي في ما بعد، وقيّدتها بالإسلامية، لأجل أن أنفي ذلك التشويه الذي أصاب العوامل المعنوية فجعلها عوامل محدودة، ولصالح طبقة معينة كما رأيناه مثلاً عند اليهودية.

ولكن من أين لنا أن نستقي ونتعرف على ماهية هذه العوامل المعنوية؟ لا طريق لنا إلى ذلك إلاّ ما يخبرنا به الوحي الصادق لأنّه منطلق من منبع الحقيقة، ومطلع على أسرار الكون التي تخفى بطبيعتها الأولية علينا معشر بني الإنسان.

والحقيقة أنّ القرآن الكريم يكشف للمسلم الكثير من هذه القوانين العامة، والتي سنرى تأثيراتها في عملية صياغة الأمل الدافع الإيجابي.

وإننا إذ نعرض لبعض هذه القوانين لا ندعي إننّا استكملنا الصورة التي يريد القرآن إعطاءها عن الروابط في الكون، وأنا أحطنا بتمام العناصر الدخيلة في نوعية القانون. وإنما نتخذ صفة المشير إلى هذا القانون ولو بشكل إجمالي لنحاول أن نعرض إلى دوره في صياغة إيجابية الأمل.

٢- الحق سر الكون

قول الراغب في مفرداته - بتصرف - :

«صل الحق المطابقة والموافقة كمطابقة رجل الباب في حقه لدورانه على إستقامة. والحق يقال على أوجه:

الأول: يقال لوجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة. ولهذا قيل في الله تعالى هو

الحق (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق).

الثاني: (للموجد بحسب مقتضى الحكمة. ولهذا يقال الله تعالى كله حق (وأنّه للحق من ربك).

الثالث: من الإعتقاد بالشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه. كقولنا: اعتقادنا فلان في البعث والثواب... حق (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق).

الرابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب وبقدر ما يجب وفي الوقت الذي يجب. كقولنا: فعلك حق (حق القول مني لأملأنّ جهنم)»[1].

ويمكننا أنّ نستنتج من مجموع هذه الاستعمالات أن الحق يعني باختصار: الأمر الواقع أو الواقعي.

ونقصد بالواقع: الموجود المتعين في الواقع الموضوعي أو العالم المستقل عن الصور الذهنية، وبالواقعي الأمر الذي يطابق مقتضيات الواقع الخارجي.

وأروع إنطباق للحق هي في الذات الالهية بإعتبار أنّها بلغت من الوضوح لدى الفطرة الإنسانية بحيث عاد الإيمان بها إيماناً بديهياً فأنوار الله تعالى قد غمرت الوجود فلم تعد تبصر الاّه تعالى في كل شيء، لذا كان هو الحق الذي لا مراء فيه والواقع الذي لا يشك فيه.

أما ما عداه تعالى من مخلوقاته وتشريعاته التي أسماها القرآن بالحق فهي -كما أرى - اكتسبت صفة الحق من وجهتين:

أ -من كونها واقعاً موضوعياً وهذا كما نشاهده في قوله تعالى (يوم يقوم الناس بالحق)[2]. فيلاحظ هنا التأكيد على الأشياء الخفية عن حس الإنسان وإعطائها صفة كونها حقاً لتركيز الإيمان بها.

ب - من كونها وجدت وفق مخطط إلهي عام للكون، كل جزء فيه ضروري لسير الحركة الكونية، ودخيل في تحقق الغاية المرجوة من الخلق التي أرادتها العناية الإلهية

---

١ - المفردات للراغب الأصفهاني، ص ١٢٥.

٢ -المصدر السابق .

منذ ارادت أن يكون فكان، وفي هذا القسم الثاني تدخل كل الأشياء سواء كانت مخلوقات تكوينية أو قوانين تشريعية. يقول تعالى:﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[1].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بالحق﴾ [2].

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [3].

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [4].

﴿قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [5].

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [6].

٣ - العدل يسري في انحاء الوجود

رغم أن البحث الكلامي والجدل الذي دار بين الفرق الإسلامية كان ينتهي أحياناً إلى نتائج معيّنة، يتغلب فيها أنصار العدل حيناً، وتقوى الشبهات فيغلب أنصار رفض العدل حيناً آخر، فأنّه مما لا شك فيه لدى المسلم: أنَّ العدل - بأي معنى من معانيه - يبدأ بالعدل الإلهي بمفهومه الإجمالي الذي حدّثنا عنه القرآن الكريم، وينتهي بتطبيقاته في كل ذرة من ذرات الوجود.

فالعدل العام إذن في إعتقاد المسلم قوة أخرى وعامل قوي من العوامل المعنوية، التي تتدخل لصالح القضية العادلة في الكون... والظلم بنفسه يشكل عاملاً من عوامل الزوال والفناء، بغض النظر عن العوامل الأخرى.

هذا بإيجاز ملخص نظرة المسلم العامة، ولا مجال للإفاضة فيها أكثر، فلنلاحظ

---

١ -البقرة: ١٧٦ .
٢ -الأنعام: ٧٣ .
٣ - الأعراف: ٨ .
٤ - التوبة: ٣٣.
٥ -يونس: ٣٥.
٦ - العصر: ٣ .

الآيات التالية:

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ (١).

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ (٢).

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ﴾ (٣).

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ﴾ (٤).

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (٥).

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ (٦).

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (٧).

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٨).

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ (٩).

﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ (١٠).

﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ﴾ (١١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ﴾ (١٢).

---

١ - الشورى: ١٥.
٢ - النحل: ٩٠.
٣ - الأنعام: ١١٥.
٤ - هود: ١٠١.
٥ - البقرة: ١٢٤.
٦ - النمل: ٥٢.
٧ - النساء: ٤٠.
٨ - الكهف: ٤٩.
٩ - الأنبياء: ٤٧.
١٠ - غافر: ١٧.
١١ - آل عمران: ١٨.
١٢ - النساء: ١٣٥.

٤ - الحب إطار العلاقات بين مختلف أنحاء الوجود:

ومما يعتقد به المسلم على ضوء القرآن الكريم: أنَّ هناك إطاراً رحيماً عاماً شاملاً لكل أنحاء الوجود، وسارياً في مختلف أنواعها، فالعلاقات بين الخالق والمخلوقين يؤطرها الحب، والعلاقات بين المخلوقين المتحدي الهدف والمتأدبين بأدب السماء روحها الحب، وحتى العلاقة بين المؤمنين في الكون وبين أجزاء الكون التي لا تمتلك شعور الإنسان، حتى هذه العلاقة، يحكمها الحب المتبادل.

ومبررات هذا الحب واضحة تماماً على ضوء العقيدة الإسلامية وتعاليم القرآن، فإذا بدأنا بالإطار الودي القائم بين الإنسان وربه أدركنا أروع علاقة حب تتفاوت درجاتها، من حب يقوم على المصلحة في طرف الإنسان ولكنه على أي حال حب جارف، إلى حب خالص واع يعبر عن قمة في هذا المعنى، أنه حب الأوصياء المخلصين.

والإسلام يمتلك خاصية أنّه يبدأ بالأشياء ببداية بسيطة، كأقامة حب يقوم على ذلك الأساس المصلحي، ثم يرتفع به إلى مستوى يجعله جزءاً من كيان الإنسان. ودافعاً ذاتياً يتحكم في سلوكه، ويوجهه لصالح القضية الإنسانية العامة.

أما الحب من طرف الباري جل إسمه، فهو وأن كان يخلق في نفوس السذج من المؤمنين نفس الإيحاءات والتصورات البشرية من الحب بين الكائنات، ولكنه في الواقع أسلوب تعبيري عن القرب من العطاء الإلهي والاختصاص بالرحمة والرضوان بصورة أكبر من ذي قبل . وإنني قد أجزم بأنَّ الإيحاء الأول حاصل حتى عند بعض أعمق المؤمنين بالله تعالى بالنظرة الأولية: وأنّ هذا أيضاً بنفسه مطلوب ومقصود. إذ أن الحب حرارة ولوعة وشوق، والنصوص القرآنية الكريمة تركز على عملية خلق الانفعال وشدّ العواطف للباري عزّ وجلّ بأساليب، منها بل أعظمها الدوافع الناتجة من تصور الله تعالى يلقي بظلال المحبة على الإنسان العابد.. ويمكن للقارئ الكريم التأكد من ذلك بمراجعة وجدانه الحاكم في مثل هذه الموارد.

فالنصوص تثبت الحب لأصناف المؤمنين الواعين، من أمثال (المحسنين، التوابين، المتطهرين، المتقين، الصابرين، المتوكلين، المقسطين، الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) والنصوص تثبت الحب بين أفراد المؤمنين ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾[١].

والنصوص تربط بعلاقة الحب بين الإنسان والطبيعة، بعد أن يشعر الإنسان بأنّ الطبيعة مسخرة له ولصالحه هو، وبعد الإيحاء إليه بأنّ يد العناية الإلهية قد باركت في الأرض أقواتها.

وقد ورد عن النبي العظيم(ص) أنه قال عندما رجع من غزوة تبوك وعندما أشرف على المدينة: «هذه طابة، وهذا جبل أحد يحبنا ونحبه»[٢].

كما عبر عن ذلك بأن «حب الوطن من الإيمان»[٣].

وهكذا ننتهي إلى حلقة رائعة من حلقات هذا الحب، جعلها القرآن بمثابة أجر للرسالة الإسلامية، والجهود التي بذلها الرسول الأعظم في خدمة هذه الأمة، وهي حلقة ربط الأمة كل الأمة بأهل البيت الذين هم خير مؤهل لقيادتها نحو شواطئ الإمان، والذين هم سفن النجاة، وباب حطة للعالمين».

﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[٤].

وأخيراً ننتهي إلى حلقة صغرى من حلقاتها، وهي المودة القائمة بين الزوجين ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٥].

وتعتبر النصوص على جوانب النفي مكملة للنصوص الإيجابية، فإنّ تلك النصوص تؤكد تارة على انقطاع صلة الحب بين الله والعباد الذين خرجوا عن أمر

---

١ - الحشر: ٩.

٢ - راجع: سفينة البحار، ص ٦٦٨، ورووته الصحاح الكثيرة، راجع ص ٢١.

٣ - ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٥٢٢، (الوطن، حب الوطن)، كشف الغطاء، ج١، ص ٣٤٥، تذكرة الموضوعات، ص١١.

٤ - الشورى: ٢٣ .

٥ - الروم: ٢١ .

ربهم، من أمثال (المعتدين، الكافرين، الظالمين، من كان مختالاً فخوراً، من كان خوناً أثيماً، المفسدين، المسرفين، الخائنين، المتكبرين، الفرحين).

وأخرى على انقطاعها بين أفراد الإنسان: الذين يهتدون بهدى الله والذين استزلهم الشيطان إلى الكفر ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[١].

النتيجة

من مجموع هذا نستخلص هذه النتيجة:

(أنَّ المسلم يعتقد بأنَّه يعيش في عالم من الحب المتبادل).

ولهذه العقيدة تأثيرها الواسع الأبعاد على خلق الأمل في نفس الإنسان: الأمل الإيجابي الدافع نحو سعادته ورقيه. كما سيأتي إن شاء الله.

على أنّنا نعترف هنا بأنا لم نف الموضوع حقه في نفسه، لكننا يجب أن نتذكر أننا لا نبحث هنا عنه إلاّ بمقدار ما يوضح لنا الصورة التي نريد أن نرسمها - فيما بعد - عن روافد الأمل في ذهنية المسلم الفرد، والمسلم الأمة..

٥ - الرحمة، بها انطلق هذا الوجود الكائن

«بسم الله الرحمن الرحيم»، هذا المقطع المبارك يعتبر أروع مقطع جامع يعبّر عن سر العقيدة الاسلامية، فقد وردت بعض الروايات التي تركز على أنّ القرآن جمع في سورة الفاتحة، وأن سورة الفاتحة جمعت في البسملة...[٢] وعند تحليلنا لهذا المضمون لا يسعنا إلا أن نرى أنّها تشير إلى : أنّ سورة الفاتحة إنما اعتبرت روح القرآن باعتبار أنّها تحوي أصول العقيدة الإسلامية بصورة إجمالية، والقرآن قد أطر كل شيء تحدّث عنه بإطار العقيدة.

---

١ - المجادلة: ٢٢.

٢ - مستدرك سفينة البحار، ج١، ص ٢٦٩، الاقناع للحجاوي، ج١، ص ٥، مغني المحتاج، محمد بن شربيني، ج١، ص٤.

أما إذا انتقلنا إلى المرحلة الثانية، فسنجد أنّ البسملة نفسها شكلت روح العقيدة واساسها، إذ ركزت على انطلاق كل شيء في الوجود من اسم الله تعالى في مقطعها الأول، وعن الإطار الذي تم بموجبه ذلك الانطلاق بمقطعها الأخير.

فالانطلاق: «بسم الله» وموجبه: (الرحمة التي لا حد لها).

وهذه حقيقة نجدها متمشية في مختلف المواضع من القرآن الكريم، معبرة عن مظهر من مظاهر الكمال في الذات الإلهية، مما خلق اعتقاداً راسخاً عند المسلم: أنه منطلق من مصدر الرحمة، ومنته إلى عالم الرحمة، وسائر في كنف هذه الرحمة، التي تتجاوز عن الكثير من موارد الانحراف التي تطرأ أحياناً على سلوكه.. وسنجد عند استعراضنا لاثار الدعاء: الكثير من الأساليب التربوية العقائدية، التي تركز على هذا الجانب، في الأدعية المنقولة عن المعصومين(ع).

وفي القرآن الكريم نجد الكثير من الآيات الكريمة التي تقرن صفة العزة الإلهية بالرحمة، وتنتهي بعبارة: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١).

أو بعبارة: أنه «خير الراحمين»، أو «كتب على نفسه الرحمة» أو ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾(٢). وهكذا الآيات الشريفة:

﴿فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾(٣).

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٤).

﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(٥).

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾(٦).

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(٧).

---

١ - الدخان: ٤٢ .
٢ - الأنعام: ١٣٣.
٣ - الأنعام: ١٥٧.
٤ - الاعراف: ٥٦.
٥ - الروم: ٥٠.
٦ - الزمر: ٥٣.
٧ - طه: ٥ .

وحتى في أشدّ المواقف هيبة ورهبة تأتي صفة (الرحمن):

﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (١).

وهكذا يعتقد المسلم بعنصرين آخرين بالإضافة إلى عنصري الحق والعدل - اللذين يعنيان التوازن أول ما يعنيان - وهما: الحب والرحمة، اللذان يعنيان: الفضل من الخير والإعطاء فوق الاستحقاق.

وبهذا نكون قد عرفنا في ما مضى القوانين الأساسية المتحكمة في الكون، وهي قوانين: (الحق والعدل والحب والرحمة).

الفصل الثالث - القوانين الفرعية

وقد كان الإيمان بهذه القوانين منبعاً للإيمان بقوانين فرعية قد ترتكز على واحد منها أو على أساس منها جميعاً، فلنستعرض أهمها في مايلي:

١- لا مكان للباطل

أمّا في الأمور التكوينية، فلأنّها لا تمتلك شيئاً من عناصر الاختيار، فلا عنى لوجود الخلق الباطل فيها بعد الإيمان بحكمته المطلقة تعالى.

وأمّا في الأمور التي ترجع إلى سوء فعل الإنسان وتصوراته وإيحاءات الشيطان ومغوياته، فالباطل وأن كان متصوراً أن يسود في بعض الأزمان، ألا أنّه سيكون نشازاً على الطبيعة الكونية، وعلى الطبيعة الإنسانية، وهذا النشاز سيظل يؤتى ثماره الفضيعة في حياة الإنسان ما لم يعمل على إذابته والرجوع إلى الأمر الحق الذي يطابق الفطرة الإنسانية ويتلاءم مع الطبيعة العامة وقوانينها، وهذا الأمر لن يعلم بالطبع إلاّ من قبل الوحي الآتي من خالق هذا الكون، والمطلع على نواميسه، ومن هنا قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ (٢).

---

١ - طه: ١٠٨ .

٢ -يونس: ٣٥ .

﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى﴾[1].

فالكون – إذن – بتنظيماته: ضد الباطل الذي حدده لنا المطلع على حقائق الأمور ﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2]. والملاحظ في تعبير «زهوقاً»: أنه يعني أنَّ الأصل في الباطل الفناء والزوال، وذلك مما يقوي الأمل في القضاء عليه.

ومن هنا أيضاً تتوضح فكرتنا عن قوانين أخرى في طول هذه الحقيقة.

٢- النصر للمؤمنين

وهذه قاعدة نرى في كثير من المواطن التأكيد عليها من قبل القرآن والنصوص الشريفة. وهي تقرر أنَّ الله تعالى يتكفل إيصال المؤمنين إلى النصر والفوز وتحقيق الآمال، ان كانوا هم الذين بدأوا المسير، واخلصوا النيات، واستهدفوا ما يعبر عنه القرآن بنصر الله، وهو تعبير جميل عن نصرة الحق، وهي عملية رفع التنافر بين القانون والسلوك الاعتباري وبين الواقع الطبيعي العام، وارجاع الجزء النافر إلى حيز المسيرة المتوائمة المتوازنة.

وهكذا تطالعنا الآيات القرآنية الشريفة التالية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[3].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[4].

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ﴾[5].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[6].

---

١ –يونس: ٣٥ .
٢ –الإسراء: ٨١ .
٣ –محمد: ٧ .
٤ – غافر: ٥١ .
٥ –آل عمران: ١٦٠ .
٦ – الحج: ٤٠ .

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(١).

أنّ الإسلام يعتبر مسيرة الإنسان منذ انطلاقها حتى نهايتها مسيرة واحدة، ويقيس على أساس من هذه الوحدة كل العوامل الدخيلة في تحقيق الغرض العام، وهو التكامل. بل نستطيع أن نتجاوز هذا الإطار الإنساني إلى الإطار الكوني العام فندعي: أنّ الكل يمتلك ذلك الهدف العام ويعمل على تحقيقه. ولذا فكل إنسان ساهم في الدفع نحو ذلك الهدف العظيم منتصر على المدى الطويل وان اعتبر منهزماً في فترته الموقتة، ويحق له بذلك أن يعتبر نفسه أينما كان منتصراً منذ الآن! أنّ سلسلة المؤمنين عبر التاريخ كلها تشترك في أي عمل رسالي يقوم به فرد من هذه السلسلة في أي زمان كان! ومن هنا نستطيع ان نفهم قول الإمام أمير المؤمنين، وذلك لما أظفره الله بأصحاب الجمل فقال له بعض أصحابه: وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا، ليرى ما نصرك الله به على أعدائك؟ فقال له (ع): «أهوى أخيك معنا؟ فقال: نعم. قال فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وارحام النساء سيرعف بهم الزمان، ويقوى بهم الإيمان»(٢).

٣- العاقبة للمتقين

بعد ملاحظة قانونية الحق والعدل، يستطيع الإنسان أن يدرك بوضوح هذا القانون القرآني العظيم الذي يجسد آمال البشرية الخيرة: في وصول النخبة الممتازة – اخلاقياً، وعقائدياً – إلى منصة القيادة، وامتلاكها العاقبة الحسنة في النهاية الطيبة.

فالقرآن الكريم يصرح:

﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣).

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾(٤).

---

١ – آل عمران: ١٢٦ .

٢ –نهج البلاغة، ج ١، ص ٥٥ .

٣ –الأعراف: ١٢٨ .

٤ – طه: ١٣٢ .

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾(١).

وهذا ما بدت تباشيره تلوّح في الأفق، فقد رأينا العالم اليوم يحاول أن يعود – ولو بحياء – إلى تعاليم الإسلام العظيم، بعد أن جرب كل النظم، وسلك مختلف المسالك البشرية، وذاق صنوف العذاب والألم، وضاق من التركاض في مسارب التيه!

إنّ تباشير العودة تلوّح في أقوال القادة والمفكرين الداعين لدراسة العقيدة الإسلامية والتشريع الاسلامي بعمق، والاستفادة من كنوزها الثمينة! والأمر يحتاج بعد ذلك إلى أن نعي الواقع العالمي القائم اليوم، ونعي اسلامنا بعمق، ومواقفه من المشاكل العالمية المعقدة، ونقوم بنبذ كل لهو داخلي، لأجل الاعداد لحملة توعية للعالم، والاستعداد لامتلاك أزمته بصورة ليست بالصعبة، بعد أنّ افلس النظام الغربي، والذي يعترف بأنّه لا يجد بديلاً له إلاّ في الإسلام! وبعد كل هذا فالأمة يحق لها أن تنتظر القائد الذي: يظهر فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً.

٤- العمل الصالح والسيئات

انً القيام بالعمل الصالح الإيجابي نفسه يشكل احد ابواب سعة الأمل عند المسلم بعطاء الله تعالى. فبالإضافة للأبواب المفتحة السابقة إعتبر الإسلام القيام بالحسنة طريقاً من طرق الرجوع إلى الله، ليؤكد عفو الله وغفرانه، ويعمل على محو السيئات من سجل أعماله الماضية، فينجيه، من تبعاتها وعواقبها، وأقل ذلك ما كانت سوف تؤدي إليه من موقف مخز. يوم تجتمع الخلائق في ظل حساب الله و﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾(٢).

فإذا تم محو السيّئات والسوابق السوداء، انطلق الإنسان المسلم بصحيفة ناصعة البياض، غير قلق ولا متوان، وبكل أمل، ليحيا حياة العمل الصالح في سبيله وسبيل

---

١ -محمد: ١٠ .

٢ - الحاقة: ١٨ .

مجتمعه والانسانية جمعاء. والآيات التي تتعرض لهذا الجانب على نوعين:

النوع الأول:

ما يظهر منه أنّ الاتيان بالحسنة والعمل الصالح لا يقتصر تأثيره على محو السيئات الماضية، بل يقوم - بإذن الله - بتبديل السيئات الماضية إلى حسنات! وهذا مما يشعر الإنسان المسلم برحمة الله الواسعة التي قابلت كل هذه الإساءة - ومنها الشرك بالله، وهو اعظم السيئات - بهذا الفضل العميم، فحولتها إلى حسنات ينال عليها الأجر، كما لو كان فعلها من قبل واقعاً! يقول القرآن الكريم في معرض صفات المؤمنين:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا، إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا، وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾(١).

النوع الثاني:

ما يبدو منه أنّ الاتيان بالحسنة يعمل على محو السيئة فقط، أمّا التبديل فلا تتعرض له.

ومنها: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾(٢).

ومنها في صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾(٣).

فقد نقل صاحب (مجمع البيان) عن ابن عباس أنه قال: أنّها تعني.. «يدفعون بالعمل الصالح السيء من العمل».(٤)

---

١ -الفرقان: ٦٨-٧١ .

٢ - هود: ١١٤ .

٣ - الرعد: ٢٢.

٤ - مجمع البيان، ج ٦ ، ص ٣٤.

كما روي عن النبي(ص) قوله لمعاذ: «إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها».[١]

كما أنَّ هناك قولا بأنّهم يدفعون إساءة من اساء إليهم بالاحسان. وقولا بأنّهم يدفعون بالتوبة معرة الذنب[٢].

فإذا عرفنا وجود هذين النوعين. من الآيات فكيف التوفيق بينها؟ ذكروا للإجابة وجوها:

الأول: أنَّ يقال: بأنَّ الآيات كلها تشير إلى حقيقة واحدة، هي أنَّ العمل الصالح والحسنات تربي النفس الانسانية على الفضيلة والاستقامة، مما لا يدع مجالاً للسيئات في حياة الإنسان ويتوضح ذلك خصوصاً إذا لاحظنا آية:﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾[٣].

كما أنَّ ورود عبارة «يدرؤون» تشير إلى أنه يدفعون السيئات قبل ورودها، فالدرء والتدرى: هو الدفع[٤]. كما نجد في الاستعمالات التالية: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾[٥].

﴿فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾[٦].

ومن الممكن: المناقشة في هذا التوجيه بأن يقال: أنَّ الظاهر هو كون الآيات تشير إلى السيئات السابقة: وأن كنا لا نمانع في أن تكون شاملة لما سيتكون من حالة نفسية، ففي آية «أولئك يبدل الله...» جاء تعبير التبديل ونسب هذا التعبير إلى الله، مما يبدو منه أنّه من مختصاته تعالى، وهذا ينطبق أول ما ينطبق على الذنوب المسجلة التي يكون رفعها بيده تعالى، خصوصاً والسياق سياق توبة وانابة عن الشرك وباقي المعاصي[٧].

---

١ – الوسائل، ج ٦، ص ١٠٤، المعجم الكبير، ج ٢ ص ١٧٥، كنز العمال، ج ١٥، ص ٧٨٤.

٢ – جامع البيان للطبري، ج ١٣، ص ١٨٤.

٣ – هود: ١١٤ .

٤ – شرح غريب القرآن، ص ١٦٩ .

٥ – النور: ٨ .

٦ – آل عمران: ١٦٨.

٧ – ميزان الحكمة، ج ٢، ص ٣٠٦ (الحدود) نقلاً عن الوسائل، ج ١٨، ص ٣٣٦ .

امّا الدرء بمعنى الدفع، فالظاهر أنّه يشمل دفع المعاصي الثابتة - إذا تخلصنا من مصطلح الدفع الفلسفي المتأخر - ويعتبر الحديث الشريف المذكور، وفهم ابن عباس لذلك: مؤيداً لهذا الظهور.

الثاني: أن يقال: أنَّ الآيات كلها تشير إلى الذنوب السابقة، ولا تنافي بينها. فإن بعضها يشير إلى مرتبة معينة، والآخر يشير إلى المرتبة الأعلى منها.

إلاّ أنّه يمكن النقاش في هذا التوجيه: باعتبار أنّنا إذا اعتبرنا وحدة المؤثر فلماذا عدلت الآيات إلى الإشارة إلى بعض الأثر، وهي في مقام الترغيب والحثّ الذي يستوجب اعطاء الأثر بكماله؟

الثالث: هو أن يقال: بأنَّ آية التبديل تركز على أثر العمل الصالح المدعوم بالتوبة والإيمان، في حين أنّ الآيتين الآخيرتين تشيران إلى أثر العمل الصالح بنفسه، وأنّه يعمل على درء السيئة واذهابها.

الرابع: أنّ يقال: أنّ ذهاب السيئات يعني حصول الاهلية لرحمة الله وفضله الواسع، فتشمله وبالتالي يمكن القول بأنَّ: الحسنات يملأن محل السيئات.

وعلى أية حال، فإن ذلك باب من الفضل الذي يبعث الأمل بالمستقبل، ويحيي الإنسان المذنب من جديد حياة الصالحين العاملين في سبيل الحق.

٥- التقدم المضاعف من قبل الله إلى العبد

وهذه حقيقة أخرى تبعث الإنسان على العمل، والأمل بالخير العميم الذي سينتجه هذا العمل، وذلك لأنّه يشعر بأنّه كلما تقدم إلى الله تعالى خطوة تقدم الله إليه ميلاً! وما أن يبذل جهده في سبيل الحقيقة أي حقيقة كانت فإنّ الله تعالى سيفتح الطرق أمامه... فلا مانع إذن من اقتحام العقبات والمصاعب، ولا داعي لليأس من الحصول على المراتب العالية! لأنَّ الإنسان ليس متروكاً لوحده في الطريق، بل أنّ قوة الله تعالى ووعده لا يسندانه في سيره فحسب بل يوفران له النتائج المضاعفة، إن في هذه الدنيا أو في الآخرة، وكلاهما مجال يمكن أن يعود على الإنسان بالعطاء، وإن اختلفت درجة العطاء من عالم إلى آخر.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(١). ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾(٢). ويقول تعالى: ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(٣).

وغير ذلك مما يفتح للانسان المسلم يوماً بعد يوم آفاقاً للأمل جديدة.

٦- دور الربط المستحكم بين عالم الغيب والشهادة

وتعتبر هذه الظاهرة من أبرز الظواهر التي امتازت بها التعاليم الإسلامية.. فبعد أن يعترف الإسلام - بمقتضى واقعيته - بظاهرة تأثر الإنسان بمحسوساته أكثر منه بمعقولاته، يعمل بشتى الأساليب على خلق التوازن بين التأثر بكلا الجانبين، وعلى التقريب بينهما، بمعنى أن يقرب الأمور المعنوية إلى التجسيد الحسي.

وقد اشرنا في بحث التوازن إلى بعض أساليب الاسلام الفكرية والعملية في ذلك. وهنا نقول: إنّ تلك الأساليب من شأنها أن تجعل المسلم يتأثر بالمعقول ويتفاعل معه بما يقرب من تأثره بالمحسوس فهو إذن يبصر عالم الغيب ويلاحظ رحمة الله وتقديره ملاحظة تعبر الظواهر. وهو يشعر بالقوانين المعنوية كقوانين الدعاء والشفاعة تماماً كما يشعر بالقوانين المادية.

فالاسلام لم يكتف بإثبات نتائج العمل الصالح في عالم الآخرة، بل تجاوز ذلك وأثبت أنّ العمل الصالح - وهذا هو مقتضى العقل - سيعود بالخير على الإنسان نفسه في هذه الحياة الدنيا.

يقول تعالى على لسان نوح(ع): ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾(٤). ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء﴾(٥).

---

١ - العنكبوت: ٦٩.
٢ - البقرة: ٢٤٥.
٣ - الأنعام: ١٦٠ .
٤ - نوح: ١٠ .
٥ - الاعراف: ٩٦.

في حين تربط الآيات الأخرى بين الانحراف الفكري والضياع العملي، فتقول الآية الكريمة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [1]. وهذا الربط الوثيق يعطي الأمل طاقة دافعة بتقريبه إلى الحس الإنساني، إذ يبدو وكأنه يراه عياناً فيسعى له أشد السعي ويتشوّق له أشد الشوق.

وآية ذلك ما قاله أمير المؤمنين(ع) في وصف المسلمين الصادقين المتقين: «فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون» [2].

إذن فما نريد التأكيد عليه هو أنّ هذا الهدف التربوي للمسلم له تأثيره البارز أيضاً في جعل الأمل أكثر فعالية وقوة.

٧- نفي اليأس والقلق بشدة

وهذان الأمران هما الحالتان النفسيتان اللتان تخلفان حالة الأمل، وتستتبعان عكس ما نتوقعه من الأمل من آثار. فبين الكفتين ارتفاع وهبوط. ومن الواضح أنّه إذا أردنا تقوية كفة الأمل فإنّ ذلك يجب أنّ يكون بتقويته ومنحه ابعاده الواقعية، والقضاء على كل أسباب اليأس والقلق. ونحن إذا رجعنا إلى ما ذكرناه سابقاً عرفنا أنّ جذور هاتين الحالتين المضادتين قد عولجت علاجاً حكيماً، فلماذا إذن تعمدنا ذكرهما في هذا الموضوع؟ وما هو الجانب الإضافي الذي يمكنه أن يبرز ذلك؟

اعتقد أنّ الجانب الاضافي يكمن في أنّه بالإضافة إلى علاج الإسلام لهما علاجاً جذرياً، وفتح أبواب الأمل الواقعي على مصراعيها فأنّه تمر حالات خاصة بالانسان - على اختلاف في المستويات - يتأثر فيها بموقف حسي معين، وحالة حرجة لا مفر منها... فيغفل عن كثير من تلك الجوانب، ولربما يصل به الأمر إلى اليأس! وهنا يأتي دور تحريم اليأس تحريماً باتاً، لينفي عن الإنسان المسلم فعلاً هذه الحالة، فتقول الآية

---

١ - طه: ١٢٤ .

٢ - نهج البلاغة، خطبة المتقين .

الكريمة ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(١).

فالتعبد إذن يقتضي قبل كل شيء عدم اليأس، وبعد ذلك تعود النفس إلى حالتها الأولى وتقبل تأثيرات عوامل الأمل مرة ثانية.

ولا معنى للقول: بأن هذا الفرض لا يجتمع مع الإيمان الكامل، إذ مقتضى ذلك: الكون على وعي دائم مع الإنسان قد يغفل وينسى.

بعد أن دلنا الوجدان على أنّ الإنسان ضعيف على أي حال، وأن علا كثيراً في مرتبته المعنوية.

وقد يكون متعلق اليأس هو الموضوع الخارجي، كأنً يستيئس انسان من هداية انسان آخر، كما حدث للرسل حين استيأسوا وظنوا أنّهم قد كذبوا فجاءهم نصر الله ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا﴾(٢).

فهذا وان لم يكن يأساً من روح الله ولكنه يأس على أي حال، ويجب أن ينتفي من حياة الإنسان وخصوصاً حملة الرسالة.

أمّا القلق فهو في الحقيقة ناشئ من عوامل مختلفة، كعدم المأمن الروحي، والمرور بالاحداث الكبرى، وغو روح التشاؤم، وغير ذلك من العوامل، كالعوامل الاقتصادية. وقد عالج الإسلام كل تلك الأسباب فافقد الإنسان مبررات اليأس أولاً، وركز على جانب الاطمئنان القلبي بذكر الله، دافعاً للانسان نحو العمل بكل ثقة في سبيل تحقيق آماله.

٨- دور التوكل

والقرآن الكريم يركز في خلد المسلم أن يكون في كل أموره متوكلاً على الله تعالى.. والتوكل الصحيح لا يعني تلك الصور الجامدة التي تنطبع في ذهن البعض ممن أصابهم داء الكسل والانطواء من المسلمين، أو ممن يتصورون ذلك. كلا... وإنّما يعني

---

١ - يوسف: ٨٧ .

٢ - يوسف: ١١٠.

الاستمداد المتصل من الله تعالى والالتجاء إليه في كل مشكلة تعترض طريق الانسان، وطلب العون منه تعالى ومن تعاليمه الخالدة. أنّها صفة موضوعية وسيكولوجية في آن واحد، فهي موضوعية من حيث احتوائها على عنصر الالتجاء إلى إيحاءات السماء، والتمسك بعصم الحق.

وهي سيكولوجية من حيث شدّها لروحية الفرد المسلم ونيته بالسماء وتقويتها واشعارها بأنّها ترتبط بأقوى القوى في العالم.

أنّ هذه الصورة عن التوكل تبعده عن التواكل، حتى تجعلهما على طرفي نقيض ويمكننا أن نركز النظر في الآيات الكريمة التي جعلت التوكل أحد العوامل الرئيسية المؤثرة في تغيير الحوادث، لنشاهد كيف أنّها قرنت التوكل بالإيمان تارةً، وبالعزيمة أخرى، وبالعبادة عموماً تارةً ثالثة، وبالصبر في مكان آخر، وأخيراً ربطت بين حب الله والتوكل كجزء من عملية الربط العاطفي بين الله والعباد والمتقين، كما وضحناه عند حديثنا عن أساس الحب في العلاقات بين الكون وخالقه.

فلنراجع إذن هذه الآيات لنستجلي ما قلناه:

﴿وَمَن يَتَوكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [1].

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوكَّلُونَ﴾ [2].

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوكِّلِينَ﴾ [3].

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [4].

﴿وَتَوكَّلْ عَلَى اللَّهِ وكَفَى بِاللَّهِ وكِيلاً﴾ [5].

فالتوكل على الله إذن عامل رئيسي في إيصال الإنسان إلى مطلوبه، والتوكل كما سبق صفة من صفات الإنسان الواعي لمركزه في الكون ونوعية علاقاته بالسماء، والذي يصفه القرآن بـ «الانسان المتقي».

---

١ – الطلاق: ٣ .

٢ – الشورى: ٣٦ .

٣ – آل عمران: ١٥٩ .

٤ – هود: ١٢٣.

٥ – الأحزاب: ٣ .

وقد راينا العارفين يتوسلون إلى ربهم كي يـرزقهم هـذه الـصفة . فقـد روى احـد الرواة فقال : (كنت في ظهر ابي الحسن موسى (يعني الامـام الكـاظم(ع) علـى الـصفا وعلى المروة وهو لا يزيد على حرفين: اللهم إني اسألك حسن الظن بك في كل حـال، وصدق النية في التوكل عليك) [1]. ولعله يشير الى توكل هاجر.

٩- دور الدعاء

إنَّ في مسألة الدعاء بحوثاً كثيرة لن نتعرض منها إلا إلى ما يرتبط بعنـصر الأمـل، واشباعه وتركيزه وتأجيجه. ثم نتعرض في بحث ضوابط الأمل إلى نظـرة الـشريعة إلى الدعاء المنتج، والى أثر الدعاء نفسه في خلق ضوابط محددة للأمل لئلا يخرج عن حده.

قال تعالى في محكم كتابه الكريم:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(٢).

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(٣).

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾(٤).

﴿سَمِيعُ الدُّعَاء﴾(٥).

والآيات كثيرة في هذا الصدد.

والمتبادر من الدعاء عموماً وحسب مفهومه الديني هـو وقـوف الإنـسان أمـام الله تعالى بخشوع وخضوع، ونفي كل الحجب بينه وبين الله ثم عرض حاله وما مر بـه مـن مصاعب، وطلب المدد منه تعالى في اصـلاح ذلـك، والاسـتزادة مـن الخـير الـدنيوي والاخروي.

---

١ - وسائل الشيعة ، ج ٩ ، ص ٥٢٠.
٢ - البقرة: ١٨٦ .
٣ - غافر: ٦٠ .
٤ - الفرقان: ٧٧.
٥ -آل عمران: ٣٨ .

والدعاء يخدم الأمل كجزء من الغرض الديني بأمرين: طبيعته ومستلزماتها، ومضامينه. فإنَّ الدفع نحو هذا المعنى، والتأكيد على أن يقف الإنسان أمام خالق الكون العظيم بخشوع وإجلال، وإيكال الأمر إليه، واستمداد العون منه يعني:

أ. التجسيد لكل المعنويات

ذلك أنَّ الإيمان بالله تعالى وقدرته اللانهائية وعلمه اللامحدود ورحمته الواسعة، يزداد رسوخاً في النفس الانسانية من خلال الدعاء.

لأنَّ موقف الداعي يحول الإيمان من فكرة إلى تجسيد عملي، وخطاب حي موجه، وانتظار حي للفرج. إذ واضح أنّ كثرة مثل تلك المواقف تحول التوحيد من عقيدة فكرية إلى شيء واضح ملموس، فها أنا حساً أقف أمام رب السماوات والأرض الذي يعلم بموقفي، والرحيم بي، والقادر على أن يحقق مطلبي الذي يعجز عن تحقيقه غيره **﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾** [1].

ويضفي القرآن على هذا الموقف صفة اللطف الخاص عندما يعبر **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾** [2].

وواضح ما تنشره هذه الصفة من حرارة في حنايا النفس، واطمئنان بالنتيجة المطلوبة، وبالتالي السعي الحثيث لتهيئة المعدّات اللازمة لتحققها. وعليه: فإن فتح باب الدعاء والحث على القيام به، يركز عطاء العقيدة بكل تفاصيلها التي مرت بنا، تماماً كما يركز كل القوانين القرآنية الأخرى الآنفة.

ب- تلبية الحاجات الطبيعية الغريزية للانسان

وواضح أن أي اشباع مهذب لأية حاجة طبيعية، لها أثرها الفعّال في خلق التوازن

---

١ -الرعد: ١٤.

٢ - البقرة: ١٨٦.

في شخصية الانسان، وصياغته انساناً هدفياً واعياً لواجبه في الحياة، نافياً عن حياته كل تأرجح بين اشباع هذه الغريزة أو تلك.

ولأجل أن نوضح: كيف أنّ الدعاء بطبيعته يلبي بعض الحاجات النفسية للانسان - نلتفت إلى حالتين نفسيتين وجدانيتين هما:

أولاً- جوع الإنسان للحنان:

كما يعبّر عنه أحد العلماء إذ يقول: «فهناك حالات يشعر الإنسان فيها - أمام قسوة الحياة، وضغط المشاكل، وتراكم الأزمات الداخلية والخارجية - بحاجة إلى التعبير عن الآلام التي تمزق ذاته، والمشاعر التي تجيش في نفسه، دون أن تجرح كبرياءه وهنا يأتي دور الدعاء الذي يسمح للانسان أن يتنفس بكرامة ومحبة، وللروح أنّ تنطلق بعزة وحنان، فينفتح قلب الإنسان على ربه، وينطلق بروحه إلى الله حيث السلام والطمأنينة، والحياة الوادعة الرضية المطمئنة، التي تجعل الإنسان يغفو على هدهدات الأمل، عبر لفتات الرحمة ونبضات الرضوان»[1].

فالإنسان مهما ابتعد عن الله تعالى، ومهما غطت بصيرته الغشاوات وظن في نفسه إنه أقوى القوى، تمر به لحظات يحس معها تماماً بضعفه، وخصوصاً إذا انقطعت حيلته من كل الوسائل المادية.

إنّ الفطرة حينذاك ستتفتح، وتنفض عنها غبار النسيان، وتتوجه إلى الله تعالى القادر المطلق... ومن هنا كان هذا الموقف من الأدلة الفطرية التي تقود إلى الإيمان به تعالى... كما أنّه من هنا نستطيع أن نقول: أنّ الدعاء أمر فطري للانسان ككل، فضلاً عن كونه أمراً طبيعياً للانسان المؤمن بالله، الآيات القرآنية التالية تكشف لنا عن ذلك المعنى حينما تقول: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِمًا﴾[2]. ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[3].

---

١ - مجلة الهادي العدد الأول السنة الثانية مقال بعنوان: الدعاء في شهر رمضان للحجة السيد محمد حسين فضل‌الله.

٢ -يونس: ١٢.

٣ - الأنعام: ٦٣.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1].

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[2].

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[3].

والملاحظ ان التعبيرات عامة خصوصاً عبارة «واذا مس الناس» ولا تختص هذه الحالة بالمؤمنين وانما تورد احتجاجاً على المشركين ايضاً.

وما اروع تعبير الآية القرآنية عندما تصف حالات الانبياء الذين كانوا يستمدون العون من الله في كل آن ولحظة وخصوصاً في لحظات الشدة.

فعلى لسان زكريا يقول الله تعالى:﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[4]. وعن موسى(ع) : ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[5]. وعن نوح(ع) قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[6].

وثانياً: مقتضيات الضمير:

ومهما قيل أو يقال حول الضمير، فهو على أي حال موجود في النفس الانسانية، وهذا الضمير يشكل المحكمة الداخلية المحاسبة الدافعة نحو الاعتراف بالذنوب والجرائم، وتلمس سبل تداركها.

هذه حقيقة، والحقيقة الأخرى هي أنّ الإنسان بطبيعته يحتاج لا محالة إلى من يشاركه اسراره، ويشكو إليه ما ألمّ به من صعاب حتى يزيح بعض الهم عن صدره.

وبفعل هذين الدافعين نجد الإنسان محتاجاً لأن يشكو همه وحزنه وغمه اليه ليخفف عن كاهله ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[7].

---

١ - العنكبوت: ٦٥.

٢ - الروم: ٣٣.

٣ - لقمان: ٣٢ .

٤ - مريم: ٣ - ٤ .

٥ - القصص: ٢٤ .

٦ - القمر: ١٠ .

٧ - يوسف: ٨٦.

فخير ملجأ لهذا الإنسان وذاك: هو الله تعالى لا غير، وذلك لأنّه تعالى لن يكشف ذلك السر وتلك الجريمة على الملأ «كم من قبيح سترته» كما أنّ ذلك سيكون طريقاً للعفو عن الجريمة أو رفع المحنة... هذا بالإضافة إلى أنّ الإنسان أمام الله يشعر بحرية بتحليل دوافعه، بعيداً عن العوامل الخارجية، وأخيراً يشعر الإنسان مع الله بأنّه ينطلق من ذاته فينقدها بلا ضغط خارجي.

ج - منح السند النفسي لتحقيق الأمل:

وهذا الأمر جدير في مجال معطيات طبيعة الدعاء، إذ انّ الداعي بتصوره لعظمة الله تعالى وقدرته واحاطته، وأنّه ضن له الإجابة «وضمنت لي الإجابة» [1]. بقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [2]. بتصوره ذلك - يكون أكثر اطمئناناً وثقة بأمله. ولذلك فهو بالتالي يسعى بكل جهده لأجل الوصول إليه، شاعراً بإسناد الله له، وذلك أمر لا شك في أثره.. وكم أكد علماء النفس على مسألة تربية الدافع النفسي والانشداد العاطفي بالهدف لكل هادف، سواء كان في مصنع أو أرض يفلحها، أو مجتمع يصلحه.

وهكذا رأينا أنّ الدعاء بذاته وطبيعته باب يجد الإنسان فيه راحته النفسية، وتنفتح امامه - بعد ولوجه - آفاق من المستقبل المشرق، مودعاً عالمه المظلم السابق، إذ يعيش في رحابه تعالى، تتركز في أعماقه معالم التوحيد... يعترف بذنوبه متخلصاً من عقاب الضمير، فضلاً عن عقاب العقل... ويشكوه همه وحزنه ليتبدل القلق واليأس إلى أمل مشرق وضاء.

كل هذا كان من طبيعة الدعاء. ولكن الإسلام لم يكتف بأنّ فتح باب الدعاء، وإنّما علم الإنسان المسلم ما يدعو به، ووضع ضوابط لتلك الحالة وإنتاجها.

أمّا الضوابط فتأتي في محلها، وأمّا المضامين التي يدعو بها المسلم فأنّ في مجالها حديثاً طويلاً ممتعاً، ولكن بحثنا لا يحتمل منه إلاّ المقدار الذي يتصل مباشرة بالأمل، وإلاّ فكل المضامين تقريباً تؤدي إلى تنمية الأمل وضبطه، وأن كان ذلك بطريق غير مباشر.

---

١ - مفاتيح الجنان، دعاء كميل ١٢٠.

٢ - غافر: ٦٠ .

ويمكن أن نعطي مضمون الدعاء في تنمية الأمل وتأجيجه دور المؤكد لكل العوامل الأخرى، التي تحدّثنا عن تأثيرها في خلق الأمل، من مختلف الجوانب العقائدية، والمفاهيم الإسلامية الأخرى.

ان الدعاء وخصوصاً الوارد عن أهل البيت(ع) يقوم بتركيز تلك الأمور وتوضيحها وتصحيحها، وبيان مقتضياتها على لسان نفس الداعي، مما يشكل نوعاً من أنواع التلقين الواعي للعقيدة الصحيحة... والتنبيه إلى مستلزماتها الفردية والاجتماعية.

دعاء الإمام الحسين:

فدعاء الإمام الحسين(ع) يوم عرفة، يبدأ بتركيز العقيدة: «الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع، ولا لعطائه مانع، ولا كصنعه صنع صانع، وهو الجواد الواسع»... إلى أنّ يقول: «اللهم إني أرغب إليك، وأشهد بالربوبية مقراً بأنك ربي وإليك مردي...» ثم يستعرض النعم التي أنعمها تعالى بشكل لا مثيل له يقول: «صدق كتابك - اللهم - وانباؤك وبلغت انبياؤك ورسلك». ومن ثم ينتقل لمستلزمات ذلك الإيمان، طالباً توفيق الله له ليقوم بها: «اللهم اجعلني اخشاك كأني أراك، واسعدني بتقواك، ولا تشقني بمعصيتك، وخرلي في قضائك. وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت...».

ثم يلقن الإنسان بأنَّ يدعو الله تعالى لكي يحقق له ذلك التوازن الرائع بين اشباع جانبيه المادي والمعنوي، وفي ذلك ما فيه من نفي للقلق ودفع نحو الغاية: «اللهم اجعل غناي في نفسي، واليقين في قلبي، والاخلاص في عملي، والنور في بصري، والبصيرة في ديني. واجعل سمعي وبصري الوارثين مني. وانصرني على من ظلمني... واجعل لي الدرجة العليا في الآخرة والأولى»[١].

والحقيقة أنّ الإنسان ليجد الخطوط العريضة في المجال العقائدي والاخلاقي والتربوي موجودة في تلك الثروة الهائلة من الأدعية.

---

١ - مفاتيح الجنان، دعاء عرفة ، ص ٣٢٩-٣٤٢ ، اقبال الاعمال، ج٢، ص ٧٨، وراجع: كتاب الدعاء للطبراني، ص٤٢١، ومجمع الزوائد، ج ١٠، ص ١٧٨، وكنز العمال، ج٢، ص ١٧٦، وكنز العمال، ج٢، ص ١٧٦.

ولذا فأنّه يستطيع أنّ يعطي الدعاء دور المؤكد والواضح لكل تأثيراتها التي مر شرح علاقتها بالأمل.

١٠- دور التوبة والغفران وتأثيرهما في فتح أبواب الأمل

التوبة: من مجموع المعاني المذكورة يعرف: أنّ معناها اللغوي هو الرجوع، ومن هنا جاءت التعبيرات التالية كما في (مجمع البحرين - مادة التوبة): «أنّه كان تواباً»: التواب: الله تعالى يتوب على عباده، ولفظه من صيغ المبالغة، أي: راجع عليهم بالمغفرة... والتواب من الناس الراجع إلى الله تعالى... «قالت: إني تبت إليك» أي رجعت إلى معرفتي بك عن جهل... «وإليه متاب» أي مرجعي ومرجعكم. والتوب والتوبة الرجوع من الذنوب. وفي إصطلاح أهل العلم: الندم على الذنب لكونه ذنباً. وفي الحديث الشريف: الندم توبة»[1]. ووافقه على هذا الاصطلاح الراغب[2]. والذي نرى أنّ بعض استعمالات التوبة تخرج عن اصطلاح أهل العلم، الذي لابد وأنّ يكون معتمداً على الاستعمالات الشرعية.

الغفران: «الغفر: الباس ما يصونه من الدنس، ومنه قيل: اغفر ثوبك واصبغ ثوبك، فأنّه اغفر للوسخ، والغفران والمغفرة من الله هو: أن يصون العبد من أن يسمه العذاب. والاستغفار يعني أيضاً: طلب محو النتائج المترتبة على الذنب، وهو المتبادر من اللفظ».

والمتحصل: أنّ التوبة تعني الرجوع. والاستغفار يعني: طلب التحصين تارة، وطلب نفي الآثار أخرى. ولربما يطعم هذا بطلب التحصين. فهما - أي التوبة والاستغفار - من العبد، والتوبة الغفران من الرب: أمران منشدان إلى بعضهما.

---

١ - مجمع البحرين، مادة (توبة)، البحار، ج٧٤، ص ١٥٩، من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٨٠، مسند احمد، ج١، ص ٤٢٣، سنن ابن ماجة، ج ٢، ص ١٤٢٠، صحيح ابن حبان ج ٢، ص ٣٧٧، ومستدرك الحاكم، ج٤، ص٢٤٣.

٢ - المفردات، باب (توبة).

ومن هنا جاء الآيات الكريمة: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾[١]. ﴿فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[٢]. ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾[٣].

والتوبة بالنسبة إلى الله مظهر عظيم من مظاهر الرحمة الإلهية التي تتجاوز العدل إلى الاحسان، فالعدل يعني أن يحاسب المجرم، وأن يثاب المحسن بمقدار عمله، في حين أنّ المسلم من خلال قرآنه يعتقد بأنّ الله تعالى بمقتضى احسانه يرجع على العبد ويتوب عليه، فاتحاً له سبيل الرجوع إليه تعالى، غافراً له ذنوبه ان تحققت الشرائط. أي فاتحاً له سبيل التوبة إلى الله، منقذاً أياه مما أوقعه فيه هواه، ساداً أبواب اليأس وفاتحاً أبواب الأمل.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ﴾ [٤].

ولأجل تحديد تأثيراتها في بث عنصر الأمل في المسلم يجب أنّ نحددها بنحو الاجمال، ويتم ذلك التحديد إذا لاحظنا النقاط التالية:

النقطة الأولى – التوبة للمطيع والعاصي معاً:

عندما يقال تاب شخص، فإنَّ من المتبادر إليه: أنه كان قد أذنب ذنباً ثم رجع إلى الله فطلب منه الغفران، ولكن مورد استعمالات التوبة في القرآن تعم هذه الحالة والحالة الأخرى وهي: مرحلة اللجوء إلى التوبة لأجل تحصيل الاقربية من الله، إذ كلنا يعلم أنّ القرب منه تعالى على درجات ومستويات، والتوبة إحدى المقربات، فلا يشترط في التوبة والرجوع إلى الله أن يكون عن ذنب.

ومن هنا نعرف سر توبة الأنبياء، المعصومين عن الزلل والذنب.

---

١ – المائدة: ٧٤.

٢ –النساء: ٦٤.

٣ – هود: ٣.

٤ – التوبة: ١١٨.

ومن قول آدم: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ﴾ (١).

وقال موسى(ع): ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ (٢).

ومنه قول آدم: ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ (٤).

﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (٥).

ويمكن القول بأنّ التوبة تعني تحركاً نحو الاقرب فالأقرب دائماً منه تعالى من جانب، وانفتاح السبل امام المسلم للوصول إلى كماله في كل آن - بالتقرب منه تعالى، وبلطف منه - من جانب آخر. ومن هنا جاءت الآية الشريفة: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٦).

ومن هنا كان وصف الله تعالى نفسه بأنّه: «غافر الذنب قابل التوب». كما أنّه من هنا نجد أنّ من أول أوصاف المؤمنين التوبة في قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ﴾ (٧).

والذي يبين لنا هذا المعنى بوضوح: اطلاق عبارة »التواب« على المولى - جلّ شأنه - والعبيد، كما في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٨).

---

١ - البقرة: ٣٧.
٢ - الاعراف: ١٤٣.
٣ - التوبة: ١٧٧.
٤ - هود: ١١٢ .
٥ - الاحزاب: ٧٣ .
٦ -النور: ٣١ .
٧ - التوبة: ١١٢ .
٨ - البقرة: ١٦٠ .

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٢).

فماذا تعني عبارة التواب من العبد؟ هل تعني الاذناب ثم الرجوع المتكرر؟ كلا بالطبع، وخصوصاً إذا لاحظنا عبارة «ويحب المتطهرين»، أنها تعني في الظاهر: ذلك الشعور والإحساس الذي يدفع العبد المؤمن دائماً وفي كل لحظة لأنّ يستغل الأبواب المفتحة للرحمة الإلهية والتواب الرحيم لكي يدخلها، محققاً مقتضيات التوبة: من العمل الصالح والنية الحسنة، وبالتالي متقدماً نحو الكمال بدافع من أمله العظيم بالله. يطلب منه تحصينه ضد اغواءات الشيطان.

والنتيجة: هي ان التوبة لها جوانب متكاملة:

أ ـ الجانب الأول:

وهو جانب رفض اليأس، وفتح أبواب الخلاص من عذاب الضمير للمذنبين العاصين.

فإنّ الإنسان الذي قاده هواه إلى الانحراف إذا وجد نفسه في عز انحرافه وقد صحا، ورأى آثار الانحراف وانبه ضميره، وثارت في نفسه معاني الخوف من الله قبل كل شيء، وهو الجبار ذو العذاب الأليم، ثم من المجتمع فرأى أمامه مستقبلاً مظلماً مكفهراً، هذا الإنسان يبدأ بالتفكير في الرجوع والاصلاح. وعندما يلتفت إلى الخلف فإنه إن وجد طريق الرجوع مغلقاً ولا مجال للخلاص فسيكون أمام اختيارين لا ثالث لها:

فأما أن يبقى فريسة الخوف والهم والتمزق والندم الذي لا فائدة فيه، ويكون بالتالي انساناً خائر القوى، معذب الضمير، واهي النشاط وعضواً مريضاً معقداً، أن لم يتضرر المجتمع منه فلا فائدة فيه مطلقاً، وهذا أهون الشرين، وإما أنه، ونتيجة للموقف الحرج الذي وجد نفسه في مرارته يتخذ مساراً حاقداً، بعد أن يتصور نفسه محروماً من

---

١ - النصر: ٣.

٢ - البقرة: ١٢٢.

عطف المجتمع وعطف الله تعالى فيصب جام غضبه ويصعد من عملياته الاجرامية، ويسير في طريق الانحراف حتى يبلغ منتهاه معوضاً بذلك عن هذا النقص تعويضاً سلبياً عنيفاً، والنتيجة هي خسران المجتمع واعاقة المسيرة الانسانية المتكاملة.

فالنتيجة: على كلا الحالين هي التعويض السلبي وأن اختلفت درجاته. ولكن الإسلام لم يدع هذا الإنسان فريسة اليأس والضياع وأمامه مجال عمل طويل، إذ فتح له أبواب الرجوع إلى الله واحدة بعد الأخرى من الدعاء والتوبة والاستشفاع.

فالتوبة -أن تمت مقوماتها- تنقذ العبد من وساوسه وتعيد له الأمل بالمستقبل الزاهر الذي تصوغه له رحمة الله، وترجعه للمجتمع عضواً صالحاً فعالاً يعمل على رقيه وبنائه، بعد أن كان يعمل على انحطاطه وانهدامه.

ب - الجانب الثاني:

جانب الاستزادة من القرب.

فالانسان المسلم مطلوب منه ولو على نحو استكمال النفس أن يستغفر الله في كل آن ويتوب إليه، فمن اعظم المستحبات الاستغفار في كل آنٍ، وخصوصاً عند الصلاة، والروايات في ذلك كثيرة.

وواضح أنّ التلفظ تلقين للنفس بالسعي نحو تحقيق أمل القرب منه تعالى، الذي لا يعني - في منعكسه الاجتماعي - ألاّ التكامل في المعرفة، وما يتبع ذلك من التكامل في الجوانب الاجتماعية، وما أروع أن يعيش الإنسان وفي عينيه - في كل لحظة - بريق أمل بتحقق الاحسن، وتوبة تدفعه نحو تحقيق متطلبات حصول ذلك الاحسن في كل مجال. ولربما كان هذا هو السر في جعل الفلاح هو الغاية من التوبة في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [1].

ج - الجانب الثالث:

جانب التحصين ضد إغراءات الشيطان.

---

١ - االنور: ٣١.

إنّ التوبة كما تقدم يصاحبها طلب الغفران، وطلب الغفران يعني طلب التحصين من كل مايمكن أن يرد على النفس الانسانية من مغريات ووساوس شيطانية، كما يعني طلب محو الآثار التي انتجتها لحظات الانحراف السابق.

إنّ فتح باب طلب الغفران يعني أنّ العبد يتصور نفسه يمتلك الاطمئنان والثقة بالمستقبل، وبتحقق الهدف، بعد أن طلب من القوة العظمى في الكون ان تصونه من كل العوائق التحريفية، والوساوس الشيطانية، التي تزرع في طريق تكامله الاشواك والعقبات.

والثقة بتحقق الأمل من أكبر العوامل المؤثرة في منحه صفة الجذب نحوه. ويتضح هذا المعنى جيداً إذا تلونا الآية القرآنية الشريفة: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾(١). وكذلك الآية: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(٢).

فالسلطان الكامل لله تعالى. وأولياء الله لا خوف عليهم - من المستقبل - ولا هم يحزنون على الماضي، وليس هناك أي تأثير للشياطين على من منحهم الله غفرانه. فليعملوا مطمئنين واثقين وليسروا نحو هدفهم، فلهم بالتالي إحدى الحسنيين.

النقطة الثانية: التوبة الإسلامية تركيز لمعنى الارتباط المباشر بين المولى والعبد

أنّ هذا الرجوع إلى الله لا يحتاج في مقوماته إلى توسط شخص او مكان أو ظاهرة طبيعية، مهما كانت هذه الأشياء من العلو. أنّه رجوع مباشر من العبد إلى المولى وعملية ندم خالصة لا يعلم بها إلاّ هو وربه. نعم هناك موارد تزيد من عمق أثر التوبة في النفس، وتركز معنى الرجوع. وذلك إذا كانت التوبة لله أمام ولي من أوليائه الصادقين، وفي مكان مقدّس من أمكنته، ولكن كل هذا، لأجل تركيز التوبة. أما أصل التوبة فأنّها تتحقق بشكل مباشر وبلا تدخل أية إرادة لأي انسان آخر فيها، إذا كانت في نفسها واجدة لبعض المقومات التي سنتحدث عنها فيما يأتي من نقاط.

---

١ - الاسراء: ٦٥ .

٢ - ابراهيم: ١١ .

فإذا كانت التوبة كذلك فهي إذن تجعل الاتصال المباشر بـالله أمـراً محـسوساً بـه في الحياة. وهذا المعنى يمكننا أن نضيفه إلى تلك الجوانب السابقة حيث تتكامـل جميعـاً في خلق الإنسان الواعي العامل الساعي للقـرب مـن الله في كـل آن، الـشاعر بالاتـصال المباشر بالقوة العظمى التي فتحت له برحمتها أبواب الخير.

ولكن الذي دعانا إلى فـصلها في نقطـة مـستقلة هـو عـرض صـفة مميـزة للتوبـة الإسلامية عن أساليب الغفران في الأديان المحرفة اليوم، وذلـك كمـا تـرى في طقـوس الغفران المسيحية.

والنقطة الرئيسية في الافتراق هو الوثنية الشخصية في تلـك الأديـان، والاخـلاص الكامل للعقيدة الإلهية التنزيهية في الإسلام. إذ أنّنا بملاحظتنا لتلـك العمليـة، وأساسـها المبتني على خرافة الفداء المسيحي، وطقوسها التي طورتها المصالح الكنسية، والخرافات المضافة من قبل الآباء الروحيين، وكيف يزداد الأجر المالي لتحصيل رضـا الأب كلمـا ازداد عظم الجريمة، فإن لم يرض الأب فلا غفران، وكيف كانت الكنيسة تبيـع صـكوك الغفران للعاصين، بملاحظة ذلك نعرف:

أنّ سر الفرق هو: أنّ التوبة بمفهوم تلك الأديان رضا عبد عن عبد يستتبع رضا الله، بل قل يفرض رضا الله: وهو الشرك الصريح! إذا كان ذا موضوعية لا كاشفاً عن رضـا الله، وهو روح ما نراه منهم! في حين أنّ التوبـة بمفهومهـا الاسـلامي -كمـا مـر - لا تتطلب أي توسيط مطلقاً.

النقطة الثالثة: التوبة المقبولة

وهذه النقطة نؤجل التفصيل فيها إلى بحث ضوابط الأمل، وسنعرف إن شاء الله: أنّ التوبة المقبولة هي التوبة النصوح.

وفي معاني النصوح قيل: أنها التي تنصح الناس، وقيل: الـتي تنـصح العبـد، وقيـل: الخالصة لوجه الله، وهو الظاهر من قوله تعالى: «توبوا إلى الله توبـة نـصوحاً» وسـئل الإمام عنها، فكتب(ع): «أنّ يكون الباطن كالظاهر»[1].

---

١ - بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٢، معاني الاخبار للصدوق، ص ١٧٤، الوسائل، ج ١٦ ص ٧٦.

وهذا الحديث يوضحها تماماً، إذ تعني التوبة النصوح ذلك الرجوع الذي يصاحبه العزم على المضي في الطرق الأكمل، وتجنب الطرق الأخرى. ومن هنا فإنّ بعض أنواع التوبة لم يكن لائقاً للقبول، وذلك في مثل من تحدّثنا عنهم الآيتان الكريمتان:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ﴾(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾(٢).

إذ أنّ أولئك الذين تأصل فيهم العناد لا يتصور فيهم النصح ومطابقة الظاهر للباطن، وان حصل رجوع فهو إنما يعبر عن موقف عاطفي غير أصيل في النفس. وكذلك في مثل فرعون الذي تاب عندما أدركه الغرق:

«حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنّه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين».

ولكن المقطع الآخر يرده بقوله تعالى: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾(٣).

وكذلك الآية الشريفة ترده بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ (٤).

وسيأتي مزيد من التفصيل في هذه النقطة في البحث المذكور.

١١- دور الشفاعة، كمؤكد للعفو والغفران، ودافع نحو الإسراع في تحقق الأمل

وهذا المفهوم قد أعطى في القرآن بصورة اجمالية مع تحديدات معينة، وفصلته الروايات كثيراً.

---

١ - آل عمران: ٩٠.

٢ - النساء: ١٣٧.

٣ - يونس: ١٨ .

٤ - النساء: ١٨ .

فقد جاء في القرآن الكريم:

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾(١).

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾(٢). ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾(٣).

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾(٤). ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾(٥). ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٦).

وفي الحديث الشريف بسند صحيح عن الإمام (ع) يقول سماعة: سألته عن شفاعة النبي(ص) يوم القيامة؟ قال(ع): »يلجم الناس يوم القيامة العرق، فيأتون الأنبياء العظام واحداً بعد واحد حتى ينتهوا إلى النبي(ص)، فيعرضون عليه، ويسألونه - أي الشفاعة - فيقول: انطلقوا فينطلق بهم إلى باب الجنّة، ويستقبل باب الرحمن ويخر ساجداً فيمكث ماشاء الله، فيقول الله عزّوجلّ: ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعط. وذلك لقوله تعالى: «عسى ربك أن يبعثك مقاماً محموداً»(٧).

وروى الصدوق عن طريق الأعمش عن الإمام الصادق(ع) قال: «اصحاب الحدود مسلمون لا مؤمنون ولا كافرون، فإن الله تعالى لا يدخل النار مؤمناً وقد وعده الجنّة، ولا يخرج من النار كافراً وقد وعده النار والخلود فيها، ويغفر دوةن ذلك لمن يشاء. فأصحاب الحدود فساق.. لا يخلدون في النار، ويخرجون منها يوماً، والشفاعة جائزة لهم، وللمستضعفين، إذا ارتضى الله عزّ وجلّ دينهم».(٨)

---

١ - طه: ١٠٩.

٢ - النجم: ٢٦ .

٣ - البقرة: ٢٥٥ .

٤ - الأنبياء: ٢٨ .

٥ - مريم: ٨٧ .

٦ - الزخرف: ٨٦ .

٧ - بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٦ .

٨ -ن. م، ج ٨، ص ٤٠.

وروى العياشي بإسناده إلى عبيد بن زرارة قال: سئل أبو عبد الله (ع) عن المؤمن هل له الشفاعة؟ قال: نعم فقال له رجل: هل يحتاج المؤمن إلى شفاعة محمد(ص) يومئذ؟ قال: نعم انّ للمؤمنين خطايا وذنوباً، وما من أحد إلا يحتاج إلى شفاعة محمد يومئذ[1].

إلى ما هنالك من الروايات الكثيرة.

والذي يهمّنا أن نذكره إجمالاً - ويترك البحث في إثباته تفصيلاً إلى محله من بحث الشفاعة العام - هو مايلي:

١ـ الشفاعة تعني: استغفاراً ودعاء من الشافع لله تعالى كي يحقق مقصود المستشفع، سواء في ذلك تحقق أمل أو غفران ذنب.

وإنّما كان ذلك الاقتران بين دعاء الشافع ودعاء المستشفع، نظراً لنقص وسيلة المستشفع وعجزها عن البلوغ إلى المقصود - ولو في تصوره هو - فيقرنها بمقام الشافع ليتم المقصود.

٢- يمكننا أنّ نتصور نوعاً من الشفاعة غير شفاعة الاستغفار، فهنا نوعان من الشفاعة:

النوع الأول:

ما يمكن أن نسميه شفاعة العمل، أو شفاعة الارتباط بالقيادة.

النوع الثاني:

ما يمكن أن نسميه شفاعة الغفران، وقد يتفرع على سابقه.

أما شفاعة العمل: فتختص بمجال النجاة، ونيل الحسنات وعلو الدرجات في الآخرة، في حين لا تصل إلى مجالها الشفاعة الثانية. وهذا ما يمكن أن يكون تفسيراً للحديث الشريف: «ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، أمّا المحسنون فليس عليهم من سبيل»[2].

---

١ -بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٤.

٢ - بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٤، الوسائل، ج ١٥، ص ٣٢٥، تفسير القرطبي، ج ٥، ص ١٦١، تاريخ دمشق، ج١٣ ص ٦٤٣، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢٥٤.

ونعني من شفاعة العمل أو الارتباط: ذلك التجسّد والتجسّم الذي يحصل يوم القيامة للروابط المعنوية القائمة في الدنيا، كما ربما تحدثنا عنه الآيات الكريمة: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [١]. ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [٢].

فالتبعية آنذاك تتجسّد ويكون النبي(ص) شفعياً لعلي (ع) وهكذا تتسلسل الشفاعة ويكون الحسين (ع) شافعاً بلا واسطة أكثر من غيره.

وعلى هذا حملت شفاعة القرآن في قوله(ع): «القرآن شافع مشفع، وماحل مصدق» [٣].

فالعامل الأساسي في هذا النوع هو العمل وليس هذا النوع محل اشكال.

٣- أنّ شرط شمول الشفاعة للانسان هو شرط شمول المغفرة، وهو قابلية المحل، والإيمان: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [٤]. في حين يبقى علم باقي الشروط عند الله لأجل أن تبقى القلوب بين الخوف والرجاء.

٤- أنّ أمر الشفاعة أولاً وأخيراً يبدأ من الله تعالى، فهو الذي يجب أن يعين الشفيع، وإلاّ كانت الشفعاء كما قال تعالى: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [٥].

فالنظر يكون في الشفاعة متوجهاً إلى الله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [٦].

٥- الشفاعة وجه من وجوه الرحمة الإلهية التي رأيناها تتمثل من قبل في قبول الدعاء وقبول التوبة، وسنراها متمثلة في أساليب أخرى إن شاء الله تعالى.

---

١ -الاسراء: ٧١ .

٢ - هود: ٩٨ .

٣ - بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ١٧، المجازات النبوية، ص ٣٠٧، مجمع الزوائد، ج ٧، ص ١٦٤، مصنف ابن ابي شيبة ج ٧ ص ١٧٢، كنز العمال ج ١ ص ٥١٦.

٤ - النساء: ٤٨.

٥ - الاعراف: ٧١ .

٦ - النساء: ٦٤ .

بعد توضيح كل هذا، يتوضح دور الشفاعة في إعطاء عنصر الأمل فعالية وقوة، وتركيز الاطمئنان بتحقيق الأمل.

ويمكن أن نرجع تأثير الإيمان بالشفاعة في هذا المجال إلى أربعة أدوار:

ألف - دورها في عملية فتح باب الرجوع عن الانحراف.

ب - دورها في عملية الاطمئنان بتحقق النتيجة من تحقق درجة قربية أو حاجة أو مطلب دنيوي.

ج - دورها في عملية إيجاد نوع من الجزاء للعاملين على تحقيق الاهداف الكبرى.

ع - دورها في عملية خلق الاتصال بالشافع وتأطير الأمل في حدود أهداف الشافع.

أما الدور الأول:

فقد مر بنا: أنّ التوبة تقوم بنفس هذا الدور وهو فتح أبواب العودة إلى الطريق الصحيح، وتحويل العناصر المنحرفة إلى عناصر فعالة لصالح السير الإيجابي للمجتمع، وتخليصهم، من عذاب الضمير، والقلق الذي هو أقل من ينتج من الانحراف.

فما معنى الشفاعة إذن إذا كانت التوبة والدعاء هي الباب المفتوح؟ وعند الجواب عن هذا السؤال نود أن نؤكد على أنّه:

١ـ لتكن الشفاعة باباً آخر من أبواب الرجوع إلى الله.

٢- ولتكن للشفاعة فوائدها الأخرى من مثل ما سيأتي من أنها تخلق نوعاً من الربط الشديد بالشفيع، مما يحقق أهدافاً كبرى تشترك في صنع الهدف العام للخلق، ففتح باب الشفاعة لفوائد خاصة تماماً كفتح باب الدعاء لفوائد إضافية كما مر بنا سابقاً.

ومن جملة الفوائد: ما يمكننا أنّ نفترضه من أنّ الإنسان المنحرف قد يصل به الأمر مرحلة يتصور معها أنّ توبته لن تقبل، وأنّ دعاءه لن يستجاب نظراً لعظم جرمه. وعلاج هذه الحالة سوف يمكن بإعطائه اشعاراً حسياً بأنّه سيقترن مع طلبه ودعائه طلب من مقام عظيم وجيه عند الله تعالى.. وهذا المعنى يمكننا أن نلاحظه بوضوح في أساليب طلب العفو التي تعلمها الأدعية المترفقة. فهي تلقن الداعي أن يعيش آفاق

عظمة محمد وآل محمد، ويطلب منه تعالى أن يصلي عليهم بألسنة متعددة تحمل معها كل معاني الارتباط بهم، ومن ثم تلقنه أنّ يستشفع بهم من عظيم الذنب وكبر الانحراف، ولا نزيد في التوضيح بهذا المجال على ما مر بنا سابقاً.

وأمّا الدور الثاني:

فواضح أنّ الاستشفاع بالأنفس الطاهرة المقربة منه تعالى: وبنص منه تعالى على الاستشفاع بهم لأجل تحقيق آمال الانسان، سواء كان ذلك من حيث القرب إلى الله تعالى وتحقيق درجة أعلى من الرضا الإلهي المطلوب، أو من حيث تحقق الأماني والآمال في السعادة والنصر وحل المشاكل، هذا الاستشفاع له تأثيره في خلق اطمئنان بالنتيجة، وهو يعطي الأمل دفعاً لأجل أن يهيئ الأرضية المساعدة لتقبل التأثير.

أمّا الدور الثالث: فيتمثل -كما سبق - في اعطاء العاملين في سبيل الهدف نوعاً من الجزاء، فقد وردت الأحاديث الكثيرة في أنّ المؤمن يشفع في خلق كثير بأمر الله، وتلك أمنية عظمى للانسان المؤمن أن يقوم بالاستشفاع لإنقاذ من يرتبط بهم بنوع من الارتباط، وذلك اليوم يوم الجزاء والفزع الأكبر. ولعمري أنّ هذا المقام الذي يعطيه الله للمؤمن هو من اعظم أنواع الجزاء تأثيراً في نفسه، وتحريكاً لحب ذاته في سبيل خدمة المجتمع، والعقيدة، والتضحية في سبيلها بكل غالٍ ورخيص.

وهنا تتخذ الشفاعة نفسها دور الأمنية، فتبعث على العمل لتهيئة الأرضية المساعدة للحصول على ذلك الشرف الكبير.

وأمّا الدور الرابع: وأخيراً فإنّ الشفاعة في (دورها الرابع) تخلق ذلك الارتباط العاطفي الواعي، المؤطر بإطار عقائدي بالشفيع، إذ تركز منزلته لديه، وتجعله يقتفي أثره. وهذا المعنى له تأثيره في إعطاء الأمل صبغة الشفيع، وتعني بذلك إعطاءه الصبغة التي يرضاها الشفيع تبعاً لرضا الله تعالى، ما يضمن لنا أملاً صحيحاً واعياً، وسيأتي حديث حول هذه النقطة في بحث ضوابط الأمل إن شاء الله تعالى.

وهنا يمكن أنّ نضيف إلى الموقف تأثير النوع الثاني من الشفاعة (وهو شفاعة العمل) في خلق الاحساس والشوق الكبير للدخول في موقف التبعية المجسّد، في ذلك

اليوم الذي «تذهل فيه كل مرضعة عما ارضعت» فينجو من تبعاته، إذ يدخل في الوفد الذي تحيطه عناية الرحمن، ويقوده الشفعاء الذين يـضللهم الرضـا الإلهـي. والرضـوان آنذاك اقصى ما يتصور من العطاء والنعيم: «ورضوان من الله أكبر».

١٢- مفهوم الانتظار ودوره

وهنا لابد من الحديث عن مفهوم الانتظار والاعتقاد بالمهدي المنتظـر(ع) واثـره في تقوية الأمل.

فرغم أنّ هذا الاعتقاد أريد له أن يكـون عالميـاً، وأنـه جـاءت بـه كـل الأديـان السماوية، إلاّ أنّ التشويهات والتحريفات والتعصبات حاولت حصره في نطـاق ضـيق من الأمة الإسلامية. فافقدته الفاعلية المطلوبة على الصعيد العالمي. هذا من جهة، وأمّـا من جهة أخرى: فإنّ التصور الخاطئ لعملية الانتظار وملاحظته كموقف سـلبي: قـضى على مفعولها تقريباً، بل حولها إلى تبرير غريب للحالات اليائسة!

إنّ هذا المفهوم لو وضع في إطاره العام الصحيح وهو: الاستعداد والتـهيؤ للانخـراط في اتباع المصلح السماوي الذي سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً – وهو الإمام المهدي (ع) والذي سيجعل: «الدين كله لله»، فإنّه سيكون له التأثير الكبير جداً في حياة المنتظرين، إذ سيدفعهم لاعداد الأرضية في أنفسهم وفي مجتمعهم لـذلك الحـدث الكـبير. إنّ هـذا الانتظار سيملأ وجودهم، ويستغرق كل انماط سلوكهم، ويجعلهم يتبعون كل الـسبل في سبيل تحقيق ذلك الأمل المنتظر.

ولقد أكد بعض علماء النفس على أنّه يجب أن نركز على أنّ العمل الانـساني قـائم في أساسه على انتظار شيء، ومتى ما خلا الإنسان من الانتظار فقد مات سلوكياً.

وإذا كان ذلك صحيحاً فما أروع وما أبعد مدى هذا الانتظـار الاسـلامي للمـصلح العالمي ويومه الموعود.

والنقطتان الأساسيتان في الانتظار اللتـان تعمـلان علـى ازديـاد تـأثير الأمـل في الإنسان المسلم، وتقريبه من عالم التجسيد والحس هما:

ألف: أنّه يركز في اعتقاد الإنسان المسلم الإيمان الكامل بالموجود الحسي الحي، الذي يعيش معه في هذه الدنيا كما يعيش هو، ولكنه أختفى عن العيون بقدرة الله تعالى، ولكنه(ع) يراقب - حساً - عمل المؤمنين ويتابع خطواتهم استعداداً لذلك اليوم.

إنّ هذا الشعور - بالاضافة إلى معطياته الكثيرة - ليمنح الإنسان دفعاً اكبر نحو شدّة المراقبة، وشدّة الوعي، وشدّة العمل. وذلك بشكل يعجز عن وصفه التعبير اللفظي.

كما أنّه يستصرخ المسلم ويزيد من شوقه، ليعمل كل ما يمكن في سبيل ظهوره(ع) وانتقاله من عالم الخفاء إلى مسرح القيادة.

فالاحساس بمراقبة الإمام للخطوات، والاحساس القائم بكون الإمام في عالم الخفاء والغيب عن الابصار: كلاهما يملكان تأثيراً كبيراً في صبغ عمل الإنسان بالوعي، والشدة، والاتساع.

باء: إنّ الانتظار يركز في عقيدة المسلم: أنّ النصر مضمون في الدنيا قبل الآخرة، وأنّه سيحس به ويتأثر به عالمه الحسي هذا. وهذا له تأثيره الفعال أيضاً في زيادة الاحساس بالأمل، والعمل لتحقيقه.

والنتيجة: أنّ تركيز الأحاديث الشريفة على الانتظار، والادعية المختصة بهذا المورد: هو اسلوب إسلامي فذ في الاشعار بالأمل وتركيز الإحساس به.

مثل من القرآن الكريم

وقبل أن ننتقل للمقطع التالي نرجع إلى القرآن الكريم ليحدّثنا عما استطاع الأمل الاسلامي القيام به من دور في حياة الجماعة المسلمة وفي أحرج لحظات الحياة...

فقد أحست قريش بعد أنّ رجعت من معركة أحد أنها لم تستغل نصرها غاية الاستغلال، ولم تستأصل الدعوة الإسلامية في لحظات قوتها هي وضعف المسلمين، ولذا فقد تناهي إلى النبي(ص) أنها عازمة على الرجوع إلى المسلمين وتنفيذ خطتها المشؤومة.

وكان الموقف خطيراً إذ أنّ جراح المسلمين كانت تنزف نتيجة الهزيمة المرة في معركة

أحد إلاّ أنّ القرآن هنا أسند النبي(ص) بآيات قرآنية حركت في المسلمين عنصراً هاماً بعث فيهم الحياة من جديد.

فقد أمرهم النبي(ص) أن يتجهزوا للمسير إلى قريش ورفض أن يخرج معه إلا الذين شهدوا المعركة من قبل .

وجاء هذه الآية الكريمة لتبين للمسلمين الفارق الكبير بينهم وبين قريش... فتقول: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ [1]. إنّه الهدف الكبير والرجاء البعيد المدى الذي يدفع الكل للتضحية في سبيله بكل ما يملك.

وهكذا تحرك الجيش الاسلامي الجريح كالأسد الجريح، وبلغت أنباء تحركه إلى قريش فلم تقو على تحمل المعركة من جديد، بعد أن سمعت بالعزم الاسلامي والحماس... وارسلت من ينهي الأمر برجوع كل طرف إلى قواعده سالماً. [2].

كانت هذا مثالاً على دور الأمل.

ويمكننا أن نستعرض عشرات المواقف بل تاريخ المسلمين الأول كله لنجعله مثالاً على طاقة الأمل الإسلامي في الدفع نحو الهدف.

١٣- الامل الذي تبعثه نوعية النظام الاسلامي

إنّ المسلم الواعي رغم كل الدعايات المضللة ليستمد من الواقع الموضوعي القائم امامه أملاً إضافياً إلى جنب ما تمده به عقيدته ومفاهيمه من رجاء ما بعده رجاء.

فإنّه إذا رجع بنظرته إلى الوراء... حيث مطلع الإسلام يجد أنّ الإسلام نقل الأمة من وهدة الجاهلية، والتأخر الفضيع إلى حيث جعلها تمشي على قمم العصور، وتبني أروع حضارة عرفتها البشرية وأول حضارة يمكن أن يجعل العنصر المميّز والمحرك لها الدين بصفة عامة.

---

١ - النساء: ١٠٤.

٢ - سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ١٠٧.

فلقد قاد الإسلام الأمة خلال قرون طويلة، ولولا اختلال في التطبيق، وانحراف كبير في القيادة لكان من المتوقع له أن يسيطر على العالم، ويوجه الانسانية إلى حيث كمالها اللائق بها.

ويجد - أي المسلم - أن الإسلام انتصر بعوامل كثيرة كان من أهمّها القيادة الحكيمة المفقودة فعلاً، وخصائص الإسلام نفسه التي يمكن أن نطلق عليها صفة «الواقعية» والتي عبرت عن نفسها في الظواهر الإسلامية العامة التي منها هذا (الأمل) موضوع هذا البحث.

ومنها المرونة والترابط والتوازن والشمول وامثال ذلك مما بيناه. كما عبرت عن نفسها في ابتنائها على أرضية أصيلة: تحدد للانسان موقفه من الكون على أساس فطري عقلي وتمنحه عقيدته الخالصة التي تنبع منها مفاهيم تصورية رائعة واخلاقية فكرية وعملية.

وإذا كانت القيادة الحكيمة غائبة فعلاً فإنّ طاقات الإسلام متوفرة فيه، وأن لم نستطع أن نستوعبها ونستوعب تأثيراتها في النفوس، ونطبق أساليبها في التبليغ والعمل.

وهذه الطاقات - رغم عدم وضوحها في أنفسنا - تعمل عملها اليوم في خلق موجة عالمية للاتجاه للاسلام، وقبول قيادته والانضمام لمعسكره الانساني.

الأعداء يشعرون بالخطر

إنّنا بعد أن نعرف بأنّ هناك قصوراً وتقصيراً كبيرين في جهاز التبليغ الاسلامي لنلاحظ أنّ تقدم الإسلام اليوم يبشر بكل خير.

فقد جاء في كتاب (ما لم يقل عن دوجول) أنّه - أي دوجول - بعد الهزيمة الفرنسية حاول الانتحار وارسل يطلب الراهب الذي يعترف لديه فقال له معللاً ما عزم عليه:

«إنّ أوروبا الغربية الآن تنهار أمام النازية ومعنى ذلك انهيار الحضارة النصرانية بصفة نهائية. إنّ أمريكا أختنا في الدين وفي الحضارة وسوف تعمل ما تستطيعه لانقاذ الموقف شيئاً ما ولكن حضارتنا مع ذلك ستنتهي.

وهنالك في الصين شعب قوي نسميه تارة الخطر الاصفر ولكنني لا اعتقد أنّه يكـون البديل الصحيح فالحضارة الصينية لا تبلغ درجة حضارتنا المسيحية ولكن الذي أخاف هو هذا الخط الذي يمتد من طنجة إلى كراتشي.

إنّ الإسلام ذو حضارة وثقافة وهو جدير بأنه الوارث لنا فإذا تحـالف مـع الـصين فإنّه لن يوجد أحد يوقف المسلمين عند بواتية[1].

وينقل الاستاذ العقاد في كتابه (ما يقال عن الإسلام) تصريحات عديدة كلها تعرفنـا على ادراك الآخرين لسرعة انتشار الإسلام في افريقيا فيقـول مـستنداً إلى احـصاءات الكتاب الشاملة.

«ويفهم من الاحصاءات أيضاً أنّ الاسلام سريع الانتشار ولكن العلـم بـه سـطحي بين قبائل القارة الاصلاء... وقد لوحظ أنّ الـشبان مـن قبائـل (الموسـي) أقـرب إلى اقتباس العقائد الإسلامية ويعودون إلى اهليهم من بلاد النيجر مـسلمين متـشددين في الدعوة إلى عقيدتهم الجديدة.

ويقول: أمّا نظرة الحذر فهي ديدن المشتغلين بالتبشير والاستعمار كلمـا نظـروا إلى شيوع الدعوة الاسلامية وسهولة انتشارها بالاقناع والقدوة.

وينقل عن المؤلف الامريكي لكتاب (افريقية الجديدة) رأيـه بـأنّ الإسـلام أعـرق وأثبت في القارة الأفريقية من أن تعوقه عن الانطلاق في أرجائهـا عوائـق التبـشير أو المقاومة السياسية فإنّ المسيحية لم تفلح قط في مقاومة الإسلام بالقارة.

ويقول في حديثه عن بعض طاقـات الإسـلام في الرسـوخ: أنّ مـن اسـباب قـوة الاسلام بين قبائل (الهوسا) إلى الجنوب من بلاد المغرب الاقصى أنّ الشعائر الإسـلامية قد أصبحت عندهم «طريقة حياة مع الإيمان بعقائدها الروحية وقلما ينجح المبـشرون في المزج بين التدين وأساليب المعيشة اليومية».

ومن كتاب مؤلف مـن قبـل قـس امريكـي أسـود يتوضـح «أنّ تحويـل الـدعوة

---

١ - الاستاذ علال الفاسي، مجلة الهادي، العدد الثاني، السنة الرابعة، ص ٢٨.

الإسلامية - يقصد في امريكا - من حركة مقصورة على السود إلى حركة تفتح ذراعيها للسود والبيض من الامريكيين هي موضوع الاهتمام الكبير في دوائر التبشير لان المبشر الاسلامي من الامريكيين السود يعاود الدعوة إلى الإسلام في بلاده كلما اتجهت هذه الدعوة إلى أبناء البلاد جميعاً من قبل المسلمين الآسيويين والأفريقيين وهم اليوم في امريكا طليعة ناجحة قد يتبعها غداً مدد كبير وادعى من ذلك إلى اهتمام دوائر التبشير:

انّ المسلم الامريكي الأسود يزاحم البعوث التبشيرية مزاحمة شديدة في القارة الأفريقية بعد استقلال شعوبها عن سلطان الدول الغربية».

ويري باتين في سلسلة كتبه عن أوساط أفريقية أنّ انتشار الإسلام بين الأفريقيين - إذا روجعت اسبابه جميعاً - إنّما هو نتيجة لا محيد عنها لانتشار حضارة إنسانية ممتازة لم تكن في العالم حضارة تضارعها أو تقوى على فعاليتها.

وأنّ وصول الإسلام إلى القارة الأفريقية كان ملازماً لوصوله إلى القارة الأوروبية نفسها وامتداده إلى الأقطار البعيدة من القارة الآسيوية وقد كان امتياز حضارته سبباً كافياً - لسيادته على العالم المعمور والعالم المجهول الذي يصل إليه الإنسان المطبوع على الترحل والسياحة»[1].

هذا إلى غير ذلك من النصوص التي ينقلها هو وغيره عن انتشار الإسلام في عصرنا الحاضر.

فإذا لاحظنا أنّ تلك العناصر المقوية كانت تمتلك في مطلع الإسلام بلا ريب مظهراً أقوى وتأثيراً أكبر لوضوحها وعمقها في المجتمعات التي تنضوي تحت الإسلام وخصوصاً المسلين الأوائل في الجزيرة العربية عرفنا مدى مساعدتها في عملية انتشار الإسلام إلى أرجاء المعمورة.

---

١ - مايقال عن الاسلام، عباس محمود العقاد، ص ٢٩ و ٧٨٤ و١٠٩ و١١٤.

النظام الإسلامي يسبق الفكر الوضعي:

وكل هذه البشائر لو جمعت إلى حقيقة علمية أصيلة هي سبق النظام الإسلامي لكل النظم الوضعية والنظريات البشرية المطروحة في المجال التنظيمي، فأنّ ذلك ليؤكد في قلب الإنسان المسلم أعمق الأمل بالانتصار.

يقول الأستاذ عبد القادر عودة في كتابه القيم: «التشريع الجنائي في الإسلام» مايلي:

«وأن كانت نظرية الشريعة قد جمعت بين النظريات التي سادت القوانين الوضعية من القرن الثامن عشر حتى الآن، فإنّ نظرية الشريعة قد تنزهت عن العيوب التي شابت النظريات الوضعية، وسلمت من الانتقادات التي وجهت إليها.

ولعله مما يدهش الكثيرين أن يعلموا: أنّ للعقوبة في الشريعة الإسلامية نظرية علمية فنية تامة التكوين لا يأتيها النقد من بين يديها ولا من خلفها وأنّ القانون بالرغم مما وصل إليه من تقدم إنّما يسير في أثر الشريعة، ويترسم خطاها وأنّه لم يصل بعد إلى ما وصلت إليه الشريعة. وأنّ النتائج التي وصل إليها القانون، والاتجاهات التي يتجه نحوها تدل على أنّ تطوره في المستقبل القريب أو البعيد لن يخرج عن النطاق الذي رسمته الشريعة للعقوبة»[1].

ويقول بعد ذلك:

«ولا يفوتنا بعد هذا أن نذكر أنّ القانون الوضعي كان حتى آخر القرن الثامن عشر قانوناً وحشياً بعيداً عن أفق الإنسانية فكان يحاكم الأحياء والأموات والحيوان والجماد وينزل بالجميع عقوبات شتى قائمة على التمثيل والتشهير، كان القانون الوضعي هكذا حتى أخذ في القرن الثامن عشر بأول مبدأ من مبادئ الشريعة الإسلامية فانقلب قانوناً إنسانياً بحتاً...».

وليس هذا بالنسبة للقانون الجنائي فحسب بل أنا لو استعرضنا مختلف القوانين

---

١ – التشريع الجنائي في الاسلام، والجزء الأول، ص ٦٢٧.

والنظم الإسلامية وجدنا النظرية الإسلامية قد جاءت بأروع نظام في حين ظل الفكر الوضعي يتعثر في طريقه قروناً وما زال كذلك إلاّ أن يأخذ بحجزة الإسلام.

مثال اقتصادي مذهبي

يكتب الإمام الصدر (قدس سره) في كتابه الرائع «اقتصادنا» فيقول: «وبينما أخذ المجتمع الرأسمالي بالحرية الشكلية، وطرح الحرية الجوهرية وفكرة الضمان جانباً، وقف المجتمع الاشتراكي موقفاً معاكساً - إذ قضت الاشتراكية الماركسية فيه على الحرية الشكلية بإقامة جهاز ديكتاتوري يتولى السلطة المطلقة في البلاد، وزعمت أنها عوضت عن تلك الحرية الشكلية بحرية جوهرية، أي بما تقدمه للمواطنين من ضمانات للعمل والحياة.

وهكذا أخذ كل من المذهبين بجانب من الحرية، وطرح الجانب الآخر، ولم يحل هذا التناقض المستقطب بين الحرية الشكلية والحرية الجوهرية، أو بين الشكل والجوهر.. إلا في الإسلام الذي آمن بحاجة المجتمع الإسلامي للحياة الكريمة، وممارسة متطلباتها الضرورية. ولم يعترف في حدود هذا الضمان بالحرية. وفي نفس الوقت لم يجعل من هذا الضمان مبرراً للقضاء على الحرية الشكلية، وهدر قيمتها الذاتية والموضوعية، بل فتح السبيل امام كل فرد خارج حدود الضمان ومنحه من الحريات ما ينسجم مع مفاهيمه عن الكون والحياة فالمرء مضمون بدرجة وفي حدود خاصة، وحر خارج هذه الحدود. وهكذا امتزجت الحرية الجوهرية والحرية الشكلية معاً في التصميم الإسلامي هذا الامتزاج الرائع الذي لم تتجه الانسانية - في غير ظل الإسلام - إلى التفكير فيه وتحقيقه الا في غضون هذا القرن الأخير، إذ بدأت المحاولات إلى إقرار مبدأ الضمان، والتوفيق بينه وبين الحرية، بعد أن فشلت تجربة الحرية الرأسمالية فشلاً مريراً»[1].

أنه إذن انفتاح البشرية على الإسلام - وأنه الأمل النابع من الواقع التطبيقي،

---

١ - اقتصادنا، ج ١، ص ٢٥٠.

والذي يملأ جوانب قلب المسلم تطلعاً لليوم الموعود:

وقد كتبت قبل سنين في إحدى المجلات الإسلامية مقالاً قلت فيه: «منذ أن غابت تلك الشمس الرائعة سر تقدمنا ومنطلق عزتنا التي كنا فيها نسير على قمم الزمان الشواهق، منذ ان أسدلت الستر الكثيفة على منبع النور - إلا قليلاً - وكل الفضائل المؤمنة التي وعت واقعها وحددت نقاط الداء في جسم الأمة وما رأت لكل ادوائها علاجاً ومنقذاً إلا الإسلام العظيم عندما يعود فيمسك دفة الأمور ويحكم في كل مجالات الحياة... كل هذه الفضائل تمر بمرحلة الصبر وما هي إلا عملية تخزين للطاقات ومنعها من الاهدار والضياع في غير وقتها المناسب. ومن خلال هذه المرحلة الطبيعية تتطلع قلوبها اليوم إلى نقاط ضوء تبدو خلال السحب الكثيفة... فتبشرها بالخير كل الخير.. وتشير لها أن تعد العدّة للمستقبل...»

فهنا شعور معمق بالحاجة إلى الاسلام، وهنا نمو في الدعوة إلى واقع التطبيق وسعي حثيث نحو انزاله إلى واقع التطبيق، وهناك خطوات مشكورة نحو لم الشمل ورأب الصدع، وهنا وهناك بشائر أخرى كلها تبعث في القلوب آمالها وفي العيون بريقها وتدعو المستقبل البعيد البعيد فإذا به يصبح قريباً جداً بحيث لا يمكن الإنكار.

لقد التزمت البشرية باطروحات عديدة... لا صلة لها بالسماء فجربتها وعاشت في ظلالها... فلم تجن منها الا الأسى والألم، ولم تجد فيها السعادة التي تريد... والدواء الذي تحتاج وبالرغم من ذلك بقيت تتخبط بعيداً عن اطروحة السماء إلى أن وجدت نفسها في نهاية الشوط مفلسة وقد أعياها المسير.. وكان هذا الاعياء الآن في القرن العشرين حيث نجد ردود الفعل لضياع الانسانية الطويل يتجلى في مظاهر مختلفة: منها اقبال ملفت للنظر إلى رسالة السماء. ومهما يكن هذا الاقبال، ومهما تكن هذه العودة، فإنّ لها عندنا قيمتها... شرط أن توجه الوجهة الصحيحة وتسقى بري القرآن.

إننا نعتبر الأمة تعيش الانفتاح على عقيدتها من جديد، ولا يعني هذا أننا في الطريق سائرون بلا عقبات وعراقيل، كلا... بل يعني العكس لأنّ اعداءنا - وهم

الأكثر تخطيطاً للامور - يرصدون كل حركة يتململ بها هذا المارد السجين ويعدون له كل حركة نفس، وحتماً فإنّهم سيحسبون للأمر حسابه. ولكنّا مطمئنــون بــأنّ للباطــل جولة وللحق دولة، وأنّ البشرية بمقتضى واقعهــا الفطــري الأصــيل، وشــعورها بخيبــة الآمال في آرائها الناقصة، وتصريحات الذين دقوا لها ناقوس الخطر وتنبــؤوا بمــستقبلها الذي تؤطره السماء باطارها المقدّس كل هذه تؤكد أنّ النهايــة الطبيعيــة للبــشرية وأنّ ميناء الآمان يكمن في نقطة واحدة يذوب عندها كل ما عداها... ولعل العــالم يــصلها عن قريب: إنّها الإسلام الخالد.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾(١).

على أنّ تلك القضية الواقعية لا يمكن أنّ تفسر سلبية معينة أو توقعاً مريضاً يعــيش على فتات الأمل.

بل إنّها على العكس تشكل الدافع الدفاق لكــل واع ومخلــص لكــي يــؤدي دوره كاملاً وهو مطمئن للنتيجة العظمى التي رسمها من قبل وعد الله تعالى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الــصَّالِحَاتِ لَيَــسْتَخْلِفَنَّهُم فِــي الْــأَرْضِ كَمَــا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُــمْ وَلَيُبَــدِّلَنَّهُم مِّــن بَعْــدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًــا يَعْبُــدُونَنِي لَــا يُــشْرِكُونَ بِــي شَــيْئًا وَمَــن كَفَــرَ بَعْــدَ ذَلِــكَ فَأُوْلَئِــكَ هُــمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٢).

وأخيراً: فإنّ طاقات الإسلام مازالت فياضة معطاء. وإيجابية الأمل فيــه مــا زالــت تدفع العاملين في سبيله... بشرط أن يحققوا شروط الدفع.

فإلى اهداف الإسلام أيها المسلمون.. والى الأمل الكبير ولنحقق وصية إمامنا أمــير المؤمنين(ع) حيث يقول: «ألا وإنّ اليوم المضمار، وغداً السباق، والسبقة الجنّــة والغايــة النار... ألا وإنّكم في أيام أمل من ورائه أجل فمن عمل في أيــام أملــه قبــل حــضور

---

١ - المعارج: ٦-٧.

٢ - مجلة الهادي، العدد الثاني، السنة الثانية، ص ٥.

أجله نفعه عمله، ولم يضرره أجله، ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أجله»[١].

الفصل الرابع - ضوابط الامل:

رأينا فيما مضى من حلقات: أنّ الأمل محرك أساسي للانسان، وأنّه كلما علا مستواه ارتفعت طاقة دفعه. وأنّ الإسلام يمتاز على سائر ما عداه بأنّه يغرس في أعماق الإنسان الآمال الكبرى التي تضرب إلى غاية البعد (الخلود) من جهة، وتحتفظ بواقعيتها من جهة أخرى، وأنّ وسائل تنمية الأمل، استمدت من العقيدة والمفاهيم الإسلامية فعاليتها وتأثيرها.

والآن نحاول أن نتعرض إلى الضوابط التي يعطيها الإسلام للأمل لئلا ينقلب على أهدافه، ويحتفظ بما قلناه من التطابق مع الواقع، وواضح أنّ الاسراف والافراط، وعدم وضوح معالمه لا شك يؤديان بالانسان إلى عواقب لا تحمد.

أنّ وعي متطلبات تحقيق الأمل أمر يجب توفره دائماً عندما يراد الانسياق لتحقيقه... فكيف أوجد الإسلام ذلك؟

لا ريب في أنّ الإسلام يجعل الهدف الذي يعني تحقيقه تحقيق كل الآمال الأخرى «رضا الله تعالى» فحسب، بإعتبار أنّ رضا الله عن العبد يعني أنّ العبد استطاع أن يحصل على المكانة اللائقة به في الواقع، وبالتالي فأنّ ذلك سيحقق له أبعد الآمال.

ورضا الله تعالى... يعني أنّه سيسعد العبد سعادة واقعية في الدارين: الدنيا والآخرة، ولكن السعادة الدنيوية لا يمكن أن تقاس إلى سعادة الحياة الأخرى، لأنّ الحياة في هذه الدنيا تظل محجوبة عن الواقع الكثير، في حين تكون تلك الحياة في قلب الواقع، ولذا جاء القرآن الكريم ليقول: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [٢]. و ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ

---

١ - نهج البلاغة، الخطبة ٢٨، راجع: ص ٣١٠.

٢ - العنكبوت: ٦٤ .

مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (١). ولذا فإنّ الهدف الأكبر والتجلي الباهر لرضا الله سيكون في الآخرة ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (٢).

ومن هنا فقد جعلت الحياة الأخرى الهدف الأكبر في حين امتلكت الحياة الدنيا نصيباً من الاستهداف، وتحقق المتع المادية قسطاً من الدوافع. ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (٣). وهذا النصيب الذي امتلكه لتحقيق المتع المادية يؤطر بدوره باطار الآخرة، وينظر إليه كمرحلة لا كهدف، ولذا يعبر الإمام(ع) عن الدنيا بقوله: من أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته»(٤). أو «والبصير منها متزود، والأعمى لها متزود» (٥).

وبعد سبر نظرة الإسلام إلى المتع المادية نجد أنّ القسم الطبيعي منها لم يجد محاربة من الاسلام، بمقتضى واقعيته واطلاعه على حقيقة النفس الانسانية، إلاّ أنّه –أي الإسلام حاول أن يجعل المسلم الكامل انساناً أطر كل حياته بأطار الآخرة والتقرب إلى الله تعالى، في حين وقف بحزم ضد الافراط في المتع المادية وشدة التأثر بذلك الأمل الرخيص، والوقوع في أسره، وخصوصاً إذا تجلى في خلد الإنسان أملاً طويلاً يستنفد كل طاقاته، فأنّه أمر يحاربه الإسلام ويحذر الناس منه وينبههم إلى عواقبه الوخيمة.

وقد دعا إلى تحقيق الزهد دعوة شديدة، والزهد لا يعني إلاّ التحرر من أسار هذه الآمال الرخيصة التي ينظر إليها نظرة استقلالية.

وحذر من طول الأمل – بهذا المعنى الذي لا يستند فيه إلى خلفية اخروية – وذلك في نصوص كثيرة: منها الآيات القرآنية الشريفة:

---

١ – ق: ٢٢.

٢ – التوبة: ٧٢.

٣ – القصص: ٧٧ .

٤ – نهج البلاغة، الخطبة ٨٠ .

٥ – ن. م، الخطبة ١٣١.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾[1].

﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[2].

﴿إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾[3].

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4].

كما أننا نجد طائفة كبيرة من النصوص المرتبطة بهذا المجال في «نهج البلاغة» وكلها تبين وتوضح وتدعو إلى قصر الأمل في الدنيا وفنائها هي وما أمل فيها، إلى غير ذلك فيقول الامام(ع):

«أنّ اخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل»[5]. ويقول عن الدنيا: «ولا يغلبنكم فيها الأمل»[6]. ويقول «واعلموا أنّ الأمل يسهي العقل، وينسي الذكر، فاكذبوا الأمل فأنّه غرور، وصاحبه مغرور»[7]. ويقول(ع): «والزهادة قصر الأمل، والشكر عند النعم، والورع عند المحارم»[8]. ويصف ابن آدم فيقول: «فإنّ أجله مستور، وأمله خادع له»[9]. ويقول: و«حضرتكم كواذب الأمال»[10]. ويصف الدنيا فيقول: «وتحلت بالأمال»[11]. ويقول في كتاب له إلى معاوية: «وأحذرك أنّ تكون متمادياً في غرة الأمنية، مختلف العلانية والسريرة»[12]. ويذم قوماً فيقول: «وتصافيتم على حب

---

١ – الحجر: ٣ .
٢ – القصص: ٦١.
٣ – فاطر: ٤٠.
٤ – البقرة: ٢٦٨.
٥ – نهج البلاغة، ج ١، ص ٧٠.
٦ – نفس المصدر، ج ١، ص ١٠١.
٧ – نفس المصدر، ج ١، ص ١٥١، المعيار والموازنة، ص ٢٨٣.
٨ – نفس المصدر، ج ١، ص ١٣٠، الزهد لابن زياد، ص ٢٠، تفسير الثوري، ص ١٧.
٩ – نفس المصدر، ج ١، ص ١١١.
١٠ – نفس المصدر، ج ١، ص ٢١٦.
١١ – نفس المصدر، ج ١، ص ١١١.
١٢ – نفس المصدر، ج ٣، ص ١٠، المعيار والموازنة، ص ١٠٢.

الأمال»[١]. ويقول: «وإنّما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم، وتغيب أحلامهم». ويقول(ع): «أنّ الدنيا تغر المؤمل لها والمخلد إليها... أنّ النعمة لن تسلب إلاّ بكفر، فيؤملهم بخير الدنيا ظاهراً».

وجاء في الدعاء الذي يرويه كميل بن زياد عن الإمام «وحبسني عن نفعي بعد أملي، وغرتني الدنيا بغرورها».

كما أنا نلاحظ نفس هذا المعنى يأتي في دعاء علمه الإمام زين العابدين لأبي حمزة الثمالي، حيث يقول الداعي في مقام الاعتذار عن ذنوبه: «وأفنيت بالتسويف والآمال عمري».

هذا، ويجب أنّ لا يغيب عنا: أنّ المذموم في أكثر النصوص هو طول الأمل، أمّا الأمل المعقول الطبيعي فهو يأخذ لنفسه نصيباً من الدوافع، وقد يكون ضرورياً، ففي رسالة الإمام(ع) للاشتر يقول له حول الجند «فأفسح في آمالهم، وواصل في حسن الثناء عليهم».

هذا كله في مجال استهداف المتع المادية التي عبر عنها بـ «الدنيا». أمّا في مجال الآمال التي ترتبط بمسألة التكامل المعنوي: فأنّنا وجدنا كيف أنّ الإسلام دفع إلى تركيزها وتجسيدها في وعي الإنسان. ونحن نجد في الأدعية الفقرات التالية كتأكيد لذلك:

«وعظم فيما عندك رغبتي».في دعاء كميل- وفي دعاء الثمالي: «الحمد لله الذي لا أرجو غيره ولو رجوت غيره لا خلف رجائي» «ومناهل الرجاء لديك مترعة» «افتراك يا رب تخيب ظنوننا أو تخيب آمالنا، كلا يا كريم، فليس هذا ظننا بك ولا فيك طمعنا، يا رب أنّ لنا فيك أملاً طويلاً كبيراً، أنّ لنا فيك رجاء عظيماً» «إلهي لو قرنتني بالاصفاد، ومنعتني سيبك من بين الاشهاد ودللت على فضائحي عيون العباد، وأمرت بي إلى النار، وحلت بيني وبين الأبرار، ما قطعت رجائي منك، وما صرفت تأميلي للعفو عنك. ولا خرج حبك من قلبي».

---

١ - نفس المصدر: ج ١، ص ١٦ .

«فإنّما أسألك العظيم لقديم الرجاء فيك وعظيم الطمع منك: الذي أوجبته على نفسك من الرحمة والرأفة».

وأخيراً فـ «أنت موضع أملي».

وهكذا يتعاظم الأمل بالله إلى أقصى حد. فيقول الإمام (ع) مخاطباً المسلم: «كن لما لا ترجو ارجى منك لما ترجو، فانّ موسى بن عمران خرج يقتبس لأهله ناراً فكلمه الله عزّ وجلّ فرجع نبياً».[1]

ولكن هذا الأمل العظيم يقترن بمقتضيات تجعله أملاً صادقاً، ورغبة خاصة، وإلاّ فهو مجرد كذب وخداع.

فأنّ مثل هذا الأمل يجب أن يشكل منطلقاً نحو تحقق مقتضياته، ورأسمالاً للعمل على تنفيذها، إذ المؤمن «رأسماله الرجاء»[2]، منه يندفع نحو العمل الصالح وبطاقته يقتحم الصعوبات، أمّا إذا عدم العمل بمقتضيات الأمل فهو كاذب خداع.

يقول القرآن الكريم: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾[3].

ويقول الإمام أمير المؤمنين(ع): «ألاّ وأنّ اليوم المضمار، وغداً السباق والسبقة الجنّة، والغاية النار... ألاّ وأنّكم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله نفعه عمله، ولم يضرره أجله، ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أجله»[4].

ويقول (ع):

«ألا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة. ألا وأني لم أرَ كالجنّة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها».[5]

وعن ابن أبي نجران عن أبي عبدالله(ع) قال: قلت: قوم يعملون بالمعاصي، ويقولون:

---

١ - من لا يحضره الفقيه، ج٤ ، ص ٣٩٩، تحف العقول، ص ٢٠٨، الدر المنثور، ج ٥، ص ١٢٧.

٢ - نفس المصدر، ج ٣، ص ٣١.

٣ - الكهف: ١١٠.

٤ - نهج البلاغة، ج ١، ص ٧٠، راجع: ص ٣١٠.

٥ - نهج البلاغة، ج ١، ص ٧١، كنز العمال، ج ١٦، ص ٢٠٢، اعجاز القرآن، ص ١٤٥.

نرجو، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت؟ قال: «هؤلاء قوم يترجحون في الأماني. كذبوا ليسوا براجين، أنّ من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه» (وفسر الترجيح بالتأرجح)[1].

وقد روي عن أمير المؤمنين(ع) قوله:

«يدعى أنه يرجو الله. كذب والعظيم! ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله؟! وكل من رجا عرف رجاؤه في عمله إلاّ رجاء الله فأنّه مدخول، وكل خوف محقق إلاّ خوف الله فأنّه معلول»!![2].

وعلى هذا، فقد اقترن الرجاء والأمل بالحذر من المخالفة والانحراف اقتراناً قوياً إذ يقول تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [3].

وجاء في دعاء أبي حمزة الثمالي:

إذا رأيت مولاي ذنوبي فزعت، وإذا رأيت كرمك طمعت« وفي موضع آخر: «ولك خالص رجائي وخوفي» [4].

وهكذا يتأكد في خلد المسلم خط متوازن هو خط الخوف والرجاء.

كل هذا كان لتركيز الأمل الحقيقي بصورة عامة وكنتيجة.

أمّا في مجال تأثير أسباب الأمل وضوابطها فهذا يحتاج منا لمراجعة عاة سريعة لها، والاطلاع على الشرائط التي يضعها الإسلام لتأثيرها.

وإذا رجعنا إلى منميات الأمل ومقوياته في العقيدة:

من الجنة ونعيمها والرضوان الإلهي وعطائه، وجدنا أنّ القرآن الكريم في نفس الوقت الذي يعرض لنا فيه من ذلك صوراً هي غاية في الروعة، يعرض علينا أيضاً صوراً من العذاب الشديد للعاصين هي غاية في الروع أيضاً، ولا نريد هنا استعراض

---

١ - سفينة البحار: ج ١، ص ٥١٢ كنز العمال ج٣ ص ٧٠٨.

٢ - الوسائل. ج ١١، ص ١٧١.

٣ - الزمر: ٩.

٤ - مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي ، ص ٢٤٥، ص ٣٠٤.

ذلك، بل نشير إلى أنّ عرض صور العذاب إلى جنب عرض صور النعيم لا يقلل من حدة الشوق إلى النعيم بل قد يزيده بتقوية النفور من ضده. ولكنه على أي حال يوجد الوعي بصورة أكمل للزوم الالتزام بمقتضيات تحقيق أمل الفوز بالنعيم، أو فقل يوجد التوازن المطلوب الذي به يتحدد الإنسان بالحدود الواقعية للأمل، ولا يخرج على حدوده، فيعيش في عوالم خيالية مصطنعة قد تتخيل له فتصور له - مثلاً - أنّ رحمة الله تعالى لما كانت هي الأصل في كل موقف فليفعل هو ما يشاء وسوف تشمله تلك الرحمة! أنّ هذا التصور لا ريب يعني القضاء على الاهداف ويؤدى إلى تضييعها ولكن صور العذاب، تكشف له عن الواقع، وإنّ الله تعالى سيعاقب المنحرف أشد العقاب، لأنه لم يلتزم بمقتضيات تحقيق الأمل:

﴿وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ﴾[١].

وفي الرواية عن الحرث بن المغيرة أو أبيه عن أبي عبد الله الصادق(ع) قال:

«قلت له: ما كان في وصية لقمان؟ قال: كان فيها الاعاجيب، وان أعجب ماكان فيها أنّ قال لابنه: خف الله خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك، وأرج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك. ثم قال أبو عبدالله (ع): كان أبي يقول: ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا[٢].

وعن أبي حمزة الثمالي قال: قال الصادق جعفر بن محمد(ع): «أرج الله رجاء لا يجرئك على معصيته، وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته».[٣]

والمفهوم من مجموع الروايات: أنّ هناك تناسباً طردياً بين تعمق الإيمان وتعمق الخوف والرجاء، وقد يخطر بالبال أنّ الرجاء والخوف -كما هو تعبير الرواية -ككفتي ميزان، فكيف يمكن تعميقهما؟ إذ لو زاد هذا نقص ذاك مثلاً؟

---

١ - الحجر: ٥٠.

٢ - الوسائل، ج ١١، ص ١٦٩.

٣ - أمالي الصدوق، ص ٦٥، الوسائل، ج ١٥، ص ٢١٧، الدر المنثور، ج ٥، ص ١٦٥.

ألاّ أنّ هذا الخطور ليس بصحيح بعد الالتفات للنقاط التالية:

النقطة الأولى: أنّ تعمقهما قد يكون المراد منه وضوح المحتمل وجلاله لدى النفس، لا ارتفاع درجة الاحتمال ليأتي ذلك الخطور مثلاً، إذ فرق بين (الرجاء والخوف) الصادرين من شخص عادي ينظر للأمور بسذاجة ويقيسها على حياته (والرجاء والخوف) الصادرين من انسان بعيد النظرة، قربت العوالم المعقولة لديه إلى عالم الحسّ، فأصبح يحسّ بهول النار وروعة الجنّة عياناً، وذلك كما يقول أمير المؤمنين(ع) في وصف المتقين:

«عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنّة كمن قد رأوها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رأوها فهم فيها معذبون... فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنّها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف، أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أنّ زفير جهنّم، وشهيقها في أصول آذانهم» [1].

النقطة الثانية: أنّ من الممكن تصور ارتفاع درجة الاحتمال في كل منهما مع اختلاف في متعلقهما، أي أن يقوم الأمل - مثلاً - في رحمة الله تعالى وعفوه فيأمل الإنسان في ذلك أملاً بعيداً، في حين يتضخم الخوف من سوء العاقبة. وهناك أخبار تتحدّث عن هذا المعنى فعن أمير المؤمنين(ع) قال: أنّ المؤمن لا يصبح إلاّ خائفاً وإن كان محسناً، ولا يمسي إلا خائفاً وإن كان محسناً، لأنّه بين أمرين: بين وقت قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وبين أجل قد اقترب لا يدري ما يصيبه من الهلكات»[2].

وعن أبي عبيدة الحذاء عن الصادق (ع) أنّه قال:

«المؤمن بين مخافتين، ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك...»[3].

وتدعو بعض الروايات إلى التركيز على العاقبة، فإنّ الخوف من سوئها يدفع الإنسان نحو العاقبة الحسنة، وتقوي أمله أكثر فأكثر.

---

١ - نهج البلاغة، فهارس الصالح، ص ٣٠٤.

٢ - الوسائل، ج ٦، ص ١٧٥.

٣ -الوسائل ، ج ٦، ص ١٧٢، الدر المنثور، ج ٣، ص ١٥٠، كنز العمال، ج١، ص ١٦١.

فعن الإمام العسكري(ع) عن آبائه قال: قال الصادق(ع): «إنّ الرجل ليكون بينه وبين الجنّة أكثر مما بين الثري إلى العرش لكثرة ذنوبه، فما هو إلا أن يبكي من خشية الله عزّوجلّ حتى يصير بينه وبينها أقرب من جفنه إي مقلته».(١)

وفي الحديث عن الصادق(ع):

«حسن الظن بالله أنّ لا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا ذنبك».(٢)

النقطة الثالثة: أنّ قوة الخوف والرجاء قد تأتي من ناحية أثرهما في النفس وانعكاسها على السلوك الخارجي.

فالقوي منهما هو الذي يوجه سلوك الإنسان لصالح الهدف.

يقول الصادق(ع): «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو» (٣).

ومن الطبيعي أن يكون لدرجات الإيمان دورها في فاعلية الخوف والرجاء.

فهناك درجات من الإيمان يحتاج المرء معها لأن يتوفر على درجة من الخوف والرجاء حتى يضمن السير المتوازن، وهناك درجات من الإيمان قد يؤمن فيها من الانحراف حتى لو وجد احدهما فقط، فإذا الاثنان كان تحقيق الغاية من ذي قبل.

النقطة الرابعة: أن نرجع إلى ما قلناه في النقطة الأولى، فنعمق الاحساس بالنار والجنّة أكثر، بأن يحس الإنسان باللذائذ المعنوية التي سيحصل عليها - إضافة للذات المادية من الحور والجنان - وأروع ما فيها هو (رضوان الله تعالى) فهو النعيم الأكبر.

كما يحس بالعذاب المعنوي الشديد الذي يتجاوز العذاب المادي، وذلك ما عبر عنه المقطع الرائع من الدعاء: «فهبني يارب صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك».

وعلى أي حال: فالخوف والرجاء إذن متساويان في خلد الإنسان المؤمن ومتكافئان يعملان جنباً إلى جنب في تحقيق الغاية المنشودة.

---

١ - الوسائل، ج١٥، ص ٢٢٦.

٢ - الوسائل، ج ١٥، ص ٢٣٠، كنز العمال، ج ٣، ص ٧٠٤.

٣ - الوسائل، ج ١، ص ١٧.

وإذا انتقلنا إلى الاعتقاد بالنبوة وفروعها والأمامة ومقتضياتها، وجدنا التأكيد الشديد على لزوم الانخراط في صف العاملين والملتزمين بكل تعاليم الشريعة، حتى يمكن تحقيق الأهداف الكبرى التي يرسمها في الذهن ذلك الاعتقاد.

ولا أرى فعلاً داعياً للتفصيل والتعرض إلى الروايات التي تعرف المسلمين حقيقة المسلم، وحقيقة الإنسان الموالي لأهل البيت(ع) الذي له الحق أن يأمل بالفوز فذلك أمر له محله.

في مجال القوانين القرآنية

أما في مجال القوانين القرآنية التي مرت علينا من قبل: فإنّه من الواضح أن كل قانون يتقيد بموضوعه، وما لم يتحقق الموضوع فليس من الصواب أن نتوقع حدوث الحكم. ومن هنا، فإنّ المسلم عليه أنّ يحقق مواضيع تلك القوانين حتى يأمل الحصول على احكامها.

فمثلاً يجب أن يكون على الحق لينسجم مع سر الوجود، ومع العدل ليكون مؤيداً بالقوانين السارية في الكون، مع الإيمان ليتوقع النصر وهكذا.

وأخيراً فإنا استعرضنا بعض القوانين التي يعتقد المسلم بتأثيرها تماماً كما يعتقد بتأثير القوانين الحسية، وهذه القوانين لها قيودها أيضاً، وهي تضمن لها الأداء الصحيح وعدم الانقلاب إلى الضد. وهنا نحن نستعرض بعضها بإيجاز:

الدعاء

وقد جعلت لاستجابته شروط، وعمدتها الاقبال بالقلب، وهو أحد أسرار تشريع الدعاء، فقد قال الصادق(ع):

«من أراد أن ينظر منزلته عند الله فلينظر منزلة الله عنده، فإنّ الله ينزل العبد مثل ما ينزل العبد الله من نفسه»[1]. وقال أمير المؤمنين(ع) «لا يقبل الله دعاء له»[2].

---

١ - الاخلاق ، شبر ، ص ٦٢، البحار ج ٦٨ ص ١٥٦، مستدرك الحاكم ج١ ص ٤٩٤، مسند ابي يعلى ج ٣ ص ٣٩٠، الدر المنثور ج١ ص ١٥٢.

٢ - الكافي، ج٢، ص ٤٧٣، من لايحضره الفقيه، ج٤، ص ٣٦٧، الوسائل، ج٧، ص٥٤، مستدرك الحاكم، ج١، ص٤٩٣، كنز العمال، ج٢، ص٧٢، الدر المنثور، ج١، ص١٩٥.

وعن الصادق(ع) قال:

«احفظ آداب الدعاء، وانظر من تدعو، ولماذا تدعو، وحقق عظمة الله وكبرياءه، وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك، واطلاعه على سرك، وما كمن فيه من الحق والباطل، واعرف طرق نجاتك وهلاكك، كي لا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وأنت تنظر أنّ فيه نجاتك»[١].

وسئل الصادق(ع) بعد أن قرأ: «أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء»: ما لنا ندعو ولا يستجاب لنا؟ فقال: «لأنكم تدعون من لا تعرفونه، وتسألون ما لا تفهمونه»[٢].

نعم إنّ كل هذه الأمور وغيرها توضح مسيرة الداعي، وتجعل مفهوم الدعاء يؤدي دوره الصحيح.

وأما التوبة: فيكفي أن نقول: إنّ التوبة المطلوبة من العبد هي التوبة النصوح، أي التي قامت على أساس تصميم وعزم صحيح على الاقلاع عن الذنب والسير في الطريق المستقيم.

وقد روي أنّ رجلاً قال بحضرة أمير المؤمنين(ع): «استغفر الله» فقال له:

«ثكلتك أمك! أتدري ما الاستغفار»؟

الاستغفار درجة العليين. وهو اسم واقع على ستة معاني: -

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم، حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة ضيعتها تؤدي حقها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان، حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة، كما أذقته حلاوة المعصية.

فعند ذلك تقول: استغفر الله [٣].

---

١ - المصدر السابق، وانظر: مصباح الشريعة، ص ١٣٢، والبحار، ج ٩٠، ص ٣٢٢.

٢ - المصدر السابق، وانظر: توحيد الصدوق، ص ٢٨٨، و مستدرك الوسائل، ج ٥، ص ١٩١.

٣ - نهج البلاغة، حكمة ٤١٧، الوسائل، ج ١٦، ص ٧٧، ونقل صاحب سير اعلام النبلاء، ج ١١، ص ٥٣٥، مثله عن ذي النون.

أمّا مفهوم الشفاعة: وهو الباب الآخر للأمل، فقد صرحت الآيات بأنّها لن تكون إلا لمن ارتضى، فالأهلية شرط أساسي لكي يقع المشفوع له مورداً لشفاعة الشفيع.

وهكذا رأينا الشروط العامة والخاصة كلها تؤكد على أنّ لا ينتقض الغرض من فتح أبواب الأمل، فيعود الأمل غروراً، ومحفزاً للانحراف، بعد أن كان قد اريد له أن يكون الدافع نحو التكامل والهدف التشريعي المنشود.

وهذا الابهام من مستقبل شفاعته - ومثله الابهام في مستقبل توبته - له أثره الكبير في منع تحول الشفاعة والتوبة والدعاء وغيرها من أبواب الأمل إلى مبررات للانحراف... ومن هنا فهي تؤدي دورها الإجابي، وتمنع ضوابطها والابهام في مواردها من الاستغلال.

ولا يفوتنا هنا التنبيه إلى نقطة تتفرع على لزوم اهلية المستشفع للشفاعة، وهي: مسألة لزوم أن تتأطر أماني المستشفع بصيغة الشفيع وأهدافه، وهذا يضمن لنا بالتالي صحة المسار المختار وواقعية الأهداف وانسجامها مع أهداف الشفيع نفسه.

استعراض وربط

بمراجعة فاحصة لما سبق عرضه من العقائد الاسلامية، والقوانين التي يصبها الإسلام في ذهنية الإنسان المسلم، تتوضح لنا معالم الموقف، وروافد الأمل الكبرى في تلك الذهنية، والتي كان المفروض فيها أن تتحول إلى إيجابية واقعية نحو إقامة المجتمع الوسط، ومواصلة المسيرة الخيرة إلى الغاية الخيرة.

أنّنا سندرك بهذه المراجعة: أنّ الإسلام يتخلص من نقطة الضعف الكبرى التي شلت المبادئ الوضعة عن العمل في صنع التاريخ، وعن اشباع الطموح الانساني الوثاب الذي يعتبر وقود على طول الخط، وتلك النقطة هي: (التحديد المادي).

فعلى العكس من ذلك نجد أنّ الإسلام يربط الطموح بغاية ما يمكن أن يطمع إليه الإنسان وهل هناك غاية أروع من الخلود الواقعي في درجة هي غاية من السعادة في جنّة، هي غاية في الاشباع النفسي والجسمي «فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين» و«رضوان من الله أكبر»... وهنا يمكن أن نستعرض مختلف أنواع الملذات الاخروية

التي يعرضها القرآن الكريم، بل يستعرض بعضها، لأنّ فيها «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت».

وإذا ثبت كل ذلك كانت كل تلك التضحيات الغالية منطقية جداً، ومنسجمة جداً مع أسسها وأهدافها البعيدة...

.... ولنا بعد ذلك أنّ نستعرض نقاط الضعف السابقة، والتي لازمت المبادئ الوضعية، فنجد أنّها تتحول إلى نقاط قوة عند المبادئ الإلهية التي يتوجها الاسلام، لاحتوائه على كل حسناتها وزيادة.

وقد سبق أنّ المبادئ الوضعية لا تمتلك إلاّ أهدافا محددة، وبنظرة - ولو سريعة - إلى العقيدة الإسلامية والاهداف التي يحددها القرآن للانسان في الدنيا والآخرة يمكننا أنّ نجد البون الشاسع بين الأهداف، فإنً المسلم يعتقد: أنّ الوحي استهدف دنيوياً: أن يسلك بالبشرية صعداً نحو تحقيق مجتمع العدل والسعادة، حيث تملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً وسنتحدث في الخاتمة عن دور انتظار ذلك اليوم في الدفع نحو العمل.

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف بشكل طبيعي واقعي، تسعى الهداية الإلهية لمسايرة المسيرة البشرية وبعث أنوار الحق كلما خبت مركزة العقيدة شيئاً فشيئاً، وبشكل يتناسب مع كل مرحلة من مراحل عمر الإنسان... فلا عجلة في الطريق... ولا يأس من الوصول.

وهكذا يعتقد المسلم على ضوء تعاليم القرآن الكريم... أنّ العالم سيصل إلى دنيا المتقين.. في مسيرته الطويلة فكل النبوات تعتبر في نظره خطوات على الطريق نحو اليوم الموعود... غاية الأمر أنّ هذه الخطوات تمر بمنعطفات تاريخية، كما في الأنبياء أولي العزم.

والمسلم عندما يعتقد ذلك يمتلك المبررات التي تجعله ينتظر هذا اليوم بمزيد من الشوق... فإنّه يستمد حتمية مجيء هذا اليوم من أمور كثيرة وأهمها:

وعد الله تعالى به... وهو تعالى عالم بكل أسرار الكون، لأنه خالقه وبارئه، والمحيط بكل ما يمر به المجتمع الانساني كجزء من احاطته بالكون - من عقبات وانتصارات...

فهو عندما يخبر عن ذلك فإنّه لا شك حاصل... ولن يقلل من الإيمان بوجوده ما يشاهده من طغيان الظلم والانحراف.. فإنّ المسلم يعتقد بأنّ الحق سينتصر ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض﴾ وان العاقبة للمتقين... وأن الباطل جولة وللحق دولة... وان الله سينصر رسله... وأنّ حب الله تعالى له سيكون واسطة إلى بلوغه الهدف الأسنى في الأرض... وأنّه إذ يعمل على نصرة الحق فإنّه يهيء الأرضية الملائمة لعمل القوانين الكونية العامة التي تقوم بالحق.. وهكذا.. فإنّ العدل هو الذي سينتصر في النهاية الحتمية.

كما أنّه من الأمور التي تركز إيمانه بحتمية اليوم الموعود نفس اعتقاده بأنّ الدين فطري، وأنّ كل الانحرافات إنّما تعتبر غشاوات على الفطرة ومن هنا فلا يجد أي مانع من زوال هذه الغشاوات بعد توفيق من الله تعالى وعمل جاد من الوعاة الحاملين للواء العقيدة.

ومما يزيد المسلم اصراراً على اعتقاده... ويقوي فيه أمله... وخصوصاً في مثل هذه العصور، ماهو الواقع ن مرور العالم بتجاربه الكثيرة مع المبادئ الوضعية.. وملاقاة الأمرين من ذلك... فقد أكد الكثيرون من المفكرين زيف ما تدعيه هذه المذاهب من خيالات مسرفة لا واقع وراءها... وبالخصوص ما لاقاه العالم من المبدأين المتصارعين الكبيرين: الاشتراكية والرأسمالية... مما جعله يؤمن بافلاس الحضارة المادية ويتجه - بكل خجل وشوق - نحو الحياة التي تجمع بين الاشباعين المادي والروحي... ولن يجد أمامه - وهو في هذا الاتجاه - إلاّ الاسلام، والاسلام وحده كبديل لهذه الحضارات الخاوية الباطن البراقة الظاهر، والتي حولت الإنسان إلى آلة في تفكيره وتصرفاته كلها ففقد معها اصالته الانسانية وسيأتي الحديث عن هذا المجال.

وهذا الأمل لن يوضع في اطاره الحقيقي إلاّ إذا انظم إليه الاعتقاد بأنّ الانسانية (كل مترابط) وأنّ كل سلوك يسلكه أي فرد له تأثيره - وإنّ كان ضئيلاً - في المستقبل... مما يستتبع أن تقوم البشرية في كل عصر بالثناء والشكر لصالح كل انسان عمل على أن يدفع بالركب إلى الإمام، وأن يحقق الانفتاح على واقع أفضل لها.

وهذا الثناء والشكر لن يكون له أي مؤدى وأي فائدة إلا إذا انظم إليه الاعتقاد

بوصوله على هيئة درجات ترفع ومقام يعلو... وحسنات تضاف إلى ذلك الإنسان الذي قد يكون توفى منذ عشرات القرون... وهذا بدوره لن يكون إلا بالاعتقاد بالآخرة والحياة الخالدة.

والمسلم هو الذي يعتقد بكل هذه الأطر تماماً. إذ الإسلام يجعل المؤمنين - قبل كل شيء - رتلاً واحداً له مسيرة واحدة، ومستقبل واحد، ويرى أنّ أي عمل يمكن أن يؤديه سابق يوجب على اللاحقين أن يقوموا بازائه بإداء حقه من الشكر، فضلاً عن حمل رسالته ودفعها للإمام... وهذا الشكر يتمثل في دعاء المؤمنين لمن سبقوهم بعلو الدرجات.

وأروع صورة لهذا الدعاء: الصلوات التي يرسلها المؤمن المسلم في صلواته اليومية وغيرها إلى محمد(ص) وأهل بيته(ع) باعتبارهم ارفع مثل للعمل الجاد الواعي المضحي في سبيل مستقبل الانسانية... وما أروع أن يقوم المسلمون بشكر قادتهم، والدعاء لهم، والطلب من الله تعالى ان يغمرهم بالصلوات والخيرات على مر العصور.

ومن هنا يدعو المسلم لاخوانه الذين سبقوه بالإيمان ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [1].

وجميل أن نجد المسلم في نهاية كل صلاة يسلم على عباد الله الصالحين، من سبقوا ومن هم في هذا العصر ومن لم يولدوا بعد.

ومن هذا القبيل ما يكاد أن يصبح من المسلمات لدى المسلمين أنّه «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[2]. فهذا المضمون وارد في أحاديث عديدة.

منها ما عن الصادق(ع): «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته، فهي تجري بعد موته، وسنة هدى سنها فهي يعمل بها بعد موته، وولد صالح يستغفر له» [3].

---

١ - الحشر: ١٠.

٢ - راجع: ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٥٦٦، (من سنّ سنة)، مسند احمد، ج ٤، ص ٣٥٧، سنن الدارمي، ج١، ص١٣٠ وصحيح مسلم، ج٣، ص ٨٧، وسنن ابن ماجه، ج١، ص ٧٤.

٣ - راجع: ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٥٦٦.

وعن أبي جعفر(ع) قال: «أيّما عبد من عباد الله سن سنة هدى كان لـه أجـر مثـل أجـر من عمل بذلك، من غير أن ينقص من أجرهم شيء، وإيَّمـا عبـد مـن عبـاد الله سـن سـنة ضلالة كان عليه مثل وزر من فعل ذلك من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1].

وهكذا يتجاوز فاعل الخير المسلم حدود حياته وهو وحـتى حـدود مـا يمكـن أن تكون حياته قد قدمت له من ثواب في الآخرة، إلى حيث يتصور التسلـسل اللانهـائي تقريباً للخيرات التي سيغرس بذرتها... فهـو علـى لـسان مـن يـأتون بعـده: دعـاء بالخيرات والخير، وله من كل ما يعملون أجره الذي ينتظره... في حـين ينقلـب هـذا الأمر بالنسبة للمسلم الذي يريد أن يقدم على عمـل الـسوء، فإنـه سيتـصور لعنـات الأجيال الآتية، والمآثم الكبرى التي ستلاحقه بعد موته فتتضاعف عليـه بمقتـضى هـذا القانون المعنوي القائم كسنة كونية عامة.

فالمؤمن - إذن - تصله خيرات السابقين واللاحقين، ويوم القيامة بعد لم يقم... إذ هو يمر بعالم متوسط أطلق عليه اسم «البرزخ».

هذا كله في إطار الهدف الذي يمكن أن تجنيه الانسانية بوجودهـا الممتـد في الحيـاة الدنيا، وإن كانت بعض الأطر تتجاوزها إلى الآخرة لتوجد الربط بين الأعمال الـسابقة واللاحقة. وكل هذا - لعمري - يكفي في أن يشكل دافعـاً قويـاً ومـبرراً صـالحاً لمـا يحتاجه أي مبدأ من تضحيات وجهود كبرى.

ولكن كل هذا... يعتبر لا شيء إذا قيس لما يعتقده المسلم من ما سيكون في عـالم الآخرة من جزاء عظيم - إن سلباً أو إيجاباً.

وهكذا....

... يقوم المسلم بالعمل لصالحه هو ولصالح مجتمعه، ويعيش حيـاة اخلاقيـة عاليـة تتجلى فيها الانسانية بأجلى مظاهرها . ويطبق باقي أجزاء النظام البناء الدقيق، والذي روعيت فيه العدالة بدقة وتوازن... بعد أن يعتقد بما تمليه عليه فطرتـه... وبمـا ينقـذه من عالم الضياع والقلق.

وما أنّ يقوم بهذا، أو يعمل على الوصول إليه حـتى يكـون مـؤهلاً لخـيرات عـالم الآخرة الفسيح.

---

١ - المصدر السابق، الكليني، ج ٧، ص ٥٦، الترمذي، ج٢ ،ص ٤١٨، المغني، ج٦، ص ١٨٥، المجمـوع للنـووي، ج١، ص ١٩، صحيح ابن حبان، ج ٧، ص ٢٨٦.

وهذه الخيرات الموعودة تتزايد وتتضاعف كلما صدر من المسلم عمل خير في هذا السبيل فكل الأعمال التي تعتبر في الحساب المادي خسارة ما بعدها خسارة تتحول هنا إلى ربح ما بعده ربح.

وعندها، تهون كل الشدائد والمصائب وتذوي كل العقبات الطارئة المؤقتة... بعد أن تتعلق روح المسلم بعالم الخلود الموعود.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (١).

أنّ الآخرة لتملك على الإنسان لبه... فتجعله يتعشق ما يهيئ فيها أكبر أسباب الراحة... ويتنافس في فعل الخيرات.

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (٢).

وإنّها لتقلب المفاهيم المادية القائمة على المصلحة واللذة، والمال والغنى، والفقر. حتى أنّ الفقراء جاؤوا إلى النبي(ص) يشكون من فقرهم لا لشيء إلا لأنهم لا يستطيعون الانفاق في سبيل الله تعالى.

وأخيراً: فمن خلال هذا العرض الرابط السريع نستطيع أن نقول:

إنّ الخلود الاخروي في ذهن المسلم يختلف كثيراً عن الخلود الذي تنادي به الشعارات الوضعية - بل لاربط له به - إذ ذلك الخلود خلود الشعارات البراقة، والخيال الجنح، والسراب الكاذب لا غير، بينما يستمد الخلود الأخروي ضماناته من قدرة الله تعالى ووعوده للمؤمنين.

---

١ - التوبة: ١٢٠-١٢١.

٢ - المطففين: ٢٦.

أهم المصادر

الاختصاص / الشيخ المفيد / تحقيق علي اكبر الغفاري، السيد محمود الزرندي / ط٢/ ١٤١٤ ـ ١٩٩٣ م/ نشر دارالمفيد للطباعة والنشر والتوزيع/ بيروت/ لبنان.

الاخلاق / عبدالله شبر/ منشورات بصيرتي / قم ـ ايران.

اسد الغابة/ ابن الاثير/ نشر دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان.

اعجاز القرآن / الباقلاني/ تحقيق : الشيد احمد صقر /ط ٣ / نشر: دار المعارف ـ مصر.

اقبال الاعمال / السيد ابن طاووس/ تحقيق: جواد القيومي الاصفهاني/ط١ ـ رجب ١٤١٤ هـ /مطبعة ونشر مكتب الاعلام الاسلامي.

اقتصادنا / السيد محمد باقر الصدر (قد) / تحقيق مكتب الاعلام الاسلامي فرع خراسان /ط٢/ ١٤٢٥ ـ ١٣٨٣ ش / مطبعة مكتب الاعلام الاسلامي/ مؤسسة بوستان كتاب قم (مركز النشر التابع لمكتب الاعلام الاسلامي).

الاقناع/ شرف الدين الحجاوي/ تصحيح وتعليق عبداللطيف محمد موسى السبكي/ المطبعة المصرية/ الازهر.

الأمالي / الشيخ المفيد / تحقيق: حسين الاستاذ ولي و علي اكبر الغفاري / ط٢ ـ ١٤١٤ ـ ١٩٩٣ م/ نشر دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

الأمالي / الشيخ المفيد/ تحقيق حسين الاستاذ ولي، علي اكبر الغفاري/ ط٢/ ١٤١٤ ـ ١٩٩٣م/ دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

الأمالي/ الحسن بن علي الطوسي/ تحقيق: قسم الدراسات الاسلامية/ مؤسسة البعثة / ط١ ـ ١٤١٤/ نشر دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ـ قم.

الأمالي/ الشيخ الصدوق/ ط١/ ١٤١٧/ مؤسسة بعثت.

أنساب الاشراف / البلاذري / تحقيق وتعليق: الشيخ محمد باقر المحمودي/ ط ١/ ١٣٩٤ ـ ١٩٧٤ م/ مؤسسةالاعلمي للمطبوعات ـ بيروت لبنان.

بحار الانوار / محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء/ بيروت، ط٢ ـ ١٤٠٣.

بحار الانوار/ العلامة المجلسي/ط٣/ ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ م/ نشر مؤسسة الوفاء ـ بيروت ـ لبنان.

البداية والنهاية / ابن كثير / تحقيق وتدقيق: علي شيري /ط١/ ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨ م/ دار احياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان.

البداية والنهاية/ اسماعيل بن عمر بن ضوء بن كثير / تحقيق وتدقيق وتعليق: علي شيري / ط١ ـ ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨ م/ نشر: دار احياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان.

تاريخ بغداد / الخطيب البغدادي / دراسة وتحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا/ ط ١ /١٤١٧ - ١٩٩٧ م / دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

تاريخ خليفة بن خياط/ خليفة بن خياط العصفري/ تحقيق الدكتور سهيل زكار/ ١٤١٤/ دار الفكر/ بيروت.

تاريخ مدينة دمشق/ علي بن عساكر/ تحقيق علي شيري /١٤١٥ / طبع و نشر دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.

تحف العقول/ ابن شعبة الحراني/ مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجامعة المدرسين بقم المشرفة، ط ٢، ١٤٠٤ - ١٣٦٣ ش.

تذكرة الموضوعات / محمد طاهر الفتني.

الترمذي السنن

التشريع الجنائي في الاسلام / عبدالقادر عودة/ مكتبة دار التراث - القاهرة.

تفسير ابن كثير / اسماعيل بن عمر بن ضوء بن كثير/ تحقيق وتقديم : يوسف عبدالرحمن المرعشلي ١٤١٢ - ١٩٩٢ م/ نشر دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.

تفسير الثوري/ سفيان الثوري/ تحقيق: لجنة من العلماء / ط ١ - ١٤٠٣/ طبع دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

تفسير القرطبي/ القرطبي/ تصحيح: احمد عبد العليم البردوني/ دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

تهذيب الاحكام / الشيخ الطوسي / تحقيق وتعليق السيد حسن الموسوي الخرسان/ مطبعة خورشيد / ط ٤/ ١٣٦٥ ش / دار الكتب الاسلامية - طهران.

تهذيب الاحكام/ الشيخ الطوسي/ تحقيق السيد حسن الخراساني/ مطبعة خورشيد/ دار الكتب الاسلامية/ ط ٤ / ١٣٦٣ ش.

تهذيب الاحكام/ الشيخ الطوسي/ تصحيح وتعليق علي اكبر الغفاري/ مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين.

التوحيد/ الشيخ الصدوق/ تحقيق السيد هاشم الحسيني/ ١٣٨٧، جامعة المدرسين - قم.

ثواب الاعمال / علي بن بابوية الصدوق/ تحقيق/ تقديم: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان/ مطبعة امير - قم/ ط ٢ / ١٢٦٨ ش/ منشورات الشريف الرضي - قم.

جامع البيان / ابن جرير الطبري/ تحقيق و تقديم : الشيخ خليل الميس/ ضبط و توثيق و تخريج: صدقي جميل العطار/ ١٤١٥ - ١٩٩٥ م/ نشر دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.

جامع البيان/ محمد بن جريري الطبري/ ١٤١٥/ دار الفكر/ بيروت.

الجامع الصغير / جلال الدين السيوطي/ دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - ط ٢ - ١٤٠١ - ١٩٨١ م.

الجامع الصغير / جلال الدين السيوطي / ط ١/ ١٤٠١ ـ ١٩٨١ م/ نشر دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت.

حول الدستور الاسلامي / محمد علي التسخيري، ط ١ ـ ١٤٢١، مؤسسة الهدى ـ طهران.

الخصال/ الشيخ الصدوق/ تحقيق و تصحيح وتعليق علي اكبر الغفاري / ١٨ ذي العقدة ١٤٠٣ ـ ١٣٦٢ ش / منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.

الدر المنثور/ جلال الدين السيوطي/ نشر دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان.

ديناميكية العولمة ـ نحو صياغة عملية ـ قرارات استراتيجية.

ديناميكية العولمة، جيمس روزناو/ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة (الاهرام) ١٩٩٧.

ذكر اخبار اصبهان/ الحافظ الاصبهاني/ ١٩٣٤ م / مطبعة بريل ـ ليدن المحروسة.

الزهد وصفة الزاهين/ احمد بن محمد بن زياد / تحقيق مجدي فتحي السيد / ط ١/ ١٤٠٨ / نشر دار الصحابة للتراث ـ طنطا.

السنة/ عمرو بن ابي عاصم الضحاك/ تحقيق محمد ناصر الدين الالباني ط ٣ ـ ١٤١٣/ سيد الشهداء/ قم.

سنن ابن ماجة/ محمد بن يزيد القزويني/ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي/ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

سنن ابي داود/ ابن الاشعث السجستاني/ تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام/ط ١/ ١٤١٠ ـ ١٩٩٠ م/ نشر دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

سنن الترمذي/ محمد بن عيسى الترمذي/ تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف/ دارالفكر/ بيروت/ ١٤٠٣ هـ.

سنن الدارمي/ عبدالله بن بهرام الدارمي/ مطبعة الاعتدال/ دمشق.

السنن الكبرى/ البيهقي/ دار الفكر.

سير اعلام النبلاء / الذهبي / تحقيق و إشراف وتخريج و شعيب الأرنؤوط وحسين الاسد / ط ٩ ـ ١٤١٣ ـ ١٩٩٣ م/ نشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان.

السيرة النبوية / ابن هشام الحميري / تحقيق وضبط وتعليق: محمد محيي الدين عبدالحميد / ١٣٨٣ ـ ١٩٦٣ م/ مطبعة المدني ـ القاهرة/ نشر مكتبة محمد علي صبحي واولاده ـ مصر.

شرح الجامعة/

شرح غرب القرآن/

شرح مسلم، النووي/ دار الكتاب العربي / بيروت ـ لبنان.

صحيح البخاري/ محمد تقي المجلسي/ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع/ ١٤٠١ ـ ١٩٢٧ م.

صحيح بن حبان /تحقيق شعيب الارنؤوط/ط ٢ ١٤١٤ ـ ١٩٩٣م/ مؤسسة الرسالة.

صحيح مسلم / مسلم النيسابوري / دار الفكر / بيروت ـ لبنان.

الصحيفة السجادية / الإمام زين العابدين / تحقيق: السيد محمد باقر الموحد الابطحي الاصفهاني / مطبعة نمونه ـ قم /ط ١ / ٢٥ محرم الحرام ١٤١١ هـ / مؤسسة الامام المهدي(ع) مؤسسة الانصاريان للطباعة والنشر ـ قم ـ ايران.

علل الشرائع / الشيخ الصدوق / تقديم السيد محمد صادق بحر العلوم / ١٣٨٥ ـ ١٩٩٦م / نشر منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها ـ النجف الاشرف.

عيون اخبار الرضا(ع) / الشيخ الصدوق / تصحيح و تعليق وتقديم الشيخ حسن الاعلمي / ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤ م / مطبعة مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ـ لبنان.

الغدير / الشيخ الاميني / ط ٤ / ١٢٩٧ ـ ١٩٧٧م / نشر دارالكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان.

الفتاوى الواضحة / السيد محمد باقر الصدر / مطبعة الآداب ـ النجف الاشرف.

فتح الباري / ابن حجر / طبع ونشر دار المعرفة للطباعة والنشر / بيروت / لبنان / ط ٢.

الفصول المهمة الحر العاملي / تحقيق واشراف: محمد بن محمد الحسين القائيني / ط ١ ـ ١٤١٨ ـ ١٣٧٦ ش / مطبعة نگين ـ قم / نشر مؤسسة معارف اسلامي امام رضا(ع).

فيض القدير في شرح الجامع الصغير / المناوي / تصحيح أحمد عبدالسلام /ط ١ ـ ١٤١٥ ـ ١٩٤٤ م / نشر دارالكتب العلمية ـ بيروت.

الكافي / محمد بن اسحاق بن يعقوب الكليني / تصحيح وتعليق علي اكبر الغفاري / ط ٥ ـ ١٣٦٣ ش / مطبعة حيدري / دار الكتب الاسلامية ـ طهران.

كتاب الدعاء / الطبراني / تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا / ط ١ / ١٤١٣ هـ /دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

كشف الخفاء / العجلوني / ط ٣/ ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨م / نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت.

كشف الغطاء / جعفر كاشف الغطاء / انتشارات مهدوي ـ اصفهان.

كلمات الامام الحسين(ع) الشيخ الشريفي، ط ٢ /٣٩٣، دار المعروف ـ قم.

الكلمات القصار

كنز العمال / المتقي الهندي / ضبط وتفسير الشيخ بكري حياني / تصحيح و فهرسة الشيخ صفوة السقا / ١٤٠٩ ـ ١٩٨٩ م / نشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان.

لسان الميزان / ابن حجر / الطبعة الثانية / ١٣٩٠ ـ ١٩٧١ م / مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان.

ما يقال عن الاسلام / عباس محمود العقاد / مطبعةا لمدني ـ القاهرة.

المبسوط / محمد السرخسي / ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦ / نشر دارالمعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

المجازات النبوية / الشريف الرضي / تحقيق وشرح :طه محمد الزيني / منشورات مكتبة بصيرتي ـ قم.

مجلة النهج / عدد ٥٠ ربيع ١٩٨٨م.

مجلة الهادي / العدد ٣١/ ص ٣١ السنة الخامسة.

مجلة الهادي / العدد الاول ـ السنة الثانية.

مجلة الوحدة/ عدد ١٦.

مجلةالعربي / العدد ١٦٧، سنة ١٩٧٢.

مجمع البحرين/ الشيخ الطريحي / ط٢/ ١٤٠٨ ـ ١٣٦٧ ش/ نشر مكتب النشر الثقافة الاسلامية.

مجمع الزوائد/ علي بن ابي بكر بن سليمان الهيثمي / ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨م/ نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

المحاسن / احمد بن محمد بن خالد البرقي / تصحيح وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني (المحدث)/ ١٣٧٠ ـ ١٣٠٣ ش / نشر: دار الكتب الاسلامية ـ طهران.

المدرسة الاسلامية/ السيد محمد باقر الصدر / ط١/ ١٤٢١ هـ / طبع مؤسسة الهدى الدولية للنشر والتوزيع/ مركز الابحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر (قدس سره).

المستدرك / الحاكم النيسابوري/ اشراف: يوسف عبدالرحمن المرعشي

مستدرك الوسائل/ الميرزا النوري/ مؤسسة آل البيت(ع) لاحياء التراث/ ١٤٠٨ ١٩٨٨م/ بيروت ـ لبنان.

مسند احمد/ احمد بن حنبل / دار صادر/ بيروت ـ لبنان.

مسند الرضا/ داود بن سليمان الغازي/ تحقيق محمد جواد الحسيني الجلالي/ ط١/ ١٤١٨ مطبعة مكتب الاعلام الاسلامي/ مركز النشر التابع لمكتب الاعلام الاسلامي.

مسند الشاميين/ سليمان بن احمد الطبراني/ تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي/ مؤسسة الرسالة/ بيروت/ ط٢/ ١٤١٧ هـ

مسند الشهاب/ ابن سلامة / تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي / ط ١/ ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥ م/ نشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

مشكاة الانوار / احمد بن علي الطبرسي/ تحقيق مهدي هوشمند / ط١ ـ ١٤١٨ هـ / مطبعة دار الحديث.

مصباح الشريعة / المنسوب للإمام الصادق(ع) / ط ١ ـ ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠ م/ مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان.

المصنف/ عبدالرزاق الضعاني/ عنى بتحقيق نصوصه وتخريج احاديثه والتعليق عليه الشيخ المحدث حبيب الرحمن الاعظمي.

معاني الاخبار / الصدوق / تحقيق وتصحيح وتعليق علي اكبر الغفاري/ ١٣٧٩ ـ ١٣٣٨ ش/ مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين/ قم المشرفة.

المعجم الاوسط / الطبراني/ تحقيق قسم التحقيق بدار الحرمين / ١٤١٥ ـ ١٩٩٥م / نشر دارالحرمين للطباعة والنشر والتوزيع.

المعجم الكبير/ الطبراني / تحقيق وتخريج حمدي عبدالمجيد السلفي/ ط ٢ / نشر دار احياء التراث العربي.

المعيار والموازنة / ابو جعفر الاسكافي/ تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي / ط ١ ـ ١٤٠٢ ـ ١٩٨١ م.

مغني المحتاج/ محمد بن احمد الشربيني/ ١٣٧٧ ـ ١٩٥٨ م/ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان.

المغني/ عبدالله بن قدامة/ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

مفاتيح الجنان/

المفردات/ الراغب الاصفهاني/ تحقيق صفوان عدنان داوودي/ دار القلم ـ دمشق. ط ١ ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م. الدار الشامية ـ بيروت.

مكارم الاخلاق / الحسن الطبرسي/ ط ٦ /١٣٩٢ ـ ١٩٧٢ م/ نشر منشورات الشريف الرضي

من لا يحضره الفقيه/ الشيخ الصدوق/ تحقيق علي اكبرالغفاري/ جامعة المدرسين ط٢/١٤٠٤هـ

منهج التربية الاسلامية/

منية المريد / الشهيد الثاني / ط ١ ـ ١٤٠٩ ـ ١٣٦٨ ش / طبع مكتب الاعلام الاسلامي / نشر مكتب الاعلام الاسلامي.

موجز احكام الحج/

ميزان الحكمة/ محمد الري شهري/ تحقيق دار الحديث وانتشارات دار الحديث/ ط ١.

ميزان الحكمة/ محمد الري شهري/ تحقيق و طبع و نشر دار الحديث.

نهج البلاغة/ الامام علي بن أبي طالب(ع)/شرح الشيخ محمد عبده / مطبعة النهضة ـ قم/ ط ١ / ١٤١٢ ـ ١٣٧٠ ش/ دار الذخائر ـ قم ـ ايران.

نهج البلاغة/ الشريف الرضي - ضبط نصه وابتكر فهارسة العلمية الدكتور صبحي الصالح ط ٥ - ١٤١٢، نشر منشورات دار الهجرة ـ ايران قم.

نهج السعادة/ الشيخ المحمودي/ مؤسسة التضامن الفكري/ بيروت/ مطبعة النعمان/ النجف الاشرف/ ط ١.

الهم والحزن / ابن ابي الدنيا/ مجدي فتحي السيد / ط ١ /١٤١٢ ـ ١٩٩١م/ نشر دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.

وسائل الشيعة/ الحر العاملي/ تحقيق مؤسسة آل البيت(ع) لاحياء التراث بقم المشرفة.